

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى سُورَةِ يُوسُفَ

تَأْلِيْفُ
السَّيِّحِ مُحَمَّدِ بْنِ قِرَاءَتٍ

المجلد الثالث

دار المؤرخ العربي

بيروت



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانهم
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى سُورَةِ يُوسُفَ

تَأْلِيْفُ
السَّيِّخِ مُحَمَّدِ بْنِ قِرَاعَةَ

مَرْجِعَةُ الْمَرْجِعَةِ
مُحَمَّدُ حَسَنُ زُرَّاقُطْ

مَرْجِعَةُ
حَسَنِ بْنِ مَكْنَفِي

المجلد الثالث

دار المورخ العربي
بيروت - لبنان

حُقوقُ الصَّلبِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المورخ العربي



بيروت - حارة حريت - قرب جامعين المحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص ب: ١٢٤ / ٩٤

البريد الإلكتروني: al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com



سُورَةُ الْأَعْرَافِ

السورة: ٧ الجزء: ٨ - ٩

عدد الآيات: ٢٠٦



ملامح سورة الأعراف

هذه السورة من السور المكية، آياتها ست ومائتان، سميت بهذا الاسم لسردها قصّة أصحاب الأعراف في الآيات ٤٦ - ٤٨.

هي ثالث سورة تستفتح بالحروف المقطعة، وأول سور السجود في القرآن، فقد اختتمت بآية تتضمّن سجدة مندوبة.

من مجموع عدد سور القرآن الكريم التي تبلغ ١١٤ سورة، نزلت ٨٦ سورة في مكة، والسور المكية - في الغالب - تتناول موضوعات أصول العقائد، ومحاربة الشرك، والعناية بمنزلة الإنسان، ودعم موقعه في عالم الخلق... إلخ.

بدورها، تتناول هذه السورة قصة النبي آدم ﷺ مع إبليس، وقصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ، كما تبين أصول ومبادئ دعوة النبي الأكرم ﷺ، وتشرح مشاهد يوم القيامة والتوبة وإصلاح النفس، كما تتطرق لموضوع العرش والميزان وعالم الذرّ وميثاق الله تعالى مع الإنسان، وتحدث كذلك عن عظمة القرآن الكريم ثم تشير إلى أصحاب الأعراف.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبُ أُزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِنُذِرٍ بِهِ. وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

إشارات:

□ يبلغ عدد سور القرآن الكريم التي تستفتح بالحروف المقطعة ٢٩ سورة، منها ما يستهلّ بـ «الم» وأخرى بالحرف «ص»... وهكذا، أما هذه السورة فهي تبدأ بالحروف «المص» وربما كان ذلك تعبيراً عن أنّ هذه السورة تتوافر على ما هو موجود في السور الأخرى مجتمعة^(١).

التعاليم:

- ١ - القرآن كتاب عظيم، (لاحظ أنّ كلمة ﴿كَتَبُ﴾ جاءت في صيغة التنكير).
- ٢ - العناية بالقرآن الكريم وسبر مفاهيمه السامية تجلب للإنسان سعة الصدر وتجلي عنه الحرج والضيق، ﴿كَتَبُ... فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.
- ٣ - الرسالة والدعوة رهنٌ برحابة الصدر وانسراحه، ﴿أُزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنُذِرٍ بِهِ﴾.
- ٤ - لا تبتس من لجاج الكفار وعنادهم، فمسؤوليتك هي إنذارهم لا إكراههم، ﴿لِنُذِرٍ بِهِ﴾.
- كان النبي الأكرم ﷺ يشعر بالضيق والحزن تجاه قومه لأنهم لا يؤمنون بالدعوة ويكذبون بالقرآن، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليعزّي بها رسوله الأمين ويشدّ من أزره.
- ٥ - نُذِرُ الأنبياء موجهة إلى كلّ الناس، ولكن وحدهم المؤمنون الذين يستوعبون الدرس فيرعون، ﴿لِنُذِرٍ بِهِ. وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾

إشارات:

□ بيّنت الآية السابقة مسؤولية النبي الأكرم ﷺ في توجيه الإنذار والتحذير من عواقب عدم الإيمان، فيما توضّح هذه الآية مسؤولية الأئمة في وجوب الطاعة والانصياع لتلك التحذيرات. تلك الآية طالبت النبي ﷺ أن يكون صدره واسعاً رحباً، وهذه الآية تطالب الأئمة بالانقياد لندُر نبيّها. إذن، خطاب الآية السابقة موجّه إلى النبي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وخطاب هذه الآية موجّه إلى الأئمة ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

□ ورد عن النبي الأعظم ﷺ قوله: «فإذا التّبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن... مَنْ جعله أمامه قاده إلى الجنة وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ ساقه إلى النار»^(١). وفي السياق نفسه، يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ففي اتباع ماجاءكم من الله الفوز العظيم وفي تركه الخطأ المبين»^(٢).

التعاليم:

- ١ - اتباع آيات الله، مدعاة لكمال الإنسانية ورشادها، ﴿اتَّبِعُوا... رَبِّكُمْ﴾.
- ٢ - من مستلزمات الربوبية والتربية الإلهية، نزول الأحكام، والإرشادات، والندُر، ﴿مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٣ - عاقبة اتباع الإنسان أوامر الوحي هي دخوله حصن الولاية الإلهية، وفي تركها خضوع لولاية البشر، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٤ - لا ريب في أنّ بذل الطاعة للآخرين والانقياد لهم، هو بمثابة القبول بولايتهم. تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فهو ﷻ لم يقل: «لا تتبعوا من دوني أحداً».

(١) تفسير «الانبي عشري».

(٢) تفسير نور الثقلين.

٥ - من لم يرتض لنفسه ولاية الله الواحد الأحد، ﴿زَيَّكُرُ﴾ فسوف يضطر إلى إرضاء أولياء عدّة، ﴿أُولِيَاءُ﴾.

٦ - نادراً ما يتعظ الإنسان، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ «القرية» هنا تعني موضع اجتماع الناس أو أي منطقة أهلة، مدينة كانت أو رستاقاً.

□ «بيات» عند الليل، و«قائلون» من «القبيلولة»، وهي نوم نصف النهار أو الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم، ومنها «الإقالة» والتي تعني الفسخ، وتقابل البيعين، تفاسخا صفقتهما ذلك أن المشتري يرتاح من مشكلات الصفقة.

□ لكلّ ظالم يوم يواجه فيه عذاب الله وسخطه، فيعترف حينئذ بما اقترفته يداه، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولكن لات ساعة مندم؛ إذ لن يكون لاعترافه أثر. كما نقرأ في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّ يَكْ بَنَفْعُهُمْ يُعْنِيهِمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - كثيرة هي البلاد التي هلكت بعذاب الله وبأسه، ﴿وَكَمْ﴾.
- ٢ - فلتتعظ من التجارب المريرة التي مرّ بها غيرنا، ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.
- ٣ - يصف القرآن الكريم هلاك القرى بدلاً من هلاك البشر، بأنه إمعان منه في تصوير هول العذاب، ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

- ٤ - وقوع العذاب الإلهي لا يقتصر على يوم القيامة فقط؛ إذ ليس بمستبعد أن نشاهد أمثلة له في هذه الدنيا أيضاً، ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.
- ٥ - من يتولّى غير الله، حقّ عليه عذابه وقهره، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.
- ٦ - إحدى السنن الإلهية إهلاك الأمة التي تعصي الله وتتبع غيره، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.
- ٧ - إرادة الله تقلب الأمور رأساً على عقب، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.
- ٨ - أحياناً ينزل عذاب الله تعالى بغتةً ودون سابق إنذار، وبذلك يسلب المرء فرصة المبادرة، ﴿بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.
- ٩ - عذاب القيلولة يكون مبالغاً وأشدّ وطأة وإيذاءً، ﴿بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.
- ١٠ - عند اليسار تطلق الشعارات جزافاً، ولكن حين يدلهم الخطب تخرس الألسن، ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ...﴾.
- ١١ - الأخطار والملّمات تسحق كبرياء الإنسان، وتزيح حجب الغفلة عن بصيرته وتوقظ ضميره من سباته، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.
- ١٢ - إذا لم تمثل اليوم بإرادتك وتخضع، فسوف تضطرّ ذات يوم إلى الركوع، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.
- ١٣ - طاعة غير الله تعالى والتمرد على نهج الأنبياء (كما جاء في الآيتين السابقتين) ظلم، ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

□ تضمّنت الآية السابقة إشارات إلى العقوبة الدنيوية، وهذه الآية تتحدّث عن الحساب في اليوم الآخر وعذاب القيامة، من خلال تكرار القول بحتمية

المساءلة والحساب في ذلك اليوم، والتأكيد على أنّ هذه المساءلة سوف لن تقتصر على الناس فحسب، بل ستشمل الأنبياء أيضاً. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾^(١).

□ سؤال: عمّ سيُسأل الإنسان في يوم القيامة؟

أ - عن النعم، ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾^(٢) لقد ورد في روايات متعدّدة أنّ «النعم حبنا أهل البيت وموالاتنا، يسأل الله عنه عباده بعد التوحيد والنبوة، ولأنّ العبد إذا وافاه بذلك أذاه إلى نعيم الجنة الذي لا يزول»^(٣).

ب - يُسأل عن القرآن الكريم وأهل البيت ﷺ. قال النبي الأكرم ﷺ: «ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيته»^(٤)؟

ج - عمّا اقترفوه، ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥).

د - عن الأعضاء والجوارح، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٦).

هـ - عمّا إذا جاءتهم الرسل أم لا، ﴿يَنْمَعَشِرُ الْحَيْنَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ...﴾^(٧).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يُسأل أئمة الدين عمّا كان جواب أقوامهم على دعوتهم، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ...﴾^(٨).

و - يُسأل الإنسان عن عمره وشبابه في ما أفناهما.

ز - عمّا كسبت يده. وكذلك ورد في الروايات أنّه لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله حتى يسأله عن أربع خصال: «شبابك في ما أبليتة

(٥) سورة الحجر: الآيات ٩٢ - ٩٣.

(٦) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٧) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

(٨) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

(٢) سورة التكاثر: الآية ٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٤، ص ٢٩٩.

(٤) تفسير الفرقان.

وعمرك في ما أفنيتَه ومالك ممَّا اكتسبته وفي ما أنفقته»^(١).

سؤال: إذن، تؤكد هذه الآية الكريمة أنَّ سؤال جميع البشر أمرٌ مفروغ منه، غير أننا نلاحظ في بعض الآيات، كآية ٣٩ من سورة الرحمن، أنه في يوم القيامة، لن يُسأل أحد من الجنِّ أو الإنس عمَّا ارتكب من معاصٍ وذنوب، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات؟

الجواب: يوم القيامة يوم طويل له مواقف ومشاهد كثيرة، ولكلِّ موقف أحداثه الخاصَّة به، ففي موقف يختم الله على فم الإنسان فلا يقوى على الكلام، بعد ذلك يأتي موقف يُرفع فيه هذا الختم ويشرع الجميع بالاستغاثة، والأنين، والاعتراف بذنوبهم، ثمَّ موقف آخر يُسأل فيه الجميع عن أعمالهم، وفي غيره يكون فيه الصمت سيّد الموقف ولا يُسأل أحد.

□ يقول الرسول الأكرم ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإمام يُسأل عن النَّاس، والرَّجل يُسأل عن أهله، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها، والعبد يُسأل عن مال سيِّده»^(٢).

التعاليم:

١ - في يوم القيامة سوف يُسأل القادة والأمم (من الجنِّ والإنس)، الأخيار والأشرار، العلماء والأتباع، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٢ - تنطوي المسألة في يوم القيامة، بنحو ما، على الاستشهاد والإقرار والتقريع وربّما، أحياناً، التكريم والتقدير، ذلك أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء حتى يرفع غموضه بالسؤال، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ... فَلَنَقْصُنَّ﴾.

٣ - علم الله سبحانه وتعالى عظيم ودقيق تدلُّ عليه كلمة «بعلم» التي وردت في صيغة التنكير.

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٣٥؛ بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٩.

(٢) تفسير الدرّ المتثور.

٤ - علم الله تعالى يتم بحضوره ومراقبته دون أي واسطة، ﴿يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

إشارات:

□ «الميزان»، هو الوسيلة المتعارفة لقياس الوزن، ولكل شيء وسيلة خاصة لقياسه، مثلاً، الشاقول لقياس درجة انحناء الجدار، والمحرار لقياس درجة الحرارة والبرودة، والكيلوغرام لقياس وزن الفاكهة، والمتر لقياس الأقمشة، وعلى النحو نفسه، فإن الإنسان الكامل هو الميزان الذي يقاس به الإنسان العادي.

□ في يوم القيامة سيكون الحق تعالى هو الميزان، وتكون الحاكمية في ذلك اليوم له وحده جلّ وعلا، ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾^(١)، وسيكون ذلك هو اليوم الحق، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾^(٢)، وأيضاً الميزان هو الحق، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره الآية ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾^(٣) «والموازن الأنبياء والأوصياء، ومن الخلق من يدخل الجنة بغير حساب»^(٤). كما نقرأ في الزيارة المطلقة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «السّلام على ميزان الأعمال»^(٥).

□ وعن الإمام علي عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ قال: «فإنما يعني الحساب بوزن الحسنات والسيئات، والحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان»^(٦).

التعاليم:

١ - الله تبارك وتعالى يريد لعبده أن يصل إلى الحق وأن يؤمن بالعقائد الصحيحة ويتبنى السلوك اللائق والسليم، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.

(١) سورة الكهف: الآية ٤٤.

(٢) سورة النبا: الآية ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٤) الميزان في تفسير القرآن.

(٥) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٨٧.

(٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤١.

- ٢ - لكل موازين ومعايير عدّة لمحاسبتها، ﴿مَوَازِينُهُ﴾.
 ٣ - الأمل بتحقيق السعادة والثواب بلا عمل إنما هو أملٌ كاذب، ﴿فَنَنْتَقِلُ...
 الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

إشارات:

□ «الخسارة» هي ضياع الرأسمال والربح، بينما «الضرر» هو ضياع الربح دون الرأسمال.

التعاليم:

- ١ - بالنسبة إلى الإنسان توجد أدوات ووسائل عدّة متاحة لقياسه، ﴿مَوَازِينُهُ﴾.
 ٢ - قلة الأعمال الصالحة تعتبر خسارة لصاحبها في يوم القيامة، فما بالك أن يأتي خالي الوفاض، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ... خَسِرُوا﴾.
 ٣ - الدنيا سوق، الإيمان فيها «ربح» والجحود والكفر «خسارة». فالإعراض عن الاستدلال ودعوة الأنبياء هو في الواقع محو للفطرة الإنسانية وظلم للنفس، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.
 ٤ - تجاهل آيات الله والتنكر لها إنما هو ظلم بحقها، ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، نعم، من غمط حقّ أي شيء ولم يراع حدوده، فقد ظلمه، وبديهي أن عاقبة الظلم هو الخسران والهلاك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - التذكير بنعم الله تعالى والاهتمام بها، تفتح الباب أمام تفتق المعرفة والمحبة، والتسليم لله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾.
 ٢ - حق الانتفاع بخيرات الأرض متاح لجميع البشر وليس لفئة بعينها، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ - لقد منّ الله تعالى على عباده بأن خلق لهم الأرض وهيّا الأسباب المناسبة (من دوران حول نفسها وحول الشمس، ودرجات الحرارة المعتدلة، والضياء المناسب، وجذب المياه ونفورها، والنباتات، ومعالجة الفضلات، وتحول الخضروات والفواكه... إلخ) لينعم الإنسان على ثراها بعيشة هائلة تؤمن له كلّ احتياجاته وتوفّر له مستلزمات بقائه، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾.

٤ - قوانين الطبيعة مخلوقة بشكل يسمح للإنسان بالسيطرة عليها وتسخيرها لصالحه. ولولا أن مكّن الله تعالى الإنسان من هذه القوانين لما استطاع إخضاعها بقدرته الذاتية والاستفادة منها، ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾.

٥ - الأرض مسخرة للإنسان من أجل أن يسمو بنفسه نحو الكمال والعلوّ، وفي الوقت ذاته ليؤمن معيشته، ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾، وللشاعر الإيراني الشهير سعدي الشيرازي بيت جميل في هذا المعنى يقول فيه:

السحاب، والرياح، والضباب، والشمس، والفلك، كلّهم في حركة دائمة من أجل أن تظفر أنت برغيفك ولا تسقط في الغفلة^(١).

٦ - ينبغي للنعم أن تمهد للشكر لا أن تكون عامل غفلة وانغماس في الملذات، ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

٧ - الإنسان جاحد كفور، وقد تحدّث القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن كفران معظم الناس بالنعم وغفلتهم وجحودهم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١)

إشارات:

□ وصفت الآية السابقة المكنة المادية للإنسان وسلطانه على الأرض، فيما

(١) البيت بالفارسية:

ابر وباد و مه خورشيد و فلك در كارند تا تو نانی به كف آری و به غفلت نخوری

تحدثت هذه الآية الكريمة عن المنزلة المعنوية للإنسان والتي جعلت الملائكة كلَّها تسجد له.

□ إذا كانت الملائكة قد خضعت لأمر الله تعالى في السجود لآدم، فهل يستنكف الإنسان من إطاعة أمر الله تعالى والسجود له؟

□ توجه الآية الكريمة خطابها مرتين إلى جميع الناس، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، ﴿مَوْرَثَكُمْ﴾، ثم تستيع ذلك بذكر السجود لآدم ﷺ، وتفسير ذلك ربما يكون أن كل إنسان لديه القابلية والاستعداد لأن تجسد له الملائكة.

□ يسرد القرآن الكريم هنا وعلى مدى ١٤ آية قصة آدم ﷺ.

□ جاء في الروايات أن رجلاً يهودياً سأل الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فهل حظي محمد بمثل ذلك؟

فقال عليه السلام: «قد كان ذلك، ولئن أسجد الله لآدم ملائكته، فإن ذلك لما أودع الله ﷻ صلبه من الأنوار والشرف، إذ كان هو الوعاء، ولم يكن سجودهم عبادة له، وإنما كان سجودهم طاعة لأمر الله ﷻ وتكرمة وتحية، مثل السلام من الإنسان على الإنسان، واعترافاً لآدم بالفضيلة، وقد أعطى الله محمداً ﷺ أفضل من ذلك، وهو أن الله صلى عليه، وأمر ملائكته أن يصلوا عليه، وتعبّد جميع خلقه بالصلاة عليه إلى يوم القيامة، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فلا يصلّي عليه أحد في حياته ولا بعد وفاته إلا صلى الله عليه بذلك عشراً وأعطاه من الحسنات عشراً، بكل صلاة عليه، ولا يصلّي عليه أحد بعد وفاته إلا وهو يعلم بذلك ويردّ على المصلّي والمسلم مثل ذلك، ثم إن الله ﷻ جعل استجابة دعاء أمته فيما يسألون ربهم جلّ ثناؤه موقوفة حتى يصلوا في دعائهم عليه، فهذا أكبر وأعظم مما أعطى الله آدم»^(١).

التعاليم:

١ - خلق الإنسان تم على مراحل عدّة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَوْرَثَكُمْ﴾.

٢ - يملك الإنسان من الاستعداد والجدارة ما يمكنه من تبوء منزلة تجعل الملائكة تجسد له، ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

٣ - السجود لغير الله لا يعدّ شركاً إذا كان بأمره سبحانه وتعالى، ﴿قُلْنَا... أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ إن سبب سجود الملائكة لآدم عليه السلام كان أمر الله تعالى والجدارة الذاتية للإنسان وليس نوعه البشري وتركيبه وجوده.

□ الشيطان هو أول من لجأ إلى القياس والمغالطة لتبرير تمرده على أمر الله تعالى حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، هذا على الرغم من أنه يترتب على كلّ منهما أثر خاص، غير أنّ الشيطان بهذا الادّعاء الواهي، قد أعلن عصيانه وتمرده على أمر الله العزيز الحكيم بدلاً من الامتثال لهذا الأمر والالتفات إلى المكانة الراقية التي يحظى بها الإنسان عند الله تعالى، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) لجهة أنّه مسكون بروح الله، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾^(٢). ولا يختلف الحال مع الكثير من بني البشر، إذ نجدهم يرفضون، في أحيان كثيرة، بعض الأحكام والتعاليم الدينية ذلك لأنهم قايسوها بعقولهم القاصرة، وحين يعجزون عن اكتشاف السبب أو الحكمة وراء تشريعها، سرعان ما يرفضونها دونما مسوّغ أو مبرر، أو في بعض الحالات، يلجأون إلى القياس بين موضوعات متشابهة فيما بينها، فيصدرون حكماً واحداً بشأنها جميعاً، من هنا كان القياس في استنباط الأحكام مرفوضاً، ولطالما انتقد الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة بسبب لجوئه إلى هذا الأسلوب في الاستنباط^(٣).

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٩.

التعاليم:

- ١ - التحقيق والمحاكمة أولاً، ومن ثم إصدار الحكم، ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ﴾.
- ٢ - الشيطان هو مؤسس التمرد والمعصية، ﴿مَا مَنَّكَ... إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ لأنه كان أول المتمردين والعاصين.
- ٣ - العقوبة بدون شرح الأسباب أمر مستهجن، وما لم يتم شرح الحكم أو الموضوع فلا تجوز العقوبة، ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ... إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.
- ٤ - لقد تمرد الشيطان على الله تعالى وليس على الإنسان، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ وقد ورد في آية أخرى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١).
- ٥ - الشيطان أيضاً عليه تكاليف، كما الإنسان، وهو مخير، ﴿مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ...﴾.
- ٦ - طاعة الله تعالى هي المعيار، لا السن، أو الجنس، أو السابقة، أو غير ذلك، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ...﴾.
- ٧ - عند المقاضاة يجب منح المجرمين أيضاً فرصة الدفاع عن أنفسهم، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.
- ٨ - تجاهل البعد الروحي للإنسان، والتركيز على البعد المادي فقط (أي الجسم) كما يفعل الماديون، هو نهج شيطاني، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.
- ٩ - النظرة الاستعلائية للمخلوق قد تجره إلى معاندة الخالق ومعارضته، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.
- ١٠ - لا يكفي الإذعان لخالقية الله تعالى ما لم يقترن بالطاعة له والتسليم لأمره، ﴿خَلَقْنِي... وَخَلَقْتُكُمْ﴾؛ الشيطان كان مذعناً بخالقية الله تعالى، لكنه لم يقرنها بالطاعة.
- ١١ - العنصرية من الرذائل الشيطانية، ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ﴾.
- ١٢ - لقد عمل الشيطان برأيه في مقابل الأمر الصريح والصحيح لله تعالى، أي إنه اجتهد في مقابل النص، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ... خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ﴾.

١٣ - استعان الشيطان بالقياس الذي ليس له أساس علمي، سوى أنه يقوم على الظن، ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ قال الإمام علي عليه السلام: «فاعتبروا بما كان من فعل الله إبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سنّي الدنيا (٣٦٥ يوماً) أم من سنّي الآخرة (حيث كلّ يوم منها بخمسين ألف سنة دنيوية)، عن كبر ساعة واحدة»^(١).

□ وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «أنه قال: يُحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ، يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم»^(٢) وعنه أيضاً عليه السلام: «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه»^(٣).

كما جاء في رواية أخرى: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد»^(٤).

التعاليم:

١ - خطورة التكبر لا تهدّد الفرد العادي فحسب، بل حتى من له مكانة راقية وكان جليس الملائكة في الملأ الأعلى، وأفنى سنوات وقروناً من عمره في العبادة، ﴿فَأَهِيطَ... فَاخْرُجْ﴾.

٢ - لم يُنج الشيطان علمه ولا معرفته بالله تعالى ولا طول عبادته، فالنّجاة كلّ النّجاة في التسليم لله، ﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾.

٣ - الكبر والغرور إزاء أوامر الله تعالى، مدعاة لحبط الأعمال، ﴿فَأَهِيطَ... فَاخْرُجْ﴾.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٣) المحبّة البيضاء، ج ٦، ص ٢١٥.

(٢) تفسير المراغي.

(٤) الكافي، ج ٢، باب اصول الكفر.

- ٤ - أحياناً، لحظة كبر وتمرد في مقابل أمر الله تعالى، يكون ثمنها السقوط إلى الأبد، ﴿تَكْبَرُ فِيهَا... فَأَخْرَجَ﴾.
- ٥ - عاقبة الكبر والاستعلاء هي الصغار والذلة. نعم، إن جواب ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ هو ﴿فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥)

إشارات:

□ لقد طلب إبليس من الله تعالى أن يمهله إلى يوم القيامة، ولكن هذه الآية لا توضح أمد المهلة التي أعطيت لإبليس؛ غير أن الآية ٣٨ من سورة الحجر والآيتين ٨١ و٨٢ من سورة ص تشير إلى أنه أمهل مدة طويلة، ولكن لا تصل إلى يوم القيامة ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، قال بعضهم: إن الشيطان حيّ إلى ما شاء الله^(١).

□ سؤال: لماذا أمهل الله تعالى إبليس اللعين؟

الجواب: إمهال العاصين هو من السنن الإلهية الثابتة، والهدف منه ابتلاء الإنسان واختباره، مضافاً إلى أنه ينبغي إتاحة أسباب الخير والشر حتى يختار الإنسان طريقه بحرية تامة وبملء إرادته، وإبليس لا يُكره الإنسان على الانحراف، وإنما يوسوس له فقط، كما ورد بيان ذلك في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

التعاليم:

- ١ - حتى إبليس لم يأس من تحقيق أمنيته، ﴿قَالَ فَأَنْظِرْنِي﴾.
- ٢ - الشيطان أيضاً يعلم أن العمر هو بأمر الله وإرادته، ﴿قَالَ فَأَنْظِرْنِي﴾.
- ٣ - طول العمر ليس دائماً ذا قيمة، فالشيطان عمّر طويلاً ولكن ماذا كانت النتيجة، ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

- ٤ - إبليس أيضاً كان يؤمن بالله، ﴿خَلَقْنِي﴾ وبالمعاد، ﴿يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾.
 ٥ - أحياناً يستجيب الله تعالى لأدعية الكافرين أيضاً، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات: «أنَّ الشيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر، فقالوا: يا إلهنا كيف يتخلص الإنسان من الشيطان مع كونه مسئولياً عليه من هذه الجهات الأربع، فأوحى الله تعالى إليهم أنه بقي للإنسان جهتان: الفوق والتحت، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخضوع، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخضوع غفرت له ذنب سبعين سنة»^(١).

□ عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال: «لما أعطى الله تعالى إبليس ما أعطاه من القوة قال آدم عليه السلام: يا رب سلطت إبليس على ولدي وأجرته فيهم مجرى الدم في العروق، وأعطيته ما أعطيته فما لي ولولدي؟ فقال: لك ولولدك السيئة بواحدة، والحسنة بعشر أمثالها، قال: رب زدني، قال: التوبة مبسوطة إلى أن تبلغ النفس الحلقوم، فقال: يا رب زدني، قال: أغفر ولا أبالي، قال: حسبي»^(٢).

□ عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه أهون عليهم أمر الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم»^(٣).

□ بداية يسعى الشيطان إلى سلب الإنسان إيمانه، وإذا عجز عن ذلك، فتح أمامه أبواب النفاق والارتداد، وإذا لم يفلح، ألقي في نفسه الشك والريبة ليسوقه نحو المعصية حتى يحرمه لذة الإيمان والعبادة، ويهول عليه فعل الخيرات لينفره منها.

□ جاء في العديد من الروايات أنّ أهل البيت عليهم السلام وولاية علي عليه السلام هم الصراط المستقيم^(١).

التعاليم:

- ١ - تبرير العصيان وارتكاب المعاصي بالقضاء والقدر الإلهي هو من عمل الشيطان، ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾.
- ٢ - طلب إبليس المهلة هو من أجل الانتقام وليس التوبة، ﴿أَنْظِرْنِي... لَا أَقْدُنَّ﴾.
- ٣ - لقد أظهر إبليس الصلف والعناد إزاء الله تعالى بدلاً من الشكر، ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ... لَا أَقْدُنَّ مِنْكَ﴾.
- ٤ - ينظر الشيطان إلى الإنسان على أنّه مخلوق انفعالي سريع الغواية، ﴿...لَا أَقْدُنَّ مِنْكَ﴾.
- ٥ - الشيطان هو العدو اللدود للإنسان، ﴿لَا أَقْدُنَّ﴾، وفي موضع آخر يقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).
- ٦ - حتى إبليس يقرّ ويعترف بأنّ طريق الله هو الصراط المستقيم، ﴿مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾.
- ٧ - أساليب إبليس في الإغواء والخداع عديدة ومتنوعة، ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ...﴾.
- ٨ - الشيطان يعرف الصراط المستقيم، ﴿مِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وأساليب الوسوسة، والهجوم، والغلبة ﴿لَا يَنْتَهُمُ مِنْ بَيْنِ...﴾، وكذلك يعرف الشاكرين والجاحدين، ﴿وَلَا نَحْدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

٩ - هدف الشيطان وأمنيته هو جحود الإنسان، ﴿وَلَا تَحِدُّ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِي﴾؛ لذا فاتّباع الشيطان هو بمثابة جحود بالله تعالى، والإنسان الشاكر هو على الصراط المستقيم.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَمْلِكْ مِنْهُمْ لَأُمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ﴾ (١٨)

إشارات:

□ يا للعجب، ويا للهلول، كم من مصائب وويلات ﴿فَأَقِمْ... فَأَخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّافِينَ﴾ أسفرت عنها لحظة كبر وغرور ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾. كل هذا الذلّ والسقوط للمتكبر لأنّه رفض الاعتذار والاعتراف بخطئه، وبدلاً من ذلك أقسم على إغواء البشر.

□ «مَذْمُوم» أي مذموم وهي مشتقة من «ذام» بمعنى العيب الشديد. «مدحور» من «الدحر» وهو الطرد والإبعاد المقرون بالذلة.

□ كان أبو حنيفة يؤمن بثلاث عقائد: العقيدة الأولى، أنّ أفعال العباد هي من الله وأنّ الإنسان غير مختار في أفعاله، والعقيدة الثانية أنّه يمكن رؤية الله تعالى، والعقيدة الثالثة أنّ إبليس لن يُحرق في جهنّم لأنّه مخلوق من نار، والنار لا تُحرق نفسها. وكان بهلول، وهو تلميذ الإمام الصادق عليه السلام، يريد أن يفنّد هذه العقائد فرمى بحجر على جبين أبي حنيفة فشدّخه، فسارع أبو حنيفة إلى الخليفة يشكو بهلولاً، فأرسل الخليفة في طلبه ليسأله عن سبب فعلته فأجابه بهلول: «لم أفعل ذلك بل الله فعل كما يدّعي هو، والثانية أنّه كاذب ما لم يُرنا ألم رأسه، والثالثة هي أنّ الإنسان من طين، ولذا، لا يؤثر الطين (الحجر) على الطين (الإنسان)»^(١)

التعاليم:

١ - صحيح أنّ إبليس يكمن للإنسان أثناء سيره في الطريق المستقيم ولا يكفّ عن

(١) تفسير «الإثني عشري».

إغوائه إلا أن العاصي هو من يتبع خطى الشيطان ليصبح في النهاية من أهل جهنم، ﴿لَنْ يَمَلَكَ﴾.

٢ - المنحرفون كثر لدرجة أنهم يملأون جهنم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وما أقل الأخيار الأطهار الشاكرين، كما تؤكد على ذلك الآية ١٠: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٣ - عاقبة اتباع خطوات الشيطان رفقة في جهنم، ﴿لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَيَتَكَادُمْ أَتُكْنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

□ مرّت علينا آية شبيهة بهذه في سورة البقرة هي الآية ٣٥.

□ عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت للإمام الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروي أنها الحنطة ومنهم من يروي أنها العنب ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد فقال عليه السلام: «كلّ ذلك حق»، فقلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها فقال: «يا أبا الصلت إن شجرة الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا»^(١).

□ شاء الله تبارك وتعالى أن يكون الإنسان خليفته على الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢)، ومن أجل أن يُبرز للآخرين جدارة الإنسان ولياقته علّمه من لدنه بعض الحقائق وأمر الملائكة بالسجود له وأدخله الجنة، ثم أناب به أول تكليف ليبدأ رحلة التعهّد والمسؤولية والاختيار، وتبعته عقوبة مخالفة التكليف والهبوط إلى الأرض، لتنتقل بعد ذلك مسيرة التكامل، وكان العلم الإلهي هو الأساس والقاعدة في كلّ هذه المراحل المتسلسلة، ولنا في كلام سيّد الوصيين الإمام علي عليه السلام خير دليل؛ فبعد أن يوضّح هذه المراحل حتى هبوط الإنسان

على الأرض، يقول: «بل نفلهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كُنه ما هو أهله»^(١).

□ ذهب المفسرون مذاهب مختلفة في المراد من الآية الكريمة من «الجنة» التي سكن آدم فيها؛ فبعضهم يقول: إنها الجنة الموعودة، وأن الخلود فيها هو لمن استحقها بعمله الصالح، وليس الأمر كذلك في غيرها، بدليل أن النبي الكريم ﷺ قد دخلها ليلة أسري به، ثم خرج، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن جنة آدم أي الجنان قال: «جنة من جنات الدنيا يطلع عليها شمس وقمر»^(٢)؛ ذلك لأنه لا يوجد في الجنة الموعودة تكليف ولا أمر ولا نهى.

التعاليم:

- ١ - في البداية، ينبغي فتح أبواب الحلال والطرق الصحيحة، بعد ذلك يتم التحذير من الحالات المحرمة، ﴿فَكَلَّا... وَلَا تَقْرَبَا؟﴾
- ٢ - الاقتراب من الدوائر المحرمة في الأحكام الإلهية، يجرّ إلى السقوط في المعاصي، ﴿وَلَا تَقْرَبَا... فَتَكُونَا﴾.
- ٣ - في ظل وجود طريق مجاز وحلال ﴿فَكَلَّا﴾ يصبح اللجوء إلى الطرق المحرمة ظلماً للنفس، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الْظَالِمِينَ﴾.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ نِيَاهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ

الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (١٠)

إشارات:

□ لقد وسوس الشيطان لآدم وحواء وقال لهما: إنكما إذا أكلتما من هذه الشجرة فسوف تصبحان ملكين أو تكونان من الخالدين، وأن الله لا يريد لكما ذلك، لذلك أمركما أن لا تأكلا من الشجرة.

□ أما لماذا لم يلتزم آدم بنهي الله إياه وأكل من الشجرة الممنوعة، فجواب ذلك نجده في الآية ٢١، وهو أنّ هذا النهي لم يكن نهياً تحريمياً بل كان نهياً إرشادياً يحمل صفة الكراهة وترك الأولى لا التحريم، كأن ينهى الطبيب مثلاً مريضه عن أكل طعام معيّن، ويحذّره أنّه إذا تناول هذا الطعام فسوف تسوء حالته الصحية، وتترتب على ذلك آثار ومضاعفات خطيرة ولكن ليست محرّمة.

□ يقول عبد الله بن سنان: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: «قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»^(١).

نعم، يتباين بنو البشر في المرتبة والفضل، والحال نفسه عند جنس الملائكة، إذن، لا يمكن القول إنّ أيّ إنسان من بني البشر هو أشرف مرتبة وأرقى فضلاً من جميع الملائكة والعكس أيضاً صحيح^(٢).

□ في الحقيقة، إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق الشيطان بجوهر خبيث، بل خلقه وهياً له كلّ أسباب التكامل والارتقاء، ثمّ هداه في عالم الوجود، لكنّ الشيطان لم يشأ مواصلة طريق الهداية، فانحرف وسقط في وادي الرذيلة، ولو كان ذا جوهر خبيث منذ البداية، لما كان لتسيّحه وتقديسه لسنوات طويلة أيّ معنى. وكذلك الحال مع فرعون وابن ملجم...، حيث لم يخلقهم الله تعالى على ما كانوا عليه، إذ كانوا يملكون كلّ مقومات الأهلّة والرّشاد والاعتلاء الإنساني، لكنّهم انحرفوا عن الطريق القويم بمحض إرادتهم واختيارهم^(٣).

□ سؤال: لعلّ أحدهم يسأل: لماذا سلّط الله تعالى الشيطان على الإنسان؟

الجواب: إنّ علاقة الشيطان بالإنسان ودرجة تأثيره على بني البشر، ليست أقلّ من تأثير الغرائز الشهوانية الحيوانية على الإنسان. لقد وهب الله تبارك وتعالى

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٠٩. (٢) تفسير أطيب البيان، ج ١، ص ٥١٢.

(٣) العلّامة محمد تقي جعفري، شرح ديوان «مثنوى معنوي»، ج ٥، ص ٢٠٧.

بني آدم العقل وملكة التفكير والضمير الحيّ في مقابل الغرائز التي يملكونها، وجعلها وسائل بيد الإنسان لتنظيم تلك الغرائز وتعديلها.

مضافاً إلى أنّ الشيطان ليس له سلطان على الإنسان، فهو لا يسلبه إرادته وحرّيته، كما بصرّح هو بذلك ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأً أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ^(١)﴾؛ فكلّ ما يفعله الشيطان هو إثارة تلك الغرائز الحيوانيّة، وإذا أراد التأثير عليها، لجأ إلى القوى الداخليّة في الإنسان، عنيت، الغرائز والأوهام والوساوس، لمواجهة قوّتي العقل والضمير اللتين تدفعان بالإنسان دائماً صوب أفعال الخير والإحسان^(٢).

التعاليم:

١ - لا أحد، بما في ذلك الأخيار، بمنأى عن وساوس الشيطان، ﴿فَوَسَّسَ لَهَا﴾؛ لكنّه ليس له سلطان على المخلصين، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٣).

٢ - أقصى ما يذهب إليه الشيطان هو الوسوسة وليس الإكراه، فهو يُري الإنسان طريق الانحراف؛ لكنّه لا يُكرهه على اتّباعه، ﴿فَوَسَّسَ لَهَا﴾.

٣ - عاقبة ارتكاب المعاصي والمحرمات هي الفضيحة، ﴿يَلْبِذِي... سَوَاءَ يَهَيَّا﴾.

٤ - من جملة أهداف الشيطان الفضائح، ونزع الحجاب، والتعرّي، ﴿يَلْبِذِي... مَا وَرَى﴾.

٥ - الشيطان يضلّ الإنسان عبر الآمال العريضة، ﴿مَا نَهَكْنَا رَبِّكُمَا... إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾. (إنّ أمنيّة الإنسان هي أن يعيش عيشة أبدية في أجواء ملائكية هانئة، لهذا السبب يوسوس له الشيطان قائلاً: إذا أكلت من هذه الشجرة فسوف تحقّق أمنيّتك في حياة أبدية خالية من أيّ اضطرابات أو

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) العلامة محمد تقي جعفري، شرح ديوان «مثنوى معنوي»، ج ٥، ص ٢٠٧.

(٣) سورة الحجر: الآية ٤٠.

مضايقات، ويوسوس له من خلال استغلال غرائز الإنسان ونزوعه إلى الرفاية والخلود).

﴿وَقَاسَمُهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَيْنَ النَّصِيحِينَ﴾

إشارات:

□ لم يكن النبي آدم وزوجه حواء في البداية يثقان بإبليس، لكن الأخير توسل بالآيمان المغلظة لكي يبرهن لهما على صدقه^(١). سأل الخليفة العباسي المأمون الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قائلاً: يا ابن رسول الله أليس من قولك إن الأنبياء معصومون، قال: «بلى» قال: فما معنى قول الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لَأَدَمَ: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة ولا مما كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة ولم يأكلا منها وإنما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، وإنما ينهاكما أن تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ وَقَاسَمُهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَيْنَ النَّصِيحِينَ، ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّهُمَا بِفُرُورٍ﴾ فأكلا منها ثقة بيمينه بالله وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتبه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة^(٢). وهكذا، فإن أول آيمان كاذبة نطق بها الشيطان للعين.

□ جاء في القرآن الكريم أن المنافقين أيضاً من الذين يحلفون كذباً^(٣). وبطبيعة

(١) «قاسمهما» من باب المفاعلة، ربما يكون من قبيل التأكيد

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٩٦.

(٣) سورة التوبة: الآيات ٥٦، ٦٢، ٧٤ و ١٠٧.

الحال، أَنَّ من يحلف باستمرار أيضاً لا يصلح لقيادة المجتمع، ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّيْنٍ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الأيمان الكاذبة من عمل الشيطان، ﴿وَقَاسَهُمَا﴾.
- ٢ - من الخطأ الركون إلى أيّ يمين، ﴿وَقَاسَهُمَا﴾.
- ٣ - يستغلّ الأعداء معتقداتنا لخدمة مصالحهم، ﴿وَقَاسَهُمَا﴾.
- ٤ - أحياناً يظهر العدو بمظهر المشفق الذي يسعى إلى الخير فيخترق معتقداتنا ويحقق مآربه الدنيئة، ﴿إِنِّي لَكَا لَيْنَ التَّصْحِيحِ﴾، كما فعل إخوة يوسف حين جاؤوا إلى أبيهم بمظهر المشفق الرؤوف ليأخذوا يوسف ويفرقوا الأب عن ابنه وقالوا له: ﴿وَرَأَى لَهُ لُتْصِحُونَ﴾^(٢).

﴿فَدَلَّيْنَهُمَا يَبْرِوْرٌ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣)

إشارات:

- «دَلَّى» من مَادَّة «تدلّية»، وتعني إرسال الدلو في البئر بحبل تدريجياً، وهذه - في حقيقتها - كناية لطيفة عن أَنَّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والابتعاد عن الرحمة الإلهية.
- «يخصفان» مشتقة من الفعل «خصف»، وتعني في الأصل ضمّ شيء إلى شيء آخر، والجمع، ثم أطلق على ترقيع النعل أو الثوب الممزّق وخياطته ف قيل: خصف النعل أو الثوب، أي جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.
- الخطاب الإلهي لآدم وزوجه جاء بكلمة ﴿وَنَادَاهُمَا﴾، والنداء في اللغة يكون

للشخص البعيد، لكأن آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة المحرمة قد ابتعدا عن دائرة القرب الإلهي.

□ يقول عدد من المفسرين منهم الشريف المرتضى، والطبرسي، وأبو الفتوح الرازي: إن طرد آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض كان من باب المصلحة وليس العقوبة أو الجزاء^(١).

التعاليم:

- ١ - المرأة والرجل كلاهما في مرمى سهام الوسواس الشيطانية، ﴿فَدَلَّهُمَا﴾.
- ٢ - سلاح الشيطان هو الخداع والغرور، ﴿يُزْوِرُ﴾.
- ٣ - الاستسلام لوسواس الشيطان هو كمن يمسك بحبل متدل رفيع وقصير فيسقط في بئر المعاصي، ﴿فَدَلَّهُمَا﴾.
- ٤ - تكمن الخطورة في تجاهل التعاليم والإرشادات الإلهية، سواء أكانت المعصية صغيرة أم كبيرة. ﴿فَلَمَّا ذَاكَ﴾، بالنسبة إلى ارتكاب المعصية، ليس المطروح هو صغر الذنب أو عظمته، بل صلف صاحبه وجرأته على الله. إذ لربما أطاح ذنب صغير بصاحبه في هاوية الافتضاح والسقوط.
- ٥ - العري وظهور السوءة هو نمط من العقوبات الإلهية، (وليس مظهراً من مظاهر الرقي والحضارة)، ﴿فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سَوْآتُهُمَا...﴾.
- ٦ - أحياناً يكون السقوط خطوة خطوة. تبدأ الخطوة الأولى مع ظهور الأفكار المنحرفة، ﴿فَدَلَّهُمَا يُزْوِرُ﴾، والثانية، ارتكاب النواهي وتناول الأطعمة المحرمة، ﴿فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ﴾ لتنتهي بصاحبها في نهاية المطاف إلى الانحدار والعري، ﴿بَدَتْ لَكُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.
- ٧ - قبح العري وكرامة اللباس مبدأ مغروس في فطرة الإنسان، ﴿وَلَطِيفًا بَيْنَهُمَا﴾.
- ٨ - اللباس ذو قيمة وفضل، مهما كان بسيطاً، ﴿وَرَقَّ الْجَنَّةُ﴾.

٩ - أحكام الله تبارك وتعالى وأوامره ونواهيه ونُذْرُهُ كُلُّهَا تَصَبَّ باتجاه اعتلاء الإنسان وتربيته، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾.

١٠ - بعد أن أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة المحرّمة، أُبعدا عن مقامهما السامي. لاحظ أنّه عليه السلام يقول: ﴿تِلْكَمُ الشَّجَرَةُ﴾، ولم يقل: «هذه الشجرة».

١١ - لا يوبّخ الله تعالى أحداً دون أن يتمّ الحجّة عليه، «الم أنهكما... أقل لكما».

١٢ - لا بدّ لنا ونحن نسلك طريق الله أن نعرف من هم أعداؤنا، ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

١٣ - عداوة الشيطان لبني البشر واضحة وجلية، غير أنّ الإنسان يتعمى عن خطورة هذه العداوة، ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣)

إشارات:

□ من المعلوم أنّ الشيطان والنبى آدم عليهما السلام كليهما ارتكبا معصية، غير أنّ معصية الشيطان الأمر (ترك السجود لآدم) جاءت من باب الاعتراض على عدالة الله وحكمته (والعياذ بالله)، وبالتالي الاستكبار على هذا الأمر والتبرير بأنّ جنسه أشرف وأرقى من جنس بني آدم، وظلّ على عناده ولم يعبّر عن ندمه على ما فعله، بينما سارع آدم وحواء إلى الاعتراف بغلظتهما، وطلبا العفو والصفح على ما بدر منهما من تقصير^(١).

التعاليم:

١ - يجب أن ندعو الله تعالى ليعيننا على ظلمنا أنفسنا، وفي المقابل أن نكفّر عن سيئاتنا، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَاهُ...﴾.

٢ - لقد اشترك آدم وحواء في المعصية وفي الاعتراف بها والتكفير عنها، ﴿قَالَا رَبَّنَا...﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ - كلّ معصية هي ظلم للنفس، لأنّ معصية الله تبارك وتعالى هي، في الحقيقة، اعتراض على الكمال والسعادة الحقّة، ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

٤ - من آداب الدعاء والاستغفار، الاعتراف بالذنب أولاً، ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾.

٥ - أوّل ما يرجوه الإنسان من خالقه هو أن يشملّه بعفوه ورحمته، ﴿وَلِنْ لَّزْ تَغْفِرَ لَنَا﴾.

٦ - المغفرة الإلهيّة هي غاية ما يتمناه المذنب، ثمّ تليها الأمنيات الأخرى، ﴿وَلِنْ لَّزْ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا﴾.

٧ - عناية الله ولطفه ورأفته تحول دون الخسران الأبدي للإنسان، ﴿وَلِنْ لَّزْ تَغْفِرَ لَنَا...﴾.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ
وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

إشارات:

□ كلمة «اهبطوا» إمّا أن تكون خطاباً موجّهاً إلى آدم وحواء وإبليس معاً أو آدم وحواء وذريتهما. طبعاً يوجد خطاب خاص إلى إبليس في موضع آخر ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾^(١)، وكذلك يخاطب الله تعالى آدم وحواء في آية أخرى بالقول: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾^(٢)، فإذا كان مكان الهبوط بالنسبة إلى هؤلاء واحداً، فلا يستبعد حينئذ أن يكون الخطاب ﴿أَهْبِطُوا﴾ لهم جميعاً.

□ المقصود بـ«الهبوط»، هو النزول على الأرض، وذلك بقرينة العبارة التالية التي تقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

□ على الرغم من قبول الله تبارك وتعالى توبة آدم وحواء ﴿فَنَابَّ عَلَيْهِ﴾^(٣) إلّا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٣.

أنهما لم يستطيعا التخلص من الأثر الوضعي للمعصية. والأثر الوضعي لترك الأولى هو خروجهما من موضعهما في الجنة وهبوطهما على الأرض، ﴿أَهْطُوا﴾.

التعاليم:

- ١ - لا يمكن التخلص من الآثار الوضعيّة للمعصية، ﴿قَالَ أَهْطُوا﴾.
- ٢ - أعمال الوالدين أحياناً تترك تأثيراتها على هبوط الجيل أو سقوطه، ﴿قَالَ أَهْطُوا...﴾.
- ٣ - جنة آدم وحواء هي مكان غير الأرض أشرف منها وأسمى، ﴿أَهْطُوا﴾.
- ٤ - الدنيا دار تنازع وصراع، وساحة لتزاحم المصالح والغرائز الأمر الذي يؤدي إلى اضطراع البشر مع بعضهم البعض، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.
- ٥ - الاستمتاع بمنافع الحياة الدنيا ليس أبدياً، ﴿إِنْ يَشَاءُ﴾.
- ٦ - بعد الموت سُبِعَتْ الإنسان من جديد، ﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ﴾؛ لقد اغتَمَّ آدم لأنه ظنَّ أن لا عودة له إلى الجنة والحياة الأبدية، فقال الله تعالى: إنه بعد هذه الحياة الدنيا سيعود إلى جنة الخلد.
- ٧ - أمد وانتهاء الحياة الدنيوية للبشر مجهولان، (كلمة «حين» جاءت في صيغة التنكير).

﴿يَنْبَغِي ۖ ءَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤَرَىٰ سَوَاءَ تَكُونُ وَرَيْشًا ۖ وَلِيَاسَ ٱلْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِن ۖ
ءَايَتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن تنقل الآية الكريمة قصة آدم ﷺ، يوجّه الله تبارك وتعالى خطابه إلى بني البشر كافة من ذرية آدم أربع مرات (في هذه الآية والآيات ٢٧ و ٣١ و ٣٥) حيث يوصيهم جلّ وعلا بجملة من الأمور من قبيل: أن يلبسوا لباس التقوى، وألا ينخدعوا بوساوس الشيطان وألعايبه، مضافاً إلى وصايا في مراعاة

الأطعمة والأشربة والاحتراز من التبذير والإسراف، وأخيراً تصديق دعوة الأنبياء.

□ «الريش»، هو ما يستر جسم الطير، إذ إنه يعتبر لباساً طبيعياً وكذلك ينطوي على مفهوم الزينة والجمال، كما أطلق المفسرون وأهل اللغة كلمة الريش على اللباس الذي يعدّ بمثابة زينة للإنسان.

□ جميع النعم بيد الله تعالى، يفيض بها على عباده من خزائن الغيب، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾^(١). ويقول أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾^(٢)، ﴿وَأَنزَلْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ...﴾^(٣).

إذن، فالمقصود بنزول اللباس من قبل الله تعالى هو خلقه ووضعه في متناول الإنسان. ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾

□ «لباس التقوى» كناية عن حجاب التقوى، والتواضع، والطهر، والعفاف الذي يستر الإنسان، كما يشمل الخشية من الله وطاعته وكذلك العفة والحياء والعمل الصالح^(٤).

التعاليم:

١ - الاهتمام بالنعم الإلهية مدعاة لحبّ الله والابتعاد عن الغفلة، ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ... لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

٢ - يكون اللباس نعمة إلهية حين يوارى عورة الإنسان ويستر جسمه، ﴿يُؤَرِّى سَوَآتِكُمْ﴾.

٣ - صحيح أنّ صناعة اللباس هي نتيجة تضافر جهود الإنسان مع العوامل الطبيعية، إلّا أنّ أمر كلّ ذلك بيد الله تعالى، ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾.

٤ - اللباس والموارة من الله، ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى﴾، لكنّ العري والتعري من الشيطان، ﴿فَوَسْوَسَ... يَبْدَى لِمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِن سَوَآتِهِمَا﴾.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦.

(٤) تفسير منهج الصادقين.

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

٥ - اللباس نعمة إلهية، ﴿لِيَأْسَا يَأْسَى﴾، والعري ونزع اللباس عقوبة المعصية، ﴿فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

٦ - يحب الله سبحانه وتعالى أن يتزين عبده بالألبسة والثياب الجميلة، ﴿قَدْ أَرْكَأَ عَلَيْهِمْ لِيَاسًا... وَرِيثًا﴾؛ لا بأس بالتزين ولبس الثياب الجميلة ما لم يبلغ ذلك حدود الإسراف والتبذير.

٧ - يجب أن يقترن البعد المعنوي بالبعد المادي، التقوى إلى جانب الزينة، ﴿وَرِيثًا وَلِيَأْسَ التَّقْوَى﴾، وإلا فسوف يصبح اللباس وسيلة للإسراف، والكبر، والفساد، والتظاهر، والهوس بالموضة، والشهوة والتباهي، وما شابه ذلك.

٨ - كما إنَّ اللباس يستر عيوب البدن وعورته، ويقيه البرد والحرّ، وهو مظهر للزينة، فإنَّ لباس التقوى أيضاً يحفظ روح الإنسان من العيوب المعنوية ويحصّنه ضدَّ المعاصي ويعدّ زينة معنوية كبرى للإنسان، ﴿وَلِيَأْسَ التَّقْوَى﴾.

٩ - يُنبِت من الأرض القطن، ويُخرج من الحيوان الصوف، ويُنتج من لعب دودة القز الحرير، هذه كلّها آيات الله سبحانه وتعالى، ومدعاة لتنبّه الإنسان ويقظته، ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى اللباس باعتباره نعمة، وهنا تتضمن الآية الكريمة تحذيراً للإنسان ودعوته لمراقبة الشيطان وكيدته لئلا ينزع عنه اللباس والنعم كما نزعهما عن أبويه آدم وحواء.

□ صحيح أنَّ الشيطان يوسوس لأهل الإيمان ويدفع بهم إلى المزالق، إلّا أنّه ليس له سلطان عليهم أو ولاية، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(١)؛ ذلك أنَّ المؤمن

ينجو إذا ما تاب والتجأ إلى الله تعالى. لذا فليس للشيطان سلطان إلا على الكافرين.

□ إذا كنا لا نرى الشيطان وجنوده وأعوانه فليس معنى ذلك أنه لا يرانا، فهو حاضر في كل مكان تهيات فيه ظروف المعصية وأدواتها، لينث سموم الفتنة، ويلقي شبك الحيلة والخداع.

التعاليم:

- ١ - فلناخذ العبرة من تاريخ الآخرين ومآلهم، ﴿كَأَآَخَرَجَ أَبَوَيْكُمُ﴾.
- ٢ - لا يظن المرء أنه محصن ضد الانحراف، فالنبي آدم ﷺ سجدت له الملائكة وأخرج من الجنة بسبب وقوعه في حائل الشيطان، ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ...﴾.
- ٣ - العربي ونزع الحجاب سبب خروج الإنسان من دائرة القرب الإلهي، ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ... يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.
- ٤ - أي خطة أو دعاية تؤدي إلى التعري فهي تسلمهم من الشيطان، ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ... يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.
- ٥ - هدف الشيطان أن يتعري الرجل والمرأة أمام بعضهما، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيَّتِهِمَا﴾.
- ٦ - الشيطان ليس وحيداً، بل له جنود وأعوان، ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ كما ورد في موضع آخر: ﴿وَجُنُودٌ إِيَّائِهِ﴾^(١).
- ٧ - إذا كنا لا نرى الشيطان فلا يعني ذلك أن تغفل عنه، علينا أن نكون يقظين دائماً، ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ... لَا تَوَدُّهُمْ﴾، فخداع الشيطان هو بسبب عدم ظهوره للعيان.
- ٨ - التعري علامة على عدم إيمان الفرد وتسلب الشيطان عليه، ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا... أُولَآئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٩ - سلطان الشيطان على الإنسان سببه أعمال الإنسان نفسه، ﴿أُولَئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠ - قضت سنة الله تعالى أن يكون للشيطان سلطان على الكافرين والمنكرين، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أُولِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١١ - الإيمان بالله سبحانه يمنع ولاية الشيطان وحاكميته على الإنسان، ﴿أُولَئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ قالت طائفة من المفسرين: إن هذه الآية هي إشارة إلى ما كان شائعاً عند المشركين في الجاهلية وهو الطواف حول بيت الله المعظم عراة «رجالاً ونساء» واحتجوا على ذلك بأنهم إنما يفعلون ذلك تقليداً لأبائهم وأجدادهم، وبأن الله تعالى، بحسب زعمهم، أمر بذلك، أي الطواف عراة!

□ المفسدون يقتدون بأجدادهم في موبقاتهم، ثم ينسبون شركهم إلى الله تعالى قائلين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾^(١)، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، إذن، اعتقد هؤلاء أنها إرادة الله أن أصبحوا مشركين، وكانوا يظنون أنه ما دام الله قد أمهلهم فذلك يعني أنه (والعياذ بالله) إما أن يكون راضياً عن ارتكابهم للفواحش والقبائح، أو أنه أمر بها.

□ في هذه الآية يعزو أصحاب الموبقات ارتكابهم الفواحش إلى أسلافهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، ومن ثم ينسبونها إلى الله ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ولعل مراد ذلك هو أن عمل الآباء والأجداد أهم لديهم من أمر الله.

التعاليم:

- ١ - تبرير الذنب أعظم من الذنب نفسه، وهو يشير إلى سلطة الشيطان ونفوذه على مرتكب الذنب، ﴿أُولَئِكَ لِلَّذِينَ... قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾؛ سواء أكان التبرير اجتماعياً (تقليد الأجداد) أم دينياً (أمر الله بارتكاب الموبقات).
 - ٢ - البقاء على النهج القبيح والخاطئ للآباء والابتداع في الدين، دلالة واضحة على تولي الشيطان وعدم الإيمان، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أُولِيَاءَ لِلَّذِينَ... وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾.
 - ٣ - فساد بعض الأعمال وقبحها واضح ومغروس في الفطرة الإنسانية، ﴿فَنَجِشْتُمْ﴾؛ (لاحظ أن كلمة «فاحشة» تطلق على المعاصي التي يكون قبحها بديهيّاً وبيّناً).
 - ٤ - أحياناً تصبح الأفعال القبيحة للإنسان سنةً تتوارثها الأجيال من بعده، لذلك، يحمل المنحرفون في هذه الحالة وزر انحراف الأجيال اللاحقة، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾.
 - ٥ - نهج الأسلاف ليس دائماً جديراً بالتقدير والفضل، لذلك، لا يجوز تقليدهم في مثل هذه الحالات، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾.
 - ٦ - لم يأمر الله تعالى بالمنكر في أيّ وقت مطلقاً، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا... إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ﴾.
- (لاحظ أن جواب الفعل الماضي جاء في صيغة الفعل المضارع ليفيد الاستمرارية).

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾
 ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩)

إشارات:

- «القسط» في إزاء التمييز، ويعني، إعطاء كلّ ذي حقّ حقه، وليس لغيره.
- تطرح الآية الكريمة مفاهيم عدّة مثل التربية ﴿رَبِّي﴾، والعدل ﴿بِالْقِسْطِ﴾،

والعبادة ﴿وَأَقِمْوْا﴾، والجماعة ﴿وَجُوهَكُمْ﴾، والوحدة ﴿مَسْجِدٍ﴾، والدعاء ﴿وَادْعُوهُ﴾، والنية والإخلاص ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾، والحشر والقيامة ﴿تَعُودُونَ﴾.

□ يعتقد المرحوم الطبرسي أنّ عبارة ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ هو أمر بالدعاء والابتغال والتضرّع الخالص إلى الله تعالى بعد الصلاة. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تسبيح الزهراء عليها السلام بعد كل فريضة أفضل من ألف ركعة»^(١).

□ المعاد هو معاد جسماني. فكما إنّ ذرات التراب تجتمع في الإنسان عن طريق تناوله الطعام، فكذلك يجمع الله تعالى العظام البالية في يوم القيامة، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. إنّ الذي خلقكم من خلية أحادية وحيمن، هو نفسه سيجمع بقاياكم في يوم القيامة. وقد جاء في الرواية أنّ المقصود بالآية الكريمة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هو أنّه كما كنتم عليه تكونون، من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، «المؤمن على إيمانه والكافر على كفره»^(٢).

□ ونقرأ في الحديث النبوي الشريف: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾»^(٣).

التعاليم:

١ - الإنسان مأمور بالقسط والعدل، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، والفواحش والأعمال القبيحة بعيدة عن دائرة القسط، ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ... قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.

٢ - الالتزام الخالص بالدين مدعاة لنشر القسط والعدل، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِمْوْا جُوهَكُمْ﴾.

٣ - ورد النهي عن التمييز في الآية الكريمة جنباً إلى جنب العبادة، كما إنّ العبادة

(٣) تفسير الفرقان.

(١) تفسير «الانبياء عشرى».

(٢) تفسير مجمع البيان.

والصلاة تكتسبان قيمة أكبر إذا اقترنا بإقامة العدل والقسط، ﴿يَاقُسِطُ
وَأَقِيمُوا﴾.

٤ - التربية السليمة متاحة في النظام العادل، والقسط هو من شؤون الربوبية
الإلهية، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.

٥ - الدين يحمل للإنسان أبعاداً اجتماعية وعبادية وعقدية، ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ
وَأَقِيمُوا... وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٦ - المسجد هو قاعدة الإخلاص، لا الرياء والشرك، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٧ - أحد شروط الدعاء توفر النية الخالصة، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٨ - الاهتمام بعقيدة المعاد والإيمان بها حافز للإنسان لإقامة القسط والإخلاص،
﴿كَأَٰلَٰكُمْ تَعُدُّونَ﴾.

٩ - الخلق الأول دليل على إمكان حدوث المعاد، ﴿كَأَٰلَٰكُمْ تَعُدُّونَ﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

التعاليم:

١ - الهداية هي من عند الله تبارك وتعالى، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، غير أن خيار الضلالة
هو سوء تقدير الإنسان واختياره، ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾.

٢ - ما لم ينقطع الحبل مع الله، بإمكان المرء أن يتغلب على وساوس الشيطان
بالتوبة وذكر الله، ﴿مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾^(١)، ولكن إذا انقطع
هذا الحبل فسيكون مصيره السقوط في شرك الشيطان وسلطانه وحينئذ لات
حين مناص، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾.

٣ - الإنسان مخير، وله أن يختار الولاية الإلهية أو ولاية الشيطان، ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾.

٤ - المنحرفون لا يملكون رؤية واقعية فهم يحلقون في الخيال، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

٥ - الانحراف الفكري والجهل المركب (أن يكون الإنسان ضالاً وبحسب نفسه من المهتدين) من أقبح الانحرافات، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١).

﴿يَبْنَئِ آدَمَ حُدُودًا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

إشارات:

□ لعله يمكن القول إن الخطاب ﴿يَبْنَئِ آدَمَ﴾ أينما جاء في القرآن الكريم فهو موجه إلى جميع البشر من جميع الأديان ويعدّ من مشتركاتهم.

□ أطلق القرآن الكريم لفظ «زينة» على المال والبنين، إذ يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)؛ لذا ربّما كان مراد الآية الكريمة هو أن يأخذ المرء المال والبنين معه حين يقصد المسجد، ليفكّ بماله الضائقة الاقتصادية للمسلمين، ومن خلال اصطحاب أبنائه إلى المساجد والاجتماعات يقوم بحلّ المشاكل التربوية للجيل القادم.

□ في الروايات، إنّ من أمثلة الزينة هي لبس أجود الثياب عند الصلاة والمشط عند كلّ فريضة وناقلة، ورفع اليدين عند كلّ ركوع وسجود، والصلاة في العيدين والجمعة^(٣).

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ - ١٠٤.

(٣) تفاسير نور الثقلين؛ منهج الصادقين؛ الاثني عشري.

□ كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقليل له: في ذلك، فقال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ فَاتَجَمَّلُ لِرَبِّي»، وقرأ الآية^(١).

□ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ التَّزَيْنَ، وَإِلَّا لَمَا أَمَرَ بِهِ، ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ﴾، فالإسلام دين الفطرة، وفطرة الإنسان مجبولة على حب الزينة والتمتع بها.

□ التَّزَيْنَ من أجل الذهاب إلى المسجد بمثابة احترام لعباد الله وعبادة الله وعامل جذب وترغيب عملي للآخرين.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أَتَرَى اللَّهَ أُعْطِيَ مِنْ أُعْطِيَ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَمَنْعَ مِنْ مَنْعَ مِنْ هَوَانٍ بِهِ عَلَيْهِ، لَا، وَلَكِنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ يَضَعُهُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَدَائِعَ وَجُوزَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا قَصْداً، وَيَشْرَبُوا قَصْداً، وَيَلْبَسُوا قَصْداً، وَيَنْكِحُوا قَصْداً، وَيَرْكَبُوا قَصْداً، وَيَعُودُوا بِمَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْمُوا بِهِ شَعْثَهُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَا يَأْكُلُ حَلَالاً، وَيَشْرَبُ حَلَالاً، وَيَرْكَبُ حَلَالاً، وَيَنْكِحُ حَلَالاً، وَمَنْ عَدَا ذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ حَرَاماً»، ثم قال: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢).

□ نعم، إِنَّ التَّزَيْنَ والالتذاذ بالطعام أمرٌ طبيعي جُبِلَتْ عَلَيْهِ فطرة الإنسان، ولكن في الظروف التي يَفْصُصُ المجتمع بالمحتاجين والمحرومين، ينبغي للإنسان أن لا ينسى التعاطف معهم وتقديم العون لهم. وهذا يفسّر لنا التفاوت في الثياب التي كان الإمام الصادق عليه السلام يرتديها، إذ كان الناس يعيشون في بحبوحة ويسار، عن تلك التي كان الإمام علي عليه السلام يرتديها عندما كان الناس يعانون لظي العيش وشظفه، وذلك لاختلاف الظروف الاجتماعية في كلا العصرين^(٣).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وَعِنْدَهُ مَا يَقُوتُهُ يَوْمَهُ فَهُوَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ»^(٤).

□ الإسراف في الأكل والتخمة أمرٌ مذموم، وهو بعد، منشأ العديد من الأمراض الجسمية والروحية، ويبعث على قسوة القلب، ويحرم صاحبه من لذة العبادة.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير «الإثني عشري».

(٢) تفسير الصافي.

(٤) تفسير الفرقان.

ويقول النبي الأكرم ﷺ: «المعدة بيت كل داء». وقد قال طبيب نصراني بعد أن سمع تلك الآية وهذا الحديث: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً^(١).
 □ وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنما الإسراف في ما أتلّف المال وأضرّ بالبدن»^(٢) وجاء في رواية أخرى: «ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلاً»^(٣).

التعاليم:

- ١ - المسجد هو بيت المسلمين ويجب أن يكون مزيناً وفي أبهى صور الجمال والجادية، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.
 - ٢ - أفضل وأجمل الثياب لأشرف الأماكن، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.
 - ٣ - يهتم الإسلام بباطن الصلاة، ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خُسُوفٌ﴾^(٤)، وبظاهرها على السواء. ﴿زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، إذن، فالإسلام يجمع بين الظاهر والباطن وبين الدنيا والآخرة.
 - ٤ - الزينة لها قيمة وفضل في الصلاة الفردية، لكنها تنطوي على قيمة خاصة في المجتمع والمسجد أيضاً، ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.
 - ٥ - الصلاة أولاً ثم الطعام، ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، الاهتمام بالروح والقيم المعنوية أولاً، ثم الاهتمام بحاجات الجسم ومتطلباته.
 - ٦ - المقتصد هو حبيب الله، والتمتع بالزينة والطعام يجب أن لا يشوبه إسراف أو تبذير، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣٢)

إشارات:

□ تقرّر هذه الآية حليّة الزينة لابن آدم. ويذكر القرآن الكريم أن من أمثلة الزينة

(١) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير منهج الصادقين.

(٢) الكافي، ج ٦، ص ٤٩٩.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢.

التي من الله بها على عباده، النجوم التي تزين السماوات لتسر الناظرين، ﴿وَزَيَّنَّهَا لِلْظَّالِمِينَ﴾^(١) بيد أن حب التزين يجب أن لا يدفع الإنسان إلى التهلكة، وذلك بأن يلتزم خط الاعتدال لا يحيد عنه، من هنا حرم القرآن الكريم على المرأة التبرج أو إظهار زينتها لغير زوجها ومحارمها، ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾^(٢).

□ روي عن عثمان بن مظعون أنه أتى الرسول الكريم ﷺ، وقال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي، فقال: «مهلاً يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام»، قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب، قال: «إن ترهب أمتي القعود في المساجد لا انتظار الصلاة» فقال: تحدثني نفسي بالسياحة، فقال: «سياحة أمتي الغزو، والحج، والعمرة»، فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال: «الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم البتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك»، فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة فقال: «إن الهجرة في أمتي هجرة ما حرم الله»، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها. قال: «إن المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقته تلك ولدأ كان له وصيف في الجنة، وإذا كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرّة عين وفرح يوم القيامة، وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شقيقاً ورحمة يوم القيامة»، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أكل اللحم، قال: «مهلاً إني أكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله»، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب، قال: «مهلاً فإن جبريل أمرني بالطيب غباً وقال: لا تتركه يوم الجمعة»، ثم قال: «يا عثمان لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي»^(٣).

□ وفي احتجاج أمير المؤمنين علي عليه السلام على عاصم بن زياد حين لبس العباء وترك الملاء، وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قد غم

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير.

(١) سورة الحجر: الآية ١٦.

(٢) سورة النور: الآية ٣١.

أهله وأحزن ولده بذلك فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «عليّ بعاصم بن زياد» فجيء به فلما رآه عيس في وجهه فقال له: «أما استحييت من أهلك أما رحمت ولداك أتري الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أخذك منها أنت أهون على الله من ذلك أوليس الله يقول: ﴿وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَارِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾؟ أوليس الله يقول: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْجٌ لَا يَبْيِغَانِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْكُلُوبُ وَالْمَرْيَاتُ﴾ فبالله لا ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، فعلى ما اقتضت في مطعمك على الجشوبة، وفي ملبسك على الخشونة، فقال: «ويحك إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره»^(١).

□ حينما صار الأمر إلى محاجة جيش الخوارج المتعصّبين اختار الإمام علي عليه السلام ابن عباس ليحاجج أولئك القوم فأوصاه أن يلبس أجود ثيابه ويتطيّب ويمتطي فرساً جميلاً^(٢).

□ قال بعض المفسّرين في تفسير الآية الكريمة: إنّ رزق الدنيا وزينتها مقرونان بأنواع المكاره، فيما لا ينفص رزق الآخرة وزينتها أيّ مكروه فهي خالصة رائقة.

التعاليم:

- ١ - النبي الكريم هو المسؤول عن محاربة البدع، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.
- ٢ - الإسلام يحرم الزهد المفرط، والتصوّف، والرهينة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.
- ٣ - الأصل في التمتع بالزينة والطيبات هو الإباحة، ما لم يكن ثمة مانع أو استثناء خاص يدلّ على الحرمة، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾.
- ٤ - الاعتدال في التمتع بالزينة وتشجيع الناس على ذلك، ذو قيمة كبيرة، ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾؛ ذلك أنّ الزينة تُنسب إلى الله تبارك وتعالى.

- ٥ - سلوك طريق الله تعالى لا يتم بترك المسائل الحلال الطيبة بل بالتمتع بها بصورة صحيحة ومراعاة مبادئ القسط والعدل، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ...﴾.
- ٦ - ينسجم الدين الإسلامي مع الفطرة الإنسانية وشرعة الاعتدال، فهو يلبي الاحتياجات الطبيعية للإنسان، فيحل ما هو مفيد، وينهى عما يتسبب بالضرر والأذى، ﴿مَنْ حَرَّمَ... أَخْرَجَ لِبَآدِهِ﴾.
- ٧ - الزينة مطلوبة للإنسان، شأنها شأن الغذاء. (لاحظ أن الآية الكريمة ذكرت الزينة إلى جانب الأطعمة) ﴿زِينَةَ اللَّهِ... وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.
- ٨ - الغاية الأساس من خلق النعم هي تمتع المؤمنين بها، وإن كان ذلك يشمل الكافرين أيضاً، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وفي آية أخرى يقول ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).
- ٩ - يتساوى المؤمن والكافر في التمتع بنعم الدنيا، إلا أن نعيم الآخرة هو من نصيب المؤمنين وحدهم، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
- ١٠ - للعلم والعلماء منزلة خاصة عند الله سبحانه وتعالى، ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾^(٣٣)

إشارات:

- «الفواحش» جمع «فاحشة»، ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، كالزنا، وكانت العرب في الجاهلية تأتي الزنا سراً ولا ترى قبحاً في ذلك، فنزلت الآية الكريمة لتؤكد على حرمة سراً وجهاراً.
- «الإثم»، هو اسم لمطلق الذنب سواء أكان كبيراً أم صغيراً والذي يوجب

انحطاط الإنسان وسقوطه، و«البغي»، يراد منه في الغالب التعدي لغصب حقوق الآخرين ولهذا يكون مفهومه مساوياً لمفهوم الظلم. والآية الكريمة هنا تستعرض أنواع المعاصي العقدية واللفظية.

□ وجاء في الروايات في تفسير قوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ أن المراد بما بطن من الآثام هو القبول بولاية أئمة الجور^(١).

□ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السموات والأرض»^(٢).

□ وقد سأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام ما حجة الله على عباده؟ فقال: «أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون»^(٣).

التعاليم:

١ - المحرمات الإلهية هي من أجل تربية الإنسان، وتكامله، واعتلائه، ﴿حَرَّمَ رَبِّي﴾.

٢ - آفاق الحلال رحبة وواسعة، بينما دائرة المحرمات ضيقة ومحدودة وقد ذكرت في القرآن الكريم والروايات، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ... وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣ - المعصية هي المعصية، وهي تنطوي على قبح ذاتي وعقلي، وإن لم يدرك الناس ذلك، ﴿وَمَا بَطَّنَ﴾.

٤ - لا يملك المشركون استدالات تعضد عقيدتهم، ﴿لَوْ يَرَوْا يُؤْمِنُ سُلْطَانًا﴾.

٥ - في الدعوة والنهي عن المنكر، ينبغي أولاً استعراض الخيارات الحلال والمعروفة، ثم يتبع ذلك النهي عن المنكرات والمحرمات؛ (فالآية السابقة بينت ما أحل الله تعالى، ثم تبعها هذه الآية في استعراض المحرمات)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ... إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾.

٦ - البرهان والاستدلال لطف إلهي يفيض على عقل الإنسان وروحه، ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

٧ - نسبة أي شيء إلى الله تبارك وتعالى يجب أن تستند إلى العلم والبرهان، ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، لذا، فإن أي ادعاء حول الوجود يجب أن يتكئ على البرهان والمنطق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

إشارات:

□ استناداً إلى هذا التصريح القرآني، ليس الإنسان وحده ذا نهاية وأجل مسمى، بل إن ذلك يصدق أيضاً على الدول والشعوب والأمم والحضارات.

التعاليم:

١ - لنحتز من المحرمات ولا تغرنا الدنيا بمناصبها وألقابها، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رِيًّا... وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٢ - لا وجود للصدفة في عالم الوجود، فكلّ التحولات تحدث في إطار التدبير والنظم الإلهي الدقيق والمدرّوس. وبالتالي فإن الأمم تحكمها سنن وقوانين، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

٣ - كل شيء في متناولنا آيل إلى الزوال، الفرص والإمكانات، وما دام الأمر كذلك، ليس الأجدر بنا إذن أن نوظف ما هو متاح لنا على أفضل وجه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ؟﴾

٤ - لا يظنّ الظالم أن إمهال الله تعالى له من إشارات لطفه عليه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ذلك أن تلك المهلة ستصل إن عاجلاً أو آجلاً إلى نهايتها، كما ورد في آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ مَوْعِدَةٍ أَجَلًا﴾^(١).

- ٥ - لا يأس المجاهدون في سبيل الله بسبب تسلط الطغاة، بل عليهم أن يكافحوا لأن الطغاة أيضاً إلى زوال، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.
- ٦ - جرت سنة التاريخ على ظهور الأمم وامتحانها ومن ثم زوالها، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.

﴿بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا إِنْتُمْ آتَيْنِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ يتعلق «الخوف» والفرع بقضايا المستقبل، وهو في إزاء الأمن والاطمئنان، أما «الحزن» فهو يرتبط بالماضي وما فات الإنسان، ويقابل كلمة الفرح والسرور^(١).

التعاليم:

- ١ - من السنن الإلهية إرسال الرسل ليبينوا الوحي الإلهي، ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ... يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا إِنْتُمْ آتَيْنِي﴾.
- ٢ - إذا كان للكلام أن يترك التأثير المنشود، فلا بدّ للداعية أن يولد من رحم المجتمع، ﴿وَمِنْكُمْ﴾.
- ٣ - يتمتع الإنسان بالإرادة والحرية، ومصيره مرتبط بعقيدته وعمله، ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾.
- ٤ - لا بدّ للمتقي الورع أن يكون مصلحاً وذا نشاطات إيجابية، لا منزوياً وانعزالياً، ﴿أَتَقَى وَأَصْلَحَ﴾.
- ٥ - التقوى وتهذيب النفس لا بد أن يكونا في المرتبة الأولى ومن ثم يأتي إصلاح الآخرين، إذ ينبغي للمصلح أن يكون ورعاً ذا تقوى، ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾.

٦ - المؤمنون وأتباع الأنبياء المخلصون هم المتقون المصلحون. تقول الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ... فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾، ولم تقل: «فمن آمن بهم».

٧ - الأمن الحقيقي يتأتى في ظل التقوى والإصلاح، ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٨ - عاقبة التكذيب، والكبر، والتمرد على دعوة الأنبياء هو عذاب خالد في نار جهنم، ﴿وَأَسْتَكَبرُوا... أَصْحَابُ النَّارِ... فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْشُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ عادةً يكون المقصود بالافتراء على الله في آيات القرآن هو الشرك به^(١). بطبيعة الحال، إن التحليل والتحريم دون برهان أيضاً بدعة وافتراء على الله، وكذا تكذيب الأنبياء الذي يعدّ بمثابة افتراء على الله.

□ لقد ورد ذكر «أظلم الناس» في ١٥ موضعاً من القرآن الكريم وبتعابير مختلفة، وهؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون مجتمعهم في آن معاً، وتعود فروع هذا الظلم إلى جذر واحد ألا وهو الشرك، والكفر، والعناد^(٢).

□ عبارة ﴿نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، تشمل الرزق، والحياة، والموت، والسعادة، والشقاوة في الدنيا وجزاء الأعمال في يوم القيامة، وكلّ هذه المقدرات مدونة على اللوح المحفوظ عند ملك مقدر^(٣).

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٥، ص ١٨٤.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

التعاليم:

- ١ - من أعظم الظلم الذي يرتكبه الإنسان هو الافتراء على الله تعالى، والتكذيب بآياته، والابتداع في الدين، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾.
- ٢ - كل إنسان ينال نصيباً محتوماً ومسجلاً في هذه الدنيا، ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾.
- ٣ - يوجد ملائكة خاصون مكلفون بقبض الأرواح، ﴿رُسُلَنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾.
- ٤ - الروح تمثل كل الحقيقة الإنسانية لأن الآية تقول: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ وليس «يتوفون أنفسهم».
- ٥ - عندما تتراءى للإنسان علائم الموت، يستيقظ من سبات الغفلة، ويبدأ حديثه مع الملائكة المكلفين بقبض روحه، ولكن فات أوان ذلك؟ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا... قَالُوا﴾.
- ٦ - مرحلة استجواب الإنسان تبدأ منذ اللحظة الأولى لموته، ﴿إِنِّ مَّا كُنْتُمْ﴾.
- ٧ - أول ما يُسأل العبد في يوم القيامة عن معبوده ومن هو، ﴿إِنِّ مَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ؟﴾
- ٨ - كل شيء، عدا الله، سراب، والمشركون عند الموت يذعنون ببطلان ما كانوا يعبدون من دون الله تبارك وتعالى، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.
- ٩ - ضمير الإنسان أول قاض في يوم القيامة، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولَدِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ من المشاهد المفزعة في يوم القيامة، الحوار الذي يدور بين أصحاب النار،

لاسيما مع رؤوس الكفر الذين أضلّوهم ودفَعوا بهم إلى هذا المصير، ولهذا السبب تبدّل الصداقات الحميمة بين المجرمين في جهنّم إلى عداوات، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وفي مشهد آخر يرجون من خزنة جهنّم أن يسمحوا لهم برؤية الذين أضلّوهم ليدوسوهم تحت أقدامهم، ﴿أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامًا﴾^(٢). وفي مشهد ثالث يعتبرون أنّ طاعة كبرائهم هي التي أودت بهم إلى هذا السقوط والمصير الأسود، ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّيْلَ﴾^(٣)، ولكن على الرغم من ذلك، إلّا أنّ الإنسان مخير، يمتلك إرادة حرّة، بمعنى، ليس له أن ينسب انحرافه وضلاله إلى الآخرين وحدهم.

□ ورد في مجمع البيان، أنّ الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال في قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَانَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾: يعني أئمة الجور^(٤).

□ في يوم القيامة، يضاعف الله تبارك وتعالى العذاب لأئمة الجور وأتباعهم، فالآية الكريمة وفي معرض ردّها على طلب المجرمين بمضاعفة العذاب لأئمتهم الذين أضلّوهم تقول: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ عذاب لأئمة الجور على ضلالهم وعذاب لهم على إضلالهم أتباعهم. أمّا مضاعفة العذاب لأتباعهم فلأنهم ضلّوا وبضلالهم ساعدوا على تقوية شوكة أئمة الجور وترسيخ باطلهم.

التعاليم:

١ - في الجنة لا مكان للأحقاد والعداوات، بل سلام ووثام ومحبة، في حين ترى أهل النار يتخاصمون فيما بينهم ويلعن بعضهم بعضاً، ﴿لَعَنَتْ أَخْنَهَا﴾، كما ورد في الآية ٢٥ من سورة العنكبوت: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٢ - الجنّ أيضاً مكلفون، كما البشر، وللمذنبين من الجانبين مصير واحد، وهو

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٩.

دخول جهنم، ﴿الْجَنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ... لَمَنْتَ أَخْنَبًا﴾.

٣ - لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة، بل يدخل الفوج بعد الفوج بصورة متعاقبة، فيكون فيهم سابق ومسبق، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾.

٤ - كلّ دعم، أو محبة، أو ولاية غير إلهية تتبدّل في الآخرة أحقاداً، وعداوات، ولعنات، ﴿لَمَنْتَ أَخْنَبًا﴾.

٥ - في يوم القيامة يسعى الجميع إلى إلقاء سبب انحرافه على عاتق الآخرين، أو أن يجد شريكاً يقاسمه ذنوبه، ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾.

٦ - أحياناً يتعرض الإنسان إلى عقوبات لا يعلم هو نفسه بها، ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد اهبطوا به إلى سجين»^(١).

□ «الْجَمَلُ»، يعني البعير الذي خرجت أسنانه حديثاً، ولكن أحد معاني الجمل هو الجبل القوي والمتين الذي تربط به السفن أيضاً. وحيث إنّ المقصود هنا استحالة دخول الكفار الجنة، فإنّ المعنى الأوّل هو الأنسب أي عبور الجمل من ثقب الإبرة. ونقرأ في تفسير «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل» أيضاً أنّ كلمة «الجمل» تستعمل أكثر في المعنى الأول، وذلك:

أولاً: إنّ في أحاديث أئمة الإسلام كذلك تعابير تناسب التفسير الأول.

ثانياً: ورد في إنجيل لوقا الباب ١٨ الجملة ٢٤ و ٢٥ ما يلي: إنّ عيسى قال: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله لأنّ دخول الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»^(١).

□ ربّما يُستشفّ من ظاهر الآية ٤٠ بأنّ الجنّة في السماء، والدخول إليها يجب أن يكون من أبواب السماء^(٢).

□ عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «تفتح أبواب السماء في خمسة مواقيت: عند نزول الغيث، وعند الزحف، وعند الأذان، وعند قراءة القرآن مع زوال الشمس، وعند طلوع الفجر»^(٣).

□ تفتح أبواب الرحمة في السماء والأرض للمؤمنين المتقين، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، وعلى العكس من ذلك، تغلق أبواب السماء والأرض بوجه الكفار المعاندين والمكذّبين، ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾.

التعاليم:

١ - في يوم القيامة يرى أئمة الضلال أتباعهم شركاءهم في العذاب، ﴿وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَإِخْرَجُهُمْ...﴾.

٢ - سلوك الإنسان وأعماله تلعب دوراً مؤثراً في نزول الرحمة الإلهية أو امتناعها، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ...﴾.

٣ - التكذيب بآيات الله والتنكّر لتعاليم الدين ومعارفه هو سبب انغلاق جميع أبواب الرحمة وعدم دخول الجنّة، ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ... وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...﴾.

٤ - جرت سنّة الله على حرمان المجرمين من رحمته في يوم القيامة، ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ...﴾.

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) إنجيل لوقا، الباب ١٨، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٢) تفسير الميزان؛ والتفسير الكبير.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١)

إشارات:

□ «مِهَاد» جمع «مَهْد» وهو الفراش. والتعبير بالمهاد هو من باب الاستهزاء والسخرية بأهل جهنم، ويعني أن فراشهم ومستقرهم جهنم^(١) «غَوَاشٍ» جمع «غَاشِيَةٌ»، وهي كل ما يغشاك، أي يجللك، كما تطلق على الخيمة أيضاً.

□ نلاحظ أن الله تبارك وتعالى في الآية ٣٧ من هذه السورة المباركة سَمَّى المعاندين والمعرضين بالكفار، وفي الآية ٤٠ سَمَّاهم بالمجرمين، وهنا يسميهم بالظالمين، وتفسير ذلك هو أن من يكذب بآيات الله تعالى يستحق كل هذه المواصفات والألقاب. علاوة على أن الآية ٢٥٤ من سورة البقرة تقول: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

□ روي أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته، لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته، غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا، ويضيق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزجاج في القدر». وعنه أيضاً: «يكسى الكافر لوحين من نار جهنم في قبره، فذلك قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾»^(٢).

التعاليم:

١ - تحيط جهنم بالكافرين من كل جانب، فلهم من غطاء ووظاء وفراش ولحاف، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ... غَوَاشٍ﴾، كما ورد في آيات أخرى ﴿وَلَا يَكُ جَهَنَّمَ لَاحِظَةً﴾^(٣)، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(٤)، و﴿يَوْمَ يَفْتَنُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٥).

(١) تفسير في ظلال القرآن.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، عند تفسير الآية.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٥٥.

(٥) سورة الزمر: الآية ١٦.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

التعاليم:

- ١ - الجنة الخالدة هي ثواب التواكب بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.
- ٢ - نعم، القيام بجميع الأعمال الصالحة أفضل، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولكن عملياً التكليف على قدر وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
- ٣ - لا يكلف الإسلام الإنسان فوق طاقته، ﴿وُسْعَهَا﴾؛ وجاء في آية أخرى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١)، و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٢).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

إشارات:

- «الغَلّ» هو في الأصل نفوذ الشيء خفية وسراً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذي يتسلل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية: «الغلّ».
- مرّ علينا في ما مضى من الآيات أنّ أهل جهنّم يتلاعنون ويتخاصمون في النار، وهنا تقول الآية الكريمة: إنّ أهل الجنة لا يضمرون لبعضهم أيّ عداوة إذ يغسل الله صدورهم من أوضار الحسد والحقد، ويملاها سلاماً وصفاء ومحبة، فلا حقد ولا حسد ولا ضغينة بسبب تفاضل منازلهم وتباين درجاتهم في الجنة.

□ إِنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ فَيَاضَةٌ وَمَتَدَفْقَةٌ وَجَارِيَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنْهَارٌ جَارِيَةٌ بَدَلًا مِنْ جَرِيَانِ الْمَاءِ، كَمَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ مَسَاكِنِهِمْ^(١).

□ بِحَسَبِ مَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَإِنَّ «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُرِثُ الْمُؤْمِنُ مَنْزِلَهُ فِي النَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يُرِثُ الْكَافِرُ مَنْزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَذَلِكَ قَوْلُ: ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»^(٢). يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ أَبْوَابَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ مَفْتُوحَةٌ أَمَامَ جَمِيعِ النَّاسِ قَاطِبَةً، وَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ أَحَدٌ يَوْمَ خَلْقِهِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، بَلْ يَمْتَلِكُ الْجَمِيعُ قَابِلِيَةَ الْوُصُولِ إِلَى كُلِّ هَذَيْنِ الْمَنْزِلَيْنِ، وَإِنَّمَا إِرَادَاتُهُمْ هِيَ الَّتِي تَحَدَّدُ وَتَقَرَّرُ مَصِيرَهُمْ^(٣).

□ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ فِي يَوْمِ غَدِيرِ خُمٍ: «مَعَاشِرَ النَّاسِ سَلِّمُوا عَلَيَّ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ» وَقُولُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٤).

□ قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ الْهَادِي عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُعِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَبِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِالْأئِمَّةِ مِنْ وَلَدِهِ ﷺ فَيُنْصَبُونَ لِلنَّاسِ فَإِذَا رَأَتْهُمْ شَبِيعَتُهُمْ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾، يَعْنِي هَدَانَا اللَّهُ فِي وَلايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأئِمَّةِ مِنْ وَلَدِهِ ﷺ»^(٥).

التعاليم:

- ١ - الْحَيَاةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ، هِيَ حَيَاةُ الْجَنَّةِ، ﴿مِنْ غِلٍّ﴾.
- ٢ - نَقَاءُ السَّرِيرَةِ وَالْعِلْنُ يَجْتَمِعَانِ مَعًا فِي الْجَنَّةِ، ﴿وَوَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٦٠.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٥) تفسير «الائني عشري»؛ الكافي، ج ١، ص ٤١٨.

- ٣ - أهل الجنة منشغلون بذكر الله تعالى وحمده، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.
- ٤ - أهل الجنة يشكرون الله تعالى على الطافه عليهم، وهم لا يغترون بهديته لهم، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾.
- ٥ - لا يتكئ أهل الجنة على أعمالهم بل على هداية الله ولطفه، ﴿هَدَانَا اللَّهُ﴾.
- ٦ - عناصر العقل، والعلم، والمثابرة، وحدها لا تكفي لهداية الإنسان ما لم تظللها العناية الإلهية، ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.
- ٧ - الأنبياء وسيلة الهداية، وهدايتهم مقترنة بالحق. هم، كلامهم، عملهم، نهجهم، ووعودهم كلها حق في حق، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.
- ٨ - الطريق إلى الجنة يمر عبر العمل لا التمني والأحلام، ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل»^(١).

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذِنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

□ ذهب المفسرون مذاهب عدة في تحديد هوية مؤذن يوم القيامة، منها أنه الله تعالى، أو إسرافيل، أو جبرائيل، أو خزنة جهنم، أو حراس الجنة. ولكن في المقابل، تقول الروايات الشيعية^(٢) وبعض روايات أهل العامة (مثل روايات الحاكم الحسكاني): إن المؤذن هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. كما إنه عليه السلام كان مؤذناً في الدنيا مختاراً من قبل الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، إذ بعد فتح مكة كُلف من قبل الرسول أن يتلو الآيات الأولى من سورة البراءة على مسامع الناس في موسم الحج وإعلان البراءة من المشركين في الدنيا، وكذلك سوف يكون مؤذناً في الآخرة وسيقرأ إعلان البراءة من

الكافرين في يوم القيامة^(١). كما إنه سوف يلقي التحية على أهل الجنة^(٢).
 □ ونقرأ في قصة معركة بدر أن النبي الكريم ﷺ مع بعض أصحابه وقفوا على «القلب» وقد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين، فناداهم بأسمائهم، وقال: «هلا أطعمتم الله ورسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا روح فيها... فقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وقد حصل الموقف نفسه مع الإمام علي عليه السلام حين عاد من قتال الخوارج، فوقف عند مصارع قتلاهم وخاطبهم بالآية الكريمة نفسها^(٣).

التعاليم:

- ١ - في يوم القيامة، يدور حوار بين أهل الجنة وأهل النار، ﴿وَأَذَىٰ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ...﴾، ويبدو من سياق الآيات أن أوضاع الجنة والنار على نحو بحيث يمكن لأهل الجنة بعد أن يستقروا فيها الاطلاع على أخبار أهل النار.
- ٢ - في يوم القيامة سوف يجد المؤمنون والكافرون وعود الله تعالى قد تحققت، ﴿وَبَدَنًا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾.
- ٣ - في يوم القيامة يأخذ أهل الجنة، مدفوعين من قبل الله تعالى، اعترافات من أهل النار وذلك إغلاًلاً في زيادة العار والضغط عليهم^(٤)، ﴿قَالُوا سَمَّ﴾.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ (١٥)

إشارات:

□ طريق الله هو طريق التوحيد، والتسليم، والإيمان، والهجرة، والجهاد. ويريد الظالمون عبر إثارة الشبهات والوساوس، وبث الدعاية لإضعاف المعنويات، ونشر البدع والخرافات وكذلك التصدي لقادة الحق، وإشاعة اليأس، ووضع

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) المصدر نفسه.

(٢) تفسير «الانبياء عشر».

(٤) الميزان في تفسير القرآن.

العراقيل، أقول: يريد الظالمون أن يصدّوا عن سبيل الله تبارك وتعالى، أو أن يحرفوا مساره.

التعاليم:

١ - كلّ صدّ عن سبيل الله أو حرفٍ عنه، يعدّ ظلماً، ﴿لَقَدْ أَفْلَسَ الَّذِينَ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾، ولا شك أن الظلم المعرفي هو أعظم الظلم، ﴿فَنَنْظُرُ أَفَلَهُ وَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾.

٢ - لو قدّر للعدو لحارب جهاراً وصدّ عن سبيل الحقّ، ﴿يَصُدُّونَ﴾، ولقام برسم الخطط وحاك المؤامرات ليحرف الحقّ عن مساره، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٣ - الظالمون، والصادقون عن سبيل الحقّ، والمفسدون في الدين، والمنكرون يوم القيامة، جميعهم أهل جهنّم، (في ضوء الآية الحالية والسابقة).

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يُطْمَعُونَ﴾ (٤٦)

إشارات:

□ ربّما كان المقصود بـ «الحجاب» في هذه الآية هو الجدار الذي ورد ذكره في الآية ١٣ من سورة الحديد الذي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يكون في خارجه العذاب، وفي باطنه الرحمة، ﴿فَنَضِرَبْ يَتْلُمُ بِسُورٍ لَهُمُ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ فِيْهِ الْعَذَابُ﴾ (١).

□ «الأعراف» جمع «عُرف»، وهو في اللغة الموضع أو المكان المرتفع. هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تتحدّث عن الأعراف وأصحاب الأعراف، ولذلك سمّيت السورة بهذا الاسم.

□ لو تأملنا الروايات والتفاسير لوجدنا دائرة واسعة من الآراء المتنوعة حول

تفسير أصحاب الأعراف، فمنهم من يعرفهم على أنهم أولياء الله يقفون على مكان مرتفع يفصل بين الجنة والنار ويتعرفون على الناس بسيماهم، فينظرون إلى أهل الجنة، ويحيونهم، ويسلمون عليهم، وفي الوقت ذاته، يفزعون لمصير أهل النار ويتعوذون بالله من منازلهم، ولكن ثمة من يقول: إنهم جماعة من المؤمنين الضعفاء، استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف، وهم ينتظرون رحمة الله وفضله، (كما يُستشف ذلك من الآية ١٠٦ من سورة التوبة).

ربما أمكن القول إن أولياء الله هم المحور الرئيس للأعراف، وأن الأشخاص الضعفاء يقفون على الأطراف. فالمحسنون يدخلون الجنة، والمجرمون يُكبّون على وجوههم في النار، ويعلق بين هؤلاء وأولئك جماعة من المتوسطين أو الضعفاء المعسرّين ينتظرون مصيرهم النهائي، بيد أن أولياء الله الواقفين على الأعراف يبادرون إلى نجاتهم، لينتشلوهم من محتهم، ويشفعوا لهم. هذا بإيجاز ما يُستفاد من مجموع آراء المفسرين ونصوص الروايات.

□ كما نقرأ في الروايات أن أصحاب الأعراف هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصية آبائهم^(١)، أو أنهم قوم تكافأت حسناتهم وسيئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنة فبرحمته^(٢).

التعاليم:

١ - السلوك والخصال الدنيوية ترسم للإنسان ملامح خاصة ومميّزة في يوم القيامة تجعل الآخرين يتعرفونه بمجرد النظر إليه، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، بيد أن التعرف بهذه الطريقة متاح أيضاً في الحياة الدنيا، إذ يقول الله تبارك وتعالى

(١) تفسير الدرّ المثور.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٢، ص ٣٨١.

لنبيّه الكريم ﷺ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَسْنَاهُمْ فَلَترَفْنَاهُمْ بِسَبْتِهِمْ وَلَترَفْنَاهُمْ فِي لَعْنِ الْقَوْلِ﴾^(١).

٢ - لا يتيسر دخول الجنة بدون لطف الله تعالى وعنايته، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ... وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ إِلَيْكَ أَمْعَبَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١٧)

إشارات:

□ يتطلع أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة فيتعرفون عليهم ويلقون التحية إليهم، لكنهم لا ينظرون إلى أهل النار إلا شزراً، ﴿صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ﴾.
□ لا يقول أصحاب الأعراف في دعائهم: «لا تجعلنا من أهل النار، بل لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ذلك أن مجالسة الظالمين أكثر عذاباً من نار جهنم»^(٢).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا بِرِفْقِهِمْ يُسَبِّحُ مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(١٨)

إشارات:

□ يقول الصحابي الجليل سلمان الفارسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلّي أكثر من عشر مرات: «يا عليّ إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار، لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه»^{(٣)(٤)}.

التعاليم:

١ - مضافاً إلى العذاب الإلهي، يتلقى أهل النار في يوم القيامة التوبيخ والتقريع من بقية البشر، ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾.
٢ - الثروة، والسلطة، والأصدقاء، والأنصار، كلّ ذلك لا ينقذ الإنسان، ﴿مَا

(٣) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣٧.

(٤) تفسير «الانبي عشري».

(١) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٢) تفسير روح المعاني.

أَعْفَى عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ، والإنسان نفسه يعترف في يوم القيامة بهذه الحقيقة، ﴿مَا أَعْفَى عَنِّي مَالِي﴾^(١).

﴿أَمْثَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

إشارات:

□ في الدنيا، يحتقر الكافرون المتكبرون المؤمنين، ويقسمون بأن رحمة الله لا تشمل هؤلاء، وقد نسوا أن الرحمة الإلهية ستظلهم يوم لا ظل إلا ظله وذلك بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، ويخاطبهم ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾.

□ نزول الرحمة الإلهية والإيمان والعمل الصالح هو المهم، وليس الثروة والجاه، ناهيك عن أن الرحمة الإلهية ليست بيد المستكبرين ليقسموها على من شاؤوا، ﴿أَمْثَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - فقر المؤمن وخمول ذكره في هذه الدنيا لا يدل على حرمانه في يوم القيامة، ﴿أَمْثَلَاءَ الَّذِينَ﴾.
 - ٢ - لا ينبغي أن نتعجل الحكم على من هو جدير أو غير جدير بالرحمة الإلهية، ﴿أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.
 - ٣ - لا وجود للهموم والأحزان في الجنة، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.
- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

إشارات:

□ ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾^(٣) هو من أسماء يوم القيامة، سمي بذلك لأنه تتعالى في ذلك

(٣) سورة غافر: الآية ٣٢.

(١) سورة الحاقة: الآية ٢٨.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

اليوم النداءات، والأصوات، وصرخات الاستغاثة، ويتنادى أهل الجنة وأهل النار.

التعاليم:

١ - في يوم القيامة يتنادى أهل الجنة وأهل النار ويسمع كل منهما صوت الآخر، ﴿وَنَادَى...﴾.

٢ - الماء، هو أول ما يستغيث أهل النار للحصول عليه، ﴿الْمَاءَ...﴾.

٣ - أولئك الذين لا يذخرون في الدنيا شيئاً من الخيرات لآخرتهم، في يوم القيامة سوف يمدّون يد التسوّل والحاجة إلى الجميع، ﴿أَفَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ...﴾.

٤ - لن تنفع المجرمين استغاثتهم وصرخاتهم في يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا...﴾.

٥ - نعم الآخرة خاصّة بالمؤمنين وحدهم، ﴿حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾.

٦ - حاشا لله أن يكون بخيلاً وكذلك أهل الجنة، غير أن عذاب الكفار الذين كانوا يؤذون المؤمنين الفقراء في الدنيا هو حرمانهم من النعم في يوم القيامة، ﴿حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)

إشارات:

□ «اللهو»، هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، و«اللعب» هو أن يكون للإنسان هدف افتراضي غير حقيقي^(١).

□ في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام حديث طويل، وفيه: «وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن يُنسبهم أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نُسُوا

اللَّهُ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾، وقال ﷺ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، أي تركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا^(١).

التعاليم:

- ١ - من سمات الكفار الاستهزاء بالدين، الاغترار بزخارف الدنيا، نسيان الآخرة، والتكبر لآيات الله تعالى، ﴿وَعَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾.
- ٢ - لقد اتخذ الكفار أحكام الدين، التي هي عين الجد والحكمة، هزواً ولعباً، ﴿وَيَنْهَمُ لَهُوًا﴾، وفي المقابل استجدوا هذه الدنيا بينما هي خيال ولعب ليس إلا.
- ٣ - الاستهانة بالدين والاستهزاء به تورث الذلة والمهانة في الآخرة. أولئك الذين يتخذون الدين ملعبة، سيضطرون في يوم القيامة إلى الاستغاثة والتوسل، ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا... وَيَنْهَمُ لَهُوًا﴾.
- ٤ - الحياة الدنيوية خداعة، ﴿وَعَرَّضَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٥ - الاغترار بالدنيا نافذة تفضي بالإنسان إلى الاستهزاء بالدين، ﴿لَهُوًا وَلَعِبًا وَعَرَّضَهُمُ...﴾.
- ٦ - العذاب الإلهي يتكافأ مع أعمالنا، ﴿نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا﴾.
- ٧ - الجحود المستمر بآيات الله تعالى، يوجب الحرمان من الجنة ونعيمها، ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.
- ٨ - من ينسى الله في الدنيا، سوف ينساه الله في يوم القيامة، ﴿نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا﴾، وفي موضع آخر، يقول ﷺ: إِنَّ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ ذَكَرَهُ، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٢).
- ٩ - استمرار الجحود والعزوف عن التوبة هو سرّ شقاء الإنسان وهلاكه، ﴿كَانُوا... يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَعْظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَسَبِيهِ الْأَمِينِ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَنَبَاحُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ»^(١).

التعاليم:

١ - لقد ألقى الله تبارك وتعالى الحجة حينما أنزل الكتاب، وأنقذ الإنسان من الاغترار بالدنيا ونسيان الآخرة وإنكار الآيات، (كما ورد في الآية السابقة)، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾.

٢ - أنزل الله كتاب الهداية والرحمة على دفعات وبالتدرج، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾.

٣ - يستند الوحي إلى العلم الإلهي باحتياجات الإنسان والكون، ﴿بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

٤ - الكتاب والعلم الإلهي عظمة لا متناهية، لاحظ أن ﴿بِكِتَابٍ... عَلَيْهِ﴾ كليهما في صيغة التذكير.

٥ - الهداية القرآنية هي أعظم ما تجود به الرحمة واللفظ الإلهي على المؤمن، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٦ - القرآن الكريم يهدي المؤمنين لا المعاندين اللجوجين المتعنتين، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾

إشارات:

- يبدو أن المقصود بالتأويل في هذه الآية، بقرينة الآيات اللاحقة، هو تحقق وعيد الله تعالى وبشاراته في ما يتعلق بالعذاب والثواب في يوم القيامة.
- في الآية ٤٣ من هذه السورة، قال أهل الجنة: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، وهذه العبارة نفسها تتكرر في هذه الآية ولكن هذه المرة على لسان أهل النار.
- في ضوء حديث الآية السابقة عن نزول الكتاب، ذهب المفسرون إلى أن المراد بـ ﴿نَسُوهُ﴾ هو نسيان الكتاب السماوي.

التعاليم:

- ١ - يوبّخ الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم الجاحدين بآياته، معتبراً أنهم لن يؤمنوا ما لم يروا بأم أعينهم تحقق وعيده وتهديداته، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾.
- ٢ - لن تفيد الاستغاثة، والاعترافات، والأمانى في يوم القيامة، إذن، لا مفر من أن نحمل تهديدات القرآن على محمل الجدّ في هذه الدنيا، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ...﴾.
- ٣ - الخسران الأكبر هو نسيان القرآن ويوم القيامة، ﴿نَسُوهُ﴾.
- ٤ - يوم القيامة يوم اليقظة والانتباه، ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.
- ٥ - رسالة الأنبياء تصبّ في مسار تربية الإنسان، وهي من شؤون ربوبية الله تبارك وتعالى، ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.
- ٦ - لا يأخذ الكافرون مسائل الدين والآخرة مأخذ الجدّ، وسوف ينتبهون لخطئهم هذا في يوم القيامة، ويرجون، حينذاك، أن يعودوا إلى هذه الحياة ولكن

أمنيتهم هذه محض سراب، ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ﴾. وفي آية أخرى يقول عز من قائل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لَنَا بُنُوءًا عَنَّهُ﴾^(١).

٧ - الشفاعة لا تشمل الجميع، ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ﴾.

٨ - في يوم القيامة لن يكون ثمة مظهر أو تأثير للطواغيت، والأصنام، والثروات، والسلطات، ﴿وَمَبْدَ عَنْهُمْ...﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

إشارات:

□ قرأنا في الآية السابقة عن فناء كل مخلوق وكل شيء في يوم القيامة، سوى الله تبارك وتعالى، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ...﴾، وهنا تتحدث الآية عن الخالق الحقيقي.

□ «اليوم»، هو غير «النهار». فـ«النهار»، هو في مقابل الليل، بينما «اليوم» يعبر به عن النهار تارة، وأخرى عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وثالثة، يقصد به الدهر والحدثان، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية.

□ «تبارك» من مادة «بركة»، وأصلها «بَرَكَ»، ومعناها صدر البعير، إذ إن الإبل عندما تستقر في مكان ما تلصق صدورها على الأرض، لهذا اتخذت هذه الكلمة تدرجياً معنى الثبوت، والاستقرار، والاستتباب، ثم وصفت وسميت كل نعمة مستقرة ودائمة، وكل كائن طويل العمر، ومستمر الآثار والخيرات، بأنه موجود مبارك، ويقال أيضاً للمكان الذي يتجمع فيه الماء «بركة» لبقائه في ذلك المكان مدة طويلة.

□ في ضوء القرائن الدالة في هذه الآية والآيات القرآنية السابقة، فإن المقصود بـ«الخلق» هو الإيجاد الأول، والمراد بـ«الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة

على عالم الوجود بأسره وبأمر الله تعالى، والتي تسوق الكون في مسيره المرسوم له^(١).

□ ﴿أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن امتلاك السلطة، والقدرة، والتدبير، والهداية، وإدارة شؤون الكون. طبعاً، ربّما كانت كلمة «عرش» تعبيراً عن عالم ما وراء المادة، و«الكرسي» هو عالم المادة، إذ نقرأ في آية الكرسي المباركة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢).

□ لقد سخر الله تبارك وتعالى الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم ليهدي بها الناس، وبالطريقة نفسها أيضاً جعل من الرسالة، والإمامة، وأهل البيت عليهم السلام نجوماً نهدي بهم، وقد نقلت مصادر الفريقين حديثاً نبوياً شريفاً يقول: «النجوم أمان لأهل الأرض وأهل بيتي أمان لأمتي»^(٣).

□ إِنَّ الله تبارك وتعالى قادر على أن يخلق الكون برمته في لحظة واحدة، غير أن التأني والتدرج هي سنته، من هنا يأتي خلقه للكون في ستّ دورات طويلة. كما إنّ العجلة بغير سبب تتيح للشيطان النفوذ والسيطرة، والنبى الكريم يقول في هذا السياق: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان»^(٤). ويقول الإمام علي عليه السلام: «ولو شاء أن يخلقها في أقل من لمح البصر لخلق؛ ولكنه جعل الأناة والمداراة مثالاً لأمنائه وإيجاباً للحجة على خلقه»^(٥).

التعاليم:

- ١ - خالق الكون هو الجدير بتدبيره وإدارته، ﴿رَبِّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ...﴾.
- ٢ - العرش هو مركز التدبير وإصدار القرارات الإلهية، ﴿أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ﴾.
- ٣ - إنّ التعاقب المستمر لليل والنهار ممكن في حالة واحدة فحسب وهي كروية الأرض وحركتها، ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾.
- ٤ - للكون نظام وهو مدعّن لإرادة الله ومشيئته، ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير الفرقان.

(٤) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٦٩.

(٥) تفسير «الاثني عشري».

٥ - الخلق، وكذلك إدارة شؤون الخلائق، وتدبير أمورها كلها بيد الله تعالى، ﴿إِنَّهُ الْخَلَّاقُ وَالْأَنزِلُ﴾.

٦ - الله تبارك وتعالى منشأ البركات، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾.

٧ - نزول البركات من شؤون ربوبية الله تعالى ولوازمها، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

٨ - الوجود برمته في طور التكامل، وهو يخضع لتربية الله تعالى، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِبِينَ﴾

إشارات:

□ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالدَّعَاءِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا»^(١) وكان النبي زكريا عليه السلام يدعو الله خفية وبإخلاص ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢)؛ لَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ، بِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَخَاطَبُ الْمُؤْمِنِينَ قَائِلًا: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾^(٣) أحياناً يكون رفع الصوت في الصلاة والتضرع باباً للتظاهر والرياء.

□ التضرع والأنين في الدعاء علامة على اهتمام الإنسان باحتياجاته فينكسر غروره وتفتت غطرسته، ذلك أَنَّ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَمْلِكُ أَسْبَابَ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ، لَا يَسْتَغِيثُ بِأَحَدٍ وَلَا يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْئًا.

□ يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الدَّعَاءِ وَرَفْعِ الْيَدَيْنِ: «عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجِهٍ، أَمَّا التَّعَوُّذُ فَتَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ بِبَاطِنِ كَفِّكَ، وَأَمَّا الدَّعَاءُ فِي الرِّزْقِ فَتَبْسُطُ كَفِّكَ وَتَفْضِي بِبَاطِنِهِمَا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَمَّا التَّبَتُّلُ فَلِإِمَاءٍ بِإِصْبَعِكَ السَّبَابَةَ، وَأَمَّا الْإِبْتِهَالُ فَرَفْعُ يَدَيْكَ تَجَاوِزَ بِهِمَا رَأْسَكَ، وَدَعَاءُ التَّضَرُّعِ أَنْ تَحْرَكَ إِصْبَعُكَ السَّبَابَةَ مِمَّا

(١) تفسير مجمع البيان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) سورة مريم: الآية ٣.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٢.

يلبي وجهك وهو دعاء الخيفة»^(١) كما نقل الصحابي الجليل سلمان الفارسي (رحمه الله) عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّي كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صَفْراً أَوْ قَالَ خَائِبَتَيْنِ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - معرفة الله أولاً ومن ثم عبادته، ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ﴾؛ طرحت الآية السابقة مسألة معرفة الله تعالى، وها هنا تتحدث الآية عن عبادته سبحانه.
- ٢ - يفضل الدعاء باستخدام كلمة «رب» مع التضرع، والخشوع، والبكاء في خفية، ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، دعاء الخفية أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص.
- ٣ - يكون الدعاء ذا تأثير عندما يخرج من القلب خالصاً مصحوباً بالتضرع، ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.
- ٤ - فلندع الله سبحانه وتعالى من أعماق القلب وبخشوع تام، وليكن لساننا سفيراً لجميع جوارحنا، ﴿أَدْعُوا... تَضَرُّعًا﴾.
- ٥ - العاصون والمعتدون محرومون من الطاف الله ومحبتة، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.
- ٦ - من أمثلة العصيان والتمرد العزوف عن الدعاء أو الدعاء الخالي من التضرع ودعاء الرياء، ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
 ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

إشارات:

□ تناولت الآية السابقة علاقة الإنسان بربه، وهذه الآية علاقته بالناس.

(١) الكافي، ج ٢، ص ٤٨١.

(٢) تفسير القرطبي.

□ عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: «إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ فَاسِدَةً فَأَصْلَحَهَا اللَّهُ تعالى بنبيه عليه السلام». (١). نعم، إِنَّ مجيء كل نبي هو تمهيد لإرساء أسس حركة إصلاحية اجتماعية عظيمة، وَإِنَّ الحيد عن شرائعهم وتعاليمهم هو عامل فساد في المجتمع.

□ تتوسط عبارة ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمران بالدعاء «أدعوا» واحدة في الآية السابقة والأخرى هنا، لتشير إلى أَنَّ الدعاء باللسان يحتاج إلى أن نعضده بجهود اجتماعية إصلاحية، لا أن ندعو باللسان، ونفسد في العمل.

□ تستعرض هذه الآية مع التي سبقتها مقومات الدعاء الخالص وآدابه، وشروط الاستجابة، وهذه الشروط هي:

- (أ) أن يكون الدعاء مقروناً بالتضرع، ﴿تَضَرَّعًا﴾.
- (ب) أن يكون خفية وبعيداً عن الرياء، ﴿تَضَرَّعًا وَخَفِيَّةً﴾.
- (ج) ألا يتجاوز الدعاء حدود الحق، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِينَ﴾.
- (د) أن يكون مصحوباً بالخوف والرجاء، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.
- (هـ) ألا يشوبه إفساد أو معصية، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾.
- (و) أن يكون الدعاء مقروناً بالإحسان، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾.

□ يعظ لقمان الحكيم ولده قائلاً: «يا بني لو استخرج قلب المؤمن فشق لوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء، لو وزنا ما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة» (٢).

التعاليم:

١ - حتى المجتمع الصالح معرض للهزات والأخطار، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا... بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

٢ - الثوار المصلحون ليسوا في غنى عن الدعاء والتضرع، ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا...﴾.

- ٣ - لا تفسدوا الأرض العامرة، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.
- ٤ - ينبغي للإنسان أن يتوسط منطقتي الخوف والرجاء. يطلق الله تبارك وتعالى على هذا الاعتدال لفظ «الإحسان»، ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٥ - سيرة المحسنين ونهجهم هو الإعراض عن الفساد، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا... قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٦ - الإحسان مقدمة لاستجلاب الرحمة الإلهية، فلا يتوقع المرء نزول الرحمة بدونها، ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، إذن، الدعاء يُستجاب حين يُقرن بالإحسان.
- ٧ - الإحسان هو الاستغاث بالحق تعالى وتجنب الفساد، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا... وَأَدْعُوهُ... قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

- في الآيات القليلة الماضية مرّت إشارات عدّة إلى موضوع معرفة الله وتوحيده وعبادته، وتستكمل هذه الآية البحث لتقف عند المبدأ والمعاد وتستدل لكلّ منهما ببراهين من أسرار الكون ونظام الخلق.
- «أَقْلَّتْ» و«أَقْلَلْتُ» أي وجدته قليل المحمل، وفي ذلك دلالة على أنّ الرياح قوية لدرجة أنّها تحمل السحاب الثقيل المحمل بالماء إلى المناطق الأخرى بسهولة ويسر.

التعاليم:

- ١ - على الرغم من التعقيد والدقّة التي تشوب قوانين الطبيعة، إلّا أنّها جميعاً رهن إشارة الخالق تبارك وتعالى وتأتّم بأمره؛ لذا لا ينبغي للإنسان أن يغفل مبدأ الوجود، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾. (يجب أن لا نغرق في دوامة المعادلات العلمية والقوانين الماديّة، وننسى أنّ حركة الرياح وتوجيهها، وهطول المطر، وإنبات النبات... هو بتدبير الله تعالى).

٢ - منكرو المعاد يفتقرون إلى البراهين التي تعضد حجّتهم، ولا يعرفون شيئاً سوى الإنكار. ولدحض هذا الإنكار يكفي عرض بعض الأمثلة من الحياة الطبيعية، من قبيل كيف تتركّب وتجتمع المواد المؤلفة للكُمثرى (الإجاص)، والتفاح، والرمّان وهي المبعثرة في التربة، لنبرهن على إمكان تجميع ذرات الموتى من جديد، ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ﴾.

٣ - الموت لا يعني الفناء والعدم، بل الانتقال من حالة إلى أخرى، كما هو الحال مع الأرض الميتة فهي ليست أرضاً فانية، ﴿سُقْنَاهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ... فَأَخْرَجْنَا... كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ﴾.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصْرِفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

□ «النكد»، هو العسر الممتنع من إعطاء الخير، «نبات نكد» هي الأرض السبخة التي لا تخرج منها البركة.

□ إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية أوسع، سنجد أنّ أحد الأمثلة عن الأرض الطيبة التي تطرح محصولاً طيباً هي الأسرة السليمة.

□ لا شك في أنّ آيات القرآن الكريم هي أشبه بشأبيب الرحمة التي تستقرّ قطراتها عند التلاوة على القلوب المتطلّعة للهداية، فتزهر معرفة، ومحبة، وإيماناً وسعيّاً متواصلًا. في حين لا تزيد أهل الضلال إلّا لجأجأ وعداوة، ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١).

□ عن النبي الكريم ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ فَقَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ وَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا

وَزَرَعُوا وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا
فَذَلِكَ مَثَلٌ مَّنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَتَفَقَّهَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلٌ مَّنْ لَّمْ
يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ^(١)؛ إذن، القلب الطيب
هو أشبه بالأرض الطيبة فيما القلب الخبيث هو كالأرض السبخة الخبيثة التي
لا تثمر.

التعاليم:

- ١ - السعادة لا تتحقق بنزول الرحمة فقط، بل يجب توافر المتلقي الذي يحمل
الاستعداد والقابلية، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾.
 - ٢ - صحيح أن نظام الطبيعة يقوم على قوانين خاصة، غير أن ذلك كله لا يتم إلا
بإرادة الله تبارك وتعالى وبإذنه، ﴿يَاذِنِ رَبِّي﴾.
 - ٣ - تنبيه واحد لا يكفي، ومثله التنبيهات النمطية المتكررة فهي غير منتجة، إذن،
يجب أن تتسم أساليب الدعوة والإرشاد بالتنوع لتحقيق النتيجة المرجوة،
﴿نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾.
 - ٤ - نعم، القرآن الكريم هو مشعل هداية للجميع، ولكن وحدهم الشاكرون الذين
يستنيرون بهذا المشعل ويغترفون من بركاته، ﴿نُصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾.
- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ إن مثال «البلد الخبيث» المطروح في الآية السابقة هو إشارة إلى قوم نوح عليه السلام
لم يأل نبيتهم جهداً في دعوتهم إلى الإيمان بالله ولكن من دون نتيجة. ويُشار
إلى أن قصة النبي نوحاً عليه السلام قد وردت في السور الكريمة: نوح، الصافات،
الإسراء، الأحزاب، يونس، المؤمنون والقمر.

- لا يخلو «الخوف» من بعد إيجابي، في حين أن «الجبن» هو شعور مذموم وسلبى بالخوف؛ إذ إنه ناجم عن استصغار الذات واحتقارها. ويتولد الخوف، في بعض الأحيان، من نظرة واقعية وواعية حيال الأخطار المحدقة.
- عن رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نُوحٌ»^(١). كانت دعوة النبي نوح عالمية، لأن قومه كانوا يشكّلون كلّ سكّان الأرض في تلك الحقبة، يدلّ على ذلك دعاؤه على جميع كفّار الأرض، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٢)، فقد غمر الطوفان جميع سكّان المعمورة.
- لقد استمرّ النبي نوح ﷺ في دعوة قومه إلى التوحيد ٩٥٠ سنة، ﴿أَلَفَ سَنَةً إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(٣) فلم يؤمنوا بدعوته، بل كانوا يزدادون في كلّ يوم بعداً وفراراً من نوح ودعوته، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾^(٤). كان قومه يخنقونه حتى تترقى عيناه، وكان يضرب ضرباً مبرحاً حتى يسقط على الأرض مغمياً عليه، ورؤي أنّه ﷺ كَانَ يَمَسُّحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٥).

التعاليم:

- ١ - رسالة النبي نوح ﷺ كانت رسالة عالمية، إلا أنه شرع بقومه أولاً، ﴿يَقْوِرْ﴾.
- ٢ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تبارك وتعالى، هي منطلق دعوة الأنبياء، ومن المشتركات التي تتفق عليها جميع الأديان الإلهية، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.
- ٣ - سبب عبادة الله وحده هو وحدانيته تعالى وعدم وجود شريك له، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
- ٤ - معرفة الله تعالى والإيمان به كانت قائمة منذ البداية واستمرت على مرّ التاريخ. (فالنبي نوح ﷺ عاش قبل الأنبياء إبراهيم، وموسى، وعيسى ﷺ، ويقول لقومه: اعبدوا الله، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا يعرفون الله تعالى). ﴿يَقْوِرْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

(٢) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٤) سورة نوح: الآية ٦.

(١) تفسير الدرّ المنثور.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٤.

(٥) بحار الأنوار؛ ج ٢٠، ص ٢١.

٥ - الأنبياء هم الأحرص على البشرية، ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ - طبقة الأشراف والملا هم الذين كانوا يتصدون لدعوات الأنبياء على مر التاريخ؛ إذ كان بريق أموالهم يُبهر عيون قومهم، وجبروت سطوتهم يزرع الرهبة في نفوسهم، ﴿أَلَمْ لَا يَنْقُصْهُمْ﴾.

٧ - أقبح من عدم الإيمان، رمي الأنبياء بالضلالة، ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ولا عجب في ذلك، فعندما تُمسح فطرة الإنسان، سيري كل هاد ضالاً. في عصرنا أيضاً توجد فئة ترى نفسها متنورة، وأتباع النبي رجعيين وسدجاً.

٨ - من ينهض لإقامة نظام التوحيد واقتلاع نظام الشرك يجب أن يتوقع أنواع الإساءات والافتراءات، ﴿لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

٩ - الأعداء جادون في إلقاء التهم، ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿قَالَ يَقُولُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ رَفِئَتْ رَأْيَ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ «النصح»، يعني الخلوص والغلو عن الغش وعن الشيء الدخيل، لهذا يقال للعسل الخالص: ناصح العسل، ثم أطلقت اللفظة على الكلام الصادر عن سلامة نية، ويقصد الخير، ومن دون خداع ومكر.

التعاليم:

١ - لتتحل بالصبر في قبال إساءات الجهلة، ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ إنه أول نبي من أولي العزم، ردّ على افتراءات قومه عليه بالضلال بأرق أسلوب.

٢ - رسالة الأنبياء تصبّ في مجال تربية البشر، وهي من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٣ - بخلاف العقائد الباطلة التي كانت تؤمن بوجود إله لكل شيء، يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان بوجود إله واحد لكل الكون، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

- ٤ - أنبياء الله معصومون، ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾.
- ٥ - يجب على المعلم والداعية أن يكونا من الخيرين والمخلصين، وفي الوقت نفسه أن يحظوا بنصيب من العلم والمعرفة الكافية، ﴿وَأَنْصَحُ... وَأَعْلَمُ﴾.
- ٦ - حرص النبي وحبّه الخير هو من أجل المصلحة العامة للناس لا مصلحته الشخصية، ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾.
- ٧ - يؤمن الأنبياء بأن الله تبارك وتعالى هو مصدر جميع علومهم ومعارفهم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٨ - يملك الأنبياء من الله علوماً ومعارف يعجز البشر عن الوصول إليها، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - أحياناً تكون المعاصرة حائلاً أمام الإنسان للقبول بالحق والمنطق السليم، ﴿أَوْعِبْتُمْ﴾؛ فقد قال قوم نوح: لماذا ينزل الوحي عليه من دوننا؟ إنه مثلنا ولا يتميز علينا بشيء.
- ٢ - الغاية من نزول الوحي هي تربية الإنسان، ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٣ - يجب علينا دائماً أن نحفظ بالمعارف الإلهية في ضمائرنا، ﴿ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - الأنبياء من الناس ومعهم، ﴿رِجْلٍ مِّنْكُمْ﴾.
- ٥ - يمكن تلخيص الحكمة من البعثة والنبوة ومراحلها في النقاط الآتية:
- (أ) تقديم النذر، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾.
- (ب) خلق المناعة والتقوى، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾.
- (ج) استئزال الألفاف والرحمة الإلهية، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.
- ٦ - التقوى مدعاة لنزول الرحمة الإلهية، ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا﴾

إشارات:

□ «عمين» جمع «عمي»، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهري، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً^(١).

□ عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ عَنِ الرُّضَا عليه السلام قَالَ قُلْتُ لَهُ لِأَيِّ عِلَّةٍ أَغْرَقَ اللَّهُ ﷻ الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي زَمَنِ نُوحٍ ﷺ وَفِيهِمُ الْأَطْفَالُ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ فَقَالَ مَا كَانَ فِيهِمُ الْأَطْفَالُ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ أَغْقَمَ أَضْلَابَ قَوْمِ نُوحٍ وَأَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ عَامًا فَأَنْقَطَعَ نَسْلُهُمْ فَغَرِقُوا وَلَا طِفْلَ فِيهِمْ مَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لِيَهْلِكَ بِعَذَابِهِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَأَمَّا الْبَاقُونَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ﷺ فَأَغْرِقُوا لِتَكْذِيبِهِمْ لِنَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ ﷺ وَسَائِرُهُمْ أَغْرِقُوا بِرِضَاهُمْ تَكْذِيبَ الْمُكْذِبِينَ وَمَنْ غَابَ عَنْ أَمْرِ قَرْصِي بِهِ كَانَ كَمَنْ شَاهَدَهُ وَأَتَاهُ^(٢).

التعاليم:

- ١ - الإيمان عامل نجاة، والتكذيب سبب هلاك، ﴿فَأَجَبْنَاهُ... وَأَغْرَقْنَا﴾.
- ٢ - الحوادث، والأسباب الطبيعية، والتحويلات التاريخية كلها بيد الله تبارك وتعالى، ولكن في إطار أفكار الناس، وأعمالهم، وأخلاقهم، ﴿فَأَجَبْنَاهُ... وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.
- ٣ - عماء البصيرة هو العامل الرئيس وراء تكذيب دعوة الأنبياء، ﴿عِيبًا﴾ إذن، الإيمان والسير على هدي الأنبياء هو دليل بصيرة.

(١) تفسير الميزان؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) علل الشرائع، ج ١، ص ٣٠.

﴿وَالِىَّ عَادُ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

□ تسرد هذه السورة قصة النبي هود عليه السلام وقوم عاد، وقد جاءت بتفصيل أكبر في سورتي الشعراء وهود.

□ سكن قوم عاد في بلاد اليمن ومنطقة الأحقاف في جنوب شبه الجزيرة، وكانوا على قدر كبير من القوة البدنية ووفرة من الخيرات الطبيعية كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والمواشي، لكنهم كانوا منغمسين في الشرك وعبادة الأصنام وارتكاب الموبقات الأخلاقية. وكان هود تربطه بهم صلة قرابة، وقد بعثه الله بالنبوة إلى قومه ليدعوهم إلى التوحيد كما فعل النبي نوح عليه السلام.

التعاليم:

١ - الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وعبادة الأوثان تقع في صدر برامج الأنبياء، ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

٢ - الأنبياء هم قادة الإنسانية الأكثر تواضعاً وحرصاً، ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ نعم، يجدر بالمعلم والداعية أن يكون أخاً للناس مشفقاً عليهم ومحباً لهم.

٣ - الإيمان بالله الواحد يجب أن يكون باعثاً على اليقظة، والطاعة، والتقوى، واجتناب التكذيب بآيات الله، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ يلاحظ المرء أن جراًة قوم هود ووقاحتهم هي أكبر من قوم نوح، فإذا كان قوم نوح نعتوا نبيهم بالضلال ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فإن قوم هود ذهبوا إلى حد وصفه

بالسفه والكذب ﴿فِي سَفَاهَةٍ... مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

التعاليم:

١ - لقد واجه الأنبياء أقسى أنواع الحرب النفسية، والتضليل، والدعاية المنحرفة، وتحملوا أشكال التهم والافتراءات الباطلة. ﴿ضَلَّالٍ مُبِينٍ... سَفَاهَةٍ... الْكَذِبِينَ﴾، من أجل هداية الناس وإرشادهم يجب أن نوظن النفس على تحمّل سماع أقسى العبارات.

٢ - رحابة صدر الأنبياء وعظمتهم بلغت مبلغاً بحيث إنهم على الرغم من سماعهم كل هذه الوقاحات إلا أنهم لا يتركون مخاطبة مناوئهم بعبارة: ﴿يَقْوَرُ﴾.

٣ - لا بأس برّد التهمة عتاً، ولكن لا يجوز أن نلصقها بالآخرين، ﴿لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

٤ - الأنبياء لا يسمحون لأنفسهم ولو للحظة واحدة بارتكاب عمل غير معقول، ﴿لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ﴾؛ (في اللغة العربية، حينما تأتي النكرة بعد النفي، تحمل صيغة النفي المطلق، والمعنى هنا أنني لم أرتكب يوماً عملاً سفيهاً).

٥ - من آمن بهدفه وكان يتمتع بحماية إلهية، لا شك أن ردّة فعله تجاه إساءات الآخرين ستكون واثقة ومطمئنة، ﴿لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

٦ - لا ينبغي للمعلّم أو الداعية أن يتناسى مهمته الأصلية، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾.

٧ - التعاليم الإلهية التي يبشر بها الأنبياء هي من أجل تربية الإنسان وتدرج ضمن شؤون الربوبية الإلهية، ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

التعاليم:

١ - كلام الأنبياء وأحكامهم هي تعاليم الله ورسالاته وهم لا يأتون بشيء من عندهم، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾.

٢ - الأنبياء هم خريجو مدرسة التربية الإلهية، وتعاليمهم تصبّ في خانة الكمال

والتربية الإنسانية، ﴿رِسَالَتِي رَقِي﴾؛ لقد بذلوا غاية ما في وسعهم في سبيل الدعوة، ولم يألوا جهداً من أجل ذلك، ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾؛ وهم لا يخشون أحداً سوى الله تعالى، ﴿الَّذِينَ يَبْلِغُونَ رِسَالَتِي اللَّهَ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ﴾^(١).

٣ - الحرص والأمانة شرطان أساسان في التربية والدعوة، ﴿فَاصْبِرْ أَبِينْ﴾.

نعم، إذا لم يكن الحرص مقروناً بالأمانة، سينطوي على خطر جسيم، إذ لربما تُغمر حقوق أو تنتهك قوانين تحت ذريعة الحرص.

٤ - لا يجوز للمرء أن يزكي نفسه، اللهم، إلا إذا اضطر إلى ذلك وكان فيه فائدة للآخرين^(٢)، ﴿وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَبِينٌ﴾.

﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣)

إشارات:

□ كان قوم عاد يتمتعون بقوة بدنية عظيمة لدرجة أنهم كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٣)؟

□ «آلاء» جمع إلا أو إلى، وهي أشمل من النعم، وتضمّ النعم الظاهرة والباطنة، المادية والمعنوية يدلّ على ذلك تكرّرها مراراً في سورة الرحمن، وقيل: إنها قد تشمل أيضاً العذاب وجهنّم وهو من ضرورات العدل الإلهي^(٤).

يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ﴾، «أندري ما آلاء الله؟»، قيل: لا، قال: «هي أعظم نعم الله على خلقه وهي ولايتنا»^(٥).

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

(٢) بالاستناد إلى رواية عن الصادق عليه السلام. (تفسير (٤) التحقيق في كلمات القرآن.

(٥) الكافي، ج ١، ص ٢١٧.

نور الثقلين).

التعاليم:

- ١ - تعاليم النبي هي تعاليم الله تعالى، وهي تذكّر بالفطرة الإنسانية وتهدف إلى الارتقاء بالإنسان وتربيته، وهي من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿جَاءَكُمُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٢ - الأنبياء هم من الناس ومعهم، ﴿يَجِبُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ النَّبِيِّينَ إِذَا هُمْ يُخْرِجُكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّكُمْ﴾.
- ٣ - التحولات التاريخية والاجتماعية خاضعة لإرادة الله تعالى ومشئته، وطبقاً لسننه، ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً﴾.
- ٤ - القدرة البدنية هي من نعم الله التي ينبغي أن توظف في المجال الصحيح، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا﴾.
- ٥ - سرّ الفلاح والنجاح هو ذكر آلاء الله تبارك وتعالى، ﴿فَاذْكُرُوا... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ ذلك أنّ ذكر النعم يورث المحبة وهذه بدورها تستتبع الطاعة، والطاعة تفضي إلى الفلاح.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ إِن

كُنَّا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

التعاليم:

- ١ - اللجوء إلى التعصّب بدلاً من المنطق أمر مذموم، وتقليد الجاهل للجاهل واتباعه إرضاء لصلة القرى شيء مرفوض، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٢ - المحافظة على عادات الأسلاف وتقليدهم ليست دائماً موضع ترحيب، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٣ - التعصّب والتقليد في غير محله ستار يحجب الحقيقة، ويدفع بالإنسان إلى العناد، ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُهُ﴾.
- ٤ - أحياناً تتغلب العادة على الفطرة، كما تغلبت عادة عبادة الأصنام لدى الأسلاف على فطرة البحث عن الحق والحقيقة للجيل الجديد، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

٥ - في محاربتهم للخرافات والانحرافات، كان الأنبياء مجددين للسنن، ﴿وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ أَنْتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ (٧١)

إشارات:

□ تدل هذه الآية على بطلان أي منصب، أو لقب، أو مقام إلهي ما لم يكن بإذن الله، لا سيما في الولاية العامة، كما هو الحال مع لقب أمير المؤمنين الذي لا يستحقه أحد سوى الإمام علي عليه السلام، لذا فعندما خاطب أحدهم الإمام الصادق عليه السلام بلقب أمير المؤمنين، نهاه الإمام عن ذلك، وأخبره أن من يدعي هذا اللقب غير علي عليه السلام فمحله جهنم^(١).

التعاليم:

- ١ - عاقبة اللجاج ومصارعة الحق هي العذاب الإلهي، والعار، والهلاك، ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾؛ (عدا عن أن اللجاج هو نوع من الدنس المعنوي).
- ٢ - الإنسان موحد بالفطرة ويسعى إلى التوحيد، ولكن تتأبه أحياناً نوبة تعصب فتتحكم به، ﴿وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٣ - العقوبات الإلهية تهدف إلى إعداد الإنسان وتربيته، وهي من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - لا يمكن للحجر أو الخشب أن يصبح إلهاً لمجرد تسميته «إلهاً». (قرنا الحالي أيضاً يعاني من مشكلة الأسماء العريضة والألقاب الطنانة الخاوية)، ﴿أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا﴾.
- ٥ - معبودات المشركين أسماء بلا مسميات، وفارغة من أي حقيقة أو مشروعية،

لم يمنحها الله سلطاناً في آية شريعة، ﴿أَسْمَاءُ... مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

٦ - يجب أن تستند المعتقدات إلى الحجج والبراهين، حتى بالنسبة إلى عبدة الأوثان، ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ (اسألوا أولئك الذين يتقربون بالأصنام إلى الله تعالى: هل من دليل على أن الله جعل عبادة الأصنام وسيلة للتقرب إليه)؟!

٧ - كان الأنبياء واثقين من صحة هدفهم وانتصارهم على أعدائهم، ﴿فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ «دابر» في اللغة تعني آخر الشيء، و«قطع دابر» بمعنى أبدنا هؤلاء القوم إبادة تامة واستأصلنا شأفتهم.

□ هلك قوم عاد بأن أرسل الله عليهم لسبع ليال وثمانية أيام ريحاً عقيماً عاتية، تصم الآذان، وكانت صرصرأ وسموماً. وقد كانت الريح شديدة لدرجة أنها جعلتهم كجذوع النخل الساقطة على الأرض، ﴿فَنَزَّلْنَا الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(١).

التعاليم:

١ - الله تبارك وتعالى يشمل برحمته الأنبياء ومن تبعهم فقط، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

٢ - لناخذ العبر من دروس التاريخ، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾.

٣ - حينما ينقطع الأمل بإيمان الناس، يكون العذاب شاملاً وتاماً، ﴿وَقَطَعْنَا دَارَ... وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في القرآن الكريم ذكر ناقة ثمود ٧ مرّات، وقوم ثمود ٢٦ مرّة. كما وردت إشارات إلى قصة قوم ثمود في سور الشعراء، والقمر، والشمس، وهود.

□ تختلف المعجزة اختلافاً كبيراً عن الأعمال العجيبة والخارقة للبشر، ومن نقاط الاختلاف نذكر هنا على سبيل المثال:

(أ) لا تحتاج المعجزة إلى تمرين، أو دراسة، أو تجربة، بينما الأعمال الخارقة بحاجة إلى كلّ هذه الأمور.

(ب) تصدر المعجزة عن أناس ذوي سمعة طيبة ومعصومين، لكنّ الأعمال الخوارق قد تصدر عن أشخاص ضالّين أيضاً.

(ج) الغاية من المعجزة هي إتمام الحجّة وإرشاد الناس وهدايتهم، بينما أهداف الآخرين لا تعدو كونها أهدافاً استعراضية، تصبو إلى كسب الشهرة، والمال، وتحقيق المتعة واللّهو.

(د) إتيان الأنبياء بالمعجزات يرتبط، بالضرورة، بالتحدي وإثبات عجز الآخرين، في حين لا يلزم هذا الشرط بالضرورة للعابرة، والمخترعين، والمرتاضين.

□ جاء في الحديث الشريف أنّ قوم صالح سألوا نبيهم قَالُوا يَا صَالِحُ اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذَا الْجَبَلِ السَّاعَةَ نَاقَةَ حَمْرَاءَ شَقْرَاءَ وَبَرَاءَ عُمْرَاءَ بَيْنَ جَنْبَيْهَا مِيلٌ^(١).

طبعاً تعتمد طلبات الناس من الأنبياء أحياناً على الظروف الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية للناس في ذلك العصر، ربما لو ظهر في أيامنا هذه نبي لطالبه الناس بأن يُخرج من بطن الجبل طائرة.

على أيّ حال، فإنّ هذه الناقة سمّيت بناقة الله لكونها كانت تتميز بمواصفات إعجازية، إذ انصدع الجبل فخرجت من بطنه وهي حامل دون مزاجعة مع فحل، ووضعت حملها، فكان شربها يوماً وشربهم يوماً معلوماً، فكانت تشرب ماء القرية كلّ لتسقي جميع أهل القرية من لبنها، وهذا هو الإعجاز الذي لم يكن بوسعهم الإتيان بمثله، والحجّة الإلهية التي قابلها قوم صالح بعقر الناقة فعجل ذلك بنزول العذاب الإلهي عليهم^(١).

التعاليم:

- ١ - رسالة النبي صالح عليه السلام كانت خاصة بقوم ثمود، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.
- ٢ - الأنبياء هم بمثابة إخوة للناس، ﴿أَخَاهُمْ﴾.
- ٣ - حبّذا اللّجوء إلى أسلوب استشارة العواطف في الدعوة والتربية، ﴿يَنْقُورُ﴾.
- ٤ - الإيمان بالله قديم قدم التاريخ، ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ الأمر بعبادة الله دليل على إيمان الناس ومعرفتهم بالله.
- ٥ - دعوة الأنبياء تتمحور حول التوحيد، ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾.
- ٦ - اتّخاذ العمل وجهة معيّنة يكون على أساس العقيدة والفكر، تقول الآية الكريمة: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ لأنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
- ٧ - أهداف الأنبياء واحدة، إذ إنّ عبارة ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، هي مقولتهم جميعاً.
- ٨ - تقديم الأنبياء البراهين والمعاجز يندرج في مسار تربية الناس، مضافاً إلى أنّه شأن من شؤون الربوبية، ﴿يَبَيِّنُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. طبعاً، لا شك في أنّ

المعجزات جاءت أحياناً استجابة لطلب الناس، مثل شق القمر وناقة صالح.

٩ - أي شيء شملته العناية والألطف الإلهية حلت فيه القداسة، ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾.

١٠ - عقوبة الإساءة إلى المقدسات وإتلافها هي العذاب الإلهي، ﴿وَلَا تَمْسُوهُا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَذَكَّرُونَ مِنْ سُوءِهَا فَصُورًا وَتَنجِبُونَ الْجِبَالَ بَيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ «لا تعثوا» مشتقة من مادة «عثو» وهو الميل عن خط الاعتدال، والجنوح نحو الفساد و«لا تَعْتُوا» أي «لا تفسدوا»، وكلمة «المفسدين»، إما للتأكيد أو بمعنى أن لا تتخذوا الفساد طريقاً ونهجاً، والمقصود بـ«في الأرض»، هي البلاد بين الحجاز والشام.

□ سكن قوم ثمود في أرض تنوّع على طبيعتين جغرافيتين هما السهول والجبال، ﴿سُوءِهَا... الْجِبَالُ﴾ وكانوا على قدر عالٍ من الثروة، والحضارة، والتمدّن، واشتهروا بفنون العمارة وبناء البيوت والقصور، ﴿فُصُورًا... بُيُوتًا﴾.

التعاليم:

١ - التحولات التاريخية والاجتماعية تخضع للقوانين والسنن الإلهية، ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾.

٢ - كلّ ما نملك من إمكانات في الحياة هو من فضل الله تبارك وتعالى، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ - فلتعظ من سيرة الماضين، ﴿وَأَذْكُرُوا... مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾.

٤ - بمقدور الإنسان أن يسخر جميع الظروف الطبيعية لصالحه، ﴿سُوءِهَا... الْجِبَالُ﴾.

- ٥ - المسكن هو من النعم الإلهية الخاصة، ﴿قُصُورًا... يُؤْتَا... ءَالَآءَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - الرفاهية، والمسكن، والقصر... إذا انفصلت عن ذكر الله تصبح مرتعاً للفساد، ﴿قُصُورًا... يُؤْتَا... مُفْسِدِينَ﴾.
- ٧ - إذا نظرنا إلى النعم بوصفها ودائع إلهية، وعرفنا أن هذه الدنيا ممر لا مقر، بلا شك سنحترز من ارتكاب الظلم والتعدي، ﴿وَأَذْكُرُوا... وَلَا تَغْتَوُوا﴾.
- ٨ - المترفون، والأغنياء، وسكان القصور الذين يرفلون في النعيم والرفاهية، هم أكثر حاجة إلى ذكر الله لئلا ينجحوا صوب الفساد، (لاحظ أن كلمة «قصر» توسّطت كلمتي «اذكروا»^(١)).

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمْلِكُونَ أَنْ مَكِيلًا تَرْسَلُ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

التعاليم:

- ١ - في العادة يتخذ المستكبرون وأصحاب النفوذ موقفاً معادياً لنهج الأنبياء، وينسبون إلى إثارة الشبهات في أوساط المؤمنين، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾.
- ٢ - لا الفقر ولا الاستضعاف قيمة وفخر، ولا الثروة والترف والارستقراطية، بل القيمة تكمن في اختيار النهج الإلهي بوعي، وعلم، وإيمان، وتقوى، وجهاد، وهجرة. (اعتبرت الآية السابقة بناء القصور نعمة إلهية، شرط أن لا يجرّ الإنسان إلى الفساد، وهنا تثنى الآية الكريمة على المؤمنين من المستضعفين وليس جميع المستضعفين)، ﴿ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾.
- ٣ - أكثر أتباع الأنبياء هم من المستضعفين، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾.

(١) هذا إذا كان القصر هو بالمعنى المعروف في عصرنا الحالي، لا بمعنى البيت العادي.

- ٤ - إيمان المستضعفين بالأنبياء لا يعود إلى العامل المادي وحده، بدليل أنه يوجد مستضعفين لم يؤمنوا، ﴿ءَاَمَنَ مِنْهُمْ﴾.
- ٥ - زرع بذور الشك والترديد هو من أساليب إضعاف الإيمان، ﴿أَتَقْلُمُونَ﴾.
- ٦ - إضعاف القائد هو أحد الأساليب والأهداف الرئيسة للعدو، ﴿أَتَقْلُمُونَ أَتَكْ مَكِيلًا مَّرْسَلًا﴾.
- ٧ - صحيح أن للبيئة والمجتمع تأثيراً على الفرد، إلا أنه لا يترتب على ذلك إكراه. (لقد وقف المستضعفون المحرومون علناً بوجه المستكبرين وقالوا للنبي صالح ﷺ: «إِنَّا نُؤْمِنُ بِكَ»)، ﴿إِنَّا بِكَ أَزِيدَ بِدْ مُؤْمِنُونَ﴾.
- ٨ - شبهات المخالفين تستدعي ردّاً حازماً وقاطعاً، ﴿إِنَّا بِكَ أَزِيدَ بِدْ مُؤْمِنُونَ﴾.
- ٩ - يجب الإيمان بجميع وصايا النبي وتعاليمه، ﴿بِكَ أَزِيدَ بِدْ مُؤْمِنُونَ﴾.
- ١٠ - علاوة على الكفر واللجاج الذي يبيده المستكبرون، فهم يشعرون بحساسية تجاه إيمان المستضعفين. فالآية تقول: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَاَمَنْتُمْ بِدْ كَفِرُونَ﴾، وليس: «إِنَّا به كافرون».

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَيْنَا يَمَّا نَعِدُنَا

إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧)

إشارات:

- «عقر»، بمعنى قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة.
- وقد جاءت لفظة «عَقَر» في سورة القمر في صيغة المفرد، ما يشير إلى أن قاتل الناقة كان شخصاً واحداً، بينما وردت هنا وفي سور الشمس والشعراء وهود في صيغة الجمع، «عَقَرُوا»، إذ ينسب عملية عقر الناقة إلى جميع القوم، ويعزى السبب إلى التزامهم الصمت ورضاهم بالعمل ما يجعلهم شركاء في

الجريمة والإثم. ويؤكد على ذلك خطبة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةٌ ثَمُودَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿نَمَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نَذِيرِينَ﴾ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ حَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُورَ السَّكَّةُ الْمُخَمَّاءُ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ»^(١).

التعاليم:

- ١ - الكفر هو مقدّمة للعدوان، ﴿كَفَرُوا فَمَقَرُوا﴾.
- ٢ - التزام الصمت والرضى بالمعصية، بمثابة اشتراك في الجريمة. استخدمت الآية الكريمة صيغة الجمع «عقروا» على الرغم من أنّ القاتل هو شخص واحد.
- ٣ - العصيان والتمرد على الأمر أعظم من قتل الناقة، ﴿وَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.
- ٤ - الأحكام الإلهية نابعة من ربوبية الله تبارك وتعالى، ﴿أَمْرُ رَبِّهِمْ﴾.
- ٥ - التكبر هو مقدّمة للوقاحة والصلف، ﴿أَفْتِنَا يَمَّا تَعْدُنَا﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾

إشارات:

- تشرح الآية الكريمة هلاك قوم ثمود بالرجفة أي الزلزلة، ولكن ذكرت الآية ١٧ من سورة فصلت، والآية ٤٤ من سورة الذاريات أنّ العذاب كان بنزول الصاعقة عليهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، على هذا، ربّما وقع العذابان الصاعقة والزلزلة في لحظة واحدة وبالتزامن، أو ربّما كان المراد بالرجفة هو الرعشة التي أصابت البدن بسبب الهلع والفرع الشديد، وليس وقوع الزلزلة.
- «جائهم» في الأصل مشتقة من مادة «جَثم» بمعنى القعود على الركب، والتوقف

في مكان واحد، ولا يبعد أن يكون في هذا التعبير إشارة إلى أن الزلزلة والرجفة جاءتهم وهم في حالة نوم هنيئة، فجلسوا على أثرها فجأة، وبينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفة، بل ماتوا وهم على هذه الهيئة، إِمَّا خوفاً وإِمَّا بسبب انهيار الجدران عليهم، وإِمَّا بفعل الصاعقة التي رافقت الزلزال^(١).

التعاليم:

- ١ - لنكن يقظين، فالغضب الإلهي ينزل بغتة، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.
- ٢ - كم من زلازل وكوارث طبيعية كانت بمثابة عذاب إلهي، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.
- ٣ - وعود الأنبياء سوف تتحقق لا محالة؛ لذا علينا أن نأخذ نُذْرَهُمْ مأخذ الجد. (الآيات السابقة استخدمت لغة التهديد، ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَسْؤَوْ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فجاءتهم الرجفة وكانت تنفيذاً للتهديد بنزول العذاب الأليم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾).

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ (٧٩)

إشارات:

□ يحتمل أن يكون كلام النبي ﷺ إلى قومه قبيل نزول العذاب، وكان لإتمام الحجّة عليهم، ولكن لا يستبعد أيضاً أن يكون بعد نزول العذاب وهلاكهم، فكثيراً ما تتمّ محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام، كما فعل رسول الله ﷺ، إذ وقف على القلب وقد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين فناداهم بأسمائهم وكلمهم، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا روح فيها... فقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٢).

التعاليم:

- ١ - أحياناً يستوجب الأمر في مسألة التربية والدعوة اللجوء إلى الإعراض، والخصام، وقطع العلاقة، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.
 - ٢ - نزول العذاب الإلهي يكون بعد إتمام الحجة، ﴿لَقَدْ أَتَيْنُكُمْ﴾.
 - ٣ - يتمثل نهج الأنبياء في إبلاغ الرسالة في إطار الرأفة وحب الخير، لا الإبلاغ الفظ الشديد على طريقة إبلاغ القوانين والتعميمات الإدارية، ﴿لَقَدْ أَتَيْنُكُمْ... وَفَصَحَّحْتُ لَكُمْ﴾.
 - ٤ - أجدر بنا أن نكنّ الحب للناصحين، لأنّ تجاهل نصائح المشفقين في المجتمع سيمهد لنزول الغضب الإلهي، ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾.
 - ٥ - المحبة هي مفتاح الطاعة والاتباع، ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾.
- ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِئُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

□ النبي لوط عليه السلام هو ابن أخ النبي إبراهيم عليه السلام، وكان الرجل الوحيد الذي آمن به وهاجر معه، ﴿فَقَامَنَّ لَهُ لُوطٌ﴾^(١) أرسله النبي إبراهيم إلى قرية شاعت فيها المعاصي، والرذيلة، والفساد الجنسي، لذا، كان الجزء الأهم من رسالته هو محاربة الفساد والشذوذ الجنسي، الذي كان يشكل المعضلة الأكبر في المجتمع آنذاك.

□ كان قوم لوط يرتكبون الفاحشة مع ضيوفهم حتى لا يجرؤ الضيوف على دخول قريتهم. وبحسب ما جاء في القرآن الكريم فإنّ النبي لوطاً عليه السلام عرض على قومه الزواج من بناته، إلّا أنّهم رفضوا عرضه هذا.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

□ للزواج آثار وخصائص عدّة لا يتوقّر عليها اللواط أو الزنا، نذكر منها:

١ - خلق المودة، والرحمة، والأنس في الزوجين.

٢ - تشكيل النظام الأسري.

٣ - الإنجاب وبقاء النسل.

٤ - انسجامه مع الفطرة الإنسانية.

□ ممّا يؤسف له حقّاً أنّ البلدان الغربيّة أصبحت اليوم تعترف بالمثلية الجنسيّة بتشريع قانوني.

□ كان قوم لوط، علاوة على اللواط، يمارسون القمار، وبذاءة الكلام، والإساءة، والتحرّش الجنسي بالمارة، وكانوا يكشفون عن عوراتهم في الطرقات والمجالس العامة^(١).

□ نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله: لِمَ حرّم الله اللواط؟ فقال سلام الله عليه: «من أجل أنّه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل وتعطيل الفروج وكان في إجازة ذلك فساد كبير»^(٢).

□ عقوبة المثلية الجنسيّة واللواط في الإسلام الإعدام (للفاعل والمفعول).

□ يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»^(٣).

□ كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الذَّكَرَ لَيَرْكَبُ الذَّكَرَ فَيَهْتَرُ الْعَرْشُ لِذَلِكَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى فِي حَقْبِهِ فَيَخْبِسُهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَقْرُعَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى جَهَنَّمَ فَيُعَذَّبُ بِطَبَقَاتِهَا طَبَقَةً طَبَقَةً حَتَّى يُرَدَّ إِلَى أَسْفَلِهَا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا»^(٤).

التعاليم:

١ - المثلية واللواط من الكبائر وعملٌ غاية في القبح، ﴿الْفَحِشَةُ﴾.

(١) سفينة البحار.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه؛ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٤٩.

٢ - قد يقال: إنَّ عذر عبدة الأصنام أنَّهم كانوا يقلّدون أسلافهم، إلّا أنَّ أهل الفاحشة لم يكن لديهم هذا العذر، إذ كانوا السابقين في مجال ابتداع هذه الجريمة والمعصية، ﴿وَمَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾.

٣ - المبتدعون للأعمال القبيحة يرتكبون الكبائر ويستحقّون التقريع واللوم، ﴿وَمَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾.

٤ - من تجاوز السبل العادية والفطرية فهو مسرف، ﴿مُسْرِفُونَ﴾؛ وإشباع الغريزة الجنسية من غير الطريق الطبيعي هو إسراف.

٥ - اللواط هو اعتداء على حقوق المرأة في المجتمع، ﴿مِنْ دُونِ الْإِسْكَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ

يَنْظَهُرُونَ﴾

إشارات:

□ الملاحظ أنَّ تعبير «أخاهم» لم يستخدم مع النبي لوط كما حصل مع بعض الأنبياء، ولعلَّ ذلك يعود إلى أنَّه جاء من منطقة أخرى، يدلُّ على ذلك استخدام الكفار لتعبير «قريتكم» للإشارة إلى أنَّه شخص مهاجر لا ينتمي إلى قريتهم، أو أنَّه غريب عنهم لأنَّه لم يقبل بعباداتهم وتقاليدهم، وعلى ذلك يجب إخراجه من القرية.

التعاليم:

١ - من الأمور القبيحة والمذمومة التصدّي اللامنطقي للناصحين، ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ...﴾.

٢ - إذا أردنا النهي عن المنكر فيجب أن نستعدَّ للنفي وتحمل الصعاب والشدائد في هذا الطريق، ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾.

٣ - لا يرى المجرم للمتطهرين حقاً في المجتمع، ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾.

٤ - حينما ينتشر الفساد في المجتمع، يعمل الفاسدون على عزل المتطهرين، ويضحى النهي عن المنكر والطهارة جريمة، ﴿أَخْرِجُوهُمْ... إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

٥ - أهم من الطهر، البقاء عليه، والعمل على أن يئأس الأشرار من استخدام نفوذهم، «يتطهرون» (فعل مضارع يدل على الاستمرارية).

﴿فَأَنبِئَنَّهُ وَآهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ﴾

إشارات:

□ «غايِر»، يقال لمن ذهب أهله وفنوا وبقي هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

□ «الأهل»، يقال لذوي القربى من الدائرة الضيقة، وكذلك للأتباع الخالص، ولكن في ضوء الآية ٣٦ من سورة الذاريات، فإنه عدا أقاربه المقربين، لم يؤمن أحد بالنبي لوط عليه السلام.

التعاليم:

١ - الإنسان حرّ ومختير، يختار طريقه بنفسه. (فعلى الرغم من أن زوجة النبي لوط قد نشأت في بيت الوحي والنبوة، إلا أنها اختارت لنفسها طريق الكفر، بينما اختارت زوجة فرعون طريق الإيمان والتوحيد)، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾ بناءً على ذلك، فإن الفكر، والأخلاق، واتخاذ القرار هي أمور لا ترتبط دائماً بالعوامل الاقتصادية أو صلات الأفراد.

٢ - في الإسلام، الرابطة العقدية هي حبل النجاة وليس رابطة القرابة، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾، إذن، مصير كل فرد رهن بعمله.

٣ - يجب التمييز بين القادة الإلهيين وبين ذويهم، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾.

٤ - ينظر الإسلام إلى المرأة ككائن مستقل شأنها شأن الرجل، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾، ومن ناحية ثانية، لا ينبغي أن تغطي قداسة الفرد ومكانته على أخطاء ذويه ومعاصيهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾

إشارات:

□ كان عذاب قوم لوط أن أمطرهم الله بالشهب والنيازك وأبادهم عن بكرة أبيهم، إذ يقول ﷻ في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّضْمُورٍ﴾ سُورَةُ هُودٍ عِنْدَ رَبِّكَ^(١).

التعاليم:

١ - تحوير طريق الفطرة (بإشباع الغريزة الجنسية عن طريق اللواط) يستتبع تبدل النعم. لقد نزلت من السماء شهبٌ ونيازك بدلاً من المطر، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾.

نقرأ في دعاء كميل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النَّعْمَ»^(٢).

٢ - العذاب الإلهي لا يختص بالآخرة وحدها، بل أحياناً ينزل في هذه الدنيا أيضاً، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾.

٣ - لنا في مصائر الآخرين دروس وعبر، ﴿فَأَنْظَرُوا... عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٤ - عذاب الله لا يختص بفئة من المجرمين، بل هو إنذار لكل المجرمين بأن لا استثناء في سنة الله، ﴿عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ تستعرض هذه السورة فصلاً خامساً في قصص الأنبياء. إنها قصة شعيب عليه السلام

التي وردت في عدد من السور الأخرى مثل هود والشعراء.

□ مَدِين، هي إحدى مدن الشام، يشير موقعها الجغرافي إلى أنها تقع على مقربة من الأردن وتسمى اليوم مدينة معان، اشتهرت بطبيعتها الخضراء، وكان أهلها يمارسون التجارة ومنغمسين في الترف والنعيم، وساد بينهم التطفيف في المكيال والميزان والبخس في المعاملات. حتى بعث الله تبارك وتعالى إليهم النبي شعيباً ﷺ فلم يؤمنوا بدعوته عناداً ولجاجاً، فكانت عاقبتهم أن أرسل الله إليهم عذاباً مهلكاً. بعد ذلك بُعث النبي شعيب ﷺ إلى أصحاب «الأيكة» ليدعوهم بدعوة الإيمان والتوحيد، لكنهم، على غرار قوم مدين، كذبوا بآيات الله فكانت عاقبتهم الهلاك أيضاً، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ...﴿(١)﴾.

ثمة احتمال بأن «مدين» هي نفسها «الأيكة» ذلك أن الأيكة تقال للأجمة أو المنطقة التي تزدهم بالنخيل والشجر الملتف؛ وبهذا تكون مدينة شعيب واحدة ولكن لها اسمين: مدين والأيكة.

□ يكون الكافر، دائماً، عرضة للانحراف والفساد، ويتلون الفساد في كل عصر بلون خاص؛ فمثلاً في عصر النبي لوط تمثل في اللواط والانحلال الأخلاقي، وفي عصر النبي شعيب تجلّى في صورة التطفيف، وبخس الأشياء، والفساد الاقتصادي.

التعاليم:

- ١ - تعامل النبي شعيب مع قومه كان تعاملًا مشفقًا وأخوياً، ربّما كانت تجمعهم بهم صلة قرابة، ﴿أَنَاهُزْ شُعَيْبًا﴾.
- ٢ - لا بد أن تقتن الدعوة والتربية بالعواطف والحب، ﴿قَالَ يَنْفَرُ﴾.
- ٣ - التوحيد هو قطب الرحي في دعوة الأنبياء، ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ...﴾.
- ٤ - معاجز الأنبياء وبراہينهم تندرج في إطار كمال الإنسان وتربيته، وهي ترتبط

بربوبيّة الله تبارك وتعالى، ﴿يَسْتَعِثُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

٥ - بعد الشرك والانحراف العقدي، تعتبر الانحرافات الاقتصادية المسألة الأخطر التي كان قوم شعيب يمارسونها، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ... فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾.

٦ - ممارسة التطفيف والغش في المعاملات وبخس الناس أشياءهم والإخلال بالاقتصاد معاملات محرمة وهي من أمثلة الفساد، ﴿وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا يَقْسِدُوا﴾.

٧ - للأنبياء إحاطة بالقضايا الاقتصادية للمجتمع، لأن هدفهم سلامة المجتمع والارتقاء بمستوى معيشة أفرادهم، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا ينفصل الدين وبرامجه عن الحياة الدنيا.

٨ - التلکؤ في العمل كالتطفيف، لاحظ أن الآية الكريمة لم تقل «أموالهم» بل ﴿أشْيَاءَهُمْ﴾ لتشمل كل شيء.

٩ - الإيمان الكامل والاقتصاد السليم المعافى، هما الضمانة لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

١٠ - نُذِرُ الأنبياء وتعاليمهم، تفيض بالخير وتوجب السعادة للإنسان، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

١١ - الإيمان ضمانه العمل والكسب الصحيح وتحقيق العدالة الاجتماعية، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَّرَكُمُ وَانْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

إشارات:

□ ربما كان المراد بالجلوس في الطرقات، القعود في الطرقات والأزقة لإثارة الفتن، وقيل: المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها من أي باب وبأي أسلوب، ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الآية ١٦ عندما أقسم الشيطان

أن يكمن للإنسان ليضلّه عن طريق الحقّ، ﴿لَأَقْنَدَنَّ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لذا فليس المراد به القعود على الطرق حقيقة.

التعاليم:

- ١ - أعداء الحقّ ينصبون الكمائن للناس ليصدّوهم عن سبيل الله، ويتوسّلون كلّ طريقة ووسيلة، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾.
- ٢ - إرهاب الناس، والتحرّش، وقطع الطرق حرام، ﴿تُوَعِّدُونَ﴾.
- ٣ - يحاول الأعداء تحريف ملامح الدين وتشويهها، ﴿وَتَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا﴾.
- ٤ - أحياناً تكون زيادة النسل قيمة (إذا اقترنت بالتخطيط والدقة)، ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾.
- ٥ - أحد عوامل تربية الناس وهدايتهم تأمل نعم الأسلاف واستذكار ما آلت إليه مصائرهم، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا﴾.
- ٦ - يوصي الله تبارك وتعالى بدراسة التاريخ وأخذ العبر من وقائعه، ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ...﴾.
- ٧ - عندما تطالع حياة الناس، تأمل عاقبة أعمالهم، وليس فقط نعيمهم وترفهم المؤقت، ﴿عَاقِبَةُ﴾.
- ٨ - الصدّ عن سبيل الله وتحريفه، أحد أنواع الفساد، ﴿وَصُدُّوهُ... عِوَجًا... الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

إشارات:

□ كان معارضو شعيب يقولون بجرأة ووقاحة: أين العذاب الذي وعدتنا به. وفي المقابل كان أتباع شعيب من المؤمنين ينتظرون نزول المدد الإلهي. لذا فالآية الكريمة هي جواب لكلا الفريقين، لئلا يغترّ الكفّار بكفرهم، أو ييأس المؤمنون من رحمة الله.

التعاليم:

- ١ - مسؤولية النبي إبلاغ أحكام الدين والتعاليم الإلهية، ﴿أُزِيلْتُ﴾ والناس أحرار في قبول الدعوة أو ردها، ﴿طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا... وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا﴾.
- ٢ - من شروط مدرسة الأنبياء الإيمان بهدفهم ونهجهم، ﴿أُزِيلْتُ﴾ بمعنى الإيمان بما جاؤوا من أجله.
- ٣ - تجب دراسة تاريخ فريقى الحق والباطل في ضوء مآل كل منهما، ﴿فَأَصْبِرُوا﴾.
- ٤ - لا يفزع المرء من نزوع فريق من الناس إلى الكفر، فالله هو الحكم، ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾.
- ٥ - من علم أنّ الله خير وأقوى حكم فسيصبر، ولن يستعجل العذاب أو الثواب، ﴿فَأَصْبِرُوا... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، كما إنه لن يخشى حكم الآخرين.

الجزء (٩)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾

إشارات:

- لقد مورس التعسف والتهديد بالنفي تقريباً مع كلّ الأنبياء، إذ نقرأ في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(١).
- لم يكن أحد من الأنبياء قبل اصطفائه للرسالة مشركاً أو عابد صنم؛ ولكن كان تعاملهم مع المشركين برفق ولين. لكنهم بعد الرسالة، أخذوا يهدون الناس بعزم وإرادة أقوى، ويتصدّون للمشركين، من هنا نجد أنّ خطاب ﴿لَنَعُودَنَّ﴾ موجه إلى أتباع الأنبياء لا إلى الأنبياء أنفسهم^(٢).

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٣.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

- ١ - الملاً المستكبرون (علية القوم) كانوا أعداء الأنبياء، ﴿الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا... لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.
- ٢ - الاستدلال والمنطق هو نهج الأنبياء، ﴿جَاءَكُمْ بِحُجَّةٍ﴾^(١)، بينما نهج الكفار هو التهديد والطغيان، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.
- ٣ - على الدعاة أن لا يخشوا تهديدات المعارضين؛ لأن طريق الدعوة محفوف دائماً بالتهديد، والقتل، والنفي، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾.
- ٤ - فرض العقائد هو أسلوب الكفار، ولا خير في اعتناق الدين بالإكراه، ﴿لَتَعُوذَنَّ فِي مَلِئَتًا... كَرِيمِينَ﴾.
- ٥ - ينبغي الأدب والخطاب اللين والحكيم في التصدي لجهل الكفار، ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِيمِينَ﴾.

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

إشارات:

□ الملة كالدين، اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه^(٢)، ونقرأ في آية أخرى ﴿تِلْكَ آيَاتُكُمْ لِرَبِّهِمْ﴾^(٣).

□ «الفتح»، هنا جاءت بمعنى القضاء والحكم لفتح الطريق، والمقصود أن الكلمة الفصل هي لله تبارك وتعالى والتي تفتح الطريق المسدود.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٨.

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٢) مفردات الراغب، مادة «مل».

□ لم يكن تصديق أتباع شعيب عليه السلام بدعوته ناجماً عن هوى أو نزوة بل عن بيّنة واستدلال؛ ولذلك فهم متمسكون بدينهم ولن يتخلّوا عنه إلّا أن يأمر الله تبارك وتعالى بذلك. وهيهات أن يأمر سبحانه بالعودة إلى الشرك والكفر؛ لأنّ الذي يعود عن قراره، عادةً، يفعل ذلك بسبب ندمه عليه، والله ليس كذلك أبداً.

التعاليم:

- ١ - إنّ الارتداد والعودة عن أهداف الحقّ وعقائده والقبول بشريك لله تعالى هو نوع من الافتراء على الله ونقض لعهد، ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ﴾.
- ٢ - الشرك أسر وقيد، والتوحيد نجاة، ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ﴾.
- ٣ - لا يجوز للمؤمن أن يجنح عن طريق الحقّ ويساوم على عقائده أبداً، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا...﴾. (لا يجوز الرجوع إلى الوراء، وليس التساهل أو التسامح فضيلة أو قيمة في جميع الأحوال).
- ٤ - الهداية والضلال يقعان في دائرة الإرادة الإلهية، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.
- ٥ - سبب التسليم لله تعالى والإذعان لربوبيّته هو علمه اللامتناهي، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.
- ٦ - سبب توكلنا على الله كذلك هو علمه المطلق الذي يحيط بكلّ شيء، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.
- ٧ - فلنستعن بالله تبارك وتعالى ونتوكل عليه من أجل أن يثبت قلوبنا على الإيمان، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.
- ٨ - يجب التصدّي بحزم لعروض الأعداء المشبوهة وبعد التوكل على الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا... تَوَكَّلْنَا﴾.
- ٩ - الإنابة إلى الله مثال التوكل عليه سبحانه والتسليم له، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ...﴾.
- ١٠ - من الضروري مراعاة التناسب بين الطلبات وبين الأسماء الإلهية عند الدعاء. فعندما يكون الطلب تحقيق الفتح، من الأنسب أن ندعو الله بخير الفاتحين، ﴿افْتَحْ... وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

١١ - من مستلزمات التحكيم العادل والسليم العلم والمعرفة الشاملة. التحكيم استحقاق لمن يعرف كل شيء، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا... رَبَّنَا أَفْتَحْ﴾.

١٢ - القضاء والتحكيم شأن من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ﴾.

١٣ - هدف الأنبياء إعلاء كلمة الحق لا كلمتهم هم، ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعْبًا إِنَّا لَخَيْرُونَ ﴿١٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ جاء في شأن قوم شعيب - في الآية الحاضرة - أنّ هلاكهم كان «بالزلزال» وفي الآية ٩٤ من سورة هود أنّه «صيحة سماوية» وفي الآية ١٨٩ من سورة الشعراء أنّه «ظلة من السحاب القاتل» وتعود كلّها إلى موضوع واحد وهو أنّ العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة اندلعت من قلب السحب الكثيفة المظلمة، واستهدفت مدينتهم، وعلى أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصيّة الصواعق العظيمة) ودمّر كلّ شيء^(١). وربما أمكن تفسير «الرجفة» بأنّها الاضطراب أو الرعشة التي أصابت الناس جراء الفزع والهلع الشديد، وليس المقصود بها الزلزال.

□ مرّ في الآية ٧٨ من هذه السورة، أنّ «جائماً» تعني القعود على الركب، والتوقّف في مكان واحد، وفقدان القدرة على الوقوف.

التعاليم:

١ - في العادة، كان وجهاء الأقاليم معارضين للأنبياء، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾.

٢ - اللجوء إلى التهديدات المادية والاقتصادية من أساليب الكفار في صد الناس عن اتباع الأنبياء، (حينما يوقنون بأنهم لن يتزحزحوا عن إيمانهم)، ﴿إِنَّكُمْ إِذَا

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

لَخَيْرُكُمْ ﴿٩٢﴾ ، فالكفار يرون في حرمانهم من التطفيف ومن الدخل الذي كان يدرّ عليهم، خسارة.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾

إشارات:

□ «يَغْنَوْا» مشتقة من «غنى»، وتعني الإقامة في المكان، ولا يبعد أن يكون المفهوم الأصلي للغنى هو عدم الحاجة، لأن من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.

□ الخسران الكبير سيكون من نصيب المشركين الذين اختاروا الشرك بالله على التوحيد، واتبعوا الآخرين بدلاً من القائد المعصوم. لذلك، فقد عاقبهم الله بخراب بيوتهم بدلاً من العيش الآمن، والدخول في جهنم بدلاً من الجنة، وبالغضب الإلهي بدلاً من رضوانه ومغفرته.

التعاليم:

- ١ - لتعظ من المصير الأسود للكفار، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾.
- ٢ - خداع أهل الباطل، هواء في شبك، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ (كان الكفار يرومون طرد شعيب من قريتهم، فأهلكهم الله في ديارهم).
- ٣ - عندما تحين ساعة الغضب الإلهي، سوف يتبين من هو الخاسر الحقيقي، ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ (في الآية السابقة، اعتبر الكفار أن أتباع شعيب هو الخسران المبين، وهنا يقول الله ﷻ: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾).

﴿فَنُؤَلِّهِمْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرُسُلٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى

عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾

التعاليم:

- ١ - العذاب الإلهي يأتي بعد إتمام الحجة، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ... أَتَيْتُكُمْ بِرُسُلٍ مِنِّي﴾.

- ٢ - للموعظة، والمداراة، ومراعاة الناس حدود، إذ تقتضي الضرورة، أحياناً، الإعراض عنهم، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾.
- ٣ - لا بد أن تكون الدعوة في إطار المحبة والحرص، ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَفَصَحْتُ﴾.
- ٤ - لا تخلط بين المواعظ وحب الخير وبين المصالح الشخصية، ﴿وَفَصَحْتُ لَكُمْ﴾.
- ٥ - ما دمتا نؤدي واجبنا، فلا نقلق لما سيحدث، ﴿أَبْلَغْتُكُمْ... فَكَيْفَ ءَاسَى﴾.
- ٦ - لا يجوز إبداء الأسى والعطف في غير محلّهما، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾.
- (وقد ورد في آيات أخرى خطاب للنبي الكريم ﷺ بعبارة: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)).
- ٧ - حين تسود روح الكفر، واللجاج، والعناد، لا يتبقى لمواعظ الأنبياء أي تأثير، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤)

إشارات:

□ «البأساء»، تقال للحوادث والمكاره التي تصيب الجسم من قبيل المرض والموت، أما «الضراء» فتطلق على الأضرار والخسائر المالية.

التعاليم:

- ١ - الشدائد والصعاب، هي سنة إلهية سارية على جميع الأمم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا...﴾.
- ٢ - الصعاب والمشاكل مدعاة لتهذيب النفس وذكر الله وطرده الغفلة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

(١) سورة الحجر: الآية ٨٨؛ سورة النحل: الآية ١٢٧؛ سورة النمل: الآية ٧٠.

٣ - الشدائد ليست دائماً علامة على غضب الله تعالى، أحياناً يكون اللطف مؤثراً بالبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾؛ (كما إنَّ النار تعمل على صهر الحديد وتطويعه ليَتَّخِذَ الشكل المطلوب، كذلك هي المصائب والشدائد تعمل على تطويع الإنسان وتليينه وتسوقه صوب حالة التضرع والدعاء).

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

إشارات:

□ «عَفَوْا» من مادة «عفو»، التي تكون أحياناً بمعنى كثرة المال والأبناء، وأحياناً بمعنى الترك والإعراض. لقد أفاض الله تبارك وتعالى على هؤلاء من لطفه الوفير، لكنهم لم ينتبهوا من غفلتهم ولم يرعوا أو يتعظوا. ورد نظير هذا المضمون في الآية ٤٤ من سورة الأنعام ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. مثل المريض الذي ييأس الطبيب من شفائه، فيقول: فليأكل ما انتهى من الطعام، فلا فرق، لأنه لا أمل يُرجى منه.

□ قد يكون للآية الكريمة تفسير آخر من قبيل: بعد رفع البلاء قال الجيل اللاحق: المكاره والبلايا كانت لأبائنا، فنحن في مأمن منها^(١). متناسين أنَّ سنة الله تعالى تقضي باختبار جميع الأجيال بالبلاء، وهذا النمط من الغفلة يفتح الباب أمام العذاب الإلهي.

التعاليم:

١ - أحياناً يكون الترف، والمعرفة، والتحليلات المغلوطة عوامل للنسيان والطفیان، ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ﴾.

- ٢ - ليس كلّ ترف أو رفاهية دليلاً على اللطف الإلهي، فأحياناً يكون ذلك تمهيداً لنزول العذاب الإلهي، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا... فَأَخَذْتَهُم بِقُنَّةٍ﴾.
- ٣ - معظم الراسبين في الامتحانات الإلهية هم من المترفين لا المحرومين، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا...﴾.
- ٤ - العذاب الإلهي يأتي، أحياناً، بغتة دون سابق إنذار، ﴿بَغْتَةً﴾.
- ٥ - التعلّق بحبائل الدنيا والغفلة عن ذكر الله تبارك وتعالى، تضطرّ الإنسان إلى عذاب مباغت ومفاجئ، ﴿فَأَخَذْتَهُم بِقُنَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١١)

إشارات:

□ «بركات» جمع «بركة»، تعني في الأصل الثبات والاستقرار، وتطلق على كلّ نعمة وموهبة دائمة لا تزول، وذلك في مقابل الموجودات العارية عن البركة، وسريعة الفناء والزوال والخلالية من الأثر. وينطوي معنى «البركة»، على الوفرة والخير والنماء. وتشمل البركات المادية والمعنوية معاً مثل بركة العمر، والأموال، والعلم، والكتاب، و... إلخ.

□ سؤال: إذا كان الإيمان والتقوى سبب نزول البركات، إذن، لماذا ترفل الدول غير المؤمنة في الرخاء وأوضاع أفضل، فيما تعاني البلدان الإسلامية عسراً ومعضلات لا حصر لها؟

الجواب: أولاً: لا شكّ في أنّ تلك الدول أحرزت تقدماً هائلاً على الصعيد العلمي والصناعي، إلّا أنّها غارقة في حالة ممضّة من عدم الاستقرار الروحي والنفسي. إذن، لا يمكن القول إنّها لا تعاني مشاكل وأزمات.

ثانياً: إنّ معظم البلدان الإسلامية لا تحمل من الإسلام إلّا اسمه، لأنّها تركت تعاليمه وإرشاداته وراء ظهورها.

وزيادة على ذلك، فإن الرخاء المادي، يعدّ، أحياناً، نوعاً من العذاب والاستدراج الإلهي، كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

□ ثمة نوعان من الفتح في القرآن الكريم لفتتين من الناس:

(أ) الرخاء والفتح للأخيار والذي يكون مقترناً بالبركات، ﴿فَلَفَّحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾.

(ب) الرخاء والفتح للكفار والأشرار الذي يفتقد إلى البركة ﴿فَلَفَّحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكم من نعمة كانت سبباً في الغفلة والغرور والطغيان. فالله تبارك وتعالى يغدق على الكفار بالفتح والرفاهية لتكون وسيلة لإمهالهم ولتطفح كؤوس معاصيهم وآثامهم. بناءً على ذلك فليست كل نعمة ظاهرة دليل سلامة وعافية ينبغي أن نُسَرَّ بها، لأنها إن كانت للمؤمن فهي خير وبركة، وإن كانت للكافر فهي زائلة علاوة على كونها تمهيداً لنزول العذاب الإلهي.

□ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ يَسْأَلُ اللَّهَ الْحَاجَةَ فَيَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ قَضَاؤُهَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ أَوْ إِلَى وَفْتٍ بَطِيءٍ فَيُذْنِبُ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَلِكِ لَا تَقْضِ حَاجَتَهُ وَ اخْرِمْهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ تَعَرَّضَ لِسَخْطِي وَ اسْتَوْجَبَ الْحِرْمَانَ مِنِّي»^(٢).

□ من الأمثلة البارزة على هذه الآية عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام، حيث بحسب بعض الروايات سوف تفيض البركات في ذلك الزمان من السماء والأرض^(٣).

التعاليم:

١ - الإيمان وحده لا يكفي، بل تلزمه التقوى، ﴿ءَامِنُوا وَاتَّقُوا﴾.

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٧١.

- ٢ - الاستثمار في مجال الثقافة والقيم الروحية للمجتمع، يحمل مردوداً اقتصادياً أيضاً، ﴿ءَامِنُوا وَاتَّقُوا لَنَفِّحَنَّا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾.
- ٣ - لناخذ الوعيد الإلهي مأخذ الجد. بالإيمان والتقوى يكون نزول البركات حتمياً، (بدليل لام التوكيد الذي دخل على الفعل في ﴿لَنَفِّحَنَّا﴾).
- ٤ - الغلق والفتح بيد الله تعالى، ﴿لَنَفِّحَنَّا﴾ لكنهما انعكاس لأعمالنا.
- ٥ - الأديان السماوية تسعى إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية للناس، ﴿لَنَفِّحَنَّا عَلَيْهِم﴾.
- ٦ - ما تنزل علينا من بركات هي، في الحقيقة، جانب من البركات الإلهية، ﴿بَرَكَاتٍ﴾، (لفظة «بركات» جاءت في صيغة التنكير، وهذا يعني أنها تشمل جميع أنواع البركات).
- ٧ - الأرض والسماء منبع البركات، ﴿بَرَكَاتٍ يَنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٨ - الإيمان والتقوى مفتاح نزول البركات، ولكن ليست كلّ نعمة ورخاء مسببة عن الإيمان والتقوى، ﴿ءَامِنُوا وَاتَّقُوا... بَرَكَاتٍ﴾.
- ٩ - أعمالنا هي سبب الحرمان والمشاكل التي نواجهها، ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
- ١٠ - اللجاج والإصرار على المعصية، سبب العذاب الإلهي، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ «المكر»، في لغة العرب يعني كلّ حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضي إليه سواء أكان حقاً أم باطلاً، وقد أخذ في مفهوم هذه اللغة نوع من التدرّج والنفوذ التدريجي. وعلى هذا، فالمراد من المكر الإلهي هو أنّ الله تعالى يصرفهم بخططه المحكمة التي لا تقهر عن حياة الرفاهية واللذة دون

اختيارهم ويقطعها عليهم، وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.
 □ حتى النبي الكريم ﷺ والأئمة المعصومون ﷺ لم يكونوا يجدون أنفسهم في مأمن من مكر الله؛ لذلك كانوا دوماً يحتاطون لأعمالهم لئلا يصدر منهم خطأ أو زلة، وفي هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

□ يقول الراوي: صليت خلف أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، فسمعتة يقول: «اللهم لا تؤمتي مكرك»، ثم جهر فقال: ﴿لَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَيْرُونَ﴾^(٢).

□ ويقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا نأمن على خير هذه الأمة عذاب الله لقول الله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَيْرُونَ﴾»^(٣).

□ إنَّ عدم الأمن من المكر الإلهي، في الحقيقة، يعني الخوف من المسؤوليات والخوف من التقصير في أدائها.

التعاليم:

- ١ - احتمال وقوع الخطر كافٍ من أجل الشعور بالمسؤولية، ﴿أَفَأَمِنَ...﴾.
- ٢ - لا يغترنا سكون النظام وهدوؤه، وينبغي أن لا نأمن على أنفسنا أبداً، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى...﴾، فالعذاب لا يختص بالأمم السالفة فحسب، بل إنه سنة إلهية تشمل جميع الأمم في كل الأعصار.
- ٣ - إنَّ الله تبارك وتعالى قادر، إذا شاء، على أن ينزل العذاب في وقت لا تنفع معها حيلة ليهلك الجميع ليلاً، ﴿يَبْتَئِنَّا وَهُمْ نَابِئُونَ﴾.
- ٤ - الهدف من الاهتمام وعدم الغفلة هو بيان احتمال وقوع الخطر، ﴿أَفَأَمِنَ... أَوْ أَمِنَ﴾.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٧.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

- ٥ - اللهو في غير محله، مدعاة لنزول العذاب الإلهي، ﴿يَلْعَبُونَ﴾.
- ٦ - الحياة من دون إيمان وتقوى، لعب ولهو ليس إلا، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.
- ٧ - لا يأمن المرء مكر الله أبداً، ﴿أَفَأَمِنَ... أَوْ آمِنَ... أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، فالعيش الصحيح هو الذي يكون مزيجاً من الخوف والرجاء.
- ٨ - أولئك الذين يأمنون مكر الله وعذابه، خاسرون، ﴿فَلَا يَأْمَنُ... الْخَاسِرُونَ﴾.
- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ وَنُطْبِعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

إشارات:

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾»^(١)؛ أي إن الذنب يصبح ملكة له وعادة^(٢).

□ إن الذين يسرون في درب خاطئ ويستمرّون في السير فيه، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيئ، ويتجذّر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع في اللغة نقش صورة على شيء كالسكة)، وهذا في الحقيقة، هو أثر العمل وخاصيته. وقد نسب إلى الله تعالى أنه مسبّب الأسباب، وهو منشأ تأثير كلّ مؤثّر، فهو يهب الفعل هذه الخاصية عند تكراره، إذ يجعله «ملكة» في نفس الشخص. ولكن من الواضح والبيّن أنّ مثل هذا الضلال ليس له أيّ صفة جبرية وقهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان، وإن كان التأثير بأمر الله تعالى^(٣).

(١) سورة المطففين: الآية ١٤.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير «الاثني عشري».

التعاليم:

- ١ - الإنسان الغافل يحتاج إلى تنبيه وهو يستحق التوبيخ، ﴿أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِلَّذِينَ يَرْتُوتُ...﴾.
- أولئك الذين يصلون إلى السلطة، يجب أن يطلعوا على سيرة الحكومات السابقة، للاستفادة من التجارب الطيبة والمريرة على السواء.
- ٢ - نزول العذاب الإلهي هو بسبب ما يرتكبه الإنسان من معاصي، ﴿يَذُوقُهُمْ﴾، المعصية مقدّمة ليُختم على القلب ويُحجب عن الإنسان الفهم الصحيح، فيُحرم التوفيق والهداية.
- ٣ - عدم فهم حقائق الدين هو أحد العذابات الإلهية، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.
- ٤ - السنن التي تحكم التاريخ ثابتة لذلك فإن سيرة الماضين يمكن أن تشكل دليل عمل للآتين، (في ضوء مفهوم الآية ككل).

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

□ المراد من «القرى» هنا جميع المدن التي بُعث إليها الأنبياء مثل صالح، وشعيب، ولوط، وهود عليهم السلام، من أجل هداية الناس وإرشادهم.

التعاليم:

- ١ - يجدر بنا أن نقبس من التاريخ الجزء الذي يزخر بالدروس والعبر، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾.
- ٢ - جميع الأنبياء جاؤوا بمعاجز، ولم يدخروا بيّنة أو برهاناً واضحاً من أجل هداية الناس، ﴿رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

- ٣ - يجب أن لا تفتّر عزيمة الدعاة بسبب رفض الناس لدعوتهم؛ لأنه هكذا كان الحال على مر التاريخ، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ... فَمَا كَانُوا يَؤْمِنُوا﴾.
- ٤ - التعصّب، واللجاج، والعناد هي أسس الجحود والكفر، ﴿فَمَا كَانُوا يَؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا... الْكَافِرِينَ﴾.
- ٥ - عدم الإيمان بدعوات الأنبياء ومعجزاتهم، دليل عماء البصيرة والختم على القلب، ﴿فَمَا كَانُوا يَؤْمِنُوا... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبٍ﴾.
- ٦ - كفر الناس ولجاجهم، مدعاة لأن يختم الله تعالى على قلوبهم، ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢)

إشارات:

- المراد بـ«العهد»، إما أن يكون العهد الفطري الذي أخذه الله على جميع عباده، ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيَّءَ آدَمَ...﴾^(١)، أو يكون إشارة إلى العهد الذي كان الأنبياء يأخذونه من الناس، كأن يقول أحدهم، على سبيل المثال: إن استطعت أن تأتي بالمعجزة الفلانية أو أن تحلّ المشكلة الفلانية فسوف أؤمن بك. قيل للنبي موسى ﷺ: ﴿لَيْسَ كَشَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾^(٢)، ولكن بمجرد أن حُلّت مشكلتهم تنصلوا من عهودهم ونقضوها وتنكروا لكلّ التزاماتهم.
- لقد بيّن الله تبارك وتعالى الحقائق للبشر بواسطة الأنبياء والفطرة، لكي يسلموا بدعوتهم ويتعهدوا لهم. ولكن ما فتى فريق من الناس أن نسوا نداء الفطرة ودعوة الأنبياء، فخرجوا من نطاق الحق وانتهى بهم ذلك إلى الفسق.
- عن الإمام موسى الكاظم ﷺ: «إذا جاء اليقين لم يجز الشك»، ثم تلا هذه الآية الكريمة^(٣). ربّما كان المراد بهذا القول هو أنّ من رأى برهان الحقّ،

(٣) الكافي، ج ٢، ص ٣٩٩.

(١) سورة يس: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأعراف: الآيات ١٣٤ - ١٣٥.

وتنكر له لهوى في نفسه، انطبق عليه مثال الآية أعلاه.

□ لقد امتدح الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم الموفين بعهودهم وذم الناكثين. وقد كان امتداحه جلّ وعلا للأوفياء بأن لقبهم بألقاب عدة منها: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، ﴿الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٣) و﴿الْأَبْرَارَ﴾^(٤)، وفي المقابل ذم الناكثين عهودهم بأوصاف ذميمة من قبيل ﴿فَاسِقِينَ﴾^(٥)، ﴿كَافِرِينَ﴾^(٦)، ﴿الشَّرِكِينَ﴾^(٦)، ﴿الْخَاسِرُونَ﴾^(٧)، ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾^(٨)، ﴿قُلُوبُهُمْ فَاسِيَةٌ﴾^(٩)، و﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١٠) وفي آية أخرى أمر بوجوب قتالهم، ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾^(١١).

التعاليم:

- ١ - هلاك الأمم السالفة (التي أشير إليها في الآيات السابقة) كان بسبب نقضهم عهودهم وتمردهم، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾.
- ٢ - عند الحكم على الناس يجب مراعاة العدل والإنصاف. فالآية الكريمة تقول: ﴿لِأَكْثَرِهِمْ﴾ لا جميعهم.
- ٣ - سيرة الماضين مظلمة وقاتمة بسبب عدم انقيادهم للأنبياء وبراهينهم، لذا، ينبغي ألا نغترّ بديننا وإيماننا، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ...﴾.
- ٤ - نقض العهد علامة على الفسق، ﴿وَمَا وَجَدْنَا... مِنْ عَهْدٍ... لَفَاسِقِينَ﴾.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٧.

(٨) سورة الأنفال، الآية ٥٥.

(٩) سورة المائدة: الآية ١٣.

(١٠) سورة الرعد: الآية ٢٥.

(١١) سورة التوبة: الآية ١٣.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٦.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٩.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٠٢.

(٦) سورة التوبة: الآية ٧.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣)

إشارات:

□ هذه السورة أول سورة مكية تأتي على سرد قصة النبي موسى. يُشار إلى أن اسم النبي موسى ﷺ قد ذُكر ١٣٦ مرة في القرآن الكريم، ولم يذكر اسم أي شخص آخر بهذا العدد في الكتاب. وكما يقول صاحب تفسير الميزان، فإن القرآن الكريم لم ينقل لأي نبي معجزات كما نقل للنبي موسى ﷺ.

□ يمكن حصر قصة حياة هذا النبي الكريم ﷺ في القرآن الكريم في خمس مراحل:

- ١ - مرحلة الولادة والطفولة في بلاط فرعون.
- ٢ - فراره من مصر إلى مدين وبقاؤه عند النبي شعيب ﷺ.
- ٣ - مرحلة بعثته ثم المواجهات التي جرت بينه وبين فرعون وحاشيته.
- ٤ - مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من ربة فرعون وعودته إلى صحراء سيناء.
- ٥ - مرحلة مشاكله ومتاعبه مع بني إسرائيل.

التعاليم:

- ١ - لقد بُعث النبي موسى للرسالة بعد فترة من بعثة الأنبياء نوح وهود وصالح، ولوط، وشعيب ﷺ، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.
- ٢ - أحد دوافع بعثة الأنبياء إلى الناس، محاربة الطاغوت، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.
- ٣ - إذا أردنا إصلاح المجتمع، علينا البدء بالشخصيات النافذة فيه، فتصفية الماء يجب أن تبدأ من المنبع، لأنه إذا صلح الرأس صلح الجسد، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.
- ٤ - التكذيب بدعوة الأنبياء والآيات الإلهية هو من أمثلة الظلم، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

- ٥ - لا بدّ من تحليل التاريخ لأخذ الدروس والعبر، ﴿فَانظُرْ﴾ .
- ٦ - المهم هو عاقبة العمل، لا المظاهر الزائلة، ﴿عَلَقِيَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .
- ٧ - في الإيمان صلاح المجتمع وفي الكفر والإلحاد فساد وضلاله، ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ .
- ٨ - عندما يحكم الطاغوت في المجتمع بدلاً من دين الله، فسوف يلجأ إلى أي عمل فاسد من أجل تثبيت أسسه وترسيخ وجوده، ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ .
- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

التعاليم:

- ١ - في البداية جرى حوار بين موسى وفرعون، ثم أعلن موسى بعد ذلك عن رسالته الإلهية التي بُعث بها، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾؛ (الواو هنا استئنافية وفي ذلك دلالة على وجود كلام بينهما قبل أن يعلن موسى رسالته).
- ٢ - كان الأنبياء، ومن أجل إبلاغ رسالتهم، يخاطبون الطغاة دون أي نوع من أنواع الخوف، أو الضعف، أو التزلّف، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ﴾ .
- ٣ - في سبيل إصلاح المجتمع الذي يحكمه نظام المؤسسات، يجب البدء أولاً بالقادة والزعماء، ﴿يُفْرِعُونَ﴾ .
- ٤ - رسالة الأنبياء لم تتضمن أكثر من الدعوة إلى الحقّ، ﴿وَقَالَ... إِنِّي رَسُولٌ﴾ .
- ٥ - رسالة الأنبياء مرتبطة بتدبير الكون برحمته، ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
- ٦ - كان فرعون يعتبر نفسه ربّ الناس، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾^(١)، وفي المقابل، عرف النبي موسى نفسه بشجاعة وصراحة بأنّه نبي مرسل من ربّ العالمين ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليفهمه بأنّه هو أيضاً عبد ربّ العالمين وداخل في سلطانه وحاكميته، ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٠٥﴾

التعاليم:

- ١ - لا ينطق الأنبياء بغير الحق، إذن، فهم معصومون في إبلاغ الرسالة، ﴿لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾.
- ٢ - يجب أن يأتي النبي بمعجزة، ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ وأن لا يكره الناس على الإيمان برسالته.
- ٣ - للناس جميعاً رب واحد، إذن، فأي ادعاء بالربوبية أمرٌ باطل، ﴿رَبِّكُمْ﴾.
- ٤ - بتحرير الناس من تسلط الطغاة يسهل تطبيق برنامج ثقافي وإرشادي متكامل لهم، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.
- ٥ - تحرير بني إسرائيل من ربة فرعون كان أمراً إلهياً إلى موسى وجزءاً من رسالته، وليس قراراً شخصياً لموسى، ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ... فَأَرْسِلْ﴾.
- ٦ - حرية البشر أحد أهداف الأنبياء، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وأي حكومة عدا حكومة الأنبياء، سوف تستعبد الناس. يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ»^(١).

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حِثَّ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ فَأَيَّ إِهْرَاقٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
تُغْبَاثٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

إشارات:

□ لقد خرجت من عصا موسى معجزات أخرى، منها أنها بعد أن تحولت إلى ثعبان عظيم أخذ هذا الثعبان يبتلع كل ما صنعه السحرة بسحرهم، ﴿تَلْقَفُ مَا

يَأْفِكُونَ»^(١)، وكذلك ضرب موسى ﷺ بعصاه البحر فانفلق فصار يابسة، ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقَ﴾^(٢)، ثم ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه ينابيع المياه العذبة، ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَبْعًا﴾^(٣).

□ كما إن العصا تحولت أمام ناظري موسى ﷺ إلى حية صغيرة متحركة حتى إنه ولّى هارباً منها، ﴿جَاءَتْهُ وَكَانَ مَذْبُوحًا﴾^(٤)، وكانت أمام الناس حية عادية تتحرك، ﴿حَيَّةٌ شَتَّى﴾^(٥) وتحولت أمام فرعون وملئه إلى أفعى عظيمة، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾، على هذا الأساس، ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار في الدعوة والتربية طبيعة توجهات المخاطبين وميولهم، وإقناع كلّ منهم في ضوء توجهاته وميوله الخاصة.

□ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُوسَى ﷺ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السَّخَرُ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْقَوْمِ وَفِي وَسْعِهِمْ مِثْلُهُ وَبِمَا أَبْطَلَ بِهِ سِخْرَهُمْ وَ أَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ»^(٦).

□ لقد تحولت عصا موسى بمجرّد إلقائها إلى أفعى عظيمة، ولم تكن ثمة وقفة بين الحديثين، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾.

التعاليم:

١ - المعجزة دليل صدق نبوة الأنبياء، ﴿فَأَتَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾؛ لقد كانت كلمة حقّ من فرعون أراد بها باطلاً، فهو لم يكن يؤمن بوجود إرادة فوق إرادته.

٢ - يجب أن تكون المعجزة بيّنة وواضحة للجميع، بحيث لا تبقى أيّ مجال للشك، ﴿مُتَّبِعِينَ﴾.

(١) سورة الشعراء: الآية ٤٥.

(٤) سورة النمل: الآية ١٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٦٣.

(٥) سورة طه: الآية ٢٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٠.

(٦) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٨٠.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ١٠٨ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ
إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ١٠٩

التعاليم:

- ١ - إلى جانب نُذُر الأنبياء (تحوّل العصا أفعى والذي ينطوي، بنحو ما، على الفزع والرعب)، توجد البشارة والرجاء المتمثلة بإراءة اليد البيضاء، ﴿بَيْضَاءُ﴾؛ (في التعامل مع المتكبر، ينبغي أولاً كسر غروره وكبريائه، ومن ثمّ مدّ يد العطف والحنان).
- ٢ - بياض يد موسى، كانت معجزة أخرى من معجزاته وأمرأ مفاجئاً وقابلاً للرؤية من قبل الجميع، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾.
- ٣ - حاشية الطاغية شركاؤه في جرائمه، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾.
- ٤ - لقد أقرّ الملأ بعظمة ما قام به موسى، إلّا أنّهم كانوا يواصلون جهودهم للإبقاء على حكم الفرعون، ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾.
- ٥ - لقد اتخذ المستكبرون المعاندون أسلوب التبرير والإصرار في مقابل البراهين والأدلة واحتمال هزيمتهم، ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾؛ («إِنَّ» وحرف «اللام» والجملة الاسمية كلّها تحمل دلالة توكيدية).
- ٦ - يسعى المعارضون من خلال إلقاء التهم تشويه صورة الأنبياء، ﴿لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ ١١٠

إشارات:

□ لقد واجه آل فرعون موسى بسيل من التهم والافتراءات سعيّاً منهم لخداع الرأي العام، فعلى الصعيد العقدي اتهموه بأنه ساحر، وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسي اعتبروه مثيراً للفتن.

التعاليم:

١ - أحد أسلحة المعارضين اتِّهام أهل الحقِّ بمحاولة الاستحواذ على السلطة، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْزِلَكُمْ﴾.

٢ - أحياناً يلجأ الأعداء إلى إثارة عواطف الناس وتحريك مشاعرهم الوطنية المتمثلة في حبِّ الوطن ضدَّ المؤمنين، ﴿يُنْزِلُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾.

٣ - يعتقد الكافر أنَّ الجميع على شاكلته، ﴿يُنْزِلُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، كانت المادّيات والحياة الدنيا قد ملكت على فرعون شغاف قلبه، ولذلك ظنَّ أنَّ موسى أيضاً غارق في المادّيات وملتصق بهذه الدنيا، وأنّه تستهويه هذه الثروة وترف الحياة.

٤ - أحياناً يلجأ الطغاة وهم في ذروة استبدادهم إلى استشارة حواشيهم في الملّمات السياسية، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

إشارات:

□ كلمة «أرج» هي فعل أمر مشتق من «رجاء»، تعني الحبس وكذلك تأتي بمعنى الإرجاء والإمهال. وفي ضوء الموجة العارمة لدعوة موسى ومعجزاته، فلا يبدو أنّه كان بمقدور فرعون سجن النبي موسى ﷺ، لذا فالمعنى الثاني هو الأنسب.

□ تقول الآية الكريمة: ﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾، في حين جاء في الآية ٣٧ من سورة الشعراء تعبير ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وفي ذلك دلالة على ذروة تخصص السحرة وخبرتهم.

التعاليم:

١ - في ظلِّ حكم الطغاة، تنوير الناس وإسماعهم صوت الحقِّ يعتبر جريمة يستحقُّ صاحبها عليها العقوبة، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾.

٢ - تشويه سمعة المرء أهم من القتل والعقوبة، ﴿أَرْجِهْ﴾؛ (نظراً إلى أن المراد به «أرجه»، هو إرجاء عقوبة موسى على أن يتم ذلك في ما بعد وأمام الملأ، ليكون أشد في الإشهار والفضيحة).

٣ - الطغاة يعقدون اجتماعات عالمية للمختصين من أجل كسر شوكة الحق، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٤ - الكفار أيضاً يعلمون أن السبيل الأمثل لمحاربة العمل الثقافي هو الإتيان بعمل ثقافي أقوى، ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٥ - أحياناً يكون العلم والاختصاص بيد ثلثة من المنحرفين يوظفانها في محاربة الحق، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ رِعَونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

التعاليم:

١ - من لم يكن توكله على الله، فسوف يلبي أيّ نداء من أيّ مصدر كان، ﴿يَأْتُوكَ... وَجَاءَ السَّحَرَةُ رِعَونَ﴾.

٢ - أحد الفوارق التي تميز الأنبياء عن السحرة هو الاختلاف في الأهداف والبواعث.

فالأنبياء مرسلون لإرشاد الناس، ولا يطلبون أجراً لقاء رسالتهم، ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ^(١)﴾، فيما السحرة لا يعملون إلا من أجل أن ينالوا وطراً من هذه الدنيا ومن زخارفها، ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

٣ - الواقفون على أبواب الطواغيت، لا هدف لهم سوى تحقيق مآربهم في هذه الدنيا، ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

- ٤ - أعداء الحق من العلماء والنخب هم موضع دعم وحماية من قبل الطغاة والمستبدين الذين لا يتورعون عن رصد الأموال لقمع الحق وأهله، ﴿قَالَ نَعَمْ﴾؛ (هل دعمنا علماء الدين من أجل إزهاق الباطل)؟
- ٥ - الطغاة مستعدون لدفع أي ثمن والاستجابة لأي طلب من أجل المحافظة على ملكهم، ﴿قَالَ نَعَمْ﴾.
- ٦ - نيل المكافأة السياسية والمكانة الاجتماعية المرموقة أهم عند طلاب الدنيا من المال والثروة، ﴿لَيْنَ الْمُقْرِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ١١٥ ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ١١٦

التعاليم:

- ١ - لقد جاء السحرة بسحرٍ هو في ظاهره شبيه بمعجزة موسى؛ إذ كان يظهر بمجرد إلقائه على الأرض، ﴿تُلْقَى... الْمُلْقِينَ﴾.
- ٢ - في سعيها نحو المعرفة ينبغي أن لا نعتمد على الحواس الظاهرية فحسب، فأحياناً تُسحر العين وتتأثر بالمؤثرات، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾.
- ٣ - أعمال السحر للسحرة لا حقيقة لها إلا في أعين الناس، فهي كالسراب يحسبه الإنسان ماءً، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، نعم، الأنبياء يتعاطون مع بصائر الناس، بينما السحرة يتعاطون مع أبصارهم.
- ٤ - عند محاربة أي حق، يتم استخدام الأدوات والوسائل نفسها، مثلاً، المذهب المزيّف ضدّ المذهب الحقّ، ووعاظ السلاطين ضدّ رجال الدين المؤمنين، وسحر السحرة ضدّ معجزة الأنبياء، ﴿بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ١١٧

إشارات:

□ «تَلْقَفُ» مشتقة من مادة «لقف» وتعني أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة

الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدي، ولكن تأتي في بعض الحالات بمعنى البلع والابتلاع، ويبدو أنها جاءت في هذه الآية بهذا المعنى. وكلمة «يأفكون» مشتقة من مادة «الإفك»، وهو كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون، وبما أن الكذب يصرف الإنسان من الحق إلى الباطل، فأطلق على الكذب لفظ «الإفك»، أو يقال للكذب المتخذ قالب الصدق، أو الباطل الذي له ظاهر الحق.

□ إذا كانت معجزة عصا موسى ﷺ ابتلعت كل ما يلقيه السحرة، فإن الاستعانة بالمعجزة الخالدة للنبي الكريم محمد ﷺ، أعني، تلاوة القرآن الكريم تجعل مؤامرات أنصار الباطل هواء في شبك.

التعاليم:

- ١ - في الأوقات العصيبة والأزمات، ينزل مدد غيبي مباشر على الأنبياء، ﴿وَأَرْحَمَنَا إِلَهَ مُوسَىٰ أَنْ آتَىٰ عَصَاكَ﴾، نعم، إن الله تعالى يمدّ عباده المخلصين بمدد من عنده في المحافل الدولية وبحضور أعداء الحق، لينصرهم عليهم.
- ٢ - الباطل الذي سحر أعين الناس وسلبهم عقولهم وبث في قلوبهم الرعب، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، افتضح أمره وأزرق على يد النبي الكريم وبلااستمداد من القدرة الإلهية، ﴿تَلْقَفْ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١١٨ ﴿فَعَلَبُوا هَذَاكَ وَأَنفَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ١١٩
وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾

إشارات:

- انتصار موسى، سدّد ضربة قاصمة لجهاز الحكم الفرعوني، لكن الأهم من ذلك هو إيمان السحرة جميعاً بدعوة موسى ﷺ، ما حطم غرور فرعون وأصاب كبرياءه في الصميم.
- تقدير الضمير في العبارة ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هو السحرة.

التعاليم:

- ١ - الحقّ منتصر، والباطل زاهق، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾. الباطل الذي هو من صنع البشر لا يقوى على مواجهة الحقّ.
- ٢ - أسلوب الدعوة يتمثل في بيان الحقّ والحقيقة، ليزهق الباطل ويندحر، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٣ - مظهر للحقّ يمحو آلاف المظاهر الخداعة للباطل، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ لقد هبّا هؤلاء السحرة أنفسهم زمناً طويلاً واستعملوا أنواع السحر لينتصروا على معجزة موسى، ولكن ذهبت كلّ جهودهم أدراج الرياح.
- ٤ - بعد أن ذاق السحرة طعم الهزيمة، انسحبوا مع آل فرعون مشيعين بالذلة والمهانة، ﴿وَأَنقَلَبُوا صَافِرِينَ﴾.
- ٥ - مدعو النصر، ﴿نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(١) أصبحوا المهزومين عبر التاريخ، ﴿فَنُغْلِبُوا... صَافِرِينَ﴾.
- ٦ - لقد تجلّت عظمة المعجزة الإلهية عندما خرّ السحرة ساجدين لا إرادياً. الفعل ﴿وَأَلْقَى﴾ جاء في صيغة المبني للمجهول.
- ٧ - معرفة الحقّ هي مقدّمة للخضوع والتسليم لله تعالى، ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾؛ بفضل المعرفة الحقّة، يمكن أن تتغير عقيدة الإنسان في لحظة واحدة ويفتح لنفسه باب السعادة.
- ٨ - السجدة، هي أجلى مظاهر التسليم لله تعالى، ولها تاريخ طويل، ﴿سَاجِدِينَ﴾.

﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ۖ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

إشارات:

□ إنّ السحرة الذين جاؤوا إلى مضمار التحدي من أجل أن يهزموا موسى ويحظوا

بالمال والمنزلة عند فرعون، هم أنفسهم عندما شاهدوا معجزة موسى أعلنوا أمام الملأ إيمانهم بدعوته، وأقرّوا بالتوحيد والنبوة والمعاد، أمّا إيمانهم بالتوحيد والنبوة فكان من خلال عبارات ﴿ءَمَّا رَبِّ الْمَلِئِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وأمّا إيمانهم بالمعاد فقد كان بالعبرة التالية الواردة في الآية ١٢٥ ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾. والحقيقة، أنّ فرعون بإتيانه بهؤلاء السحرة، هيّا الأجواء لكي يؤمنوا بموسى ﷺ في وقت واحد، ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

□ لقد ذكر السحرة موسى وهارون ﷺ معاً ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لأنّ هارون كان إلى جانب موسى يعظهم ويرشدهم، أو لأنهم إذا قالوا: «ربّ موسى» فقط، لربّما استغلّ آل فرعون ذلك بالقول إنّ ربّ موسى هو نفسه فرعون، لأنّه عاش وترعرع في بيت فرعون لسنوات طوال حتى أصبح رجلاً، وهو ما يستدلّ من مقولة فرعون لموسى ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ مِنَّا وَلِيدًا﴾^(١). من هنا، أدرك السحرة هذه النقطة ووادوا فتنه فرعون وهي في المهد بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

□ يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو». وهو ما حصل بالفعل لموسى ﷺ حين ذهب ليأتي أهله بقبس من النار، وإذا به يرجع إليهم بالرسالة. والملكة سبأ خرجت من مملكتها بقصد رؤية النبي سليمان ﷺ، وإذا بها تعود إلى ديارها مؤمنة به، وكذلك الحال بالنسبة إلى السحرة الذين جاؤوا إلى بلاط فرعون من أجل الحصول على جائزة فرعون، فوجدوا الإيمان بانتظارهم^(٢).

التعاليم:

١ - قبل الدخول في التحدي، كان السحرة قد سمعوا بمضمون دعوة موسى، لذا، فإنهم بعد مشاهدتهم معجزته آمنوا بما كانوا قد سمعوا به، ﴿ءَمَّا رَبِّ﴾.

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨.

(٢) تفسير «الاثني عشري»؛ تحف العقول، ص ٢٠٨.

٢ - يتميّز الإنسان بخصالتي المرونة والحرية؛ لذلك بإمكانه أن يغيّر فكره وعقيدته بعد أن يفهم رسالة الحق، ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾.

٣ - التوبة من الانحراف الفكري والشرك تكون بالإيمان، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٤ - السّحرة أقدر من غيرهم على التمييز بين السّحر والمعجزة. من هنا، كان إصرارهم إلى الإيمان بالدعوة، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٥ - أحياناً يكون عدم الإيمان سببه احتجاب الحق؛ لذلك بمجرد أن ينجلي تجد فئة تسارع إلى الإيمان به، ﴿ءَامَنَّا﴾.

٦ - يجب سدّ منافذ الاستغلال، ففي الآية الكريمة نلاحظ أنّ السّحرة قالوا لموسى ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لئلا يلجأ فرعون إلى الالتفاف ويقول: إنني أنا ربّ العالمين.

٧ - لا جدال في خالقية الله تبارك وتعالى، بل النزاع هو في ربوبيّته سبحانه، وتديره العالم، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوْهُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِتُخْرِجُوْا مِنْهَا أَهْلَهَا ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴿١٢٣﴾﴾

التعاليم:

١ - يتمثّل الاستعمار الثقافي للحكومات في سلب الناس حرية الفكر وحقّ اختيار المعتقدات، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ﴾.

٢ - من أساليب الطغاة، الافتراء على رجال الحق، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوْهُ﴾؛ فهم لا يثقون حتى بمتسبيهم، ويعدّون كلّ حركة روحية بمثابة حركة سياسية، ومما يلقي ضوءاً على هذا الأمر، أنّ فرعون يصف السّحرة في آية أخرى بأنهم تلامذة موسى، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ مِّنْ أَلَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(١).

- ٣ - يوظف الطواغيت المشاعر الوطنية والعواطف الشعبىة في مسار تحقيق أهدافهم الخاصة، ﴿لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.
- ٤ - التهديد بالقتل والتعذيب، من الأدوات التي تلجأ إليها حكومات الطغاة، ﴿سَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّتَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
 قَالُوا إِنَّا إِلَٰك رَبِّنَا مُتَغَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه هذه العبارات في سورة طه، طبعاً لا يوجد في القرآن الكريم ما يشير إلى تنفيذ هذا التهديد، ولكن بحسب ما تنقله الروايات ومصادر التاريخ، أنّ فرعون قطع المؤمنين بموسى إرباً إرباً وعلقهم على سعف النخيل، إذ يقول المؤرخ الشهير الطبري في هذا الموضوع: «كانوا أول النهار كفّاراً سحرة وآخر النهار شهداء بررة».

□ لم تمنع الإمكانيات الهائلة لفرعون وحكمه والضجة المثارة حول سطوته من تعرّضه في النهاية إلى المهانة والذلة، ﴿وَأَنْقَلَبُوا صَافِرِينَ﴾، بينما أثر السحرة الإيمان بدعوة موسى والرشاد والسعادة والموت في سبيل عقيدة الحق على حياة الذلة تحت نير الحكم الفرعوني، ﴿إِنَّا إِلَٰك رَبِّنَا مُتَغَلِبُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - العنف والتهديد من أسلحة المتسلّطين والمتجبرين، ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾.
- ٢ - يلجأ الطغاة إلى تهديد طلائع الثورة والتنكيل بهم وقتلهم من أجل خنق صوت الأفكار الإصلاحية والثورية، ﴿لَأُصَلِّتَنَّكُمْ﴾.
- ٣ - الإنسان ليس أسير الأنظمة والظروف، إذ بإمكانه الصمود، إذا تسلّح بالإيمان والإرادة، بوجه كلّ هذه العوامل، ﴿لَأَقْطَعَنَّ... قَالُوا﴾.
- ٤ - من آمن عن بصيرة وقناعة، لن ترهبه الهزّات والأمواج العاتية، ولن يخضع

للابتزاز أو التهديد، ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا﴾، نعم، إنها قوة الإيمان التي تغير الإنسان، وتزيد من طاقاته وإمكاناته، فالسحرة كانوا حتى أمس القريب يطمعون بجائزة فرعون، واليوم أصبحت تلك الجائزة لا قيمة لها بفضل الإيمان.

٥ - الموت في سبيل الحق أشرف من الحياة في كنف الباطل، ﴿لِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقِلُونَ﴾.

٦ - الماضي السيئ للفرد ينبغي أن لا يكون معياراً للحكم عليه، فهنا نلاحظ أن عدداً من السحرة والكفار تحولوا من الكفر إلى الإيمان، بل وسبقوا المؤمنين الآخرين بإيمانهم، ﴿إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقِلُونَ﴾.

٧ - يجب أن نشيد في نهجنا الدعوي ببطولات الماضين، ﴿قَالُوا﴾.

٨ - الإيمان بالمعاد والتذكير به عندما تدلهم الأخطار وتعاظم التهديدات يحصن الإنسان، ﴿إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقِلُونَ﴾، وكذلك قالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(١).

٩ - ينبغي أن لا نياس من هداية المنحرفين بما في ذلك قادتهم، ناهيك عن أن يتوبوا ويتحولوا دفعة واحدة، ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا نَقِمْ مِّنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَوَفَّقْنَا مُسْلِمِينَ﴾

إشارات:

□ جاءت هذه الآية الكريمة للرد على اتهامات فرعون وافتراءاته على المؤمنين الذين اتبعوا موسى ﷺ، والتي أشير إليها في الآيات السابقة، من قبيل أنهم متآمرون ومتواطئون يرومون الاستيلاء على زمام الحكم، وإخراج أهلها من

البلاد، وقالوا له: أنت نفسك تعلم أنّ ذنبنا الوحيد في نظرك هو أننا أجبنّا داعي الحقّ ولبيّنا نداءه.

□ عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وَمَنْ ذَهَبَ يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَى الْآخِرِ فَضْلًا فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّمَا يَرَى أَنَّ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلًا بِالْعَافِيَةِ إِذَا رَأَى مُرْتَكِبًا لِلْمَعَاصِي فَقَالَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا أَتَى وَأَنْتَ مَوْثُوقٌ مُحَاسَبٌ أَمَا تَلَوْتَ قِصَّةَ سَحْرَةِ مُوسَى عليه السلام»^(١).

التعاليم:

١ - لا يخلو الإيمان بالله تعالى والانعقاد من نير الطغاة من المصاعب والمشاكل، ﴿وَمَا نَقِمُ مِنْكَ﴾.

٢ - الإيمان الذي يقوم على البرهان ورؤية أمارات الحقيقة، إيمان ذو قيمة وفضل، ﴿ءَامَنَّا بِمَا نَبَيَّا لَنَا جَاءَتْنا﴾.

٣ - الطواغيت يعارضون العقائد التوحيدية لا أشخاصاً بعينهم، ﴿إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا﴾.

٤ - من علائم المؤمن الحقيقي: السكينة، الصمود، الصراحة، الشجاعة، التضرع إلى الله، والدعاء لا سيما عند الشدائد. ﴿ءَامَنَّا... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

٥ - في الدعاء نتوسّل بربوبية الله، ﴿رَبُّنَا﴾.

٦ - الأسلوب الأرقى للتصدّي للطغاة هو الدعاء والتوكّل على الله والمحافظة على الإيمان والثبات، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

٧ - عندما تشتدّ خطورة التهديدات، فإنّ ذلك يتطلّب اشتداد الصبر والصمود. قال السحرة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ولم يقولوا: «أنزل علينا».

٨ - حسن الختام يحتاج إلى الدعاء إلى الله والاستعانة به وطلب توفيقه، ﴿رَبَّنَا... وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية الكريمة، أن فرعون بعد هزيمته أمام النبي موسى ﷺ ترك موسى وبني إسرائيل أحراراً مدة من الزمن، واستغلّ بنو إسرائيل هذه المدة للاشتغال بالدعوة لدين موسى ﷺ، وهنا شعر آل فرعون بالخطر جراء سكوت فرعون، لذلك بادروا إلى تحريضه للتصدي لهؤلاء واتخاذ موقف متشدد تجاههم.

□ إن فرعون لم يكن يدعي لنفسه الخلق بل الربوبية إذ كان يقول لشعبه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)، وأيضاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٢)، غير أن فرعون وقومه كانت لهم معبودات وكانوا يعبدونها بوصفها مظاهر وتجليات للخالق، ﴿وَالْهَيْكَلُ﴾.

التعاليم:

- ١ - جزء من فساد الطواغيت هو فساد الحاشية، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾.
- ٢ - في تصديها للحق ورجاله، تصاب أنظمة الطواغيت الباطلة بالحيرة والاضطراب ما يجعلها تتخذ قرارات متناقضة. فنجد مثلاً فرعون تارة يقرر قتل موسى ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾^(٣)، وتارة أخرى يتركه طليقاً لدرجة تثير حق حاشيته واعتراضهم، ﴿أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾.
- ٣ - الحركات الإصلاحية من منظور الطواغيت ليست سوى فساد وفننة وتمرد وتخريب المصلحة العامة، ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٤ - كان قتل الأولاد والإبقاء على البنات والنساء واسترقاقهم بمثابة سياسة

(٣) سورة غافر: الآية ٢٦.

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

فرعونية تهدف إلى نزع الغيرة والشهامة من قلوب الرجال وتسخير النساء كأدوات لتنفيذ برامجهم ومخططاتهم، تماماً كما هو الحال مع السياسة الاستعمارية في عصرنا، ﴿سَنَقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْفَعُهمْ نِسَاءَهُمْ﴾.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

إشارات:

□ تطرح الآية ها هنا أمرين وبشارتين: الأمر بالاتكال على الله والثبات والصبر، أما البشارتان فهما ورائتهما للأرض وأن العاقبة للمتقين.

□ يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: إنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون. ويقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: «فما كان لله فهو لرسوله وما كان لرسول الله فهو للإمام بعد رسول الله»^(١) لذلك، فإن قول الآية إن الأرض لله يعني أن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هم ورثة الأرض من الله.

التعاليم:

- ١ - على القائد أن يشد من أزر الأمة في اللحظات الحساسة، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، لقد بشر موسى عليه السلام قومه بهلاك آل فرعون وظهور المؤمنين عليهم.
- ٢ - الاستمداد من الله تعالى والتوكل عليه والصمود والتقوى هو من جملة أسباب النصر والتحصن في مقابل التهديدات، ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، (نستعين به وفي ذات الوقت نصبر أنفسنا).
- ٣ - فناء حكومات الاستبداد واستبدالها بالمؤمنين الصابرين أمر حتمي بإرادة الله ومشيته، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.

٤ - تحقيق الحاكمية رهنً بالصبر، والثبات، والاستعانة بالله تبارك وتعالى، ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.

٥ - الاستعانة بالله والصبر والثبات مظهر من مظاهر التقوى والورع، ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصِرُوا... وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٦ - المتقون لهم حسن العاقبة والختام في الدنيا، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾، وهم في الآخرة من الفائزين، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٧ - الأمل بمستقبل مشرق وواعد، هو ما تبشر به الأديان السماوية بما فيها الإسلام، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

إشارات:

□ كَانَ بني إسرائيل كانوا يتوقعون أن تصلح الأمور بقيام موسى ﷺ في ليلة وضحاها، وأن يزول فرعون ويهلك حكمه، وتصبح مصر بجميع إمكاناتها وثوراتها تحت تصرف بني إسرائيل. ولعل ذلك كان السبب في زعمهم بأن نهضة موسى ﷺ لم تحقق لهم الرفاهية التي كانوا يَشْدُونَهَا، لكنه يجيبهم بأن هذا النصر الإلهي يتحقق في ظل شروط عدة مثل الصبر والسعي والاجتهاد والتوكل على الله.

التعاليم:

١ - الرخاء والأمن، هما من أولى اهتمامات الناس ومطالباتهم من الحكومات، ﴿قَالُوا أُوذِينَا﴾.

٢ - ضعف الإيمان يتوقعون من الأنبياء الرخاء في جميع الظروف، وإذا لم ينالوا ذلك، يشرعون بتوجيه النقد إليهم، ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ...﴾.

٣ - أحياناً يتعرض القادة الإلهيون إلى النقد من قبل بعض ضعاف الإرادة والصبر

من أتباعهم، ﴿قَالُوا أَوَذِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

٤ - السعادة والبهجة عند معظم الناس تعني الراحة والدعة، وفقدانهما يعني التعاسة والشقاء، متناسين أنَّ الأديان السماوية جاءت لتنظيم حياة البشر وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وليس لرفع جميع المشاكل الدنيوية للناس، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا﴾.

٥ - لا بد من حل المشاكل الطبيعية والاجتماعية من خلال التدبير وبالطرق العادية والطبيعية، وليس عن طريق الإعجاز. (لاحظ الآية السابقة ﴿وَأَصْبِرُوا﴾، وعبارة ﴿بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾).

٦ - على القائد أن يستمع للانتقادات وأن يبعث إلى شعبه برسالة أمل، ﴿عَسَىٰ رَئُوكُمْ﴾.

٧ - الإيمان بأن الله ناظر رقيب، مدعاة للانتباه والتقوى، ﴿وَنَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ﴾.

٨ - حكم الناس هو وسيلة للابتلاء والامتحان، لا لقضاء لذة أو متعة، ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ﴾.

٩ - الناس مسؤولون أمام الحكومة، ويُمْتَحَنُونَ بها. قال ﷺ: ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل: «كيف أعمل».

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠)

إشارات:

□ «سنين» جمع «سنة»، بمعنى الحول أو العام، لكتبتها إذا قرنت بلفظة «أخذ» أعطت معنى الابتلاء بالجذب والقحط. لذا، فإن ذكر ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ربما يكون مثلاً بارزاً لهذا الجذب.

□ أحياناً تندرج الشدائد والابتلاءات في مسير يقظة الإنسان وامتحانه، وتكون

مقدمة لهلاكه، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَتْرِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالشَّرَائِطِ﴾^(١).

□ يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة
بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب،
ويقلع مقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر»^(٢).

التعاليم:


١ - تتطلب التربية، في بعض الأحيان، اللجوء إلى أسلوب التضييق والتشديد،
﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾.

٢ - إرادة الله تبارك وتعالى غالبية على الأسباب الطبيعية، ﴿أَخَذْنَا... بِالسَّيِّئِ﴾.

٣ - الجذب والقحط إما أن يكون عذاباً إلهياً أو ناقوس خطر، ﴿بِالسَّيِّئِ وَنَقْصٍ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، لا شك في أن تحولات الطبيعة ذات غاية
وهدف.

٤ - أسباب الهداية والسعادة متاحة حتى في بيت أعنى المستكبرين، ﴿وَالْأَلْفِرْعَوْنَ
بِالسَّيِّئِ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

٥ - نعم، قد لا تُجدي أي وسيلة أو برنامج لهداية بعض الأفراد على الرغم من
كل الجهود المبذولة في هذا المجال، وذلك لأن الإنسان مخير في إيمانه
وليس مكرهاً، ﴿أَخَذْنَا... لَعَلَّهُمْ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ نَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا
طَلَبْتَهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ 

إشارات:

□ «يطيئروا» مشتقة من مادة «تَطَيَّرَ»، بمعنى التشاؤم، وأصلها من الطير، فقد كان

العرب غالباً ما يتشاءمون بواسطة الطيور، وربما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحية اليسار اعتبروا ذلك علامة الشقاء والفشل، وكلمة «الطيرة» تعني مطلق التشاؤم^(١).

□ كما تحدّث آيات أخرى عن التطيّر بالأنبياء بمن فيهم رسول الله ﷺ^(٢).

□ إنّ التطيّر ليس له أيّ أثر طبيعي أو منطقي على وقوع الحوادث والنبوءات، لكنّه يحمل آثاراً نفسية سيئة كثيرة. فنحن نقرأ في الروايات: أنّ الطيرة شرك، ومتى تطيّرت فلا تلقّ لذلك بالاً وامض في عملك. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الطيرة على ما تجعلها، إن هوّنتها تهوّنت، وإن شدّتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً»^(٣).

عرفت الأمم والشعوب الماضية كما المعاصرة مسألة الطيرة والتطيّر، وهي توجب التشاؤم وكساد الأعمال، ولهذا السبب نُهي عنها بشدّة، بينما لم يُنه في الروايات والأحاديث عن التفاؤل، لدوره في بعث روح النشاط والأمل والحب في نفس الإنسان^(٤).

التعاليم:

١ - كان آل فرعون يعتبرون أنفسهم وحدهم الجديرين، ولهم حقّ التمتع بالسعادة، ﴿قَالُوا لَنَا مَلَكٌ﴾.

٢ - لقد اعتاد آل فرعون الرخاء والسعادة لكنّهم لم يألفوا الشقاء والمكاره وكانت بالنسبة إليهم غير معقولة. (لاحظ أنّ كلمة «الحسنة» جاءت معرفة بالألف واللام، والأداة الشرطية «إذا» علامة على التعريف، بينما جاءت كلمة «سيئة»

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٨؛ سورة النمل: الآية ٤٧؛ سورة يس: الآية ١٨.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

(٤) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

في صيغة النكرة بعد «إن» وذلك دليل على التنكير وعدم المعرفة والتصديق).

٣ - الأكثرية من آل فرعون لم تتعظ بالقحط والنذر الإلهية، فكانت تتخبط في تحليلاتها وتنسب هذه الأمور إلى النبي موسى ﷺ، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى﴾.

٤ - أن ينسب المرء الفضائل إلى نفسه، والشروع والبقاء إلى الأنبياء والدين لهو دليل أنانية وجهل، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى... أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ - الجهل هو منشأ الخرافات والتطير، ﴿يَطَّيَّرُوا... وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ إن قولهم لموسى: مهما تأتينا من آية يشير إلى أن العدو أيضاً كان يؤمن بأن أفعال موسى ﷺ لم تكن سحراً أو شعوذة، وإنما هي معاجز إلهية، لكن لجاجهم وغرورهم لم يكن يسمح لهم بالإيمان بدعوته، عدا السحرة الذين بمجرد أن عرفوا أن هذه الأعمال ليست سحراً آمنوا دونما عناد أو لجاج. وهنا احتمال آخر وهو أنه ربما كان نعت آل فرعون أفعال موسى بالآيات هو من باب السخرية والاستهزاء.

التعاليم:

١ - أحياناً يوغل الإنسان في السقوط فيصطدم بالأنبياء والمرشدين الإلهيين، ويرى دلائل الهداية الساطعة معكوسة ومظلمة، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ﴾.

٢ - تفسير معجزات الأنبياء بالسحر كان من أكثر التهم شيوعاً آنذاك، ﴿لِنَسْحَرَنَّ﴾، وفي موضع آخر يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾^(١).

٣ - الإنسان حرّ في اختيار معتقده، والأنبياء لا يُكرهون الناس على الإيمان، والدليل على ذلك أنّ بعض الناس يؤمن بالمعجزات وبعضهم الآخر يكفر، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ عَائِثَ مَفْصَلَتِ
فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾

إشارات:

□ «الطوفان»، هو السيل المدمر الذي يأتي على كلّ شيء. كما يقال لكلّ ما كان مهلكاً من موت أو سيل: «القُمَّل»، دواب سود صفار، ويقال أيضاً للنمل، ولنوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات وكذلك يطلق على نوع من الحشرات^(١).

□ الدم هو أحد آيات الله تعالى إلى بني إسرائيل، والمراد به هنا هو داء الرعاف (وهو نزيف الدم من الأنف) الذي شاع بينهم كنوع من العذاب الإلهي.

□ يُشار إلى أنّ هذه البلايا، أعني الطوفان والدم والجراد كانت تصيب آل فرعون خاصّة، وكان بنو إسرائيل في معزل عن ذلك. وقد وردت قصص هذه البلايا في التوراة أيضاً^(٢). والحقيقة أنّه كلّما جاءهم العذاب، كانوا يهرعون إلى موسى ﷺ ليدعوا ربّه ليخلصهم ممّا نزل بهم، وفي المقابل يؤمنون بدعوته، وكان موسى ﷺ يستجيب لهم فيدعوا ربّه ليرفع عنهم البلاء، لكنّ ذلك لم يزدهم سوى إصرارٍ وعنادٍ على كفرهم كما سنقرأ تفصيل ذلك في الآيات اللاحقة.

التعاليم:

١ - بعد وعيد الله تعالى وإتمامه الحجّة، وتمادي هؤلاء القوم في غيهم وعدم

(١) مفردات الراغب.

(٢) ورد في التوراة تحوّل المياه إلى دماء في سفر الخروج، الباب ٧ الآية ٢٠، هجوم البعوض، في الباب ٨ الآية ٧، نزول البرد، في الباب ٩ الآية ٢٥، وهجوم الجراد، في الباب ١٠ الآية ١٤.

اكثرائهم للنُّذُرِ الإلهية، جاء دور نزول العذاب الأليم. جاء في الآية الكريمة السابقة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ...﴾.

٢ - يكون الشيء سبباً للرحمة إذا شاء الله ذلك، فهو سبحانه يجعل الماء وسيلة للرحمة وإذا شاء جعله عامل عذاب ونقمة، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾.

٣ - الحيوانات مأمورة من قبل الله تبارك وتعالى، فأحياناً تكون مأمورة بالرحمة كالعنكبوت التي نسجت بيتها على الغار لتحفظ نبي الله ﷺ من كيد أعدائه، وأحياناً أخرى تكون مأمورة بالعذاب مثل طيور الأبابيل، والضفادع، والجراد... إلخ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ... وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾، والحقيقة، أن كل الوجود رهن إشارته تبارك وتعالى وطوع أمره، ﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

٤ - معظم البلايا ذات طابع تأديبي إصلاحي، وأحياناً، تُمنح مهلة بعد كل عقوبة من أجل المراجعة والتوبة، ﴿مُفَضَّلَتِي﴾.

٥ - المعصية مقدّمة للتكبر، والتكبر نافذة على الكفر والجحود، ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَىٰ آدُعُنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

إشارات:

□ «نَكَثَ»، على وزن «مَكَّثَ» بمعنى فلّ الحبل المفتول، ثم أطلق على نقض الميثاق والعهد.

□ قد يكون المراد بـ«الأجل» في هذه الآية هو الأمد الذي حدّده موسى عليه السلام لقومه لرفع البلاء عنهم، على سبيل المثال، أنّه في الوقت الفلاني سيرفع هذا

البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أن ذلك كان بلاءً من الله وليس صدفة.
أو ربّما يكون المقصود هو أنّ هؤلاء القوم اللجوجين سيصيبهم عذاب محتوم،
ولكن حتى بلوغ الأجل المحتوم والغرق في البحر، سيرفع عنهم العذاب مؤقتاً.
□ العهد هو، أن يستجيب الله تبارك وتعالى لدعاء موسى ﷺ إذا دعاه، ولكن
يحتمل أيضاً أن يكون المقصود هو عهد النبوة وتكون «الباء» باء القسم، يعني
نقسم عليك بحقّ مقام نبوتك إلّا ما دعوت الله ليرفع عنا هذا البلاء^(١).

التعاليم:

- ١ - الحاجة والشدة تذلل كبرياء الإنسان وتحطّم غروره، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا...﴾.
- ٢ - حتى الكافرون عندما يتوسّلون بأولياء الله يحصلون على مرادهم، ﴿يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا﴾.
- ٣ - قوم فرعون أيضاً كانوا يؤمنون بآله قادر لموسى، ﴿يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.
- ٤ - الدعاء له أثر فاعل في استجلاب الرحمة الإلهية ودفع الشدائد والبلايا، ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.
- ٥ - تحرير البشر هو من صميم رسالات الأنبياء، ﴿وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.
- ٦ - الله وحده القادر على رفع العذاب الإلهي، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾.
- ٧ - ينبغي ألا نشق كثيراً بعود الاضطراب التي يطلقها الآخرون، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا... يَنْكُثُونَ﴾.
- ٨ - روح التعدي والتمرد تتركب الإنسان، في الغالب، حينما يشعر بالرخاء والاستغناء، ﴿كَشَفْنَا... يَنْكُثُونَ﴾، وفي آية أخرى نقرأ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾، ﴿أَن رَّآهُ اسْتَكْبَرَ﴾^(٢).
- ٩ - الأحداث السارة والمريّة في نظام الوجود متمرحة، ﴿إِلَّا أَجَلٌ﴾.

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

إشارات:

□ لا شك في أن مفهوم «الانتقام» هنا يعني إنزال العقاب والعذاب الذي يستحقون ولكن ليس من باب الحقد والانفعال.

□ لفظة «يَمِّ» كانت تطلق في مصر القديمة على البحر وعلى نهر النيل أيضاً، وعلى هذا الأساس، وحيث إن هذه القصة تتعلق بمصر، لهذا استفاد القرآن الكريم من المفردات القديمة للمصريين في بيان هذه الحادثة^(١).

التعاليم:

١ - الانتباه إلى صفة الانتقام عند الله تبارك وتعالى مدعاة لاستذكار الإنسان وتركه المعصية، ﴿فَأَنْتَقَمْنَا﴾، فالله تعالى هو أرحم الراحمين، وهو المنتقم أيضاً.

٢ - نحن الذين نصنع مصيرنا، ونحن العامل الرئيس لكلّ البلايا والشدائد التي نواجهها، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ... بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾.

٣ - ثمن الغفلة عن آيات الله باهظ جداً، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ... وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمُغْرِبَهَا الَّتِي بَلَغْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

إشارات:

□ «الإرث» في اللغة هو المال الذي ينتقل من شخص إلى آخر من دون تجارة ومعاملة، سواء أكان المتقل منه حياً أم ميتاً^(٢).

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ في الحقيقة، إِنَّ قِصَّةَ عبور النبي موسى ﷺ وأتباعه البحر وغرق فرعون ورهطه بعذاب من الله، ترسم لنا صورة عن مشاهد يوم القيامة، إذ يدخل الجميع جهنم، ثم بعد ذلك، ينجي الله المتقين منها، ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾^(١).

□ كانت تحت تصرف آل فرعون بلاد شاسعة ويدلّ على ذلك أنها كانت ذات آفاق متعدّدة ومشارق ومغارب متباينة، ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾، كما إنها امتازت بالخصب والنماء الوفير والبركات الماديّة والمعنوية، فهي كانت مهبط رسالات الأنبياء ومدفن الكثير منهم.

□ لقد أثبت القرآن الكريم كروية الأرض قبل أن يكتشف الإنسان ذلك، والدليل على ذلك عبارة تعدّد المشارق والمغارب في الآية الكريمة، التي تستلزم أنها كروية ومتحرّكة.

□ يبيّن الله تعالى في هذه الآية رسوله الكريم ﷺ بالنصر والظفر. استخدام لفظة «رَبِّكَ» في العبارة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، تعني أنك أنت أيضاً مشمول بدعمنا ونصرنا.

التعاليم:

١ - نصرّة الله تبارك وتعالى للمستضعفين لا تخصّ قوم بني إسرائيل وحدهم، بل هي سنّة إلهيّة خالدة. يقول الله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾، ولم يقل: «أورثنا بني إسرائيل».

٢ - لقد عانى بنو إسرائيل ولفترة طويلة الاستضعاف والذلّ تحت ربة فرعون وحكمه، ﴿كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾.

٣ - دولة الأنبياء هي دولة المستضعفين، ﴿يُسْتَضَعُونَ﴾،

٤ - النصر رهنٌ بالصبر والثبات. والمستضعفون والأمة الصابرة والمرابطة هم ورثة الأرض، ﴿وَأَوْرَثْنَا... بِمَا صَبَرُوا﴾.

- ٥ - الله تبارك وتعالى منجز وعده دونما نقص، ﴿وَوَكَّمْتُ كَيْمَتْ رَيْكَ﴾.
- ٦ - هلاك آل فرعون ووصول بني إسرائيل إلى الحكم، هو من كلمات الله تعالى الحسنی ووعوده الناجزة، ﴿كَلِمَتْ رَيْكَ الْحُسْنَى﴾.
- ٧ - التحولات الاجتماعية والتاريخية كلها بيد الله تعالى، ﴿وَأَوْرَثْنَا... وَدَمَرْنَا﴾.
- ٨ - كان قوم فرعون قد بلغوا شأواً بعيداً في الصناعة وفن العمارة، ﴿يَصْنَعُ... يَمْرِشُونَ﴾، بيد أن التطور والتقدم الذي يكون بمعزل عن الدين والإيمان عاقبته وخيمة.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

- «مُتَبَرِّ» تعني مهلك وهي مشتقة من «النبار»، الهلاك.
- إن الله في خلقه شؤوناً، أولئك الذين قضوا عمراً في ممارسة السحر والدجل والشعوذة، حين شاهدوا معجزة موسى آمنوا إيماناً لم ترهبهم معه تهديدات فرعون ولا وعيده، بينما أصحاب موسى ﷺ وعلى الرغم من معاشتهم كل تلك المعجزات وانتصارهم على فرعون وعلى الانحراف وعبادة الأوثان لقومهم، ضلوا مرة أخرى بطلبهم من موسى أن يجعل صنماً آلهة.
- نقرأ في نهج البلاغة أن أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قائلاً: ما دفتنم نبيكم حتى اختلفتم فيه، فردّ عليه الإمام ﷺ قائلاً: «إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال: إنكم قوم تجهلون»^(١).

التعاليم:

- ١ - للعبادة (الحقّة أو الباطلة) حضور دائم في تاريخ البشرية، ﴿يَكْفُؤْنَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾؛ (في عصر النبي موسى ﷺ أيضاً كان يوجد بعض الأفراد الذين يعبدون الأصنام).
- ٢ - البيئة لا تُكره الإنسان بل تؤثر عليه، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾، إذن، ما لم يترسخ الإيمان في قلوبنا، فلا نقرب البيئات أو الثقافات الموبوءة والفسادة، ذلك أنّ مشاهدة لقطات من فيلم، أو صور، أو القنوات الفضائية، أو البيئة الاجتماعية، تترك تأثيراً عظيماً في الإنسان بحيث تعطل أو تذهب بجميع الجهود الإصلاحية للقادة.
- ٣ - أحياناً يغفل المرء عن أهمّ النعم فيقابلها بالجحود والنكران، ﴿وَجَوَزْنَا... أَجْعَلْ لَّنَا﴾.
- ٤ - ربّما أدّى الانحراف الفكري بالإنسان أحياناً إلى أن يطلب من الزعماء الروحانيين طلبات غير معقولة، ﴿يَتُوسَى أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا﴾.
- ٥ - الإنسان، فرداً أو أمة، معرّض في أيّ لحظة إلى خطر الانحراف والسقوط، ﴿قَالُوا يَتُوسَى...﴾.
- ٦ - الإيمان السطحي، إيمان عابر وزائل، ﴿وَجَوَزْنَا... قَالُوا... أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا﴾.
- ٧ - الصديق الداخلي الجاهل أسوأ من العدو الخارجي العالم، ﴿وَجَوَزْنَا... قَالُوا يَتُوسَى أَجْعَلْ﴾.
- ٨ - مطالب الشعب ليست دائماً محقّة وصحيحة، ورغبات الأغلبية لا تعتبر قيمة في كلّ الأحوال، ﴿قَالُوا... أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا﴾.
- ٩ - استنساخ النماذج والتقليد والاقتباس كلّها من خصال الإنسان، ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.
- ١٠ - عبادة الأوثان منشؤها الجهل، وهي فارغة من أيّ منطق أو عقل، ﴿تَجْهَلُونَ﴾. يضع البيان القرآني الجهل في إزاء العقل لا العلم، بمعنى

تطلق صفة الجهل على العمل الذي يفتقد للمنطق أو العقل.

١١ - المطالبة بإله حسي (صنم مثلاً) ومن نبي عظيم كموسى عليه السلام، هو دليل جهل عميق ومتأصل، ﴿بَجْهَلُونَ﴾.

١٢ - الانحراف بشقيه الفكري والعملي زائل لا محالة، ﴿مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، نعم، إِنَّ عاقبة الباطل هي الهلاك والفناء، لذا، لا ننهر بظاهرة البراق.

١٣ - ينبغي أن تقوم العبادة على العقل وشكران النعم، ﴿أَعْبَدَ اللَّهَ أُنْبِيَاكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾، يمكن الوصول إلى الله ولكن لا يمكن صنعه ﴿أُنْبِيَاكُمْ﴾، كما إِنَّ عبادة غير الله لا تستقيم مع العقل وروح الشكر والعرفان.

﴿وَرَادَّ أُنْبِيَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

□ «يسومونكم» مشتقة من مادة «سوم»، والتي تعني الذهاب في طلب شيء، أو فرضه.

□ في الآية السابقة، نُسب تفضيل بني إسرائيل على العالمين إلى الله تعالى وحده، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فيما نجد هذه الآية تستعمل صيغة الجمع ﴿أُنْبِيَاكُمْ﴾، لعلّ هذا التباين في استخدام صيغتي المفرد والجمع راجع إلى أَنَّ إنقاذ الله بني إسرائيل ناجم عن صبرهم وثباتهم وهداية موسى لهم، وقد جرت العادة استخدام ضمير الجميع في الحالات التي تنزل فيه الألفاظ الإلهية بالواسطة، على سبيل المثال يقول ﷺ عن نزول المطر: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾^(١)، ذلك أَنَّ البحر، والحرارة، والسحاب، والرياح، كلّ هذه العوامل أدّت دوراً مشتركاً أفضى في نهاية المطاف إلى نزول المطر.

التعاليم:

- ١ - الله تبارك وتعالى هو المنجي الحقيقي، وإن تمّ ذلك بواسطة هداية موسى وقيادته، ﴿أَبْجَيْتَكُمْ﴾.
- ٢ - ذكر نعم الله تعالى، مدعاة للشبات والاحتراز من الشرك، ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْبِيَكُمْ... وَإِذْ أَبْجَيْتَكُمْ﴾.
- ٣ - يجب على القادة أن يذكروا دائماً بنعم الله تعالى، لئلا يغرق الناس في الغفلة، ﴿وَإِذْ أَبْجَيْتَكُمْ﴾.
- ٤ - الطاغية بدون حاشيته وأعدائه نمر من ورق، ﴿إِنَّمَا فِرْعَوْنُ﴾.
- ٥ - يلجأ الطغاة إلى قتل الأبرياء للاستمرار في الحكم، ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.
- ٦ - النساء والشباب هم أهداف في مخططات الطغاة، ﴿يَقْتُلُونَ... وَنِسَاءَكُمْ﴾.
- ٧ - لا شك في أن الإبقاء على الأمهات وقتل أبنائهم أمام أعينهم هو أفسى العذاب وأشدّه، ﴿سَوْءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ﴾.
- ٨ - أحياناً تكون المكاره والحوادث المريرة وسيلة للامتحان الإلهي، ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٩ - فلنحتسب الصعاب والشدائد، مهما عظمت، في سبيل تربية الإنسان والامتحان الإلهي، ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّقَتٍ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٢١)

إشارات:

□ مرّ علينا في الآية ٥١ من سورة البقرة ميقات الأربعين ليلة لموسى، ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، بينما تقول هذه الآية: إِنَّ الميقات كان ثلاثين ليلة ثم أضيفت إليها عشر أخرى، ويفسر الإمام الباقر عليه السلام هذا الأمر بأنه امتحان لبني إسرائيل. ونقرأ في الروايات أيضاً: أن الثلاثين ليلة التي وعد موسى ذو

القعدة، والعشر التي تَمَّ الله بها الأربعين ليلة عشر ذي الحجة^(١).

على الرغم من أن موسى ﷺ بقي في جبل الطور أربعين يوماً وليلة، (وقد ورد ذلك أيضاً في التوراة في سفر الخروج)، إلا أن عبارة أربعون ليلة قد تكون لجهة أن المناجاة غالباً ما تكون في جوف الليل، أو أن حساب الأيام في العصور القديمة كان على أساس ظهور القمر، ومعلوم أن القمر يظهر في الليل، لذلك، فقد تَمَّت الاستفادة من الليل لأغراض التقويم وحساب الأيام.

□ تغيير الخطط والبرامج يكون لحكمة تقتضي ذلك، مثلاً، لا ضير في تغيير وصفة الطبيب في الحالات الخاصة للمريض، وعلى المنوال نفسه، تَمَّ زيادة الثلاثين ليلة إلى أربعين. وكذا الحال مع مسألة «البداء» بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى، التي تعني تغيير البرنامج تبعاً لتغير الظروف، بطبيعة الحال، إنَّ الله تعالى يعلم مسبقاً بكلّ هذه التغيرات، كما هو الحال مع الطبيب الذي يعلم أحياناً أن حالة مريضه ستتغير بعد يومين من تناوله الدواء الذي يصفه له، وبالتالي سوف يحتاج إلى وصفة دواء جديدة. وبالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، فإنَّ المسألة لا تعتبر، بأيّ حال من الأحوال، الرجوع عن الحكم، أو تغيير الهدف، أو طرؤ أمر حادث، أو تغير في الموقف، لأنه يترتب على كلّ ذلك الجهل ومحدودية المنبع، وهو ما يتّصف به الإنسان، في حين أنَّ الله تبارك وتعالى يقوم بهذه التغيرات بهدف ابتلاء الإنسان وإصلاحه.

□ ثمة أسرار يستبطنها العدد «أربعون»، فلهذا العدد مكانة خاصة في ثقافة الأديان وفي الروايات الإسلامية، نستعرض هاهنا بعض الأمثلة:

- استمرَّ عذاب الكفّار في عصر نوح بالطوفان مدة أربعين يوماً.
- فترة التيه لبني إسرائيل في عرض الصحراء كانت أربعين سنة.
- احتجب النبي الكريم ﷺ عن زوجته خديجة ﷺ أربعين يوماً حيث ظلّ معتكفاً حتى نزل عليه الطعام من السماء فكان ذلك تمهيداً لولادة السيدة الزهراء ﷺ.

- بُعث النبي الكريم ﷺ للرسالة وهو في سنّ الأربعين.
- أفق الكمال الروحي والمعنوي مفتوح أمام الإنسان حتى يبلغ الأربعين من عمره وبعد ذلك يضيق عليه ويتعسر.
- إذا أخلص الإنسان في العمل مدة أربعين يوماً، فإنّ قلبه سيمتلئ بالحكمة ويفيض عن لسانه.
- جاء في الروايات التأكيد على قراءة بعض السور والأدعية أربعين مرة من أجل الفرج بعد الشدة ورفع بعض الحاجات.
- عدم قبول بعض الأعمال، كالصلاة، مدة أربعين يوماً إذ قمنا ببعض المعاصي.
- إذا شهد أربعون مؤمناً بصلاح الميت غفر الله له^(١). وورد في بعض المصادر فضل العدد «أربعون» في مجال تدوين الأحاديث أيضاً^(٢).
- كيف يمكن القول إنّ النبي موسى ﷺ قد استخلف أخاه لغيبته المؤقتة، ولم يستخلف النبي الكريم ﷺ أحداً لغيبته الأبدية؟! هذا على الرغم من أنّ مصادر أهل السنة أيضاً قد تواترت على نقل حديث المنزلة الذي يخاطب فيه الرسول الكريم ﷺ الإمام عليّاً ﷺ قائلاً: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»^(٣). ونسأل هنا: هل ترك الناس لشأنهم في زمن غيبة الإمام المهدي ﷺ؟! □ امتحانان تعرّض لهما قوم موسى هما: الامتحان الأول، إضافة عشرة أيام أخرى إلى مهلة الثلاثين يوماً التي وعدهم موسى ﷺ إياها، والامتحان الثاني، عجل السامريّ، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٠٤ - ٥٠٥، ونصّ الحديث هو: «إذا مات المؤمنُ فَحَضَرَ جَنَازَتَهُ أربعون رجلاً من المؤمنينَ قالوا: اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا خَيْرًا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا! قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنِّي قَدْ أَجَزْتُ شَهَادَتَكُمْ وَغَفَرْتُ لَهُ مَا عَلِمْتُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ».

(٢) تفسير الفرقان؛ و«أربعين در فرهنگ اسلامی» (الأربعون في الثقافة الإسلامية)، رضا تقوی.

(٣) صحيح البخاري، ج ٦، ص ٣؛ صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٤٢؛ مسند أحمد بن حنبل، ج ١ ص ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩ و ١٨٢.

الْتَّامِرِيُّ»^(١)، وذلك عندما خرج موسى إلى ميقات ربّه وقد وعد قومه بثلاثين يوماً ليتلقّى أحكام الله تعالى، ولَمَّا زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى، فانقطع أملهم بعودته إليهم، فذهبوا كلّ مذهب منحرف. هذا، وعلى الرغم من غياب موسى في جبل الطور، لكنّ ربّه لم يغب لكي يلتبس قومه في عبادة الأصنام ربّاً.

□ المقصود بالإصلاح المذكور في الآية هو إصلاح الشؤون الاجتماعية للمجتمع، لا إصلاح السلوك الشخصي. (والدليل على ذلك دخول كلمة «أصلح»، على «أخلفني»).

□ كما في جميع العصور، ظهر في عصر موسى ﷺ مفسدون متآمرون، وهو ما دفع موسى إلى القلق من ناحيتهم وأن يوصي أخاه هارون بالحدّ من أن يؤول زمام الأمور إليهم، وبالتالي يتبع نهجهم عن قصدٍ أو غيره، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

التعاليم:

١ - لا تنزل الكتب السماوية على الأنبياء فجأة دون أيّ تمهيدات أو استعداد نفسي؛ إذ إنّ الجدارة والاستحقاق من مستلزمات العبادة والمناجاة العرفانية أثناء الليل، ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً...﴾.

٢ - ينبغي ألاّ تصرف المسؤوليات الإنسان، حتى على مستوى القائد، عن العبادة والاعتكاف والخلوة مع الله تعالى، ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى...﴾.

٣ - مواقت الله مع الأنبياء عبارة عن أماكن من قبيل جبل الطور وغار حراء، أمّا الضيافة الإلهية لعباده الصالحين فهي الأدعية والمناجاة، ﴿وَوَعَدْنَا...﴾.

٤ - في هدأة الليل، تشتاق النفس للمناجاة، ﴿لَيْلَةً﴾.

٥ - العبادة المتواصلة طيلة أربعين يوماً تترك تأثيرات خاصّة على النفس، ﴿وَأَتَمَمْتَهَا... فَتَمَّ﴾.

- ٦ - يجب تعيين الآماد والآجال لإنجاز الأعمال، ﴿أَرْبَعِينَ﴾.
- ٧ - في خضمّ تحولات النهضة والثورة، يحتاج القائد الجديد أن يخفض الرأي إلى جانب القائد السابق، ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي...﴾.
- ٨ - لا يجوز أن يخلو المجتمع من قائد، ﴿أَخْلَفْنِي﴾.
- ٩ - قد أذن الله للأنبياء بتعيين خلفائهم من بعدهم، ﴿أَخْلَفْنِي﴾.
- ١٠ - على النبي تعيين إمام وقائد للناس بإذن الله ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وفي سبيل إصلاح المجتمع ﴿وَأَصْلَحْ﴾ وبعيداً عن أي انحراف، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ١١ - لا يجوز وجود قائدين متزامنين. فهارون عليه السلام كان كإخيه موسى نبياً إلا أن القيادة كانت لموسى عليه السلام، ﴿أَخْلَفْنِي﴾؛ (إذن، الإمامة والقيادة شيء آخر يختلف عن النبوة، من هنا اختار موسى أخاه هارون خليفة ليخلفه في قومه طيلة فترة غيابه عنهم).
- ١٢ - لا يكف الأنبياء من الإشفاق على أمتهم ويرون أنّ مسؤوليتهم تحتّم عدم تركهم دون قائد ولو لبضعة أيام، ﴿أَخْلَفْنِي﴾.
- ١٣ - أهمّ مسؤولية للقائد، إصلاح الأمة، ﴿وَأَصْلَحْ﴾.
- ١٤ - لا ينبغي للقائد الكف عن دعوة الناس إلى الإصلاح، حتى وإن جنحوا للفساد أو سعوا إليه، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ١٥ - الذكرى مفيدة بكلّ صورها. فعلى الرغم من أنّ هارون عليه السلام كان نبياً إلا أنّ ذلك لم يمنع أخاه موسى من تذكيره بمسؤوليتين رئيسيتين تقع على عاتقه: الإصلاح واجتناب الفساد، ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ...﴾.
- ١٦ - لا يمكن إصلاح المجتمع بالعناصر الفاسدة واتباع المفسدين، ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ١٧ - المجتمع بحاجة إلى قائد مصلح ﴿وَأَصْلَحْ﴾، قائد لا يذعن أبداً لآراء المفسدين ومؤامراتهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي فَأَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَيْنِي وَلَكِنْ نُنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَيْنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

- «دَكًّا»، بمعنى سوى بالأرض، وعلى هذا، فالمقصود من عبارة ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ هو أنه حطم الجبال وسواها كالأرض، وجاء في الروايات أن الجبل تناثر أقساماً، وسقط كل قسم منه في جانب أو غار في الأرض وتلاشى نهائياً.
- «خَرَّ»، بمعنى سقط سقوطاً يُسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو^(١)، و«صَعِقَ»، أي أغمي عليه على أثر الصوت الشديد.

□ لقد وقع كلام كثير بين المفسرين حول تلك القوة العظيمة التي وقعت على ذلك الجبل، ولكن ما يبدو للنظر من مجموع الآيات أن الله أظهر إشعاعه من أحد مخلوقاته على الجبل (وتجلى آثاره بمنزلة تجليه نفسه) ولكن ماذا كان ذلك المخلوق؟ هل كان إحدى الآيات الإلهية العظيمة التي بقيت مجهولة لنا إلى الآن، أو أنه نموذج من قوة الذرة العظيمة أو الأمواج عظيمة التأثير والدفع، أو الصاعقة العظيمة الموحشة التي ضربت الجبل وأوجدت برقاً خاطفاً للأبصار وصوتاً مهيباً رهيباً وقوة عظيمة جداً، بحيث حطمت الجبل ودكته دكاً؟... وثمة احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو... المقصود هو نوع من الإدراك الباطني والمشاهدة الباطنية، نوع من الشهود الكامل الروحي والفكري، ومهما كان ذلك الشيء، فإن ذلك الجبل قد تناثرت أجزاؤه وسقط موسى عليه على الأرض مغمياً عليه من أثر الصوت العظيم لانهداد الجبل^(٢).

□ إن طلب رؤية الله كان مطلباً طرحه جماعة من جهلة بني إسرائيل إذ أصرّوا على

(١) مفردات الراغب، مادة «خرّ».

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المتزل.

موسى ﷺ أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله تعالى بالعين الباصرة (الآية ١٥٥)، ولم يكن هؤلاء الكافرون ليعلموا أن الرؤية تستحيل على العين الباصرة، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(١)، بل تدركه عين البصيرة والإيمان. وفي هذا يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «رأته القلوب بحقائق الإيمان»^(٢).

□ يقول الإمام أبو عبد الله الصادق ﷺ في تفسير ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: «أنا أول من آمن وصدق بأنك لا تُرى»^(٣).

□ في أحد مجالسه، سأل الخليفة العباسي المأمون الإمام الرضا ﷺ: يا ابن رسول الله ﷺ أليس من قول إن الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى»، قال: فما معنى قول الله ﷻ إلى أن قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّكَ، كيف يجوز أن يكون كلم الله موسى بن عمران ﷺ لا يعلم أن الله تعالى ذكره لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ قال الرضا ﷺ: «إن كلم الله موسى بن عمران ﷺ علم أن الله تعالى منزه عن أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه الله (عرّ وجلّ) وقربه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله تعالى كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، وكان القوم سبعمائة ألف رجل فاختار منهم سبعين ألفاً ثم اختار سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمئة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى ﷺ إلى الطور وسأل الله ﷻ أن يكلمه ويسمعهم كلامه، فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأن الله تعالى أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى يسمعه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا:

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

(٢) تفسير الصافي.

إِنَّكَ ذَهَبْتَ بِهِمْ فَقَتَلْتَهُمْ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ صَادِقًا فِي مَا ادَّعَيْتَ فِي مَنَاجَاةِ اللَّهِ ﷻ
 إِيَّاكَ؟ فَأَحْيَاهُمْ وَبَعَثَهُمْ مَعَهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يَرِيكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ
 لِأَجَابِكَ وَكَنتَ تَخْبِرُنَا كَيْفَ هُوَ وَنَعْرِفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ؟ فَقَالَ مُوسَى ﷺ: يَا قَوْمَ
 إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ وَلَا كَيْفِيَّةً لَهُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ وَيُعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ،
 فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ
 مَقَالَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ: فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا مُوسَى
 سَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَنْ أُوَافِقَكَ بِجَهْلِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي
 أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴿وَهُوَ يَهْوَى،
 فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴿بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ﴾ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى
 صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ﴾، يَقُولُ: رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ
 جَهْلِ قَوْمِي، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى، فَقَالَ الْمَأْمُونُونَ: اللَّهُ دَرَكُ
 يَا أَبَا الْحَسَنِ (١).

فِي الْحَقِيقَةِ، إِنَّ مُوسَى ﷺ أَرَادَ مِنْ خِلَالِ عِبَارَتِهِ ﴿أَرِنِي﴾ وَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى
 ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ أَنْ يُفْهَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ رُؤْيَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَسْتَعِصِي عَلَيَّ،
 فَكَيْفَ بِكُمْ أَنْتُمْ؟

□ سَأَلَ مُعَاوِيَةَ بْنُ وَهَبٍ الْإِمَامَ جَعْفَرَ الصَّادِقَ ﷺ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي
 الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَبَّهُ، عَلَى أَيِّ صُورَةٍ رَأَاهُ؟ وَعَنِ
 الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرُونَ رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ عَلَى أَيِّ صُورَةٍ يَرُونَهُ؟
 فَتَبَسَّمَ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاوِيَةُ مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ بَأْتِي عَلَيْهِ سَبْعُونَ سَنَةً أَوْ ثَمَانُونَ
 سَنَةً يَعْيشُ فِي مَلِكِ اللَّهِ وَيَأْكُلُ مِنْ نَعْمِهِ ثُمَّ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ»، ثُمَّ
 قَالَ ﷺ: «يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَرَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ
 وَإِنَّ الرُّؤْيَا عَلَى وَجْهَيْنِ رُؤْيَا الْقَلْبِ وَرُؤْيَا الْبَصَرِ، فَمَنْ عَنِ بَرُؤْيَا الْقَلْبِ فَهُوَ
 مُصِيبٌ، وَمَنْ عَنِ بَرُؤْيَا الْبَصَرِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَنْ
 شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ». وَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ:

سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام فُقِيلَ: يا أخا رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: وكيف أعبد من لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان فإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كل من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق ولا بد للمخلوق من الخالق فقد جعلته إذا محدثاً مخلوقاً ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكاً^(١). وأيضاً عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ما رأيت شيئاً إلّا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه»^(٢) نعم، لا يستطيع المرء بعينه الباصرة أن يرى الله ﷻ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾^(٣). وجاء في آية أخرى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾^(٤). لقد رأى النبي الأكرم ﷺ ليلة أسري به إلى السماء آيات عظيمة الله. طبعاً ما ورد في التوراة الحالية في ما يتعلق بقصة النبي موسى عليه السلام في جبل الطور هو تحريف وزيف^(٥).

التعاليم:

- ١ - الكلام مع موسى كان بهدف إرشاده وتربيته، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾.
- ٢ - لا يرى الله تبارك وتعالى بالعين الباصرة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿كَانَ تَرْتِيقًا﴾.
- ٣ - تجلّى الله تعالى لمخلوقاته ممكن، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْعَبْدِ﴾.
- ٤ - يُعرف الله تعالى من آثاره، والتدبر في آياته. (حقيقة التجلي أيضاً غير معلومة، ولكن آثاره مشهودة)، ﴿فَتَجَلَّىٰ... جَعَلَهُ دَكًّا﴾.
- ٥ - لم ير موسى عليه السلام ربه لا لأنه تنقصه الجدارة والأهلية، بل لأن الله منزّه عن الرؤية، ﴿سُبْحَنَكَ﴾.
- ٦ - رؤية الله بالعين الباصرة دليل على جسمانيته، وهو تبارك وتعالى منزّه عن ذلك، ﴿سُبْحَنَكَ﴾.

(١) تفسير الفرقان، معاني الأخبار.

(٤) سورة النجم: الآيتان ١٣ - ١٤.

(٢) تفسير الفرقان.

(٥) التوراة، سفر الخروج، الباب ٢٣، الآية ٩.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

٧ - الفكر أو الرغبة المعيبة تتطلب التوبة، فحينما يطرأ على ذهن الإنسان وهم باطل عن الذات الإلهية المقدسة يجدر به الإسراع إلى تنزيهه سبحانه، ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

٨ - بعد اتّضاح الحقيقة، يجب الإذعان لها والاعتراف بها، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ... وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ
وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

إشارات:

□ عن الصادق عليه السلام قال: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى تدري لما اصطفتك بكلامي دون خلقي؟ قال: رب ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إنني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب»^(١).

وفي حديث قدسي شريف يقول الله تعالى: «يا موسى إنني اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشدّ تواضعاً لي منك، فمن ثمّ خصصتك بوحىي وكلامي من بين خلقي»^(٢).

التعاليم:

١ - كان موسى عليه السلام عبد الله المخلص، ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾؛ («الاصطفاء» تناول صفو الشيء).

٢ - النبوة والرسالة مقام تنصبي لا انتخابي، ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾.

٣ - لم يمنع نقل موسى للطلب اللفظ لقومه من اصطفاؤه للنبوة، ﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾.

٤ - أربعون ليلة من العبادة في الميقات، كانت تمهيداً لأخذ ألواح التوراة

وتطبيقها: ﴿جَاءَ مُوسَىٰ لِإِيقَاتِنَا... فَخَذَ مَا آتَيْنَاكَ﴾

٥ - بعد القضاء على الطاغوت وتشكيل حكومة دينية، يجب العودة إلى الشريعة والأحكام الإلهية، ﴿فَخَذَ مَا آتَيْنَاكَ﴾.

٦ - المسؤوليات الدينية والإرشادية نعمة إلهية تستحق الشكر والثناء، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الشكر لا يقتصر على اللسان، بل يجب أن يترجم إلى التطبيق العملي للأحكام الإلهية).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

إشارات:

□ المراد بـ «الألواح» هو ألواح التوراة التي مرّ ذكرها في الآية السابقة.

□ تضاربت الأقوال في المقصود بالأحسن في الآية الكريمة ﴿وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ نذكر منها: قد يكون المراد بها هو أنّ الضمير في «أحسنها» يرجع إلى «القوة» أو «الأخذ بالقوة» وهو إشارة إلى أنّ عليهم أن يأخذوا بها بأفضل أنواع الجدّة والقوة والحرص. أو أنّه كان فيها الحسن والأحسن، وكانوا مكلفين بالأخذ بالأحسن فقط، أو ربّما كان المعنى هو أنّ تعاليم التوراة كانت الأفضل والأحسن بين جميع الشرائع والتعاليم في ذلك العصر. أمّا الأحسن المطلق فهو، بلا شكّ، القرآن الكريم كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١).

□ احتمال آخر يرد هنا وهو، قد يكون المقصود هو أنّكم إذا أخذتم بتعاليم التوراة وطبقتموها بقوة وجدّ، فإنّكم ستظهرون على عدوّكم، وستستولون على منازلهم.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أن قول الله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يدل على أنه لم يكتب كل شيء^(١).

□ المراد بـ ﴿دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ إما أن يكون قصر فرعون وبلاطه، أو منازل الساكنين في بيت المقدس قبل قدوم موسى عليه السلام إليها، أو ربما هو مقام المتمردين على تعاليم موسى في يوم القيامة^(٢).

التعاليم:

- ١ - التوراة نزلت مكتوبة ومدونة، ﴿وَكَتَبْنَا﴾.
- ٢ - تلقى الوحي يستدعي توافر القوة والإرادة والجديّة، ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ﴾.
- ٣ - في زحمة السبل والبرامج يجب أن يختار المرء أفضلها وأن يعمل على تطبيقها بكل ما أوتي من قدرة، ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾.
- ٤ - التمرّد على الشرائع السماوية فسق، وتترتب عليه عقوبة، ﴿سَأُزَيِّرُكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾.
- ٥ - في العمل، يجب على القائد أن يكون في طليعة المبادرين. (الله تبارك وتعالى يأمر موسى أولاً ثم قومه)، ﴿فَخَذَهَا... يَأْخُذُوا﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

إشارات:

□ في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا عظمت أمتي الدنيا نزعَتْ عنها هبة

الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي، وإن بروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً^(١).

التعاليم:

١ - فليعلم المتكبرون أنهم محرومون من الهداية والإيمان بآيات الله تعالى، ﴿سَاصِرٌ عَنْ ءَايَتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾.

٢ - إن الله تبارك وتعالى لا يصرف لطفه عن أحد دونما سبب، بل إنما ذلك جني أعمال الإنسان، ﴿سَاصِرٌ... يَتَكَبَّرُونَ﴾.

٣ - تكبر الإنسان نابع من أحلامه المريضة، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾.

٤ - لا يليق الغرور والتكبر بمخلوق ضعيف عاجز كالإنسان، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾.

٥ - إذا استمر الإنسان في تكبره، فلن يهتدي بآيات أخرى، ﴿يَتَكَبَّرُونَ... كُلُّ ءَايَةٍ﴾.

٦ - الخيار بيد الإنسان، إن شاء اهتدى وإن شاء ضلّ، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

٧ - دوام الغفلة والتكذيب بآيات الله تعالى، مدعاة للتكبر وانحراف الرؤية والاختيار، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ

إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

إشارات:

□ «الحبط»، بطلان العمل وفقدانه الأثر. و«حبطت الناقة»، أن تأكل الدابة سمّاً فيتنفخ بطنها، وينشقّ، وعلى هذا تكون بعض أعمال الإنسان كالسمّ، إذ يضيع عمره هباءً، وتنفى حياته في غير طائل^(٢).

□ حبط العمل لا يتعارض مع مفهوم العدل الإلهي، فهو أمر قهري وتكويني، وهو ثمرة فعال الإنسان، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - الكفر والتكذيب بآيات الله وراء حبط الأعمال السابقة، ﴿كَذَّبُوا... حَبِطَتْ﴾.
- ٢ - الثواب والعقاب في يوم القيامة تجسيد لأعمالنا، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٣ - ما هو أسوأ من المعصية، المداومة عليها، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَخْذَ قَوْمٍ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُلُوسِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخْذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

إشارات:

□ «عجل»، ولد البقرة لتصوّر عجلتها التي تعدم منه إذا صار ثوراً^(١)، و«حلي» جمع الحلي، وتعني أدوات الزينة والمجوهرات و«خوار» هو الصوت الخاص الذي يصدر من البقر أو العجل.

□ عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ فِي مَا نَجَىٰ مُوسَىٰ رَبَّهُ أَنْ قَالَ: يَا رَبِّ هَذَا السَّامِرِيُّ صَنَعَ الْعَجَلَ فَالْخَوَارُ مَنْ صَنَعَهُ؟ قَالَ: فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَىٰ إِنَّ تِلْكَ فَتْنَتِي فَلَا تَفْحَصْ عَنْهَا»^(٢) والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾^(٣).

□ إِنَّ هذه القصة مهمة جداً بحيث إِنَّ الله تبارك وتعالى أشار إليها في أربع سور هي، سورة البقرة الآيات ٥١ و٥٤ و٩٢ و٩٣، وسورة النساء الآية ١٥٣، وسورة الأعراف الآيات المبحوثة هنا، وسورة طه الآية ٨٨ فما بعد. على أَنَّ

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(١) مفردات الراغب، مادة (عجل).

(٢) تفسير الفرقان.

هذه الحادثة، مثل بقية الظواهر الاجتماعية لم تكن لتحدث دون مقدّمة وأرضية، فبنو إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة في مصر وشاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول، ومن جهة ثانية عندما عبروا النيل شاهدوا في الضفة الأخرى مشهداً من الوثنية، إذ وجدوا قوماً يعبدون البقر، وكما مرّ عليك في الآيات السابقة طلبوا من موسى ﷺ صنماً كتلك الأصنام، ولكن موسى ﷺ وبخهم وردّهم، ولا مهم بشدة. ومن جهة ثالثة، تمديد مدّة ميقات موسى ﷺ من ثلاثين إلى أربعين، الذي تسبّب في أن تشيع في بني إسرائيل شائعة وفاة موسى ﷺ بواسطة بعض المنافقين، كما جاء في بعض التفاسير. والأمر الرابع، جهل كثير من بني إسرائيل بمهارة السامريّ في تنفيذ خطته المشؤومة، كل هذه الأمور ساعدت على أن تُقبل أكثرية بني إسرائيل في مدّة قصيرة على الوثنية، ويلتفتوا حول العجل الذي أوجده لهم السامريّ للعبادة^(١).

□ إذن، في ضوء ما تقدّم، فإنّ عوامل الانحراف أشياء عدّة منها:

- ١ - عدم وجود قائد أو غيايه.
- ٢ - جهل الناس وعدم معرفتهم.
- ٣ - وجود مزيج من علماء وفنانين ضالّين ومنحرفين، واستغلالهم العلوم والفنون.
- ٤ - الجمال والبهارج الظاهرية.
- ٥ - الضجيج والدعاية الإعلامية المزيفة.

□ في الآية ٨٧ من سورة طه، نُسب صنع العجل إلى شخص يدعى السامريّ، في حين أنّ المثير هو نسبة بعض المصادر هذا العمل إلى هارون أخي موسى ﷺ^(٢) ! وهنا نلاحظ أنّ الآية الكريمة تنسب هذا العمل إلى قوم موسى، لجهة قبولهم ورضاهم بهذا العمل، ومباركتهم ونصرتهم له^(٣).

□ لقد لجأ النبي موسى ﷺ إلى براهين ملموسة وواضحة لهداية قومه وإنقاذهم

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل. (٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) التوراة، سفر الخروج، الباب ٣٢.

من الضلال ودسائس السامريّ وحبائله. على سبيل المثال، تطرّق إلى تفنيد ألوهية العجل مبيناً أنّه مصنوع وليس صانعاً، وأن له مكاناً؛ وله وزن وحجم وشكل وهيئة، وهو فوق كلّ هذا لا يملك أن يهدي أو يرشد أحداً البتة^(١).

التعاليم:

- ١ - أحياناً يولي الإنسان بعض الأشياء الموهومة أهمية لا تستحقّها، قد تصل إلى حدّ العبادة، ﴿وَأَتَّخَذَ﴾.
- ٢ - الدعوة إلى عبادة العجل ظهرت بعد التمرّد على الزعيم، وفي غياب القائد الحقّ، ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ (عندما ذهب موسى ﷺ إلى الميقات).
- ٣ - يلجأ العدو إلى الألاعيب الفنية والأهواء النفسانية من أجل حرف الناس، (صنم من ذهب) ﴿صَلْبَةً مِنْ ذَهَبٍ﴾.
- ٤ - للأمم تاريخ طويل في الردة عن الدين. ﴿وَأَتَّخَذُوا... عِجَلًا﴾.
- ٥ - عجل السامريّ كان صنماً ليس أكثر، ﴿جَدًّا﴾.
- ٦ - تلعب زخارف الدنيا، والضجيج، والصخب دوراً كبيراً في انحراف الإنسان، ﴿صَلْبَةً... خَوَارُ﴾، لذا، لا ينبغي للمرء أن يتبع كلّ بريق أو نعيق.
- ٧ - يجب على المعبود هداية الإنسان، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾.
- ٨ - الشرك ظلم، ومن أشاح بوجهه عن الحقّ دونما برهان سوى اللجاج، وكان أسير ما صنعت يده، فقد ظلم، ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

إشارات:

□ كناية عن الندم والحسرة، فعندما يقف الإنسان على الحقائق ويطلع عليها وتُغلق بوجهه الأبواب، يضع ذقنه على يده من الندم والحسرة، ويضرب

أخماساً بأسداس، وكأنه قد تماهى في يديه وذاب، من هنا، قول القرآن الكريم: ﴿سُقِطَ فِي أَيِّدِهِمْ﴾^(١). وكذلك تقول العرب لكلّ نادم على أمر فات منه أو سلف وعاجز عن شيء: «قد سقط في يديه»، و«أسقط» لغتان فصيحتان، وأصله من الاستسار، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصصره، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فيكتفه، فالمرمي به مسقوط في يدي الساقط به، فقيل لكلّ عاجز عن شيء ومصارع لعجزه متندم على ما فاته: سقط في يديه وأسقط^(٢)، أو ربّما كان التعبير كناية عن أنّ العجل سقط أمام أعينهم، كما نقرأ في الآية الكريمة ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرَيْنِهِ ثُمَّ لَتَنِفُّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - يوجد طيف من الناس لا يقف على أخطائه ما لم يلمس لمس اليد عاقبة عمله، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ...﴾.
- ٢ - لا يأس من رحمة الله تعالى حتى وإن كان ماضينا تشوبه عبادة العجل، ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا...﴾.
- ٣ - الإنسان في خسران ما لم يتداركه الله تبارك وتعالى برحمته ومغفرته، ﴿الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُمُوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١٥٠)

إشارات:

□ عن ابن مسعود قال: احتجّوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما لأمر المؤمنين عليه السلام

(٣) سورة طه: الآية ٩٧.

(١) تفسير راهنما.

(٢) تفسير الطبري، ذيل الآية.

لم يَنَازِعِ الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن ينادى: الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «معاشر الناس، إنه بلغني عنكم كذا وكذا» قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: «إِنَّ لِي بِسَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَسْوَةَ فِي مَا فَعَلْتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ حَكَمُ كِتَابِهِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، قالوا: ومن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: «أَوَّلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام» إلى أن قال: «وَلِيَّ بَأَخِي هَارُونَ عليه السلام أَسْوَةَ إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ: ﴿إِنَّ أَلْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾، فَإِنْ قُلْتُمْ: لَمْ يَسْتَضَعِفُوهُ وَلَمْ يَشْرَفُوا عَلَى قَتْلِهِ فَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ قُلْتُمْ: اسْتَضَعَفُوهُ وَأَشْرَفُوا عَلَى قَتْلِهِ فَلِلَّذَلِكَ سَكَتٌ عَنْهُمْ فَالْوَصِيَّ أَعِزُّ»^(١).

□ عن النبي الكريم ﷺ في حديث طويل يقول فيه لعلي عليه السلام: «يَا أَخِي أَنْتَ سَيْفِي بَعْدِي وَتَسْلُقُنِي مِنْ قَرِيشٍ شِدَّةٍ وَمَنْ تَظَاهَرَهُمْ عَلَيْكَ وَظَلَمَهُمْ لَكَ. فَإِنْ وَجَدْتَ عَلَيْهِمْ أَعْوَانًا فَجَاهِدْهُمْ وَقَاتِلْ مَنْ خَالَفَكَ بَيْنَ وَافِقِكَ، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَعْوَانًا فَاصْبِرْ وَكَفَّ يَدَكَ وَلَا تَلْقَ بِهَا إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَإِنَّكَ مَتْنِي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَكَ بِهَارُونَ أَسْوَةَ، إِذْ اسْتَضَعَفَهُ قَوْمُهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ فَاصْبِرْ لظُلْمِ قَرِيشٍ وَتَظَاهَرَهُمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ وَمَنْ تَبِعَهُ وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَجَلِ وَمَنْ تَبِعَهُ»^(٢).

□ عن النبي ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى عليه السلام لَيْسَ الْمَخْبِرُ كَالْمَعَايِنِ لَقَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِفِتْنَةِ قَوْمِهِ، وَلَقَدْ عَرَفَ أَنْ مَا أَخْبَرَهُ رَبُّهُ حَقٌّ وَأَنْ عَلَى ذَلِكَ لِمَتَمَسَّكَ بِمَا فِي يَدَيْهِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَرَأَاهُمْ فَغَضِبَ وَالْقَى الْأَلْوَحَ»^(٣).

□ سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لِمَ أَخَذَ بِرَأْسِهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ وَيُلْحِيهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْعَجَلِ وَعِبَادَتِهِ لَهُ ذَنْبٌ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَفَارِقْهُمْ لَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَلْحَقْ بِمُوسَى وَكَانَ إِذَا فَارَقَهُمْ يَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ»^(٤).

(٣) المصدر نفسه.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٤) تفاسير: نور الثقلين؛ الفرقان؛ الاثني عشرى.

(٢) تفسير الفرقان.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ للمرء أن يُظهر حميَّته الدينيَّة إزاء الانحرافات الفكرية والعقدية، ﴿غَضِبْنَنَ أَيْسًا﴾.
- ٢ - أولياء الله تعالى يرثون لحال الناس حتى في غضبتهم، ﴿غَضِبْنَنَ أَيْسًا﴾.
- ٣ - الردة والرجعية هي من التهم التي تُوجَّه إلى الثورات والحركات الإصلاحية، ﴿يُنْسَا خَلَقْتُونِي﴾؛ (لذا، على القائد أن يتحسَّب لهذا الأمر ويتداركه).
- ٤ - أحياناً حتى جهود الأنبياء لا تجدي نفعاً مع المجتمع الفاسد والمنحرف، ﴿يُنْسَا خَلَقْتُونِي﴾.
- ٥ - لا يجوز استباق الأوامر الإلهية، ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.
- ٦ - تأخَّر موسى ﷺ وتمديد ميقاته في جبل الطور كان بأمر من الله تعالى، وليس رغبة من موسى، ولكن، طبعاً، دون أن يخلو الأمر من بعد تربوي وتهذيبي، ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.
- ٧ - حينما تتعرَّض الأصول إلى التهديد، ينبغي ترك الفروع، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾، لما رأى موسى ﷺ قومه يجنحون نحو الشرك ويتركون عقيدة التوحيد، ألقى ألواح التوراة جانباً - وهي عبارة عن مجموعة من التعاليم والأحكام الإلهية - والتفت إلى الموضوع الأهم.
- ٨ - من أجل إحداث هزة في المجتمع الفاسد، لا بدّ من حركة توبيخ قوية تظلّ حية في الذاكرة، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾، ورد في نهج البلاغة أنّ الإمام عليّاً ﷺ عندما كان يريد لفت انتباه المستمع لخطبته، كان يضرب على وجهه الشريف «ثمّ ضرب على لحيته الكريمة»^(١).
- ٩ - لا يجوز غضّ الطرف عن أخطاء وسقطات الآخرين بسبب موقعهم أو مكانتهم أو قرابتهم ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، أحياناً يكون تقريع المقرّبين أمام

الملا لبيان أهمية الحدث وبمثابة إنذار للغرباء وردعهم، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، كما إن الله تعالى يخاطب نبيه الكريم ﷺ قائلاً: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)؛ إذ من الواضح أن الهدف هو إنذار الآخرين وتحذيرهم.

١٠ - ينبغي أن يكون التعامل ودياً وعاطفياً في إزاء غضب الآخرين، ﴿إِنَّ أُمَّ﴾؛ (لاحظ أن هارون ينادي موسى ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ على الرغم من أنهما كانا من أب واحد وأُم واحدة).

١١ - مستضعفو الأمم الذين نجّاهم موسى من ريقة فرعون، أصبحوا اليوم يستضعفون قادتهم، ﴿اسْتَضَعُّونِي﴾.

١٢ - يبلغ الانحذار الأخلاقي للإنسان مبلغاً أن يهدّد ولي نعمته بالقتل تحقيقاً لأهواء عبادة العجل، ﴿وَكَاذِبًا يَفْتُلُونَنِي﴾.

١٣ - لم يكن صحابة النبي موسى ﷺ كلهم عدولاً، فقد ارتدّ بعضهم ﴿وَكَاذِبًا يَفْتُلُونَنِي﴾، وجنح بعض آخر إلى عبادة العجل.

١٤ - في توبيخنا لمن نحب، يجب أن لا نسمح للأعداء باستغلال الموقف، ﴿فَلَا تُشِمِتْ فِيكَ الْأَعْدَاءُ﴾.

١٥ - صمت الإنسان ولا مبالاته تجاه الظلم والانحراف تجعله في خندق الظالمين، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فهارون اعتبر السكوت ظلماً، لذلك يقول: إنه لم يسكت على فعلتهم بل أكره على ذلك وهدّد بالقتل.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١٥١)

إشارات:

□ استغفار موسى ﷺ كان إما لتقديم مثال حي للآخرين، أو بسبب تعنيفه أخاه هارون أمام الملا، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾.

لا يخفى أن موسى عليه السلام بهذا الاستغفار قد ردّ على العبارة العاطفية لهارون ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ بأحسن منها.

التعاليم:

- ١ - لا ننس إخوتنا وزملاءنا من الدعاء، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾.
- ٢ - في خضم انحرافات المجتمع، القادة هم أحوج من غيرهم إلى الدعاء واللفظ الإلهي، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾.
- ٣ - العفو والمغفرة هما الخطوة الأولى للدخول إلى رحمة الله تعالى، ﴿اغْفِرْ... وَأَدْخِلْنَا﴾.
- ٤ - في الدعاء، يجب أن نستذكر لطف الله وصفاته، ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ﴾

إشارات:

□ يُستشف من الآية ١٤٩ أن بني إسرائيل قد ندموا على فعلتهم، وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الله تبارك وتعالى لم يتب عليهم، إلا على نحو مماثل لما ورد في الآية ٥٤ من سورة البقرة، أي أن يقتل بعضهم بعضاً، ﴿إِن كُنتُمْ تَحِبُّونَ أَنفُسَكُمْ بِاتَّخَذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾، إذن، التوبة من الارتداد وعبادة العجل، والرجوع إلى عبادة الحق، ليست في أن يقول التائب: «أستغفر الله» فحسب، بل عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، لتصير هذه الحركة في محاربة الشرك ثقافة راسخة على مدى الأجيال.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً إلا زهده الله في الدنيا وبصره داءها ودواها، وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه»، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ

تَجْزَى الْمُتَفَرِّينَ ﴿١﴾ فلا يرى صاحب بدعة إلا ذليلاً، ولا مفترياً على الله ﷻ وعلى رسوله وأهل بيته صلى الله عليهم إلا ذليلاً^(١).

التعاليم:

- ١ - للإنسان ملء الإرادة والحرية في اختيار دينه، وإن أودى به خياره هذا، أحياناً، إلى السقوط، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَعْلَ سَيِّئًا هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾.
 - ٢ - المرتد مغضوب عليه من الله تعالى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَعْلَ سَيِّئًا هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾.
 - ٣ - غضب أولياء الله، هو من غضب الله تبارك وتعالى، ﴿غَضِبَ عَلَيْهِ... غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
 - ٤ - أولئك الذين يلهثون وراء المظاهر الخداعة للأصنام وأصواتها المجلجلة بدلاً من اتباع نداء الإيمان سيلقون ذلة في هذه الدنيا، ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
 - ٥ - الغضب الإلهي لا يختص ببني إسرائيل وحدهم، بل هو سنة الله جرت في سائر الأمم المرتدة أيضاً وسوف تستمر، ﴿وَكَذَلِكَ تَجْزَى الْمُتَفَرِّينَ﴾.
- ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

التعاليم:

- ١ - طريق التوبة سالك دائماً، ولو بعد حين، ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ «ثم» حرف عطف يدل على الترتيب مع التراخي).
- ٢ - التوبة من كل ذنب، تقتضي التعويض عن ذلك الذنب، فالتوبة عن عبادة العجل هي الإيمان الحقيقي بالله تعالى، ﴿وَهُمْ آمَنُوا﴾.
- ٣ - الدعوة إلى التوبة تحتاج إلى توفر ظروف حاضنة مناسبة، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾.

٤ - علاوة على المغفرة والصفح عن التائبين الحقيقيين، فإن الله تبارك وتعالى سوف يشمل هؤلاء برحمته الواسعة، ﴿لَقَفَوُا رَحِمَهُ﴾، نعم، إن للأسماء الحسنى والصفات الإلهية تجليات ومظاهر حكيمة.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي يَمِينِهِ وَرَحْمَةً
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - قانون السماء هو الرحمة الإلهية، والهداية المقرونة بالرحمة إنما تصيب المؤمنين الذين يخشون الله تعالى، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ... يَزْهَبُونَ﴾.
- ٢ - التوراة الأصلية غير المحرّفة كانت في عصرها وسيلة هداية للذين يخشون الله، ﴿هُدًى... يَزْهَبُونَ﴾.
- ٣ - الخشية من الله تبارك وتعالى، تفتح أبواب الرحمة بوجه الإنسان، ﴿وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ... يَزْهَبُونَ﴾.
- ٤ - ما من شخصيّة تستاهل أن يقف الإنسان أمامها خائفاً وخاضعاً، ﴿لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمِثِّلُواْ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلَ وَإِنِّي أَتْلُو أَسْمَاءَهُمْ إِنِّي بِكُلِّ الْغَفَّةِ عَلِيمٌ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

إشارات:

- لقد وقع بين المفسرين كلام فيما إذا كان للنبي موسى ﷺ ميقات واحد مع ربه أو مواقيت عدّة، أو أنّ الموت في الميقات كان بسبب طلب رؤية الله تعالى أو بسبب عبادة قومه العجل، ونعتقد هنا أنّه لا ضرورة تلخّ على فهم الآراء المطروحة في هذه الموضوعات، لذلك، فإننا سنطوي عنها كشحاً.
- على الرغم من مشاهدة أصحاب موسى ﷺ جميع هذه المعجزات، إلّا أنّهم

مع ذلك عادوا ليصبروا من جديد على طلب رؤية الله أو سماع صوته تبارك وتعالى، مع العلم أنّ هؤلاء الأصحاب عبارة عن صفوة مختارة من بين ٧٠٠ شخص من قومهم، رافقوا موسى ﷺ في ذهابه إلى الميقات في جبل الطور، ونزل عليهم العذاب الإلهي، ذلك أنّ من يشاهد المعجزة بأمّ عينيه فلا معنى بعد ذلك لتذرعه.

□ في العدد «سبعون» كما في العدد «أربعون» أسرار والغاز خفية.

□ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم ﷺ حديث طويل وفيه: قلت: فأخبرني يا ابن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال: «مصلح أم مفسد؟» قلت: مصلح، قال: «فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟» قلت: بلى، قال: «فهي العلة، وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك»، ثم قال ﷺ: «أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله ﷻ، وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمم أهدى إلى الاختيار منهم، مثل موسى وعيسى ﷺ، هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنّه مؤمن؟» قلت: لا، قال: «هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربّه ﷻ سبعين رجلاً ممن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم، فوقع خيرته على المنافقين، قال الله ﷻ: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ فَاخِذْكُمْ أَصْلَفَةً﴾ فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله ﷻ للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح، وهو يظنّ أنّه الأصلح دون الأفسد علمنا أنّ الاختيار لا يجوز إلّا لمن يعلم ما تخفي الصدور وما تكنّ الضمائر، ويتصرّف عليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح»^(١).

التعاليم:

- ١ - تبوّؤ الأفراد المناصب الحساسة والمواقع المهمة يقتضي خضوعهم لاختبار دقيق واختيارهم بعناية، لا أن يتم وضع أي شخص (مهما كانت خلفيته) في أي منصب كان، ﴿وَأَخَارَ مُوسَى﴾.
- ٢ - الموت أهون من تحمّل وخز كلام الناس، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَئِنِّي﴾؛ (ليتك يا ربّي أهلكتنا قبل أن نأتي جبل الطور ولا نسمع قومنا وهم يقولون: لقد اخترت الصفوة لتذهب بهم إلى حتفهم و... إلخ).
- ٣ - يتعامل الأنبياء في أفعالهم وسلوكهم مع ظواهر الأمور لا بعلم الغيب. من هنا، ربّما يخفقون في اختيار الأصلح، ﴿يَا فَعَلَ الشُّعْهَاءُ يَتَاء﴾.
- ٤ - أحياناً ينزل العذاب الإلهي شاملاً ليحرق الأخضر واليابس، ﴿أَتَهْلِكُنَا يَمَا فَعَلَ الشُّعْهَاءُ﴾؛ (عذاب الصالحين هو بسبب سكوتهم وعدم مبالاتهم).
- ٥ - أحياناً تكون البلايا والكوارث امتحاناً إلهياً، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾، يُعرف الأفراد ويميز بعضهم عن بعض، ﴿تُفْضِلُ... وَتَهْدِي﴾.
- ٦ - من آداب الدعاء استهلاله بالشّناء على الله تبارك وتعالى، ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾.
- ٧ - لن تنزل الرحمة الإلهية ما لم تطهّر الروح من أدران المعاصي، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.
- ٨ - أفضل الصفح هو الصفح الإلهي (بخلاف صفح الناس الذي يكون مشفوعاً بالتأخير أو المنة والإهانة)، ﴿حَيَّرَ الْفَتَرِينَ﴾.

﴿رَأَيْنَا أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ
مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦)

إشارات:

□ الآية الكريمة إشارة إلى دعاء آخر للنبي موسى ﷺ على إثر طلب سابق.

□ في كلمة ﴿هَذَا﴾ دلالة على توجه هؤلاء القوم نحو الله سبحانه وعودتهم عن طريق المنحرفين وأولئك الذين طلبوا جزافاً رؤية الله.

□ نقلاً عن ابن عباس، حين نزلت الآية الكريمة ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمع الشيطان فيما إذا كانت هذه الآية تشملها، فجاء الرد الإلهي قاطعاً في رفع هذا الوهم ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

□ إن رحمة الله تعالى واسعة، ولكن شمولها غير المؤمنين هو فضل من الله ﷻ ومنة^(١).

□ روي في حديث عن النبي الكريم ﷺ أنه قام في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلوة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم رسول الله ﷺ قال للأعرابي: «لقد تحجرت واسعاً»، أي جعلت شيئاً واسعاً، أمراً ضيقاً ومحدوداً، يريد رحمة الله ﷻ^(٢).

التعاليم:

- ١ - أفضل الخطوات والأعمال، أكثرها ثباتاً ورسوخاً، ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا﴾.
- ٢ - ما انفك الأنبياء يسعون إلى تحقيق سعادة الناس في الدنيا والآخرة، ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾.
- ٣ - أفضل الدعاء أشمله، ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾.
- ٤ - العودة الخالصة إلى الله تعالى، هي أن يكون المرء مشمولاً بالأنوار الإلهية، ﴿هَذَا﴾.
- ٥ - لا حدود تحد الرحمة الإلهية، لذا، فإن عجز الإنسان عن الوصول إليها، إنما هو قصور منه، ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، لا قصور يشوب فاعلية الرحمة الإلهية، بل القصور هو في استعدادنا وقابليتنا على الانتهال منها.

(١) تفسير «الآثني عشري».

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الأمل في كتاب الله المنزل.

٦ - إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ هِيَ الْوَاسِعَةُ لَا عَذَابَهُ، ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٧ - الرحمة الإلهية هي القاعدة، وعذابه جلّ وعلا استثناء. (لاحظ أَنَّ الآية الكريمة استخدمت في الرحمة صيغة الفعل الماضي «وَسِعَتْ»، بينما جاء الفعل مضارعاً «أُصِيبُ» في حالة العذاب).

٨ - الاستجابة لدعاء الأنبياء أيضاً تكون في حدود الحكمة الإلهية ومقتضياتها، ﴿وَاكْتُبْ... فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ﴾.

٩ - الالتزام بالتقوى والعمل بالتكاليف يستتبعه شمول العبد بالرحمة الإلهية ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ﴾؛ في حين أَنَّ ارتكاب المعاصي لا يستتبعه عذاب حتمي، ما دام باب التوبة والاستغفار مفتوحاً، ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

١٠ - لا حدود لرحمة الله تبارك وتعالى، ولكن شرط الانتهاال منها هو الالتزام بالتقوى، وأداء الزكاة، وحصول الإيمان، ﴿يَنْفَقُونَ... الزَّكَاةَ... يُؤْمِنُونَ﴾، نعم، الذي امتنع عن أداء الزكاة، أو ترك التقوى، حُرِمَ من الرحمة الإلهية وعَرِضَ نفسه للعذاب الإلهي.

١١ - ورد موضوع الزكاة في شريعة اليهود أيضاً، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

١٢ - الإيمان بتمام الآيات لا ببعضها هو سبب شمول العبد بالأنطاف الإلهية، ﴿وَيَايُنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمْتُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧)

إشارات:

□ كلمة «أُمِّي»، نسبةً إلى «أم»، بمعنى الوالدة، وقد دار كلام كثير بين المفسرين

حول معنى الكلمة في الآية، فبعضهم فسرها بمن لم يتعلم ولم يدرس، يعني أنه باقٍ على الحالة التي ولد بها من بطن أمه أول يوم، بينما أحال بعض الآخر معنى الكلمة إلى «الأمّة» أي أنه نهض من بين جماهير الأمّة لا من طبقة الأعيان والمترفين والجبارين، وهناك فريق ثالث نسب الكلمة إلى «أمّ القرى» وهي مكّة المكرّمة، أي أنّ الأمّي تعني المكيّ.

□ لا جدال في أميّة الرسول الأكرم ﷺ بمعنى أنّه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ﴿الرَّسُولَ الَّذِي الْأَنْمَى﴾، وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الآية ٤٨ من سورة العنكبوت ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ﴾^(١).

□ أساساً، كان عدد العارفين بالقراءة والكتابة في المحيط الحجازي قليلاً جداً، فقد كانت الأميّة هي الحالة السائدة على الناس بحيث إنّ العارفين بالكتابة والقراءة كانوا معروفين بأعيانهم وأشخاصهم، فقد كان عددهم في مكّة من الرجال لا يتجاوز ١٧ شخصاً، ومن النساء امرأة واحدة. ومن المسلم به أنّ النبي الكريم ﷺ لو كان قد تعلّم القراءة والكتابة - في مثل هذه البيئة - لدى أستاذ لشاع ذلك وصار معروفاً للجميع، وعلى فرض أنّنا لم نقبل بنبوّته، ولكن كيف يمكنه ﷺ أن ينفي - في كتابه - بصراحة هذا الموضوع؟ ألاّ يعترض عليه الناس ويقولون: إنّ دراستك وتعلّمك القراءة والكتابة أمرٌ مسلمٌ معروف لنا، فكيف تنفي ذلك؟^(٢)

□ «الإصر»، يعني في الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة، ويطلق أيضاً على العهد والميثاق أو العقوبات، لأنّ هذه الأمور تحدّ من حركة الإنسان. «الأغلال»، جمع «عُلّ»، وهي السلسلة، وتشمل المعتقدات الباطلة، والخرافات، وعبادة الأوثان، والبدع، والسنن الجاهلية المقيّدة.

□ من المعلوم أنّ عقيدتنا في التوراة والإنجيل الحاليين أنّهما كتابان محرّفان،

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) المصدر نفسه، نقلًا عن كتاب فتوح البلدان، البلاذري، ص ٤٥٩.

طبقاً للأدلة التي بحوزتنا، ولكن مع ذلك فهما لا يخلوان من بعض الإشارات والبشارات عن نبي الإسلام ﷺ، الأمر الذي أتاح لأهل الكتاب أن يعرفوا النبي العظيم كمعرفة الوالد لولده^(١). فلو لم يكن اسم وصفات النبي الكريم قد وردت في التوراة والإنجيل، لجاء المعارضون بهذين الكتابين وقالوا: لم نجده في كتبنا، وبالتالي لكان من الأفضل لهم مواصلة عدائهم عن هذا الطريق، ولما اضطروا إلى تجيش الجيوش ودفع الأموال الطائلة والجزية.

□ نقرأ في ما ورد من أحاديث عن طريق الفريقين أنّ النبي الكريم ﷺ قال: «ما أنزل الله آية فيها ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَّا وَعَلَيَّ رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا»^(٢).

□ يخاطب النبي الكريم ﷺ أصحابه قائلاً: «أي الخلق أعجب إيماناً؟» قالوا: الملائكة، فقال: «الملائكة عند ربهم فما لهم لا يؤمنون؟» قالوا: فالنبيون، قال: «النبيون يوحى إليهم فما لهم لا يؤمنون»، قالوا: فنحن يا نبي الله، قال: «أنا فيكم فما لكم لا تؤمنون إنما هم قوم يكونون بعدكم يجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به فهو معنى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾؛ أي الظافرون بالمراد الناجون من العقاب الفائزون بالشواب»^(٣).

التعاليم:

١ - الذين يتبعون النبي الكريم يشملهم الله برحمته الخاصة، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾.

٢ - النبي الكريم ﷺ هو الوسيلة إلى رحمة الله الواسعة، ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

٣ - حاز النبي الأكرم ﷺ على مقامي النبوة والرسالة، ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾، كلمة «النبي» تطلق على كل من يبين رسالة الله إلى الناس، ويوحى إليه، وإن لم

(١) مثلاً: التوراة، سفر التكوين، الباب ١٧، الآية ١٨؛ سفر الظهور، الباب ٤٩، الآية ١٠؛ انجيليو حنا، الباب ١٤، الآية ١٥ والباب ١٥، الآية ٢٦.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير الفرقان.

يكن مكلفاً بالدعوة والتبليغ، ولكنّ الرسول - مضافاً إلى كونه نبياً - مكلف بالدعوة إلى دين الله، وتبليغه والاستقامة في هذا السبيل.

٤ - العلائم والصفات المذكورة في التوراة والإنجيل كانت مطابقة للنبي الكريم على نحوٍ وكانَ أهل الكتاب كانوا يجدون النبي نفسه في الكتابين المقدسين. فـالله ﷻ يقول: ﴿يَجِدُونَهُ﴾، ولم يقل: «يجدون علائمه».

٥ - من أجل أن يكون الكلام مؤثراً في البرهنة على الحق، لا بدّ من توفر وثائق رسمية ومدونة، ﴿مَكْتُوبًا﴾.

٦ - لقد بشر الأنبياء الماضون بمجيء النبي الكريم ﷺ، ﴿مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾.

٧ - فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقع على رأس مسؤوليات البعثة للأنبياء، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ...﴾.

٨ - يعتبر الاستهلاك والتغذية من جملة اهتمامات الدين الإسلامي، ﴿وَيُحِلُّ... وَيُحَرِّمُ﴾؛ (كان اليهود والنصارى قبل نزول القرآن غارقين في الخرافات، إذ أرهقوا أنفسهم بالتعاليم الصعبة، وبتحريمهم ما أحلّ الله، وخلقهم للبدع والسنن التي ما أنزل الله بها من سلطان، حتى جاء الإسلام فأبطلها جميعاً).

٩ - إذا أردنا إصلاح المجتمع، ينبغي أن نفتح الباب على الحلال، ثم بعد ذلك نضيق على المحرمات. (لاحظ أنّ «يحلّ» سبقت «يحرم»).

١٠ - حلال الله وحرامه ينسجمان مع فطرة الإنسان، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. («الطيب»)، يقال لما تستلذه نفس الإنسان وينجذب إليه طبعه).

١١ - العادات والتقاليد الخاطئة هي بمثابة سلاسل تقيد أفكار الناس. فالإنسان بدون الأنبياء يصبح تابعاً وأسيراً، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾.

١٢ - يجب أن يقترن الاحترام والتبجيل بالتعاون والنصرة، ﴿وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ («عزّروه» مشتقة من «التعزيز»، بمعنى المنع من العدو بالسيف، والمراد بهم الذين نصروا النبي الكريم ﷺ في جبهات القتال).

١٣ - الإيمان بالنبي الكريم ﷺ وحده لا يجزئ، بل يجب أن يُستكمل بالدعم والنصرة، ﴿وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

١٤ - القرآن نور يضيء القلوب والأفكار، وكان على الدوام قرين النبي الأكرم ﷺ، ﴿النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ (نزلت نبوة النبي الكريم من عند الله تعالى مقترنة بالقرآن).

١٥ - الإيمان بالنبي الكريم ونصرته واتباع القرآن وسيلة الإنسان إلى الفلاح، ﴿قَالَتِ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱبْعَثُوا... أَؤَلَيْكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّ رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعَا ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَٱتَّخِذُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ٱلَّذِي ٱلْأُمِّي ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

إشارات:

□ يطلق بعض مزاعم واهية قائلين إن النبي الكريم ﷺ في البداية كان يسعى إلى هداية قومه وإرشادهم فقط، لكنه حين رأى نجاحه في ذلك، فكر في توسيع دعوته لتشمل البلاد الأخرى، بيد أن القرآن الكريم يفند هذه المزاعم من خلال بعض الآيات الكريمة مثل ﴿كَأَفَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(١)، ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَهًا بَلِّغْ﴾^(٢)، ﴿لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣) و... إلخ، ليبرهن على عالمية رسالة النبي الكريم ﷺ منذ بداية ظهورها^(٤). وبطبيعة الحال، فإن الرسالة العالمية للنبي الكريم، شأنها شأن أي دعوة أخرى، استغرقت مراحل عدة، إذ بدأ النبي الكريم ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين، ثم أهل مكة فالبشرية جمعاء.

□ جاء في رواية عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أنه قال: «جاء نفرٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أنت الذي تزعم أنك رسول الله، وأنتك

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبي ساعة ثم قال: «نعم، أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم أم إلينا؟ فأنزل الله تعالى... هذه الآية التي صرحت بأن رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية^(١).

□ تكرر ذكر كلمة «أمي» في هذه الآية والآية السابقة دليل على أهميتها في إثبات حقيقة دعوة النبي الكريم ﷺ والقرآن الكريم.

□ في ضوء الآية السابقة التي تقول: ﴿الَّذِي يَحْدُوهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ فَإِنَّ الخطاب موجه إلى جميع البشر بمن فيهم اليهود والنصارى.

□ في البداية، تؤكد هذه الآية على ثلاث نقاط هي:

١ - البرهنة على خالقية الله تعالى، ﴿مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - وحدانية الله تبارك وتعالى، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ - القيامة والحشر والنشور، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ثم تختم الآية بالقول: لما كان المبدأ والمعاد بيد الله تبارك وتعالى، فآمنوا به وبرسوله^(٢)، ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رُسُلِهِ﴾.

التعاليم:

١ - رسالة النبي الكريم ﷺ رسالة عالمية، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، الرسالة العالمية لا بد من أن يحملها قائد عالمي.

٢ - من له الحاكمية المطلقة على الوجود برمته، وحده القادر على أن يحيي ويميت، ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٣ - النبوة من لوازم التوحيد والمعاد، ذلك أن الله تعالى واحد ومالك الوجود، ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبيده الحياة والموت، ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾،

(١) تفسير الصافي والأمثل في كتاب الله المنزل. (٢) تفسير «الاثني عشري».

إذن، يجب أن تكون قيادة البشر وهدايتهم مسؤولية متاطة من قبل الله تعالى، ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَخِيِّ﴾.

٤ - لا بدّ للقائد من أن يؤمن إيماناً مطلقاً بالطريق الذي يسلكه، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلامِهِ﴾.

٥ - الإيمان بالله والرسول إلى جانب اتباع النبي الكريم ﷺ يمثلان سرّ الهداية، ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٦ - اتباع القرآن الكريم وسنة الرسول الأعظم وسيرته كلاهما لازمان، ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾؛ (في الآية السابقة كان الحديث يدور حول اتباع النبي الكريم ﷺ وطاعته).

٧ - يجب على أهل الكتاب أيضاً الإيمان بنبي الإسلام ﷺ واتباعه، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ... فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... وَأَتَّبِعُوا﴾.

٨ - التقليد والتبعية القيّمة والرشيّدة هي التي تأخذ بيد الإنسان نحو الهداية والكمال، ﴿وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)

إشارات:

□ الاهتداء إلى الحقّ دليل على نبذ التعصّب ومعرفة الحقّ والاقتداء به، وهذه الفئة المهتدية من اليهود لم يكن لها شأن بسائر أبناء قومهم من اللجوجين.

□ ربّما كان المقصود بهذه الفئة، اليهود الذين آمنوا بدعوة النبي الكريم ﷺ، ولكن هذه الفئة ذُكرت في موضع آخر بصورة مطلقة دونما تحديد لليهود، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١)، ورد في روايات عدّة أنّ هؤلاء فئة آمنت بدعوة النبي المصطفى ﷺ، وسوف ترافق الإمام الحجة ﷺ عند ظهوره^(٢).

□ عن النبي ﷺ في حديث طويل قوله: «معاشر الناس، أنا الصراط المستقيم

الذي أمركم باتباعه، ثم علي عليه السلام من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون»^(١).

□ دعا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رأس الجالوت وأسقف النصارى فقال: «إني سائلكما عن أمر وأنا أعلم به منكما، يا رأس الجالوت بالذي أنزل التوراة على موسى، وأطعمكم المن والسلوى، وضرب لكم في البحر طريقاً ييساً، وفجر لكم من الحجر الطور اثنتي عشرة عيناً لكل سبط من بني إسرائيل عيناً إلا ما أخبرني على كم افترقت بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام؟» فقال: ولا إلا فرقة واحدة، فقال: «كذبت والذي لا إله غيره، لقد افترقت على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فإن الله يقول: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾»^(٢).

التعاليم:

- ١ - حتى في مواجهة المناوئين يجب أن نتحلى بالإنصاف وأن لا نغصهم حقهم في ذكر خدماتهم وفضائلهم، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.
- ٢ - على المهتدين أن يلزموا الحق ويؤمنوا به ويتبعوه، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ ابْنِ صَرْبِ يَعْسَاكَ الْمَعْجَرُ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ السَّلْوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

إشارات:

□ «أسباط» جمع «سبط»، تعني في الأصل الانبساط في سهولة، ثم يطلق على السبط والأسباط على الأولاد وبخاصة الأحفاد؛ لأنهم امتداد العائلة. والمراد

بالكلمة هنا هو قبائل بني إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدرًا من أحد أولاد يعقوب عليه السلام. و«الانبجاس» هو خروج المياه بقلّة.

«المَنّ»، هو نوع من العسل الطبيعي أو عصارات وإفرازات نباتيّة كانت تظهر على أشجار الصحراء. و«السّلوى» نوع من الطير الحلال لحمه شبيه بالحمام (أو طائر الحجل).

□ العدد «اثنا عشر» هو عدد أشهر السنة، وعدد نقباء بني إسرائيل، وعدد العيون المنبجسة بفضل معجزة النبي موسى عليه السلام، وعدد الأئمة المعصومين عليهم السلام. لقد حاول أعداء أهل البيت عليهم السلام كثيراً أن يطمسوا الحقائق بتفسيرهم حديث النبي الأكرم عليه السلام الذي يقول فيه: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر كلّهم من قریش»^(١). المنقول بطرق الفريقين بعشرات الأسانيد، أقول: حاولوا تطبيقه على حكام بني أمية وبني العباس، لكنّهم لم ينجحوا في مسعاهم.

□ بضرب العصا على الحجر، حصلت معجزتان: انبجاس الماء الوفير، وتفجّر ينابيع الماء بعدد قبائل بني إسرائيل لتشرب كلّ قبيلة من العين المخصّصة لها. نقرأ في الروايات أنّ هذه المعجزة ظهرت على يدي النبي موسى عليه السلام بعد أن استشفع بأهل بيت النبي الكريم عليه السلام^(٢).

□ حضر النبي شعيب عليه السلام للقاء صهره النبي موسى عليه السلام، فوجد صفّاً طويلاً من الناس ينتظرون لقاءه، فاقترح على موسى عليه السلام أن يقسم الناس مجموعات محدّدة ثمّ يعيّن لكلّ مجموعة مسؤولاً يقوم بحلّ جزء من مشاكلهم قبل لقاءهم به، ليتفرّغ موسى عليه السلام للمشاكل الأهمّ^(٣).

□ ربّما يجد المرء تكرّر بعض الموضوعات والقصص في آيات القرآن الكريم، على سبيل المثال هذه القصة التي ورد ذكرها في الآية ٥٧ من سورة البقرة، وما ذلك إلّا للتأكيد على أنّه لا مانع من تكرار بعض الموضوعات بغية تحقيق أهداف تربوية وإصلاحية.

(٣) تفسير الكاشف.

(١) إثبات الهداة، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) تفسير «الاثني عشري».

التعاليم:

- ١ - وجود التشكيلات وتوزيع الأدوار وتصنيفها يؤدي دوراً مهماً في إدارة الأمور، ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ﴾.
- ٢ - أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر كلهم يتفرعون من أصل واحد. فالآية الكريمة تقول: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ﴾ بدلاً من «جعلنا».
- ٣ - لا بأس في التوزع على مجموعات شرط المحافظة على وحدة الهدف، ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ﴾.
- ٤ - العرض بعد الطلب ينطوي على أهمية أكبر، ﴿أَسْتَقْنُهُ... أَضْرِبْ بِعَصَاكَ﴾.
- ٥ - الإرادة الإلهية، لا الوسيلة، هي المهمة، فأحياناً تجد عصاً خشبية تفعل فعل السحر في كل مكان، ﴿بِعَصَاكَ﴾؛ (فتارةً ظهرت العصا على شكل أفعى وثعبان، وتارةً أخرى كانت الأداة التي فجرت ينابيع الماء).
- ٦ - يجوز التوسل بالأنبياء لقضاء الحاجات ورفع المشاكل، بل إن التوسل بهم أقرب إلى الإجابة. فالناس يعرضون على الأنبياء احتياجاتهم الاقتصادية والمادية ويتوسلون بهم لقضائها، ﴿أَسْتَقْنُهُ... فَأُيِّجَسَتْ﴾.
- ٧ - لو عرفت كل فرقة إلى من ترجع، لمساعد ذلك على حل الكثير من المشاكل الاجتماعية، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾.
- ٨ - فلنوضح الأمور للناس، ثم نتركهم يتصرفون. تقول الآية الكريمة: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ ولم تقل: «قد شرب».
- ٩ - لقد قرأ الله تبارك وتعالى لبني إسرائيل الماء والطعام، ﴿أَتْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا... أَلْمَنَ وَالسَّلَوَى﴾.
- ١٠ - تكون السحاب وحركته ونزول المطر، كله يتم بفضل تدبير الله تعالى وإرادته، ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾.
- ١١ - المَن والسَّلوى من طيب الأطعمة. (عبارة ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾، بعد ﴿أَلْمَنَ وَالسَّلَوَى﴾).

١٢ - الله تبارك وتعالى رازق الناس، ﴿رَزَقْنَكُمْ﴾ ويأمرهم بالأكل من طيب النعم وطاهاها، ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾.

١٣ - بضربة واحدة من عصا موسى ﷺ، انبجست عيون الماء من جوف الأحجار والصخور، غير أَنَّ قلوب الظالمين لم تلن بالرغم من كل هذه المعجزات، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٤ - كفران النعم، مدعاة للحرمان منها، وضرر ذلك سيصيب الجاحدين، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٥ - أولئك الذين لا يوظفون النعم المادية في طريق اعتلاء قيمهم المعنوية فقد ظلموا أنفسهم، ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَازِدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

إشارات:

□ «حِطَّةٌ»، هو إنزال الشيء من علو (وتشتق منها أيضاً كلمة انحطاط)، والكلمة تعني طلب نزول شائب الرحمة والعفو الإلهي.

□ كان بنو إسرائيل مكلفين بتطهير قلوبهم وأرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبة خالصة وواقعية تلخص في كلمة «حِطَّةٌ» وأن يطلبوا المغفرة لكل ما ارتكبه من آثام، لكنهم جعلوا هذه الكلمة وسيلة للاستهزاء والسخرية وقالوا: «حنطة»^(١).

□ ورد ما يشبه هذه الآية مع قليل من الاختلاف في الآية ٥٨ من سورة البقرة.

□ ذكر في روايات عدة نقلاً عن الأئمة المعصومين ﷺ قولهم: «نحن باب حطتكم». بمعنى أنكم إذا دخلتم في مدار حكومتنا وولايتنا، فسيشملكم اللطف الإلهي^(٢).

□ يرى جمع كثير من المفسرين أنّ المقصود بالقرية هو بيت المقدس.
 □ المسير الطبيعي هو أن يستهلّوا دخولهم المدينة بما علّموا من آداب، وبعد ذلك يتخذونها سكناً لهم، ومن ثمّ يأكلون من طعامها، بيد أنّ الآية هنا تذكر المسكن والطعام أولاً، ثمّ يلي ذلك التوبة والمغفرة ودخول المدينة، وربّما يكون سبب ذلك هو أنّ تأمين الطعام والمسكن قد يكون مدخلاً مناسباً لقبولهم بالتعاليم الأخلاقية.

التعاليم:

- ١ - قصّة دخول بني إسرائيل بيت المقدس، ومن ثمّ طلبهم المغفرة من الله على ما بدر منهم من لجاج وتغييرهم الكلمات التي علّموها، لا شكّ أنّها قصّة معبرة تستحقّ التأمل، ﴿وَإِذْ﴾.
- ٢ - السكن هو المعضلة الأهمّ بالنسبة إلى المشرّد. (لاحظ أنّ الآية الكريمة تستهلّ الكلام عن السكن)، ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.
- ٣ - بيت المقدس هي أرض الخيرات الوفيرة، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.
- ٤ - الله تبارك وتعالى هو الذي يؤمّن جميع المتطلبات المادّية، والمعنوية، والدينيّة، والأخروية للبشر، وفي هذه الآية يأمر بني إسرائيل بالدعاء، والاستغفار، والسجود من أجل أن يتمتّعوا بجميع النعم من قبيل السكن، والطعام، والعفو، واللفظ الإلهي، ﴿أَسْكُنُوا... وَكُلُوا... وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.
- ٥ - الله تبارك وتعالى يغفر ذنوباً كثيرة ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ إذا ما أخلص العبد التوبة والاستغفار ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، إذ نقرأ في الدعاء: «يا مَنْ يقبل اليسير ويعفو عن الكثير»!
- ٦ - لاستجلاب اللطف والمغفرة الإلهيّة يلزم العبد الاستغفار والدعاء إلى جانب العمل، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾.
- ٧ - الدخول إلى البقاع المقدّسة له آدابه وطقوسه الخاصّة، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

- ٨ - يجب التمييز بين المحسن والمسيء، وعندما يُغفر للمسيء، يزيد الله تعالى درجة المحسن، ﴿سَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٩ - في نظام الإدارة وتشجيع الآخرين، يجب دائماً تمييز المحسنين، ﴿سَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢)

إشارات:

- تارة يكون التحريف واضحاً للعيان، أو تغيير لفظة مثل «حِطَّة» إلى «حنطة»، وتارة أخرى تتم المحافظة على الظاهر والقالب، بينما يتغير جوهر الموضوع أو روحه، كما فعل بنو إسرائيل في احتيالهم والتفافهم على الأمر الإلهي وصيدهم في يوم السبت، كما سيأتي ذكره في الآية التالية.
- يقول النبي الكريم ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(١).

□ يطرح القرآن الكريم ثلاثة أوجه لتحريف شريعة الله هي:

- ١ - تغيير الألفاظ، كما فعل بنو إسرائيل عندما غيَّروا كلمة «حِطَّة» التي تعني المغفرة والعفو إلى كلمة حنطة.
- ٢ - التحايل في تغيير الزمان، عندما أمر بنو إسرائيل بعدم الصيد في يوم السبت، فبنوا أحواضاً في عرض البحر ليجمعوا الأسماك في يوم السبت، ليصيدها في يوم الأحد الذي كان الصيد فيه مباحاً، وكانوا يقولون: إننا لم نصد في اليوم المحرّم أي السبت، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾^(٢).
- ٣ - التغيير الحاذق للتقويم التاريخي الطبيعي، وذلك بتأخير الأشهر الحُرُم كما

(١) تفسير الفرقان؛ تفسير الدرّ المثور.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٥.

كان يحصل في العصر الجاهلي، لأنّ العرب آنذاك كانت تكره إيقاف الحرب بسبب حلول الأشهر الحُرُم، فكانت تلجأ إلى حيلة التأخير هذه، فنزلت الآية الكريمة، ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِي زَيْكَادٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - عقوبة تحريف شرائع الله وتغييرها هي نزول الغضب والعذاب الإلهي، ﴿بَدَل... فَأَرْسَلْنَا﴾.
- ٢ - لا يمكن الصفح عن التغييرات التي تتم بدافع اللجاج والسخرية، ﴿رَجَزًا مِّنَ السَّكَاءِ﴾.
- ٣ - ليست كلّ العقوبات مؤجلة إلى يوم القيامة، فمنها ما يعاجل العاصي في هذه الدنيا، ﴿رَجَزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.
- ٤ - الإنسان هو من يملك مصيره، وعذابه نتيجة لظلمه لنفسه، ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢)

إشارات:

- كلمة «سَبْت» في اللغة تعني تعطيل العمل للاستراحة، وسمّي «يوم السبت» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العادية والمشاكل كانت تتعطل في هذا اليوم. و﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ﴾؛ أي اليوم الذي لا يعطلون فيه.
- «شُرَعًا» جمع «شارع»، أي ساحل الماء وضفاف الأنهار، فالأسماك كانت في يوم السبت، وهو اليوم المحرّم عليهم صيدها، تظهر على سطح الماء بينما كانت تختفي في غيره من الأيام^(٢).

□ ترتبط القصة بجماعة من بني إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار في ميناء يسمى أيلة (إيلات حالياً)، وقد أمرهم الله تبارك وتعالى على سبيل الاختبار أن يعقلوا صيد الأسماك في يوم السبت، فكانت الأسماك (حيثانهم) تظهر على ظهر الماء في هذا اليوم «شرعاً»، وتختفي في باقي الأيام فتثير في نفوسهم الوسواس والإغراء! وهذا، بلا شك، نوع من الامتحان والابتلاء الإلهي. فعمد هؤلاء إلى الاحتيال لانتهاك محارم الله فتعاطوا استخدام الحيل الشرعية، وذلك من خلال استحداث أحواض على الساحل وفتحوا لها أبواباً إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب في يوم السبت، فتقع فيها أسماك كثيرة مع ورود الماء إليها، ثم يوصدونّها فتحبس الأسماك داخل الأحواض، ثم يقومون بصيدها في يوم الأحد، وكانوا يقولون: إنهم إذ لم يصيدوا في السبت، لم يعصوا أمر الله.

□ صحيح أنّ الله تبارك وتعالى قد أحلّ للإنسان أكل السمك، إلّا أنّه حرّم الصيد يوماً واحداً في الأسبوع على سبيل الامتحان والاختبار، لذا، فليس بالضرورة أن ينطوي التحريم على دواع وأسباب صحيّة، فأسماك السبت لا تختلف من ناحية احتوائها القيمة الغذائية والمواد البروتينية عن أسماك باقي أيام الأسبوع.

□ يحمل الإمام علي عليه السلام بشدة على الذين يلجأون إلى الحيل الشرعية ليحلّوا ما حرّم الله تعالى إذ يقول في إحدى خطبه: «... ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلّون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية والربا بالبيع»^(١).

□ أحياناً يأتي الامتحان الإلهي في المواقف التي تتعاضد فيها الأهواء النفسانية، كما في هذه الآية الكريمة التي منعت الصيد في الوقت الذي كانت الأسماك تظهر على ظهر الماء، «تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ»، أو تحريم الصيد في حال الإحرام المذكور في الآية ٩٤ من سورة المائدة «يَبْتَئِلُكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ

تَنَالُهُ آيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ»، عندما يكون الصيد في متناول اليد، يكون منعه في هذه الحالة اختباراً إلهياً.

التعاليم:

- ١ - خروج الأسلاف عن الشرائع، عارٌ يلحق الأجيال القادمة أيضاً، ﴿وَسَأَلَهُمْ...﴾.
- ٢ - لا مانع من اطلاع الآخرين على قبائح خصال الأسلاف التي عوقبوا عليها إن كان الهدف استلهاً للبر، ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي...﴾.
- ٣ - العيش عند سواحل البحار والاقنيات على صيد الأسماك كان شائعاً على مدى التاريخ، ﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾.
- ٤ - لا يمكن للحيل والخدع أن تخفي الوجه الحقيقي للمعصية. (بناء الأحواض على البحر لصيد الأسماك لليوم التالي)، ﴿يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ...﴾.
- ٥ - بقدرة الله ومشيتته كانت أسماك البحر تميز أيام الأسبوع ووجوه الصيادين، ﴿تَأْتِيهِمْ... لَا تَأْتِيهِمْ...﴾.
- ٦ - المظاهر الدنيوية والمادية واحدة من الاختبارات الإلهية، ﴿كَذَلِكَ يَبْلُوهُمْ...﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾

إشارات:

□ انقسم بنو إسرائيل ثلاث فرق: فريق خالف الأمر الإلهي، وفريق نصح وقام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء كانوا أقلية، وفريق ثالث، محايد سكت عن الحق، فلا هو وافق العصاة ولا هو بادر لنهيهم وثنيتهم عن هذا المنكر. وكان هذا الفريق يقول للفريق الناصح: لا تتعبوا أنفسكم، لن تؤثر نصائحكم في هؤلاء الفاسقين، وهم في كل الأحوال،

أصحاب النار. غير أنّ الناهين عن المنكر كانوا يقولون: لن يعدم نصحنّا التأثير، ولا أقلّ من أن نكون معذورين عند ربّ العالمين. ومن يدري لعلّ نصائحنا تدفع هؤلاء إلى التقوى.

□ في الآيتين ٥ و ٦ من سورة المرسلات يقسم الله تبارك وتعالى بأولئك الذين يلقون الذكر للآخرين إن لإتمام الحجة أو على سبيل التذّير والتأثير، ﴿فَالْمُؤَيَّنَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

□ ذكر كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أكثر من عشر فوائد لهذه الفريضة الإلهية، حتى في حال عدم تحقيقها الهدف المنشود، أورد في ما يلي خلاصة لها^(١)، أملاً في أن يطرح الناس عنهم الصمت والخوف والإهمال إزاء القيام بهذه الفريضة:

١ - أحياناً، قد لا يترك أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر أثراً عاجلاً، لكنّه، بلا شك، سوف يؤثر على تاريخ الآخرين وفطرتهم وحكمهم. كما هو الحال مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام الذي استشهد في سبيل إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أجل إيقاظ ضمير الإنسانية على مرّ التاريخ.

٢ - القيام بفريضة الأمر والنهي تدفع إلى المحافظة على الأجواء الإيجابية للآخرين، كما هو الحال مثلاً مع إقامة الأذان حتى مع عدم وجود مستمع، أو ضرورة الالتزام بالإشارات المرورية الضوئية وإن كان الطريق غير مزدحم، ذلك أنّ التمسك بالقوانين والمحافظة على أجواء احترامه والعمل به أمر لازم.

٣ - ربّما لا يرتدع العاصي من أمرنا ونهينا، إلّا أنّ مواصلة النصّح تذهب بلذّة ارتكابه المعصية، أو على الأقلّ، سوف تنقص عليه هذه اللذّة.

(١) والملفت للانتباه أنّي أكتب هذه السطور في أسبوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي عشرة عاشوراء، إذ كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُنْهَى عَنْهُ». (تحف العقول، ص ٢٤٥).

٤ - فريضة الأمر والنهي ضرورية للمحافظة على الحرية، ذلك أن الامتناع عنها يلبّد أجواء المجتمع بسحب الاستبداد والخوف والصمت.

٥ - إن القيام بهذه الفريضة هو في حد ذاته يمنح المرء منزلة ومقاماً، حتى وإن لم يعمل الآخرون بالنصح، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

٦ - حتى إذا لم تؤثر فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآخرين، فهي على الأقل، ستقربنا من الله تعالى، علاوة على كونها تمريناً على الشجاعة وعلامة على الحرص والالتزام.

٧ - قد لا يؤثر نصحننا اليوم، ولكن، عندما يصل العاصي إلى طريق مسدود، ويستيقظ ضميره، حينذاك سيعرف أنك لم تقل إلا الحق. إذن، سيكون لنصحك تأثير عاجلاً أم آجلاً.

٨ - فريضة الأمر والنهي تريح ضمير الإنسان، إذ يقول في نفسه: لقد قمت بواجبي. والحقيقة أن راحة الضمير هذه لها قيمة كبيرة، حتى لو لم ينصع الآخرون.

٩ - هذه الفريضة تعبير عن سيرة الأنبياء ونهجهم، حتى مع عدم التزام الآخرين. فالله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾^(٢)، وهو القائل مراراً: إِنَّ النَّاسَ لَن يَنْصِتُوا لِنَصْحِ الْأَنْبِيَاءِ ودعوتهم، وأن أكثرهم معرضون، فهل نتوقع، بعد كل هذا، أن يصغي الناس دائماً وبسرعة لأقوالنا نحن.

١٠ - الأمر بالمعروف حجة على العاصي لثلا يقول في يوم القيامة: إِنَّ أَحَدًا لَمْ يَلْغِه! وهو يعد عذر للأمر بالمعروف حتى لا يلام على عدم تبليغه.

١١ - الأمرون بالمعروف في منجاة من العذاب الإلهي، (في الآية التالية تلميح إلى ذلك).

وعلى أي حال، فإن الأنبياء والأوصياء بذلوا مهجهم في سبيل إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لثلا يضيع حق، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾^(١)، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾^(٢)، و﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾^(٣)، ويستفاد من هذه الآيات الكريمة أن على المرء أحياناً أن يمضي في فريضة الأمر بالمعروف حتى تخوم الشهادة.

□ وقد وبَّخ الإمام علي عليه السلام عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري عندما بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليها^(٤) ما يعني أنه ضحى بعامله من أجل الدين، حتى لا يجنح الزهد نحو البذخ والإسراف.

التعاليم:

- ١ - ثمة أناس لا هم يتعظون ولا يطيقون أن يعظمهم أحد، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ...﴾.
- ٢ - يجب أن لا نعزو معصية الإهمال إلى «المشيئة الإلهية»، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.
- ٣ - اللامبالون يعترضون على الأمرين بالمعروف بدلاً من اعتراضهم على الذين يرتكبون المعاصي، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾.
- ٤ - يجب التصدي لأولئك الذين لا يرون في الوعظ والنصح الأخلاقي فائدة، ﴿لِمَ تَعِظُونَ... قَالُوا مَعَذَرَةٌ﴾، لأن عدم صد الناس عن المعاصي ينطوي على مسؤولية.
- ٥ - لا يجوز إطلاق الأحكام المتسرعة. إذ لا يمكن القول: إن الله معذب هؤلاء أو مهلكهم؛ لعلهم يتقون، ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مَعَذَرَةٌ... وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.
- ٦ - النهي عن المنكر واجب، لكي يؤمن الفاسق، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أو لكي يكون للإنسان عذر أمام الله تعالى، ﴿مَعَذَرَةٌ﴾. (إذن، ليس من الضروري أن يكون

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٤) نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

النهي عن المنكر مؤثراً، لكي يصبح واجباً علينا، ذلك لأننا مأمورون بأداء التكليف، وليس علينا ضمان النتيجة).

٧ - لا ييأس المؤمنون من إصلاح المجتمع، ولا يتركون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦)

إشارات:

□ كلمة «بئس» مشتقة من «بأس»، وتعني الشديد؛ و«عتوا» بمعنى الامتناع عن طاعة أمر.

□ جاء في الروايات: أنه عندما رأى الناصحون أن عظاتهم ونصائحهم لا يجدي مع العصاة، انزعجوا وقالوا: سنخرج من المدينة، فخرجوا إلى الصحراء ليلاً، واتفق أن أصاب العذاب الإلهي كلا الفريقين، العصاة والمتفرجون^(١). وهذا التحول هو من التصرفات التكوينية الإلهية.

□ جاء في الآية ٦٠ من سورة المائدة أن فئة مُسخت قردة وخنازير بسبب عصيانهم وأمر الله تعالى، بينما نرى هنا أن هذه الجماعة مُسخت قردة فقط. يقول ابن عباس: إن كلتا الآيتين تتحدثان عن نفس الجماعة.

□ يُستفاد من ظاهر الآية أن هؤلاء مسخوا قروداً في ظاهريهم وأشكالهم كما مسخوا في طباعهم. فالله تعالى الذي جعل بمشيئته النار برداً وروضة على النبي إبراهيم عليه السلام لقادر على أن يغيّر الخلق إلى خلق آخر، والإنسان إلى قرده. بطبيعة الحال، لم يكن لأولئك الممسوخين نسل يخلفهم، فهم لم يعيشوا بعد المسخ سوى لبضعة أيام بحسب ما ورد في الحديث النبوي الشريف^(٢).

التعاليم:

- ١ - إذا لم يكن للنهي عن المنكر تأثير في هداية الآخرين، فيقينا أنه سيكون حبل نجاة للناهين أنفسهم، ﴿أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾.
 - ٢ - النسيان يستوجب العقوبة إذا كان عن إهمال ولا مبالاة، ﴿فَلَمَّا نَسُوا...﴾.
 - ٣ - من أغلق على نفسه باب الموعظة، فتح عليها باب العذاب الإلهي، ﴿نَسُوا... وَأَخَذْنَا﴾.
 - ٤ - النهي عن المنكر وظيفة دائمية، ﴿يَنْهَوْنَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرار).
 - ٥ - اللامبالون ظالمون، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ (الآية السابقة قسّمت بني إسرائيل ثلاث طوائف: المعتدون، الناصحون، الساكتون اللامبالون، وتضع هذه الآية الطائفة الأخيرة في مرتبة الظالمين الهالكين. لأنّ الناهين عن المنكر هم الطائفة الوحيدة الناجية، ﴿أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾، إذن، فالسكوت يعدّ ظلماً وسبباً للهلاك).
 - ٦ - أفدح العقاب وأشدّ العذاب هو التخلف عن درجة الإنسانية، ﴿يُعَذِّبُ يَفِيسٍ... كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.
 - ٧ - المعتدي يستحقّ نزع الإنسانية عنه ومسخه، والمستكبر عذابه النبذ والاحتقار، ﴿عُتِرُوا... قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، نعم، جزاء القوم الذين يتمردون على شريعة الله تعالى، أن يكونوا كالقروود يقلدون سائر الأمم.
 - ٨ - أولئك الذين يمسخون حكم الله تعالى بالحيلة والخديعة جزاؤهم أن تمسخ خلقتهم، من يتلاعب بالدين يمسخه الله حيواناً لاعباً (قرداً)، ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾.
- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٦٧)

إشارات:

□ «تَأَذَّنَ»، بمعنى الإخبار والإعلام. «يَسُومُ» و«سُومَ»، بمعنى يذيقهم ويحملهم.

□ كان الإمام علي عليه السلام يشكو دائماً المخالفين الجفافة في عصره بقوله: «أبدلني الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني»^(١).

التعاليم:

- ١ - العذاب الإلهي الذي حاق باليهود والمصير الذي انتهوا إليه يبعث على التأمل، ﴿وَإِذْ﴾.
- ٢ - صحيح أن السنة الإلهية تقضي بإمهال المنحرفين، ولكن ليس في كل الظروف وإلى الأبد، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - سيطرة المنحرفين على بني إسرائيل، عذاب إلهي سُلط على هؤلاء القوم جزاء على ما اقترفت أيديهم، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٤ - تاريخ الشعوب سلسلة متصلة الحلقات، فمعصية جيل تترك أثرها على الأجيال القادمة ويستمر هذا الأثر إلى يوم القيامة، ﴿إِنِّي يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
- ٥ - أولئك الذين يتحدثون أولياء الله ويتمردون على أوامرهم سوف تصيبهم ذلة، ﴿يَسْؤُهُمْ﴾.
- ٦ - سيظلّ بنو إسرائيل دائماً في ذلّ وهوان، ﴿إِنِّي يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
- ٧ - الخشية من العذاب والمشفوعة بالأمل بالمغفرة والرحمة الإلهية، مدعاة لإصلاح الإنسان ورشده، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٨ - طريق التوبة وبلوغ مرحلة المغفرة الإلهية مفتوح أمام الجميع، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْصًا مِّنْهُمْ أَصْحَابُ الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ ذُو الْقُرْآنِ وَالْغَالِبُونَ﴾
وَالسَّيِّئَاتِ لَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

إشارات:

□ لقد عاش بنو إسرائيل، تارة، أوضاع العزّ والقدرة عليهم يشكرون الله على

نعمه، وتارة أخرى ذاقوا مرّ الشدائد والصعاب عسى أن تنبعث من جديد مشاعر التوبة والإنابة في ضمائرهم. طبعاً ينبغي أن لا نغض الطرف عن بعض الصالحين والمحسنين فيهم، الذين آمنوا بحقّية الإسلام، بينما ظلّ الآخرون متعلقين بجائل الدنيا وغارقين في مستنقع اللجاج.

التعاليم:

- ١ - للإنسان كامل الحرية في اختيار طريقه ونهجه، ﴿وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾.
 - ٢ - إذا أردنا أن ننتقد جماعة، فلا نغبط حقّ الصالحين منهم، ﴿وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾.
 - ٣ - الحوادث حلوها ومرّها ساحة اختبار إلهي، ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾.
 - ٤ - الترغيب والترهيب، والصلح والخصام، جنباً إلى جنب عوامل بناء وإصلاح، ﴿وَالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
 - ٥ - التحوّل الروحي في الإنسان والعودة إلى الحقّ، هما من جملة الحكّم التي ينطوي عليها الامتحان الإلهي، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

إشارات:

□ «خَلَفَ»، على وزن «حَرَفَ» يأتي غالباً في الأولاد غير الصالحين - كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين - في حين أنّ «الْخَلَفَ» على وزن «شَرَفَ» يأتي بمعنى الولد الصالح^(١).

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

□ «عَرَضُ»، هو كلّ رأسمال دنيوي، و«عَرَضُ»، يعني المال النقدي حصراً، كما تطلق هذه الكلمة على الشيء الذي لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطلق يطلق على متاع العالم المادّي اسم العرض لكونه زائلاً غير ثابت في الغالب. يقول الفيض الكاشاني: المراد بالعرض في الآية الرشوة.

□ «درس»، في اللغة هو تكرار الشيء، وحيث إنّ الإنسان عند المطالعة وتلقّي العلم من الأستاذ والمعلم يكرّر المواضيع، لهذا أطلق عليه لفظ «الدرس». وإذا ما رأينا أنهم يستعملون لفظة «درس والاندراس» على انمحاء أثر الشيء أو البناء فإنّما هو لهذا السبب وبهذه العناية، ولأنّ الأمطار والرياح والحوادث الأخرى تتوالى على الأبنية القديمة وتبليها^(١).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَصَّ عِبَادَهُ بِآيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ أَنْ لَا يَقُولُوا حَتَّى يَعْلَمُوا وَلَا يَرُدُّوا مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَقَالَ ﷺ: ﴿أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾»^(٢).

□ ويقول الإمام الحسن عليه السلام: «عجب لمن يتفكّر في مأكوله كيف لا يتفكّر في معقوله فيجنّب بطنه ما يؤذيه ويودع صدره ما يرويه»^(٣).

التعاليم:

١ - لقد مرّت في التاريخ أجيال من اليهود العاصين وعبّاد الدنيا، ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ...﴾.

٢ - التعلّق بحبائل الدنيا من آفات التديّن، ﴿مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ... يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾.

٣ - كان اليهود يحوزون على التوراة ويحيطون بها إحاطة تامّة، ﴿وَرَرْتُمْ أَلْكِتَابَ﴾.

٤ - عيب على من أحاط بتعاليم الكتاب السماوي أن يتشبّث بالدنيا ويأكل الحرام، ﴿وَرَرْتُمْ أَلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ...﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ والكافي، ج ١، ص ٤٣.

(٣) تفسير الفرقان؛ بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٨.

٥ - الارتشاء وأكل المال الحرام كان موضع توبيخ وتقريع في باقي الأديان أيضاً، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾.

٦ - نعم، لقد اعترف اليهود بذنبهم، لكنهم كانوا يقولون: سيُغفر لنا، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

٧ - لقد استغرق اليهود في أنانيتهم لدرجة أنهم كانوا يعتقدون أنه سيُغفر لهم حتى لو لم يتوبوا، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ لا جرم في أن من يضمن لنفسه المغفرة يستحق التوبيخ.

٨ - الرجاء المجاني كالخوف في غير محله، كلاهما مضر، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ فالرجاء بالفوز بالرحمة الإلهية لا يستقيم مع الإصرار على ارتكاب المعصية.

٩ - أكلو المال الحرام اليهود كانوا منغمسين في المعاصي، ﴿وَرِآنَ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾.

١٠ - من اعتقد بحتمية غفران الله لذنوبه وهو يعصيه، فقد افترى عليه سبحانه، ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

١١ - لا يكفي العلم بتعاليم الكتب السماوية والمواظبة على دراستها، بل يلزم العمل بها، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ... وَدَرَسُوا﴾.

١٢ - عالم الآخرة عالم أرقى، وهو زاهر بالنعم الخالدة والباقية، ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾.

١٣ - اجتناب أكل المال الحرام دليل تقوى. (كلمة "يتقون" جاءت في إزاء عبارة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ﴾).

١٤ - التمتع بنعيم الحياة الآخرة رهن بالتزام التقوى والورع، ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

١٥ - الأحق هو من تمسك بالدنيا وترك الآخرة، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٦ - من الأساليب الدعوية والتقويمية، طرح الأسئلة على المخاطب بهدف تحريك الضمائر وإيقاظها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَاعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

إشارات:

- ورد في الروايات أَنَّ هذه الآية هي في خصال أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم ^(١).
- درج القرآن الكريم على ذكر الأقلية الصالحة إلى جانب الأكثرية المفسدة. (في الآية السابقة ذم وانتقاد، وفي هذه الآية مدح وثناء).
- يشمل مفهوم لفظ «الكتاب» جميع الكتب السماوية، وليس مراد الآية أتباع دين معين أو كتاب سماوي بعينه، ولكن، ربّما كان المقصود، في ضوء الآيات السابقة، التوراة.
- تشني الآية الكريمة على الفئة التي تتمسك بالكتاب السماوي، وفي موضع آخر من القرآن الكريم، تشبه آية أخرى الذي يحمل الكتاب ولا يتمسك بالحمار الذي يحمل أسفاراً ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ ^(٢).
- تُطلق كلمة «مُصلِح» على من يهتم بإصلاح نفسه وكذلك من يسعى إلى إصلاح المجتمع.
- تندرج الصلاة ضمن محتوى الكتاب السماوي، إلّا أنّه، ونظراً لأهميتها، فقد ذُكرت بصورة مستقلة، ذلك أنّها عمود الدين، وإقامة الدين رهنٌ بإقامة هذه الفريضة، وفيها يقول النبي الأكرم عليه السلام: «الصلاة عمود الدين» ^(٣). وفي حديث آخر يقول عليه السلام: «وجه دينكم الصلاة فلا يشين أحدكم وجه دينه» ^(٤).

التعاليم:

- ١ - لا تكفي تلاوة الكتاب السماوي أو حفظه أو طبعه ونشره، بل ينبغي العمل

(١) تفسير «الاثني عشري». (٢) سورة الجمعة، الآية ٥.

(٣) تفسير «الاثني عشري»؛ والتهديب، ج ٢، ص ٢٣٧.

(٤) تفسير الفرقان؛ والكافي، ج ٣، ص ٢٧٠.

بأحكامه حتى يضمن الإنسان نجاته، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾؛ (كما إن اتباع تعليمات الطبيب هي السبيل الوحيد للعلاج).

٢ - الصلاة كانت مشرعة في الأديان والكتب السماوية السابقة أيضاً، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٣ - لا يمكن لتارك الصلاة أو الجاهل بكتاب الله أن يكون مصلحاً كاملاً، ﴿يُسَبِّحُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... الْمُصْلِحِينَ﴾.

٤ - مضافاً إلى آثاره الأخروية، للدين دور في إصلاح الحياة الدنيوية، ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾.

٥ - إقامة الصلاة وسيلة لإصلاح المجتمع والنهوض بواقعه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾؛ (الإقامة تعني الاهتمام التام بالصلاة في جميع شؤون الحياة لا مجرد إقامة طقس فريضة الصلاة).

٦ - للإصلاح الحقيقي شرطان: التمسك بالشرعة الإلهية، وإحكام المرء علاقته بربه من خلال إقامة الصلاة. (في ضوء مفهوم الآية).

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

إشارات:

□ نظير هذه الآية ورد في سورة البقرة الآية ٦٣ وفي ختام هذه السورة، وجميعها يتناول قصة بني إسرائيل حيث بدأ الحديث عن هؤلاء القوم في الآية ١٠٣ من هذه السورة واستمر في الآيات اللاحقة.

□ «نثق» انتزع الشيء من أصله ورماه في مكان آخر، و«ظُلَّةٌ»، قطعة السحاب والسقف والمظلة.

□ حينما ذهب موسى ﷺ إلى الميقات الإلهي في جبل الطور، رجع إلى قومه (بني إسرائيل) بالوحي التوراة، بيد أنهم أقاموا على المخالفة والعصيان، فانتزع

الله تعالى الجبل ورفع فوق رؤوسهم، ففزعوا لذلك وارتعبوا كثيراً، فخرّوا ساجدين وتعهّدوا لنبيّهم بالسمع والطاعة، ولكن سرعان ما قلبوا له ظهر المجنّ وارتدّوا عن دينهم.

□ سؤال: ربّما يسأل المرء هنا، هل من قيمة لأخذ الميثاق والطاعة بالإكراه؟

الجواب: أولاً، ليس كلّ إكراه مذموماً، فأحياناً يُكره الممدن على ترك إدمانه، وذلك، في حدّ ذاته يشكّل قيمة، وفيه مصلحة للمدن. نعم، لا يمكن إكراه الإنسان على الإيمان القلبي بالمعتقدات، غير أنّه يمكن نشر العمل الصحيح في المجتمع بالإكراه. ثانياً، في بعض الأحيان يكون شروع العمل إكراهاً، لكنّه يستمرّ، مع مرور الوقت، طوعاً واختياراً.

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا إذا كان المقصود بالقوّة في الآية الكريمة القوّة الجسمية أم القلبية، فقال عليه السلام: «كلاهما»^(١).

التعاليم:

- ١ - انتزاع الجبل من أصله ورفع فوق رؤوس بني إسرائيل حدث ينبغي أن لا يُنسى، ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ...﴾.
- ٢ - لا يكفي التعلّم، إنّما ينبغي التذكير أيضاً، ﴿خُذُوا... وَاذْكُرُوا﴾.
- ٣ - من أجل الإصلاح العام للمجتمع والحؤول دون انحرافه، يتطلّب الأمر أحياناً اللّجوء إلى منطق القوّة والضغط، ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا... خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾.
- ٤ - لا بدّ من تطبيق الأحكام الإلهيّة بقوّة وجدية، ﴿يَقُوَّةَ﴾.
- ٥ - من أجل الوصول إلى كمال التقوى، ينبغي الحزم في الدين واتّخاذ القرار الجدي، ﴿خُذُوا... يَقُوَّةَ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
- ٦ - هدف الكتب السماوية وتعاليم الدين أن يخشى الناس ربّهم ويتّقوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٧ - من خلال شرح الحكمة من الشرائع واستعراض آثار التعاليم والأحكام، يمكن تشجيع الآخرين على الاهتمام بها وتطبيقها، ﴿خُذُوا... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

إشارات:

□ «الذرية»، مشتقة من «ذر» على وزن «شر» ويعني الموجودات الصغيرة جداً كذرات الغبار مثلاً والنمل الصغير، ومن هنا فإن أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نقطة صغيرة جداً. وثمة من يقول: إن أصل الكلمة تعني الأبناء الصغار اليافعين إلا أنها تطلق في الغالب على عموم الأبناء. وقيل أيضاً: إنها مأخوذة من مادة «ذرو» أي النثر والتفريق والتنقية (ومنه ذرو الحنطة) وإنما سمي الأبناء بالذرية لأنهم يتفرقون في أنحاء الأرض بعد التكاثر. ويوجد رأي آخر يقول: إن جذر هذه الكلمة مشتق من «ذرا» على زنة «زرع» ومعناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذرية مساوياً للمخلوق^(١).

□ لم يرد إيضاح في الآية الكريمة كيف أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من بني آدم، غير أن المفسرين ذهبوا مذاهب عدة في هذا الموضوع، أشهرها اثنان:

(أ) طبقاً للروايات، فإن الله تبارك وتعالى بعد أن خلق آدم ﷺ، أخرج من ظهره جميع ذريته إلى يوم القيامة، فخرجوا كهيئة الذر فعرفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه ثم أعادهم في صلبه وطينته، ليأتوا إلى هذه الدنيا بالتدرج وبصورة طبيعية. ومن هنا، فقد سمي هذا العالم بـ «عالم الذر» وهذا الميثاق بـ «ميثاق أَلَسْتُ»^(٢).

عن ابن عمير عن ابن مسكان عن الإمام الصادق ﷺ في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قلت: معاينة كان هذا؟ قال: «نعم، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيلذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذّر ولم يؤمن بقلبه»^(١). وروي عن النبي الكريم ﷺ قوله: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة»^(٢).

ب) المقصود بعالم الذّر هو عالم الاستعداد والكفاءات وعهد الفطرة والتكوين والخلق، فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمهاتهم وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله تبارك وتعالى الاستعداد لتقبل فطرة التوحيد والحق في طبيعتهم، فأودع ذلك السرّ الإلهي في ذواتهم وفطرتهم بهيئة مشاعر باطنية. كما أودع في عقولهم وأذهانهم حقيقة الإيمان بالله تعالى. من هنا، تقرّ فطرة البشر وعقولهم بربوبية الله سبحانه.

جاء في بعض الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام سئل في الفطرة فقال: «إنّها عالم الذّر»^(٣).

وثمة روايات أخرى تبين أنّ الفطرة هي أثر عالم الذّر وليس عالم الذّر نفسه. «قَالَ ثَبَّتَتِ الْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَسُوا الْمَوْقِفَ»^(٤)، لذا، فالبشر قد أقرّوا في زمان وموقف لكنهم نسوه، وإنّ أثر ذلك الإقرار هو الفطرة التي ينزع إليها. وعلى أيّ حال، فإنّ الآية الكريمة هي مثار نقاش وجدال بين المتكلّمين، والمحدّثين، والمفسّرين، ونحن نوكل الخوض فيها إلى أهلها وهم الراسخون في العلم^(٥).

التعاليم:

١ - البشر هم ذرّة آدم عليه السلام، وقد أخذ الله تبارك وتعالى منهم إقرارهم بربوبيته،

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير الذّر المشور.

(٣) تفسير البرهان؛ تفسير نور الثقلين، «پیام قرآن» (رسالة القرآن)، ج ٣، ص ١١٧.

(٤) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٥) للاطلاع على مختلف الأقوال والآراء، انظر كتاب: «پیام قرآن» (رسالة القرآن)، لآية الله مكارم شيرازي؛ «منشور جاوید» (المنشور الخالد)، لآية الله جعفر سبحاني؛ تفسير أطيب البيان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٢ - لقد أودع الله تعالى التوحيد في فطرة الإنسان وطينته، ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كل إنسان استلهم ربوبيّة الله ووجدانيّته بنحو خاص، وأقرّ بهما.

٣ - بعد خلق الإنسان، أظهر الله تبارك وتعالى له ربوبيّته ليقرّ بها حينما يقتضي الأمر، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٤ - ميثاق الفطرة والتوحيد هو لإتمام الحجّة، ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٥ - في يوم القيامة لن تُقبل دعوى الغفلة عن ربوبيّة الله، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، ولن يُقبل عذر الجهل والغفلة عند الله.

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

إشارات:

□ لولا الإقرار بربوبيّة الله في عالم الدّر أو الفطرة، لما تيسّر للإنسان أن يكون موحدًا، وأن يقلّد أسلافه دائماً، ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾.

التعاليم:

١ - فطرة التوحيد المودعة في الإنسان، هي من أجل أن يتمّ الله تعالى حجّته، والحقّ، أنّ نور الفطرة يضيء ظلمات المحيط من أقصاه إلى أقصاه، ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا...﴾.

٢ - المجتمع والبيئة لا يُكرهان الإنسان، ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾.

٣ - لا يجوز التقليد في أصول الدين، ﴿أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾.

٤ - معتقدات الأجداد وأعمالهم وشركهم هي الحاضنة التي تنشأ فيها معتقدات الأبناء وعملهم وشركهم، ﴿أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾.

- ٥ - اتَّخَذَ الْآخَرِينَ ذُرِّيَّةً لَتَبْرِيرِ مَعَاصِينَا وَانْحِرَافَاتِنَا أَمْرٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، ﴿نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾.
- ٦ - الْمُشْرِكُونَ نَزَاعُونَ إِلَى الْبَاطِلِ، ﴿أَشْرَكَ آبَاؤُنَا... فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.
- ٧ - فِي النِّظَامِ الْجَزَائِي الْإِلَهِيِّ، لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ﴿أَفَنُهِّلُكُمَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.
- ٨ - الْآيَاتُ الْإِلَهِيَّةُ هِيَ مِنْ أَجْلِ لَفْتِ انْتِبَاهِ الْبَشَرِ إِلَى مِيثَاقِ الْفِطْرَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ، ﴿تَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ٩ - التَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ، وَالشِّرْكُ عَارِضٌ عَلَيْهِ، لِذَلِكَ يَدْعُو الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْعُودَةِ إِلَى فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ وَأَصَالَتِهِ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَأَنذِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْفَآوِرِ﴾

إشارات:

- «إنسلاخ»، من «سلخ» بمعنى نزع جلد الحيوان، وتستعمل الكلمة عند التصاق شيتين ببعضهما، أما المراد منها هنا فهو ترك العلوم الإلهية.
- يُستفاد من كلمة «فاتبعه» أنَّ ذلك الشخص قد بلغ شأواً بعيداً في طريق الحق لدرجة أنَّ الشيطان كان أول الأمر آيساً منه تقريباً، ولكن عندما ظهرت أمارات الانحراف عليه، سارع الشيطان إلى تلقفها، فترتص له وأخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالِّين المنحرفين الأشقياء^(١).
- تسرد الآية قصّة عالم من بني إسرائيل يدعى «بلعم بن باعوراء»، كان في صفّة المؤمنين وقد حباه الله بآيات وعلوم إلهية، لكنّه تبع وساوس الشيطان والطاغوت وانحرف عن إيمانه.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «أنه أعطي بلعم بن باعور الاسم الأعظم، فكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما مرّ فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله ﷻ، فقالت: ويلك على ماذا تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها وانسلخ الاسم من لسانه»^(١). نعم، إن بهارج الدنيا وزخارف البلاط هي عامل انحدار العلماء وسقوطهم.

لا يذكر القرآن الكريم اسم هذا الشخص، ولكن يسرد فعاله، والإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام يقول: «الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة»^(٢) ومعلوم أنّ هؤلاء موجودون في كل عصر وزمان، ولا يقتصر الأمر على بلعم بن باعوراء وحده.

□ لقد وردت قصة بلعم بن باعوراء في التوراة الحالية أيضاً^(٣).

التعاليم:

- ١ - ينبغي على القائد أن ينبّه الشعب إلى الأخطار المحتملة، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ...﴾.
- ٢ - أحياناً يقع العلماء في شرك خداع الطواغيت وحيلهم، فعاقبة عالم مثل بلعم بن باعوراء يجب أن تضحى درساً بليغاً للتاريخ، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأ...﴾ لما تشكّله من قصة مهمة ومفيدة. (كلمة «نبأ» تقال للخبر المهم والمفيد).
- ٣ - الإنسان مخير وله ملء الحرية في تغيير عقائده، ﴿ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَأَسْلَخَ...﴾.
- ٤ - لا ينبغي للإنسان أن يصاب بالغرور والكبر مهما علت منزلته وارتقى مقامه، إذ إنّ احتمال السقوط والانحدار وارد في كل لحظة، فالمهمّ هو حسن عاقبة الأمر. والحقّ أنّه كلما ارتفع مقام الإنسان كان الخطر الذي يتهدّده أكبر، ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا...﴾.

(٣) التوراة، سفر الأعداد، الباب ٢٢.

(١) تفسير نورالقلين؛ تفسير كثر الدقائق.

(٢) المصدر نفسه.

٥ - من ابتعد عن الله تعالى، أصبح صيداً سهلاً للشيطان، ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾.

٦ - الشيطان يوسوس للإنسان ويكمن له، وإذا ما وجد في المرء استعداداً للانحراف تبعه، ﴿فَأَسْلَخَ... فَاتَّبَعَهُ﴾؛ (مجيء كلمة «فاتبعه» بعد «فانسلخ»، يشير إلى أن الشيطان يتحين الفرص ليتبع الإنسان بمجرد الانسلاخ).

٧ - لا حيلة للشيطان على العالم الرباني، (فالشيطان لم يكن له سلطان على بلعم لولا تخلي الأخير عن آيات الله)، ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾.

٨ - العلم وحده لا يُنجي، ذلك أن العالم الذي ملكت الدنيا عليه قلبه، هو، في الحقيقة، عبد الشيطان، ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾.

٩ - يجب النظر في سوء العاقبة والحذر منها حتى لا تتبدل النعم نقماً، ﴿ءَاتَيْنَاهُ... فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

١٠ - الابتعاد عن سبيل الله تعالى، ابتعاد عن العقل والحكمة، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

١١ - انحذار الإنسان وسقوطه يتم على مراحل هي: الانسلاخ من آيات الله تعالى، واتباع الشيطان، والاتحاق بصفوف الضالين، ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

إشارات:

□ في هذه الآية الكريمة ذكرت كلمة «الأرض» في إزاء الرفعة المعنوية، فكان المقصود بها هو القضايا الحقيرة المادية والدينية.

□ يقول النبي الكريم ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزد هدًى لم يزد من الله إلا بعداً»^(١).

□ قصص القرآن الكريم قوامها الحق والحقيقة، وتهدف إلى تسليية النبي الكريم ﷺ وثبات قدمه وأهل الإيمان، وبث اليأس في قلوب الأعداء، وهي بعد، للمؤمنين وعظ وذكرى^(٢)، وللعقلاء درس وعبرة^(٣).

التعاليم:

١ - التمسك بآيات الله تبارك وتعالى، مدعاة للتقرب إلى الله والأولياء، ﴿لَرَفَعْتُهُ بِهَا﴾.

٢ - الإنسان مخير وحرّ على الرغم من أنّ الله تعالى يبسط حاكميته وإرادته على الكون، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْتُهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ...﴾.

٣ - إرادة الله تنبني على ما يصدر عنا من أفعال، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْتُهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾، نعم، بلوغ منزلة القرب الإلهي، تستوجب الاحتراز من التكالب على الدنيا والأهواء النفسانية.

٤ - مثل الغافلين كمثّل الدواب، بينما مثل العالمين عبّاد الدنيا كمثّل الكلب في حرصه وعطشه حين يُخرج لسانه لاهثاً دائماً، ﴿كَمَثَلَ الْكَلْبِ﴾.

٥ - العالم بلا عمل مذموم، ﴿كَمَثَلَ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ...﴾.

٦ - لا راحة أبداً لمن كبّله الدنيا بأغلالها، ﴿إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾؛ فمهما عَظُم مُلك الطمّاع، كان طمعه أعظم، فحبّ الدنيا والحرص لا حدود لهما.

٧ - تعلّق الإنسان بالدنيا وأهوائه، يصرفه عن الاهتمام بسائر الأمور الأخرى، ﴿إِنْ تَحَمَّلَ... أَوْ تَتْرُكُهُ...﴾.

٨ - إذا تزيّنت الدنيا في عيون علماء الدين، عمدوا إلى التكذيب بآيات الله والنزوع نحو الكفر، ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ... كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

(٣) سورة يوسف: الآية ١١١.

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٧.

(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.

٩ - عاقبة علماء السوء مدعاة لاتعاض الناس وتأملهم. (شرعت الآية السابقة خطابها بكلمة «وَاتْلُ»، وهنا تقول: ﴿فَأَقْصِرْ﴾).

١٠ - لا بد من أن يكون تأليف القصص وسردها نافذة نحو الاعتلاء الفكري للإنسان، لا مجرد التخدير والتلهية. القصة الهادفة هي مهمة الأنبياء، ﴿فَأَقْصِرِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ (١٧٧) ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ

﴿الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

إشارات:

□ ربما كان السبب في استعمال «المهتدي» في صيغة المفرد و«الخاسرون» في صيغة الجمع هو أنّ طريق المهتدين واحد وهم متحدون مع بعضهم، فيما المنحرفون متفرقون وسبلهم شتى.

□ نعم، الهداية والضلال بيد الله تعالى، ولكن ليس في الأمر إكراه، ولا يحدث دون سبب أو بلا حساب. فالله تبارك وتعالى هو الحكيم الرحيم وما ينزل من ثواب أو عقاب، هو بما قدّم الإنسان لنفسه.

التعاليم:

١ - عاقبة المكذّبين السوءة، ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾.

٢ - التكذيب بآيات الله هو ظلمٌ للنفس لا لله، ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾.

فتقديم ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ على ﴿بِظُلْمٍ﴾ إشارة إلى الحصر.

٣ - الهداية بيد الله تعالى، فبدون لطفه، لن يكون العلم وحده سبباً في النجاة والهداية، ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾.

٤ - المهتدون في مامن من كلّ ضرر أو خسارة، لأنّ الضلالة هي منبع الخسارة، ﴿وَمَن يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

إشارات:

□ «ذَرَأًا» من «الذَّرع»، في الأصل تعني نثر الشيء أو تفريقه، بيد أنها جاءت هنا بمعنى الخلق والإيجاد.

□ سؤال: في هذه الآية، يقول القرآن: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْكَثِيرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لْجَهَنَّمَ وَهَيَّاهُمْ لَهَا، بيد أننا نقرأ في آية أخرى أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُم لِلْعِبَادَةِ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فأيهما أصح^(١)؟

في الجواب نقول: إِنَّ الهدف الأصلي للخلق هو التوحيد وعبادة الله تعالى، غير أَنَّ النتيجة هي أَنَّ الكثير من البشر يدخلون جهنم لعصيانهم وطغيانهم وإصرارهم على الكفر واللجاج، وكأنهم خُلِقُوا أصلاً لْجَهَنَّمَ، وحرف اللام في ﴿لْجَهَنَّمَ﴾ هو لبيان العاقبة لا الهدف، كما هو الحال مع النجار الذي هدفه الأصلي هو صنع الأثاث من الخشب، إلَّا أَنَّهُ أحياناً ينتهي بالخشب إلى الحرق في المدافئ، وهذا بمثابة هدف ثانوي. شبيه هذا الأمر ما ورد على لسان الإمام علي عليه السلام الذي يقول: «إِنَّ اللَّهَ مُلْكاً يَنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ»^(٢)، بمعنى، أَنَّ الموت هو نهاية الولادة، وجمع المال مآله إلى الفناء والبناء إلى الخراب.

□ لا شك في أَنَّ الذين انسلخوا من هويتهم الإنسانية لا مكان لهم سوى جهنم، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣)، وحيث إنهم يعترفون بأنهم لو أطاعوا الأوامر الإلهية وعقلوا، لما كان مصيرهم جهنم، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤).

□ يشترك الإنسان والحيوان في امتلاك أعضاء مثل العين، والأذن، واللسان، بيد

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٣٢.

(٤) سورة الملك: الآية ١٠.

أنَّ كيفية توظيف هذه النعم يجب أن تكون عند الإنسان أفضل وأتم، وإلا فإنه سيكون كما الحيوان، بل أدنى مرتبة. مضافاً إلى الظاهر، يجب على الإنسان أن يرى ملكوت الأشياء، وعلاوة على الأصوات الظاهرة، يجب أن ينصت إلى الهمهمة الباطنية المعنوية.

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام: أخبرني عن الله كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحدين، وكان على ذلك قادراً؟ قال عليه السلام: «لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب؛ لأنَّ الطاعة إذا لم تكن فعلهم لم تكن جنة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، واحتجَّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه؛ ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، وبمعصيتهم إياه العقاب»^(١). نعم، إنَّ التكليف هو الفضل الوحيد الذي يمتاز به الإنسان على سائر المخلوقات.

التعاليم:

- ١ - عاقبة الكثير من الإنس والجنِّ الدخول إلى جهنم، ﴿ذَرَأًا...﴾.
- ٢ - الجنُّ كالbشر مكلفون ومخيرون وينالون الثواب والعقاب، ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ﴾.
- ٣ - معيار الإنسانية يتمثل في فهم وقبول المعارف والتكاليف الدينية، ولولا ذلك لكان الإنسان كالحيوان، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾.
- ٤ - المخلوق الذي يعجز عن توظيف النعم الإلهية بالشكل الصحيح على الرغم من توافره على الإمكانيات والقابليات، هو أدنى مرتبة من المخلوق الذي لا يتوافر، أساساً، على تلك الإمكانيات، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.
- ٥ - الإنسان الغافل المفتقد للبصيرة، الغارق في الإهمال، وشهوات الفرج، والبطن، والاستغلال من قبل الآخرين، والحرمان من متعة المعرفة، هو كالذباب بل هو أدنى مرتبة، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾.

٦ - الإنسان المفتقد للبصيرة غافل عن الهدف وعن الله، ونفسه، والإمكانات، والآخرة، والذرية، والآيات الإلهية، والشريعة الإلهية، والألطف السابقة... وعن ذنوبه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾.

٧ - سبب دخول معظم الناس إلى جهنم هو عدم توظيف نعم الله تعالى في طريق الهداية والكمال، وذلك على الرغم من امتلاكهم عينين وأذنين وفؤاد، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾

إشارات:

□ لا شك في أن الأسماء الحسنى تعني الأسماء الكريمة، ونحن نعرف أن أسماء الله تعالى كلها تحمل مفاهيم حسنى، ومن ناحية أخرى، إن صفات الله لا يمكن إحصاؤها لأن كمالاته غير متناهية ويمكن أن تذكر لكل صفة من صفاته أو كمال من كمالاته اسم... إلا أن ما نستفيده من الأحاديث هو أن لبعض صفاته أهمية أكثر من سواها، إذ ورد عن النبي الكريم ﷺ والأئمة من أهل بيته ﷺ روايات كثيرة بهذا المعنى، وكذلك في مصادر أهل السنة أيضاً مثل صحيح مسلم وصحيح البخاري والترمذي، ومن هذه الروايات «إن الله ﷻ تسعة وتسعين اسماً من دعا الله بها استجاب له ومن أحصاها دخل الجنة»^(١) ولكن ما ينبغي ملاحظته هنا، بطبيعة الحال، هو أن المراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى ليس أن نعدّ هذه الأسماء ونجريها على الألسنة فحسب، بل أن يسعى الإنسان، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن يعكس في وجوده إشراقاً من مفاهيم تلك الأسماء فإن كان كذلك كان من أهل الجنة وكان دعاؤه مستجاباً ونال كل خير. وفي ما يأتي نورد هنا الأسماء الحسنى المنة:

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ والأمثل في كتاب الله المنزل.

«اللّه، الإله، الواحد، الأحد، الصّمد، الأوّل، الآخر، السّميع، البصير،
 القدير، القاهر، العلّي، الأعلى، الباقي، البديع، البارّ، الأكرم، الظاهر،
 الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد،
 الحفيّ، الربّ، الرّحمن، الرّحيم، الذّارئ، الرّازق، الرّقيب، الرّؤوف، الرّائي،
 السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبرّ، السيّد، السّبّوح، الشهيد،
 الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنيّ، الغياث، الفاطر،
 الفرد، الفتّاح، الفالّاق، القديم، الملك، القدّوس، القويّ، القريب، القيّوم،
 القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنان، المحيط،
 المبين، المقيت، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضّرّ، الوتر،
 النور، الوهاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفيّ، الوكيل، الوارث،
 البرّ، الباعث، التّوّاب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير النّاصرين،
 الديّان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي»^(١).

□ ورد في القرآن الكريم ١٤٥ اسماً من أسماء الله الحسنى، وذكر العدد ٩٩ في
 الروايات هو إمّا لقابلية بعض الأسماء لإدغام بعضها مع بعض، أو المقصود
 هو أنّ هذه الأسماء موجودة كذلك في القرآن الكريم وليس أنّ عددها يقتصر
 على ٩٩ اسماً. وفي بعض الآيات، توجد مضامين هذه الأسماء.

مثلاً الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٢) لا تعني أنّ «الصادق» هو
 أحد أسماء الله الحسنى. كما ورد في بعض الروايات والأدعية مثل دعاء
 الجوشن الكبير أسماء أخرى لله تعالى، بطبيعة الحال، إنّ لبعض الأسماء
 الحسنى آثاراً وبركات ومزايا خاصّة. يقول الفخر الرازي: الأسماء ألفاظ دالة
 على المعاني فهي إنّما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين؛ التوحيد، الصدوق.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٢.

حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه^(١).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(٢) أي إن صفات الله تعالى متجلية فينا، ونحن السبيل إلى معرفة الله. وطبقاً لهذه الروايات فإن عبارة ﴿وَدَّعُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ تعني، دعوهم وشأنهم أولئك الذين ينكرون فضائل أهل البيت عليه السلام. وفي رواية أخرى، نقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من أحد عملاً إلا بمعرفتنا»^(٣).

□ ذكرت عبارة «الأسماء الحسنی» أربع مرّات في القرآن الكريم^(٤). وللأسماء الحسنی ثلاثة أمثلة هي: الصفات الإلهية، الأسماء الإلهية، أولياء الله تعالى^(٥).

□ أيضاً نقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله وهو قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾»^(٦).

□ جاء في الروايات أنّ من أوتي الاسم الأعظم كان دعاؤه مستجاباً، وتمكّن من تسخير الطبيعة. كما هو الحال مع بلعم بن باعوراء (الذي ورد ذكره في الآية ١٧٥ من هذه السورة) الذي كان عنده علم الاسم الأعظم.

ولكن، ما هو الاسم الأعظم؟ قال بعض: هو واحد من أسماء الله خفي عنّا كنهه. وقال بعض آخر: في الحقيقة، ليس الاسم الأعظم لفظاً واسماً، بل كمالاً وصفة لله تعالى، ومن حظي بقبس منه امتلك قدرة روحية هائلة يستطيع

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ١٤٣.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

(٤) سورة الإسراء: الآية ١١٠؛ سورة طه: الآية ٨؛ سورة الحشر: الآية ٢٤ وهذه الآية.

(٥) تفسير الفرقان.

(٦) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٥.

معها تسخير الطبيعة، إذ إنّ المسألة المهمة هي التخلّق بصفات الله والاتّصاف بها وتحقيقها في واقع الإنسان، وإلاّ كيف يمكن أن يكون الشخص الرديء الوضيع مستجاب الدعوة لمجرّد معرفته الاسم الأعظم^(١)؟

□ يقول الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه»، بمعنى، أنّه لا يمكن أن نطلق اسماً من عندنا على الله كأن نقول: إنّهُ عفيف وشجاع... إلخ^(٢).

□ الاسم هو دلالة على المسمّى، فالذات الإلهيّة مقدّسة، لذا، يجب أن يكون اسمه أيضاً مقدّساً. إذن، ينبغي أن تكون الذات الإلهيّة منزّهة ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣)، وكذلك اسمه منزّهاً ﴿سَجَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٤)، من هنا لا يجوز وضع أسماء الآخرين إلى جانب اسم الله تعالى، كأن نقول بسم الله وباسم الشعب.

□ يقول الشيخ الشهيد مرتضى مطهري: أسماء الله تبارك وتعالى ليست علائم بل هي تجليات لصفات وحقائق الذات الإلهيّة المقدّسة^(٥).

التعاليم:

١ - لفظ الجلالة «الله» هو محور الأسماء الإلهيّة، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، (لفظ الجلالة «الله» ينطوي على جميع الصفات الإلهيّة).

٢ - كلّ الصفات الحسنى لله تعالى، ومن أراد بلوغ الحسنى، فعليه أن يطيع الله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

٣ - يجب أن تكون الدعوة والدعاء إلى كلّ ما هو جميل وصالح، ﴿الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

٤ - الأسماء الإلهيّة هي آثار الله تعالى، ويمكن من خلال آثاره الوصول إليه سبحانه وتعالى، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٤) سورة الأعلى: الآية ١.

(٢) تفسير الفرقان.

(٥) «أشأى با قرآن» (معركة القرآن)، ص ١٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣١.

- ٥ - الإيمان بأن الكمال لله وحده، وأنه منزّه من كلّ عيب، تدفع الإنسان إلى الدعاء والثناء، ﴿فَادْعُوهُ يَهَّأ﴾.
- ٦ - دواء الغفلة هو ذكر الله تعالى. قرأنا في الآية السابقة ﴿هُمُ الْفَاطِلُونَ﴾، وهنا نقرأ ﴿فَادْعُوهُ يَهَّأ﴾.
- ٧ - يجب أن نعبّر عن موقف واضح إزاء الملحدين والمنحرفين، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحِدُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

إشارات:

- ورد في الروايات أنّ المقصود بهذه الآية هم أهل بيت النبي ﷺ وشيعتهم^(١).
- وفي إشارته إلى الفرق المختلفة التي ستظهر في الأمة الإسلامية، يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الفرقة الناجية أنا وشيعتي وأتباع مذهبي»^(٢).

التعاليم:

- ١ - لا يجوز الهداية بالوسائل والطرق الباطلة أو المسير نحو الباطل، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - الهداية والحكومة والقضاء، يجب أن تسير كلّها في طريق الحق، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.
- ٣ - الفضل الأكبر هو لمن لم يكتف بالهداية بل قفّاه بالتأسيس لنظام الحق. فالمعرفة والعمل الشخصي لا يكفيان إلّا إذا عضدهما نشر الحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بمعنى «به يحكمون».
- ٤ - المجتمع بحاجة إلى فئة هادية تقضي بالحق، (في ضوء مفهوم الآية ككل).

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الكافي، ج ١، ص ٤٤.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

إشارات:

□ «الاستدراج» واحدة من السنن الإلهية في شأن كثير من عباده المكذابين والمترفين، والكلمة مشتقة من «درجة» ومعناها اللف والطي التدريجي^(١). وقد وردت هذه الكلمة أيضاً في الآية ٤٤ من سورة القلم.

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه»^(٢) كما قال عليه السلام: «إنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً»^(٣) وقد قال أهل العلم: «إن الله يمهّل ولا يهمل»^(٤).

□ وكذلك عن الإمام علي عليه السلام الذي نقل عنه قوله: «إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها وهو قول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي»^(٥).

□ ورد الاستدراج في مواضع عدة في القرآن الكريم تحت عناوين الكيد الإلهي أو الإمهال أو طول العمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٦)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَذَرْنَاهُمْ فِي غُرُبِهِمْ ذَوِي يَمِينٍ﴾^(٧)، مضافاً إلى الآيات ١٩٦ من سورة آل عمران، و٤٤ من سورة الأنعام، و٥٥ من سورة التوبة، و٥٥ و٥٦ من سورة المؤمنون.

(١) مفردات الراغب. (٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٤) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، ج ٣، ص ١٢٠.

(٥) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ البرهان. (٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(٧) سورة المؤمنون: الآية ٥٤.

□ إنَّ الله سبحانه وتعالى يغدق على المجرمين ويغشّهم بالنعم ويحيطهم بحفاوة الناس وثنائهم، ويجعل كلّ ذلك أسباب غرورهم وغفلتهم، فتكون هذه النعم والانتصارات مقدمة لعقاب الاستدراج^(١).

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك، ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك، ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك، ومن عهود ملك إلى عهود ملك، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، وإن كيده متين بالأمل والرجاء»^(٢).

□ كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إذا أراد الله بعبده خيراً فاذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبده شراً فاذنب ذنباً فأتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار»^(٣).

التعاليم:

- ١ - التكذيب بآيات الله البيّنات، يفضي بالإنسان إلى السقوط التدريجي والموت الخفي، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- ٢ - استدراج الناس من السنن الإلهية، ليجد كلّ ثمرة الطريق الذي اختاره، فالأبواب مفتوحة أمام الجميع، ليختار المرء طريق العصيان، أو التوبة والمغفرة، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾.
- ٣ - انحدار الإنسان إلى الهاوية يكون، في الأغلب، رويداً رويداً وبالتدرّج، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- ٤ - العمر والحياة بيد الله تعالى، ولا مفرّ للعاصي من قدرة الله، ﴿وَأْمُرْ لَهُمْ﴾.
- ٥ - الله تعالى يمنح الكافر فرصة للتوبة والتعويض عمّا فاتّه، لكنّه غير جدير بهذه الفرصة، ﴿وَأْمُرْ لَهُمْ﴾.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين.

- ٦ - ليست النعم، دائماً، دلالة على اللطف الإلهي، أحياناً تكون استدراجاً لنزول العذاب الإلهي المباغت، ﴿وَأْمَلِي... كَيْدِي﴾.
- ٧ - أين يذهب المترفون الغافلون من تدبير الله تعالى ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي﴾؟ (كما إن الكيد هو عمل مستتر خفي، كذلك الاستدراج، فهو عذاب مستتر).
- ٨ - خطر الغرور والغفلة كبير لدرجة أن الله تبارك وتعالى ذكرهما بثلاث تعابير مختلفة ومتتالية، ﴿سَتَدْرِيَهُمْ... وَأْمَلِي... كَيْدِي﴾.
- ٩ - الخطط والتدابير الإلهية لا تُفهر، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَنِئٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

إشارات:

- «الجَنَّة» هي الجنون، وتعني في الأصل الحائل والمانع، فكأنما يُلقى على العقل حائل عند الجنون.
- روى المفسرون أن النبي الكريم ﷺ حين كان بمكة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا ودعا الناس إلى توحيد الله وحذرهم من عذاب الله وقال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فقال المشركون: إن صاحبهم قد جُنَّ فقد بات ليلاً يصوت حتى الصباح، فنزلت الآيات وألجمتهم وردت قولهم^(١).
- إنهم يتهمون بالجنون شخصاً كان إلى قبيل بعثته يدعوهم الصادق الأمين.

التعاليم:

- ١ - إصاق التهم والوقاحة ليست من شيم أصحاب الفكر والتدبر، ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾.
- ٢ - النبي الكريم ﷺ هو الصاحب أي المحب والمسامر وصديق الناس، فلو كان (والعياذ بالله) مجنوناً، فلماذا سكتوا عن ذلك لسنوات طويلة عندما كان صاحبهم ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾؟

- ٣ - عندما يكون النظام فاسداً، يرمى أهل الحق بالجنون، ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾.
- ٤ - كان الأنبياء يُرمون بالسحر والجنون من قبل أعدائهم ومناوئهم، ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾.
- كما نقرأ في آية أخرى ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾^(١).
- ٥ - أسلوب الدعوة والإصلاح والجذب مع الغافلين يجب أن يكون ذا طابع إنذاري لا تبشيري، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.
- ٦ - يجب أن يكون أسلوب التعامل مع المغرور والمخدر الغافل واضحاً وبيّناً لا لبس فيه، ﴿مُبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ «الملكوت» مأخوذ من «المُلك»، ويعني الحكومة والمالكية، والمراد باللفظة هنا حكومة الله المطلقة على الوجود.

التعاليم:

- ١ - النظرة المتفكّرة العميقة ذات تأثير، وتفتح آفاقاً واسعة. (التدبّر في كنه الوجود وارتباطه بالله تعالى، تؤثّق صلة العبد بربه، عدا ذلك، ينبغي للإنسان أن يصل إلى التوحيد والنبوة عن طريق التدبّر والعقل لا التقليد)، ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا... أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾.
- ٢ - التوحيد مصدر التوحيد وركيزتها، والتدبّر في ملكوت الكون يثبت أنّ هذا النظام يسير بهدى وله هدف، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾.
- ٣ - البؤس والشقاء الذي يصيب الإنسان هو، في معظمه، بسبب الغفلة عن ذكر

الموت، ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾؛ (ذكر الموت يقلل من لجاج الإنسان ويدفعه إلى اغتنام الفرص والإيمان قبل الفوت).

٤ - لم تخلق أي ذرة في هذا الكون عبثاً، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

٥ - القرآن هو أحسن كتاب، والآيات الإلهية أرقى كلام، فأي عذر لمن يكفر بهما ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟

٦ - من لا يؤمن بالقرآن ومعارفه، فلن يؤمن بأي كلام هادٍ غيره، ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

التعاليم:

١ - من لا يأخذ نُذُرَ الأنبياء على محمل الجد، ولا يتدبر في كلامهم، فجزاؤه أن ينزل عليه العذاب الإلهي وأن يوكل إلى نفسه، ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ... وَيَذَرُهُمْ﴾.

٢ - الإضلال شأن إلهي، لكن نية المرء وعمله هما اللذان يمهّدان لصداً القلب والحؤول دون نفوذ الهداية الإلهية إليه، ﴿يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ثمّة آيات أخرى توضح هذه الحقيقة، مثل ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١)، و﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

٣ - الناس ليسوا مكرهين على الطغيان، وضلال الإنسان هو غرس اختياره، ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾. (لم يخلق الإنسان شريراً ابتداءً).

٤ - الطواغيت حيارى، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٥ - لولا الهداية الإلهية، ل بقي الإنسان في ضلاله وحيرته، ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَإِذْنِي يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

إشارات:

□ جاء في سبب نزول هذه الآية: أَنَّ قريشاً أرسلت أنفراً عدّة إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها مضافاً إلى المسيحيين هناك عن مسائل ملتوية ثمّ يلقوها على النبيّ عند رجوعهم إليه ظناً منهم أَنَّ النبيّ ﷺ سيعجز عن إجابتهم، ومن جملة هذه الأسئلة كان هذا السؤال: متى تقوم الساعة؟ فلمّا سألوا النبيّ الكريم ﷺ ذلك نزلت الآية محلّ البحث وأفحمتهم^(١).

□ «السّاعة»، زمن شروع القيامة، و«القيامة»، هي زمن الحساب والثواب والعقاب^(٢). «مُرسى»، هو مصدر ميمي من الإرساء، وهما بمعنى واحد، وهو ثبات الشيء أو وقوعه، «الجبال الراسيات»، بمعنى الثابتات والراسخات.

□ «الحَفِيّ»، في الأصل هو من يسأل عن الشيء بتتابع وإصرار، ولمّا كان الإصرار في السؤال باعثاً على زيادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة على العالم كما هي هنا أيضاً، وأن يكون النبيّ الكريم ﷺ حَفِيّاً تعني أن يترقّب باستمرار قيام الساعة وأن يتتبع حلول يوم القيامة من الله تعالى.

□ إنَّ ثقل يوم القيامة وعظمته في السموات والأرضين ربّما يكون إشارة إلى اضطراب نظام الكواكب وانطفاء الشمس وانقلاب الأرض بطناً لظهر، أو قد يكون المقصود بعظمة يوم القيامة، هو عِظَم العقوبات في ذلك اليوم. نقرأ في دعاء كميل «وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض»^(٣).

□ في عيون الأخبار عن الرضا ﷺ قال: ولقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن عليّ ﷺ، أَنَّ النبيّ ﷺ قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذريّتك؟

(١) تفسير البرهان.

(٢) تفسير المراغي.

(٣) مصباح المتجهد و سلاح المتعبد، ج ٢، ص ٨٤٧.

قال: «مثلُ مثل الساعة لا يجليها لوقتها إلّا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلّا بغتة»^(١).

التعاليم:

١ - كان الناس يلحّون على النبي الكريم ﷺ بالسؤال عن موعد قيام الساعة ويوم القيامة، ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرارية).

٢ - لا يعلم أحد بموعد قيام الساعة ويوم القيامة إلّا الله تعالى، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾؛ إنّ عدم العلم بموعد قيام الساعة هو من أجل أن يكون الإنسان على أهبة الاستعداد والتهيؤ.

٣ - لا يمكن لأحد التنبؤ بيوم القيامة، وسوف تأتي بغتة، تماماً في اللحظة التي لا يتوقعها أحد. «بغتة» (تستعمل «بغتة» في الحالات التي لا يخطر على بال الإنسان حتى مجرد الحدس أو الظن).

٤ - القيامة ثقيلة وشاقة للغاية، حتى على السموات والأرضين، فما بالك بالبشر، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟

٥ - لا يضير المرء إذا جهل شيئاً أن يقول: لا أعلم. في هذه الآية الكريمة، نزل أمر الله تعالى مرتين على الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي... قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، ويقول ﷺ في مكان آخر: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْفُرُ إِنِ أُنِجَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٢).

٦ - عدم العلم بتفاصيل يوم القيامة وموعدها لا يضرّ بأصل النبوة والمعاد، لا أحد منا يعلم متى وأين يموت، ولكن هذا لا يدعونا إلى إنكار أصل الموت، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّقِيَ السُّوءَ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ توجد بعض الآيات والروايات تشير مضامينها إلى أَنَّ الأنبياء والأولياء عندهم حظٌّ من علم الغيب، في حين تواجهنا آيات وروايات أخرى تنفي عنهم أيَّ علم بالغيب، والحقيقة أَنَّ الجمع بين الفئتين يكون عبر نقاط عدّة هي:

(أ) عندما ينفي علم الغيب عنهم، فإنَّ المقصود نفي الاستقلال، أي أنَّهم لا يعلمون الغيب من عند أنفسهم، أمّا عندما يقول: إنَّهم يعلمون الغيب، فهذا يعني أنَّه بإرادة الله وبإلهام ووحى منه سبحانه، نظير أن نقول: هذه المنطقة لا تملك نفطاً أو تملك نفطاً، فالمقصود بالعبارة الأولى هو أنَّ أرضها غير نفطية، بمعنى أنَّه ليس في جوفها نفط، ومرادنا من أنَّها تملك نفطاً هو أنَّ النفط يصلها عن طريق الأنابيب أو الشاحنات أو ناقلات النفط أو السكك الحديدية.

(ب) إنَّ علم الغيب ينقسم قسمين اثنين: قسم يحوز الأنبياء على معظمه، من قبيل الأخبار التي أوحاها القرآن إلى النبي الكريم تحت عنوان الغيب كما في قوله ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾^(١)، والقسم الثاني، استأثر به الله تعالى لنفسه، ولم يطلع أحداً عليه كالعلم بموعد قيام الساعة. إذن، عندما يقال: إنَّ الأنبياء لا يعلمون الغيب، المقصود هو أنَّهم لا يعلمون بذلك القسم الذي استأثر به الله تعالى لنفسه، أمّا القول: إنَّهم يعلمون فذلك إشارة إلى القسم الثاني الذي أطلعهم سبحانه وتعالى عليه.

(ج) كان الأنبياء يوجهون خطابهم إلى أفراد مختلفين، فبعضهم كان من أهل الغلو فاضطرَّ الأنبياء والأئمة الأطهار ﷺ إلى التأكيد على أنَّهم لا

يعلمون الغيب حتى لا يغالي هؤلاء فيهم، أما بعضهم الآخر فكان قليل المعرفة بهم، ممّا حدا بهؤلاء العظماء إلى إظهار جانب من علومهم بالغيب.

(د) وربما كان المراد بعدم علمهم بالغيب هو الحضور الذهني، غير أنّ ذلك بالنسبة إلى الأئمة المعصومين، بحسب الروايات، عمود من نور بمجرد النظر إليه يطلع على ما شاء. وهذا نظير أن يقول المرء: نسيت رقم هاتف فلان، لكنّه سيطلع عليه بمجرد مراجعته للدفتّر أرقام هواتفه.

(هـ) إنّ العلم بالغيب ليس دائماً دليل كمال، إذ لربّما كان عامل نقص في بعض الأحيان، على سبيل المثال، عندما بات الإمام علي عليه السلام في فراش النبي الكريم ﷺ، فلو كان يعلم أنّه لن يصاب بأذى، لما احتسب ذلك كمالاً ولما سُجّلت له منقبة، لأنّ الجميع في هذه الحالة كان مستعدّاً للمبيت في فراش النبي.

(و) إنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب على علم الغيب الذي تشوبه حسابات الربح والخسارة، نظير هذه الآية موضع النقاش، بيد أنّه في الحالات التي يكون الهدف منه هداية الناس وإرشادهم، فإنّ الله يطلعهم عليه، كما هو الحال مع عيسى عندما أخبر أصحابه قائلاً: ﴿وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١).

□ ذكر بعض المفسّرين أنّ أهل مكّة قالوا لرسول الله ﷺ: إذا كان لك ارتباط بالله تعالى، أفلا يطلعك على غلاء الأسعار أو رخصها في المستقبل، لتهيئ عن هذا الطريق ما فيه النفع والخير وتدفع عنك ما فيه الضرر والسوء أو يطلعك الله على السنّة الممحلّة «القحط» أو العام المخصب العشب، فتنتقل إلى الأرض الخصيبة؟ فنزلت عندئذ الآية، محلّ البحث، وكانت جواب سؤالهم^(٢).

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

- ١ - من عظم إيمانه بالله، كان تسليمه لتكليف الله وإرادته أكبر، وشعوره بالعجز تجاه هذه الإرادة أعظم، ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي...﴾.
- ٢ - العلم بحسابات الربح والخسارة هو بإرادة الله ومشيته، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.
- ٣ - النبي الأكرم ﷺ لم يكن يعلم الغيب من عنده أو للأغراض الشخصية في حياته، وإن إخباره بالغيب عن طريق الوحي الإلهي كان بسبب نبوته، ﴿وَلَوْ كُنْتُ...﴾.
- ٤ - قيام الساعة هي من شؤون الغيب، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ... وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾.
- ٥ - العلم بآتي الأمور يمهّد للرخاء والطمأنينة، والجهل بها مدعاة لحدوث المصاعب والأضرار، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرْتُ...﴾.
- ٦ - النبي الأكرم ﷺ، كسائر البشر، حياته مزيج من الآلام والشدائد، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾.
- ٧ - النبي الأعظم ﷺ مبشر ونذير للإنسانية، ولكن وحدهم المؤمنون الذين يؤمنون بدعوته، ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْلَحَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِنِ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الجوهر الإنساني للرجل والمرأة واحد، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.
- ٢ - الزواج أو الزوجة عامل استقرار وحياء للروح، والزواج يعمل على إزالة عدم الاستقرار النفسي، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.
- ٣ - قوام الحياة، الأنس والألفة لا الشقاق والاختلاف، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

- ٤ - يفضل استخدام أسلوب الكناية عند الخوض في المسائل الجنسية، ﴿تَفَشَّهَا﴾.
 ٥ - جماع الزوجين يجب أن يكون مستوراً، ﴿تَفَشَّهَا﴾.
 ٦ - نمو الجنين يحصل تدريجياً، وذلك من أجل أن تستعد الأم لذلك، ﴿حَفِيفًا... أَثْقَلَ﴾.

٧ - لا يشعر الإنسان بالمسؤولية إلا حين يتحمل حملة، ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَ دَعَا﴾.
 المعضلات وسيلة للتوجه إلى الله تعالى وخلق حالة من الاستعداد النفسي والروحي في قلب الإنسان وضميره، ومثال ذلك المرأة الحامل التي ينتابها اضطراب دائم وذلك لجهلها بالتقدير الإلهي، فتكون مستعدة لقبول آية نصائح أو إرشادات.

- ٨ - الوالدان يجمعهما شعور مشترك بالمسؤولية تجاه الأبناء، ﴿دَعَا﴾.
 ٩ - الإنسان يميل بالفطرة إلى بقاء الأبناء والذرية، ﴿ءَاتَيْنَا﴾.
 ١٠ - يجب أن نؤمن بأن الأبناء هبة من الله تعالى، وأن لا نعزو السبب لأنفسنا أو للوسائل الأخرى، ﴿ءَاتَيْنَا﴾.

١١ - المقاربة الجنسية ليست من أجل الاستمتاع وقضاء الشهوة فقط، بل لاستمرار النسل الصالح ودوامه، ﴿صَلِحًا﴾.

١٢ - يسعى الإنسان بفطرته إلى الصلاح والإصلاح، لا إلى اللامبالاة والفساد. يقول الله ﷻ: ﴿ءَاتَيْنَا صَلِحًا﴾ ولم يقل: «آتيننا ولدًا».

١٣ - إذا أردنا لأبنائنا الصلاح والتربية القويمة والسليمة، يجب أن نمهد لذلك قبل ولادته، وأن نستمدّ العون من الله تعالى، ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَلِحًا﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَفَعَلَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ائْتِرْكُون مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الابن هو للوالدين معاً، ﴿ءَاتَيْنَاهُمَا﴾.

- ٢ - الله تبارك وتعالى يهب الابن الصالح، ونقوم نحن بحرفه، ﴿ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا﴾.
- ٣ - عند الضيق والشدة ينذر الإنسان الله ويتعهد، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وما إن تنفرج الشدة حتى يتنكر لنذره وعهده، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾.
- ٤ - الأولاد نعمة يهبها الله لعباده، فلا ينبغي للوالدين أن ينسبوا لأنفسهم أو لغيرهم دوراً مستقلاً في خلق صورة الطفل أو ملامحه أو سلامته، لأن ذلك نوع من الشرك، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾.
- ٥ - أول شروط المعبود أن يكون قادراً على الخلق. لا يزال يعيش في العالم الصناعي المتحضر ملايين الوثنيين، ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ﴾.
- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾

إشارات:

- قد يكون معنى ﴿تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ هو أنكم إذا طلبتم منهم أن يتبعوكم، لن يستجيبوا لكم. صحيح أنَّ الحديث يدور حول الأصنام الجامدة التي لا روح فيها، إلا أنَّ الآية الكريمة توجه خطابها لذوي الألباب لتكشف عن العقائد الباطلة للمشركين في اعتبارهم الأوثان أشياء عاقلة بل ما فوق العقل، وكانوا على هذا الأساس يعبدونها ويستمدون العون منها.
- لقد نهانا القرآن الكريم في آيات عدة وبعبارات شتى عن أن ننصّر استقلالية قدرة الأشياء أو الأفراد، من هذه الآيات ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَصْرًا﴾ و﴿لَا يَلِيكَونَ لِأَمْنِيْمٍ نَفْعًا﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الأشياء التي لا تنصر ولا تنتصر لا تستحق أن تُعبد، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

٢ - لا يمكن تبرير عبادة الإنسان، فما بالك بالأشياء والموجودات الجامدة غير العاقلة الأقل شأنًا من الإنسان، والتي ليس لها القدرة على الهداية أو النصر، ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُدْحَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَتْلَٰكُم مَّا تَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

إشارات:

□ قد يكون المقصود بـ ﴿عِبَادُ﴾ البشر الذين خلعت عليهم صفة الألوهية مثل النبي عيسى عليه السلام أو الملائكة، أو أنّ المقصود هو الأوثان التي رفعها عبدها إلى منزلة الآلهة. وإذا كان المعنى هو المخلوقات، فهو يشمل كل شيء يُعبد سوى الله.

التعاليم:

- ١ - العبادة تحتاج إلى سبب ومبرر، والمعبود يجب أن يكون أسمى وأعلى من العابد، فعبادة مخلوقات أمثالنا، لا هي مبررة ولا تشكل ميزة، ﴿عِبَادُ أَتْلَٰكُم﴾.
- ٢ - المعبود الذي يستحق العبادة هو الذي يقضي حوائج عباده ومخلوقاته، ويمنحهم الرشاد، ناهيك عن أنّ العلاقة بين العبد ومعبوده يجب أن تكون متقابلة، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم﴾.
- ٣ - عدم استجابة معبوداتكم لحوائجكم دليل على عجزها وزيفها، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿الْهَمَّ أَزْجَلُ يَمْشُونَ يَهَّأَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ يَهَّأَمْ أَعَيْنُ يَبْصُرُونَ يَهَّأَمْ لَهْمَّ
ءَاذَاتٌ يَسْمَعُونَ يَهَّأَمْ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥)

إشارات:

□ «يَبْطِشُونَ» مشتق من «بَطَش» بمعنى تناول الشيء بصولة وشدة وقدرة.

□ الآية الكريمة هي توبيخ لأولئك الذين يدعون مع الله شركاء هم أعجز منهم، لأنّ لهم جوارح من قبيل أرجل يمشون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها، في حين أنّ هؤلاء الشركاء الذين يدعون، أصنام لا روح فيها، عاجزة عن فعل أيّ شيء، إذن، ما الذي يدعوهم إلى الاستمرار في عبادة هذه الأصنام؟

التعاليم:

١ - القائد الإلهي يجب أن يمتلك القدرة والجرأة على التحدي والدعوة إلى المباهلة، والطلب من قوى الباطل أن ينقذوا جميع خطّتهم ليبرهنوا على عجزهم، ﴿قُلْ أَدْعُوا...﴾.

٢ - الشركاء الذين لهم جوارح لا يستطيعون نصرة المشركين، فما بالك بالشركاء الذين ليس لهم جوارح والذين هم أضعف منكم، ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا...﴾؟

٣ - لا يمثل المشركون أوامر النبي الكريم ﷺ، لأنهم يقولون: إنّه بشر مثلنا. لكنهم في المقابل، يعبدون الأصنام التي هي أعجز منهم وأضعف، ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...﴾.

٤ - أسلوب الاحتجاج وطرح الأسئلة المقرون بالنقد، والتوبيخ، والتحدي هو من أفضل الأساليب في الدعوة والإصلاح. (في ضوء مفهوم هذه الآية والآيات السابقة).

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦)

إشارات:

□ استكمالاً لما ورد في الآية السابقة من عجز الآلهة الباطلة، تحدّث هذه الآية عن الله تبارك وتعالى.

□ الإنسان الصالح يحظى بمكانة عالية عند الله سبحانه وتعالى، والأنبياء كلّهم

كانوا صالحين، ﴿كُلٌّ مِّنَ الْفَالِغِينَ﴾^(١)، وكانوا يأملون أن يلحقهم الله بالصالحين، إذ يقول النبي يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٢)، ونحن أيضاً ندعو الله تبارك وتعالى في نهاية كل صلاة أن يبعث بسلامنا إليهم، «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

التعاليم:

- ١ - لقد نصر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وحفظه بالقرآن الكريم، ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾.
- ٢ - تطلع الصالحين إلى ولاية الله وحمايته، هو سبب صمودهم وعدم خشيتهم، ﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظَرُونَ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ...﴾.
- ٣ - علاقة الله تعالى بالمؤمن وثيقة جداً، ﴿وَلِيِّ﴾؛ (كلمة «ولي» في الأصل تعني التابع والتالي).
- ٤ - نزول الكتاب السماوي قس من الولاية الإلهية، ﴿وَلِيَّ... نَزَّلَ﴾.
- ٥ - المعبود الحقيقي هو الذي يمتلك شريعة واضحة ومحددة، ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾، وفي الوقت ذاته يتولى أتباعه بعنايته عند تطبيق تلك الشريعة، ﴿يَتَوَلَّى الْفَالِغِينَ﴾؛ (صدور الشريعة يجب أن يقترن بدعم المنفذين الصالحين والقديرين لها).
- ٦ - لا تخشوا أحداً! فالله ولي الصالحين، وقد وعد بنصرتهم، ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ...﴾.
- ٧ - مشاكل الإنسان إما نابعة من عدم امتلاكه برنامجاً واضحاً، أو لافتقاده ولياً يتولاه، والمؤمن لا يعاني أيّاً منهما، ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ... يَتَوَلَّى الْفَالِغِينَ﴾.
- ٨ - الولاية الإلهية للأولياء الصالحين دائمة وعامة. ﴿يَتَوَلَّى الْفَالِغِينَ﴾، أما الكافرون فهم مطرودون من دائرة الدعم والمدد الإلهي. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(٣).

(٣) سورة محمد، الآية ١١.

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

- ٩ - المؤمنون الصالحون لا يواجهون انسداداً، ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وقد ورد في آية أخرى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١).
- ١٠ - مبدأ الجدارة هو أسلوب قرآني معتمد، ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^(١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١٩٨)

إشارات:

□ يُستفاد من مجموع الآيات السابقة أنَّ المعبود والرب يجب أن يكون:

- (أ) خالقاً ومالكا، ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.
- (ب) ناصراً ومعيناً، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.
- (ج) أن يستجيب للادعية، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ...﴾.
- (د) قادراً ومقتدراً، ﴿أَمْ لَهُمْ آتٍ يَبْطِشُونَ فِيهَا...﴾.
- (هـ) سميعاً وبصيراً، ﴿أَمْ لَهُمْ آعْيُنٌ يُّبْصِرُونَ فِيهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَّسْمَعُونَ فِيهَا...﴾.
- (و) له القدرة على أن يكبح مكر الأعداء، ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا﴾.
- (ز) ينزل كتاباً وشريعة، ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾.
- (ح) يتولى الأخيار والجديرين، ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - هدف الوثنيين طلب العون من الأوثان، وهو ما يفنّده القرآن الكريم، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.
- ٢ - ينبغي للأوثان والمعبودين، أن يصونوا أنفسهم، على الأقل، من حوادث الدهر، لكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك، ﴿وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

٣ - المعبود الذي يفتقد إلى المشاعر والإرادة والقدرة، لا يستحق أن يُعبد، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ... لَا يَسْمَعُوا... لَا يَبْصُرُونَ﴾.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

إشارات:

□ تنطوي كلمة «عفو» على معاني عدة هي: الحدّ الوسط، الصفح وقبول عذر العاصي، استسهال الأمور، إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد هنا.

□ «خُذِ الْعَفْوَ» بمعنى الأخذ بزمام العفو، وتوظيفه توظيفاً صحيحاً، ومنها أن يستعمل المرء الشدة والحزم في الحالات التي تقتضي ذلك، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(١).

كما إنّ مفهوم الآية الكريمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ لا يعني ترك الجاهلين والأعداء يتصرفون بحريتهم، بل المقصود عدم الاختلاط بهم والانجذاب نحوهم، ولكن أحياناً يقتضي الأمر إسداء النصيح والوعظ لهم وتذكيرهم بل وحتى ضرورة التصدي لهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾^(٢).

□ تخزن هذه الآية، على سهولتها واختصارها، جميع الأصول الأخلاقية، من أخلاق شخصية ﴿الْعَفْوَ﴾، وأخلاق اجتماعية ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، مع الصديق ﴿الْعَفْوَ﴾، ومع العدو ﴿وَأَعْرِضْ﴾، باللسان ﴿وَأْمُرْ﴾، وبالعقل ﴿وَأَعْرِضْ﴾، إيجابياً ﴿خُذِ﴾، وسلبياً ﴿وَأَعْرِضْ﴾، للقائد، وللأمة، لذلك العصر، ولهذا العصر. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا آية في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية»^(٣).

لا شك في أنّ العفو المطروح في الآية هو ما يتعلق منه بالقضايا الشخصية وليس الحق العام وبيت المال.

(٣) تفسير الفرقان.

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٣.

□ عندما نزلت هذه الآية الكريمة على النبي الأعظم ﷺ قال لجبرئيل: «وما العفو؟»، قال جبرئيل: «لا أدري، حتى أسأل العالم»، ثم أتاه فقال: «فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتُعطي من حرمك وتصل من قطعك»^(١).

□ هذه السورة برمتها مفعمة بعبارات الاعتدال والوسطية. الاعتدال في الحقوق (الآية ٢٩)، في الاستهلاك (الآية ٣١)، في التزین (الآية ٣٢)، في العبادة (الآية ٥٦)، في بناء البيوت (الآية ٧٤)، في الاقتصاد (الآية ٨٥) وبالنسبة إلى أسلوب تطبيق الحق والعدل في أمة موسى ﷺ وأمة محمد ﷺ. وقد وردت في الآيتين ١٥٧ و ١٨١ ملاحظات قيمة.

التعاليم:

- ١ - يجب أن نسلک دائماً طريق الاعتدال والوسطية، ﴿خُذِ الْقَوَاعِدَ﴾.
- ٢ - لا يكفي أن يكون الإنسان خيراً، بل عليه أن ينشر الخيرات في المجتمع، ﴿وَأَمَّا بِالْعَرَفِ﴾.
- ٣ - الآية الكريمة لا تخاطب الرسول الأعظم ﷺ فحسب، بل كل مسلم وداعية ومصلح اجتماعي.
- يجب أن يكون سلوكنا تجاه اللجوجين والجهلة المثرثرين سلوكاً إعراضياً، وأن نصبر على الإساءات والافتراءات ونعرض عنها، لا أن نتنازع ونشتبك بعضنا مع بعضنا الآخر، ﴿وَأَعْرِضْ...﴾.
- ٤ - يجب أن نأمر بالمعروف وفي الوقت ذاته أن يكون أسلوب الأمر بالمعروف مناسباً ومقبولاً، ﴿وَأَمَّا بِالْعَرَفِ﴾.
- ٥ - المقصود بالجاهلين، الحمقى وليس الأميين، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، في البيان القرآني، يُعبّر عن الجهل في إزاء العقل.

٦ - في أسلوب الإعراض والصفح، ينبغي عدم الاكتراث لمطالب الجاهلين وأقوالهم التي تتعارض مع المصلحة العامة، بل علينا اتخاذ موقف قاطع وراسخ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ «نزغ»، معناه الدخول في الأمر لإفساده أو الإثارة ضده.

□ تناولت هذه السورة من الآية ١٦ حتى الآية ٢٧ قصة إغواء الشيطان النبي آدم ﷺ، وتعاود هنا في خواتيمها ما استهلّت به من حديث عن وسوس الشيطان.

□ الآية السابقة دعت إلى الإعراض عن الجاهلين، إذ جاء في حديث آخر: أنه لما نزلت آية ﴿خُذِ الزُّكْرَ وَالْمَرْءَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، قال النبي الكريم: كيف يا رب والغضب؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١). ومن البديهي أن الاستعاذة لا تختزل في قول عبارة «أعوذ بالله»، بل تأتي من خلال مدّ الجسور الروحية مع الله والتوكل عليه والتسليم له.

□ ينبغي الالتفات إلى أنه على الرغم من عصمة جميع الأنبياء، إلا أن الشياطين لا يستثنون أحداً من وسوسهم، بما في ذلك المعصومون ﷺ، والدليل على ذلك هذه الآية ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾، أو الآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(٢)، والتي تشير إلى أعداء الأنبياء ومخالفهم. بيد أن سمّ الدور الذي يضطلع به الأنبياء يتمثل في كونهم أناساً صالحين ومتقين وبعيدين عن كلّ معصية على الرغم من امتلاكهم الغرائز البشرية وإحاطة الوسوس الشيطانية بهم من كلّ جانب.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل والمنار. (٢) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

في الحقيقة، إِنَّ الشيطان يسعى بوساوسه إلى إغواء جميع البشر، إلا أنه يندحر عند مواجهته المخلصين، ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - افتراض المعصية والوساوس، لا يدلّ على حتمية وقوعها، بل إنه مجرد إنذار. («إمّا»، أداة شرط لا تحقيق. كما في الآية الكريمة ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحَبْطِ عَمَلِكُ﴾^(٢)، والشرط ليس دليلاً على الوقوع).
- ٢ - وساوس الشيطان شيء واقعي وحتمي، ﴿يَزَعْنَكَ﴾ (اقترن الفعل بنون التوكيد).
- ٣ - وساوس الشيطان دائمية، ﴿يَزَعْنَكَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع دلالة على الاستمرارية).
- ٤ - يجب أن لا نغفل حتى عن أقلّ الوساوس الشيطانية، وعلينا الاستعاذة بالله منه، ﴿نَزَعُ﴾.
- ٥ - الأنبياء معصومون، وإحدى طرق عصمتهم هي طلب المدد من الله تعالى والتوجّه إليه والاستعاذة به، ﴿فَاسْتَعِذْ﴾.
- ٦ - الاستعاذة بالله وطلب العون والمدد منه هو العلاج الشافي من وساس الشيطان، ﴿فَاسْتَعِذْ﴾.
- ٧ - حتى الأنبياء بحاجة إلى الاستعاذة بالله تعالى واللجوء إليه، ﴿فَاسْتَعِذْ﴾.
- ٨ - حين يذللهم الخطب، يصبح الحذر والتنبّه ضرورياً، ﴿فَاسْتَعِذْ﴾.
- ٩ - لما كانت الوساوس الشيطانية متعدّدة ومتباينة، فلا بدّ من أن تكون الاستعاذة بلفظ الجلالة «الله» فهو جامع للصفات الحسنى ولكلّ كمال. (لاحظ أنّه ﷻ لم يقل: «بالغني»، أو «بالعليم» و...).

١٠ - يجب أن نستعيز بالله السميع، والعليم، والمطلع على السرائر، لا بالأوثان أو الخرافات وما شابه، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّعَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَلِخَوَانِهِمْ يَعْمُدُونَ فِي الْفِتْنَةِ لَا يُفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

إشارات:

□ «المسّ»، يقال في ما يكون إدراكه لحاسة اللمس مقروناً باللمس. «الطائف»، هو الذي يطوف ويدور حول الشيء وكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشيء ليجد منفذاً إليه^(١).

□ لعلّ المقصود في هذه الآية هو تذكّر أنّ الله سميع عليم كما ورد في نهاية الآية ٢٠٠، أي أنهم يتذكّرون أنّ الله يشاهد أعمالهم ويسمع كلامهم، وهذا التذكّر يمنعهم من ارتكاب المعاصي. سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾؟ قال: «هو العبد يهّم بالذنب ثم يتذكّر فيمسك، فذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾»^(٢).

□ وقد ورد في بعض الروايات أنّ ذكر «لا إله إلاّ الله» مجرّب لدفع وساوس الشيطان^(٣).

□ وساوس الشيطان، تارة، تكون عن بعد ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾^(٤)، وتارة أخرى من خلال نفوذه في الروح ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٥)، أو ربّما عن طريق المعاشرة والمجالسة، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٦)، أو العلاقة واللمس، ﴿مَسَّهُمْ﴾.

(٤) سورة طه: الآية ١٢٠.

(٥) سورة الناس: الآية ٥.

(٦) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) تفسير «الاثني عشري».

التعاليم:

- ١ - حتى الإنسان المؤمن الورع ليس بمنأى عن وساوس الشيطان، ﴿إِنَّكَ الْذَّيْبُ أَتَقْوَا إِذَا مَسَّهُمْ﴾.
- ٢ - الشياطين لما تزل في طواف دائم حول البشر لإغوائهم، ﴿طَلَيْفٌ﴾.
(الوساوس النفسانية والشیطانية كالجرائم، متواجدة في كل مكان، تترصد ضعف الإيمان لتخرقهم).
- ٣ - قد يتعرض العلماء، والمعلمون، والمصلحون إلى اتصالات مشبوهة لنشر تيار منحرف، لذا، عليهم توخي اليقظة والحذر لئلا يعملوا على خدمة أهداف الأعداء وأن يستعينوا بالله تعالى من شرورهم، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ... تَذَكَّرُوا﴾.
- ٤ - ذكر الله تعالى يمنح الإنسان البصيرة، ويحفظه من وساوس الشيطان، ﴿تَذَكَّرُوا... مُبْصِرُونَ﴾.
- ٥ - الورع يوجه وجهه إلى الله تعالى، وهو واعٍ وخبير بالشياطين، ﴿أَتَقْوَا... تَذَكَّرُوا﴾.
- ٦ - العاصون الساقطون في شرك الشيطان عمي، والناجون من مصائد إبليس مبصرون، ﴿مُبْصِرُونَ﴾.
- ٧ - إذا تحلى أفراد المجتمع بالنقاء والورع من النواحي الأخلاقية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، فلن يؤثر فيهم الاختلاط مع المشيطنين والاتصال بهم، ﴿تَذَكَّرُوا... مُبْصِرُونَ﴾.
- ٨ - لولا التقوى والذكرى، لكان الشياطين والبشر أخوة، وكان الاتصال بينهما سهلاً ومؤثراً، ولجروا البشر إلى أعماق الضلالة، ﴿وَلِخَوْنَهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنِ﴾.
- ٩ - طريق الانحراف لا حد له ولا نهاية، ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنِ﴾.
- ١٠ - الله تبارك وتعالى ولي الصالحين المتقين، حيث جاء في الآيات السابقة

﴿إِنَّ وَائِيَّ اللَّهُ... وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، في حين أن من لا تقوى له مبتلى بمؤاخاة الشيطان، ﴿وَلِخَوْنَهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنِ﴾.

١١ - لا يكتفي الشيطان بإغواء الإنسان الذي تأخى معه، بل يوغل في جره إلى أعماق الضلالة والفتن، ﴿فِي الْفِتْنِ... لَا يُقْصِرُونَ﴾.

١٢ - المتشيطون لا يألون جهداً في حرف أي إنسان، ولا يستثنون أحداً، ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ كلمة «الاجتباء» مشتقة من «الجباية» وأصلها جمع الماء في الحوض وغيره، ولذلك يسمّى حوض الماء بـ«الجباية»، وجمع الخراج يسمّى جباية أيضاً. ثم توسعوا في الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتقاء ما يُراد منها «اجتباء».

□ وربما كان معنى الآية هو لماذا لم تختار المعجزة التي طالبناك بتحقيقها، وجئنا بأخرى، ولم تعمل وفق رغباتنا؟!

□ روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «إذا أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والتجاة يوم الحشرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»^(١). وعنه ﷺ أيضاً: «فيه كمال دينكم ما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار»^(٢).

التعاليم:

١ - آيات القرآن الكريم معجزة النبي الأعظم ﷺ ودليل صدقه، ﴿لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾.

٢ - أحياناً، كان الوحي ينزل بفترات زمنية متباعدة، ﴿لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾.

- ٣ - ليس من الضروري أن يأتي الداعية كل يوم بكلام جديد، أحياناً يكون الصمت أولى، ﴿لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾.
- ٤ - كان ظنّ الكفار هو أنّ آيات القرآن هي من عند الرسول الكريم ﷺ، جمعها من هنا وهناك، وعرضها على الناس، لا أنها وحي منزل، ﴿لَوْلَا أَعْتَبْتَهُمْ﴾.
- ٥ - كان الكفار المتعتنون يوجهون سهام شماتتهم إلى النبي الكريم ﷺ كلما تأخر نزول الوحي عليه، ﴿قَالُوا لَوْلَا أَعْتَبْتَهُمْ﴾.
- ٦ - لا ينبغي للزعيم الإلهي أن يتأثر بالتحججات والطلبات غير الصائبة، بل يجب الردّ عليها بحزم وقوة، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ...﴾.
- ٧ - النبي الكريم ﷺ يتلقّى الأوامر والأحكام من الوحي فقط، ولا ينتقيها من عنده ثم يعرضها على الناس، ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.
- ٨ - الوحي وسيلة لتربية النبي والأمة، وهو من مقتضيات الربوبية، ﴿رَبِّي... رَبِّكُمْ﴾.
- ٩ - هداية القرآن الكريم خالصة لا تشوبها ذرة انحراف. (استعمال كلمة «هَدَى» بدلاً من «هَادَ»، فيه دلالة على أنّ القرآن برمته هداية).
- ١٠ - يجب أن يكون الإرشاد والهداية على أساس البصيرة، ﴿بَصَائِرُ... وَهْدَى﴾.
- ١١ - القرآن الكريم كتاب المعرفة والبصيرة الفكرية، ﴿بَصَائِرُ﴾، وكذلك دليل الإرشاد والنهضة العملية، ﴿وَهْدَى﴾، وعاقبة أتباعه هي نيل الرحمة والبركة في الدارين، ﴿وَرَحْمَةً﴾.
- ١٢ - القرآن الكريم كتاب هداية للجميع، ولكن وحدهم أهل الإيمان ينتفعون بهذه الهداية، ويحرّم هذه الرحمة كلّ من عميت بصيرته، وابتعد عن الهداية الإلهية، ﴿وَهْدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧١﴾﴾

إشارات:

□ «إنصات»، بمعنى السكوت المشفوع بالإصغاء والاستماع.

□ تقول هذه الآية: إذا قُرئ القرآن وجب السكوت والإنصات إليه تأدباً. بطبيعة الحال عندما يكون إمام الجماعة منشغلاً بقراءة سورة الحمد وسورة الصلاة يتوجب على المأمومين السكوت، بينما في سائر الحالات يكون مستحباً ودليل أدب. وحتى لو لم يكن ثمة حكم بالسكوت، فالمنطق والأدب يقتضيان السكوت إزاء كلام الخالق سبحانه وتعالى.

□ روي أنّ الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان مشغولاً بصلاة الصبح وكان ابن الكوّا - ذلك المنافق فظ القلب - خلف الإمام مشغولاً بالصلاة، فقرأ فجأة ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وكان هدفه من قراءة الآية أن يعترض على الإمام عليّ مكنياً عن قبول الحكم في صفين - كما احتملوا ذلك - لكن الإمام سكت احتراماً للقرآن حتى ينتهي ابن الكوّا من قراءة الآية، ثم رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوّا عمله مرّة ثانية، فسكت الإمام أيضاً، فكرر ابن الكوّا القراءة الثالثة فسكت علي عليه السلام أيضاً، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾، وهو يشير إلى أنّ عذاب الله وعقابه الأليم في انتظار المنافقين وغير المؤمنين، وينبغي أن يتحمل الإنسان أذاهم، ثم إنّ الإمام أكمل السورة وهوى إلى الركوع^(١).

□ عن الإمام الباقر عليه السلام: «قرأ القرآن ثلاثة؛ رجل قرأ القرآن فاتّخذه بضاعة واستدّر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هولاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يديل الدول من الأعداء، وبأولئك ينزل الله سبحانه الغيث من السماء، فوالله لهولاء في قرأ القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»^(٢).

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٦٢٧.

التعاليم:

- ١ - إذا قرئ القرآن الكريم يجب الإنصات له، أيًا كان القارئ، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾؛ (الفعل ﴿قُرِئَ﴾ مبني للمجهول).
- ٢ - السكوت والإنصات للقرآن الكريم مدعاة لاستنزال الرحمة الإلهية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
وَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٠٥)

إشارات:

- تتمّة للآية السابقة التي بيّنت آداب تلاوة القرآن، تذكر هذه الآية آداب الذكر والدعاء حيث يجب أن يفتننا بالتضرّع، والخشوع، والخشية، والرجاء.
- «الأصال» جمع «أصيل»، وتعني قبيل الغروب، و«الغدوّ» جمع «غدوة»، وهو من أوّل النهار إلى غروب الشمس.
- قال بعضهم: المراد بالذكر في الآية هو الصلوات الخمس الواجبة، ونُقل عن ابن عباس أنّه طبقاً لهذه الآية توجّب على إمام الجماعة أن يجهر بصلاة الصبح والعشاء بصوت مرتفع يُسمع المأمومين لا أكثر.

التعاليم:

- ١ - الأنبياء أيضاً يجب أن يذكروا الله دائماً، ناهيك عن الآخرين، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾.
- ٢ - القرآن الكريم ينثي على الذكر اللساني والقلبي معاً، ﴿فِي نَفْسِكَ﴾.
- ٣ - ذكر الله يُذهب الغفلة حينما يكون خالصاً من أيّ رياء أو جلبه، وإلاّ فسيصبح نوعاً من التسلية والغفلة، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ﴾.
- ٤ - ربوبية الله تعالى دائمة، إذن، يجب أن يكون ذكره أيضاً دائماً، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ... بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

- ٥ - الذكر الذي يحضن الإنسان هو الذي يكون منطلقه الحب والحرقة ويكون متواصلاً كل صباح ومساء، ﴿تَضَرَّعًا... بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾.
- ٦ - يجب أن نذكر الله في كل صباح عند شروع العمل، وفي كل مساء عند الانتهاء منه والحصول على ثماره، ﴿بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾.
- ٧ - أولئك الذين لا يذكرون الله صباحاً ومساءً هم من الغافلين، ﴿وَأَذْكُر... وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾

إشارات:

- ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ هم المقربون عند الله تعالى، وتشمل الملائكة وعباد الله الصالحين، الذين يؤمنون أنهم بين يدي الله تعالى.
- يستحب السجود عند تلاوة الآية الكريمة أعلاه أو الاستماع إليها^(١). وبالنسبة لآيات السجود الخمس عشرة الواردة في القرآن الكريم، فأربعة منها السجود فيها واجب، وهذه الآيات هي: الآية ١٥ سورة السجدة، الآية ٣٧ سورة فصلت، الآية ٦٢ سورة النجم، والآية ١٩ سورة العلق، أما الآيات الإحدى عشرة فالسجود فيها مستحب، وهذه الآيات هي: ٢٠٦ الأعراف، ١٥ الرعد، ٤٨ النحل، ١٠٧ الإسراء، ٥٨ مريم، ١٨ والحج، ٦٠ الفرقان، ٢٥ النمل، ٢٤ ص و ٢١ الانشقاق.

التعاليم:

- ١ - بالعبادة نضع أنفسنا في زمرة الملائكة ونصطبغ بصبغتهم، ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ... إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ...﴾.
- ٢ - المستكبر محروم من منزلة القرب الإلهي، ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أما المقربون من الله فهم متواضعون لا يتكبرون.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

- ٣ - ذَكَرُ الله دليل ساطع على العبادة، ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ... لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾.
- ٤ - الغفلة عن الله تعالى هي نتيجة الاستعلاء والاستكبار، ﴿...وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ... إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.
- ٥ - السبيل إلى منزلة القرب الإلهي تمرّ عبر التواضع، والعبادة، والسجود الخالص، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.
- ٦ - السجود هو لله وحده، والمقربون يؤمنون بذلك، ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾، (تقديم ﴿وَلَهُ﴾ على ﴿يَسْجُدُونَ﴾ دليل على الانحصار).
- ٧ - لا ينبغي أن نغترّ بعبادتنا، فعند الله ملائكة لا يقطعون عن عبادته أبداً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ... وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.
- ٨ - يجب أن نطرح عنا عقليّة الاستكبار، ونسبح لله ونسجد له، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيُسَبِّحُونَهُ... يَسْجُدُونَ﴾.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

سورة الأنفال



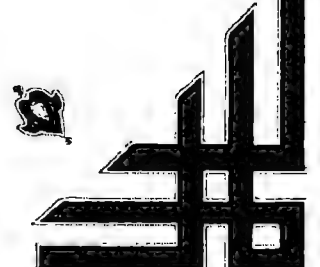
سُورَةُ الْأَنْفَالِ

السورة: ٨ الجزء: ٩ - ١٠

عدد الآيات: ٧٥



سورة الأنفال



ملامح سورة الأنفال

مدنية وآياتها خمس وسبعون، سُميت بالأنفال لورود هذه الكلمة في بدايتها، وكذا لبيانها أحكام الأنفال والثروات العامة. «بدر» هو الاسم الآخر للسورة وذلك لحديثها عن معركة بدر، أول مواجهة بين المسلمين والمشركين، وعن المدد والنصرة الإلهية.

كما تنطرق السورة إلى خصال جند الحق وجند الباطل، وتستذكر دروساً من تاريخ نبي الإسلام ﷺ، وطبيعة تعامله مع المسلمين، مضافاً إلى بعض الموضوعات مثل الأنفال، بيت المال، أحكام الجهاد، الغنائم، الأسرى، الخمس ومصارفه، حادثة الهجرة وليلة المبيت، خصال المؤمن الحقيقي، الحؤول دون وقوع الخلافات والفرقة... إلخ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ يطرح القرآن الكريم في ١٣٠ موضعاً استفهامات وأسئلة، إذ وردت عبارة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في ١٥ موضعاً.

□ «الأنفال» جمع «نفل»، بمعنى الزيادة والعطية. وإنما سميت الصلوات المستحبة نافلة لأنها زيادة على الصلوات الواجبة، ويقال: «النافلة» للذرية التي أنعم الله بها على إبراهيم عليه السلام، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾^(١).

□ الأنفال بحسب ما جاء في الروايات والمصادر الفقهية هي المنابع الطبيعية، والثروات العامة، وغنائم الحرب، وكل أرض لم يوجف عليها خيل ولا ركاب، والأموال التي لا رب لها، ومن مات وليس له مولى، والآجام، والمعادن، والغابات، وبطون الأودية، والأرض الموات... إلخ^(٢).

□ قبل الإسلام كان توزيع الغنائم يتم على أساس التمييز، حتى جاء الإسلام ووقعت معركة بدر، وهي أول مواجهة يخوضها المسلمون الذين أصابوا غنائم كثيرة، فنشب خلاف بينهم حول طريقة توزيع هذه الغنائم، إذ كان الفتية يرون أنهم الأحقّ بالغنائم دون غيرهم لأنهم كانوا رأس الحربة في قتال المشركين، بينما اعترض الكهول والشيوخ بالقول إنهم كانوا السند والظهر لهم، حتى أرجعوا الأمر إلى النبي الكريم ﷺ ليقضي في الأمر، فقام بنفسه بتقسيم الغنائم بين المسلمين بالتساوي دون أيّ تمييز لينسخ التمييز الذي كان قائماً في العصر

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٢.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٠٥؛ الكافي، ج ١، ص ٥٣٩.

الجاهلي، ويدافع عن المستضعفين، على الرغم من أن هذه القسمة قد آلمت بعض المسلمين^(١).

□ نزلت هذه الآيات، كما قرأنا، في معركة بدر وتحدثت عن غنائم الحرب لكنها لا تختص بهذا الموضوع فقط، إذ تعتبر حكماً كلياً وعمماً يشمل جميع الأموال الإضافية التي ليس لها مالك خاص^(٢).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن غنائم بدر كانت للنبي خاصة فقسّمها بينهم تفضلاً منه»^(٣).

□ إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام^(٤).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه المفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي»^(٥).

□ أساساً، إن إصلاح ذات البين، وإيجاد التفاهم، وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبة يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية، لدرجة أنه يمكن للمرء أن يفترق المنازعات من سهم الإمام^(٦).

التعاليم:

١ - سؤال الناس النبي الكريم ﷺ عن الأنفال وجوابه لهم برهان واضح على الدور الذي يلعبه الإسلام في الشؤون الاقتصادية للمجتمع، ﴿يَسْتَلُونَكَ...﴾.

٢ - الزعيم الإلهي هو المرجع في بيان الأحكام والقضايا الاقتصادية، ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلْ...﴾.

٣ - الهدف من الجهاد في الإسلام هو نصرة الحق على الباطل، أما الحصول على الغنائم فهي مسألة ثانوية إضافية، ﴿الْأَنْفَالُ...﴾؛ تعني الإضافة والزيادة).

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ «فروغ ابدیت» (شروق الأبد)، ج ١، ص ٤٢٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل. (٤) تفسير أطيب البيان.

(٥) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩. (٦) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

- ٤ - الحكومة الإسلامية بحاجة إلى ظهير اقتصادي، والأنفال هي ذلك الظهير، ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- ٥ - الإسلام نظم تشريعات للموارد الطبيعية والثروات العامة أيضاً، ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- ٦ - جميع مصارف رسول الله ﷺ في سبيل تحقيق الأهداف الإلهية، ﴿اللَّهُ وَالرَّسُولُ﴾.
- ٧ - المحافظة على الأموال العامة تحتاج إلى النزاهة والشجاعة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ؛﴾ (ذلك أن بيت المال والأموال العامة يمكن أن تشكل منفذاً إلى الاستغلال).
- ٨ - من ينبغي الإصلاح يجب أن يكون ورعاً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا﴾.
- ٩ - المحافظة على الوحدة والإصلاح بين الناس مسؤولية الجميع، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.
- ١٠ - ينبغي على المؤمن أن يطبق الأحكام الإلهية في ميادين الأخلاق، والمجتمع، والسياسة ليكتسب المشروعية ويحقق النجاح، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ١١ - لا يكفي أن يستقر الإيمان في القلب فحسب، بل يجب أن يتجلى في الأفعال الخارجية والطاعة العملية، ﴿وَأَطِيعُوا... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٢ - ربما يجتاز المرء امتحان الإيثار والحضور في جبهات القتال، ويسقط في الامتحان المالي وتقسيم الغنائم والأنفال، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٣ - الحضور في الحرب وحده ليس دليلاً على كمال الإيمان، بل عدم الطمع في الغنائم، وصيانة الأخوة، والانقياد لأوامر القيادة هو المقياس (في ضوء مفهوم الآية ككل).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

إشارات:

□ في الآية الثانية يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ولكن جاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَذَّكَّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١)، في الحقيقة، لا يوجد تعارض بين الآيتين، فمن جهة، يدور الحديث عن الخشية من عظمة الله وسطوته، ومن جهة أخرى، تسكن النفوس من حيث الثقة بالله واليقين به سبحانه وتعالى.

كما نقرأ في آية أخرى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّتَابِي تَفْشِيرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢). نعم، إن ذكر غضب الله وعذابه، ترتجف له القلوب، وذكر لطفه ورأفته تعالى، تسكن القلوب، كالطفل الذي يأنس لوالديه وفي الوقت ذاته يحسب لهم ألف حساب.

□ «الوجل»، حالة الخوف التي تنتاب الإنسان، وهي ناشئة عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية واحتمال عدم القيام بالوظائف اللازمة التي ينبغي على الإنسان أداؤها بأكمل وجه امتثالاً لأمر الله تعالى. والأمر الثاني هو قد ينشأ عند إدراك عظمة مقام الله، والتوجه إلى وجوده المطلق الذي لا نهاية له، ومهابته التي لا حد لها^(٣). ومن ذلك نقرأ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^{(٤)(٥)}.

التعاليم:

١ - من يسمع صوت الأذان وآيات الله تعالى ولا يكثرث لهما، فلا بدّ له من أن

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٥) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) التحقيق في كلمات القرآن.

- يرتاب في اكتمال إيمانه، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾.
- ٢ - ذكر الله، أيًا كان مصدره، يترك أثراً في نفس المؤمن، ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾.
- ٣ - الإيمان مزيج من العشق والخشية الباطنية، ﴿الْمُؤْمِنُونَ... وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٤ - للإيمان مراتب ودرجات، وزيادة ونقصان، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.
- ٥ - الخوف قبيح إذا كان نابعاً من الجهل، أما إذا كان ينتهل من نمير المعرفة فهو ممدوح، ﴿الْمُؤْمِنُونَ... وَجِلَتْ﴾.
- ٦ - كل آية قرآنية حجة، وبيّنة، ونور، وتزيد الإيمان وتضاعفه، ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ... زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.
- ٧ - المؤمن بين خوف ورجاء، ﴿الْمُؤْمِنُونَ... وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ... يَتَوَكَّلُونَ﴾.
- ٨ - من آمن بالله وحده ربّاً، فليتوكل عليه، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.
- ٩ - علامة الإيمان الكامل عند المؤمن أن يخاف قلبه عند ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ويزيد إيمانه بتلاوة آيات الله ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ويتوكل على الله ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقيم الصلاة ﴿يُقِيمُونَ﴾، ويعين الآخرين ﴿يُفْقُونَ﴾.
- ١٠ - سلوك الإنسان تعبير عن دوافعه وآرائه ومعتقداته، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... يُقِيمُونَ... يَفْقُونَ﴾.
- ١١ - لقد أوجب الإسلام على المسلم أن ينفق جزءاً من ماله لا جميعه، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾؛ («من» هنا استعملت للتبعية).
- ١٢ - صلاة المؤمن وإنفاقه ليسا مؤقتان ومرحليان، بل متواصلان ودائمان، ﴿يُقِيمُونَ... يَفْقُونَ﴾.
- ١٣ - الإنفاق ينبغي أن يكون من المال الحلال والرزق الإلهي، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾؛ (بدلالة أَنَّ الرزق نُسب إلى الله، ورزق الله لا يشوبه حرام).
- ١٤ - يؤمن المؤمن بأن أمواله هي فضل من الله وهبة وهبه إياها، وليس ثمرة جهوده وتعبه الشخصي، وهذا الإيمان يسهل عليه البذل والإنفاق، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

إشارات:

□ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، بمعنى الرزق الدائم، الواسع، الخالص الذي لا تشوبه مئة.

التعاليم:

١ - يكتمل الإيمان عندما يقترن بالخشية من الله تعالى، والتوكل عليه، والصلاة، والإنفاق. فالإيمان ليس شعاراً يرفع بل عملاً وتطبيقاً، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

٢ - سرّ نيل الدرجات الإلهية، الصلاة والإنفاق، ﴿يُؤْمِنُونَ... يُفْقُونَ... لَّهُمْ دَرَجَتٌ﴾؛ (يفني الإنسان عمره كله لنيل الدرجات في الدنيا؛ لكنه يغفل عن نيل الدرجات الإلهية)!

٣ - الدرجات التي يهبها الله تعالى لا يعلمها أحد ومهمة للغاية بالنسبة إلى البشر في هذه الدنيا. (لاحظ أنّ كلمة «درجات» جاءت في صيغة التنكير).

٤ - الدرجات الإلهية تصعد وتنزل تبعاً لإيمان الناس، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا... لَّهُمْ دَرَجَتٌ﴾.

٥ - الدرجات الإلهية لا تقتصر على الجنة فحسب، بل تشمل هذه الدنيا وعالم البرزخ أيضاً، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ وردت مطلقة).

٦ - حتى المؤمنون الحقيقيون معرضون للسقطات وبالتالي هم بحاجة إلى المغفرة الإلهية، ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ... وَمَغْفِرَةٌ﴾.

٧ - وحده الإيمان الحقيقي هو الذي يتيح للإنسان الوصول إلى المنزل الخاصة والانتقال من المغفرة والنعم الإلهية الخاصة، ﴿الْمُؤْمِنُونَ... عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾

إشارات:

□ كما شقَّ الجهاد في معركة بدر على بعض بسبب قلّة عدد المسلمين وضعف إمكاناتهم، كذلك كان الحال عند توزيع الغنائم على المقاتلين، سخط بعضهم ولم يرض بما قسم له النبي الكريم ﷺ، غير أنّ هذه المكاره والمشاق ليست بجديدة عليهم وهي وقتية تزول بمرور الأيام. وكان على النبي الأكرم ﷺ أن يركّز على المصلحة الحقيقية وتنفيذ حكم الله تعالى، وعدم الإصغاء إلى اعتراضات هذا وذاك؛ لأنها أشياء عادية.

التعاليم:

- ١ - خروج النبي الكريم من المدينة للقتال في معركة بدر كان بأمر من الله تعالى وتدبير من النبي ﷺ، ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾.
- ٢ - الحركة في مسار الحرب والجهاد مدعاة لرشاد الإنسان وتربيته، ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾.
- ٣ - القائد والقيادة لهما الدور الأساس في الجبهات. (على الرغم من أنّ بعضهم خرج للجهاد، إلّا أنّ الآية الكريمة تذكر حضور رسول الله)، ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾.
- ٤ - المدينة بيت النبي الكريم ﷺ. (بيت الإنسان ليس مسقط رأسه فحسب بل حيثما سكن أو اكتسب منزلة وموقعاً)، ﴿بَيْتِكَ﴾.
- ٥ - تعاليم السماء قائمة على الحقّ ومن أجل إحقاق الحقّ، ﴿أَخْرَجَكَ... بِالْحَقِّ﴾.
- ٦ - لا تضرّ الكراهة وعدم الرضا من الجهاد بأصل الإيمان ما لم تكن مقرونة بالعصيان والتمرد وعدم الطاعة، ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾.
- ٧ - أمر طبيعي أن يوجد معارضون في القضايا الاجتماعية والمالية، حتى وإن كان الرسول الكريم ﷺ مسؤولاً عن المجتمع المؤمن، ﴿فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾

إشارات:

□ في المسير إلى معركة بدر، جادلت فئة من المسلمين النبي الكريم ﷺ على قلة عددها وعدتها وأنهم إنما خرجوا للعرير ولا طاقة لهم بقتال قريش، ومع علمهم بأنه أمر الله أوحاه إلى رسوله الكريم ﷺ، إلا أنهم لم يكفوا عن الجدل والاعتراض، بيد أن فريقاً آخر من المسلمين على رأسهم المقداد بن الأسود قال: يا رسول الله إنها قريش وقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضى أو شوك الهراس لخضنا معك ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلُوكَ﴾، ولكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فجزاهم النبي ﷺ خيراً. في المقابل، ظل بعض منهم، وبسبب خوفهم، يجادل النبي الأكرم ﷺ متعللاً بعدم الاستعداد للقتال، وضعف الإمكانيات والتجهيزات، وكانوا يرون أن مسيرهم إلى معركة بدر بمثابة انتحار، إلا أن الحوادث التالية كشفت لهم عن مدى خطئهم في حساباتهم، وأن خوفهم وقلقهم كان لا أساس له.

□ الجدل والمراء مذموم إذا كان من أجل التناكر للحق، وهو على أقسام:

- (أ) منه ما يكون بعد انكشاف الحق وظهوره، ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾.
- (ب) وربما يكون عن غير علم أو هدى، ﴿فَلَيْمَ تُعَاجِرُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١).
- (ج) أحياناً يكون لدحض الحق، ﴿وَيُحَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^(٢).

وفي بعض الأحيان يكون البحث والجدال لإظهار الحق وهذا ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن، ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٦.

التعاليم:

- ١ - بعض صحابة النبي الكريم ﷺ لم يكونوا طوع أمره، ﴿يُجِدُّونَكَ﴾.
 - ٢ - يلجأ الكسالى والجبناء دائماً إلى أسلوب الجدل، والتبرير، والاعتذار للفرار من أحكام الحقّ والجهاد، ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ﴾.
 - ٣ - لن تفيد معرفة الحقّ وحدها ما لم تخلص النوايا والنفسيات، ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.
 - ٤ - أحياناً يسقط الإنسان لأنه يجادل حتى بعد معرفته الحقّ، ﴿يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.
 - ٥ - حركة الجنود ضعاف الإيمان والمعنويات نحو جبهات القتال والجهاد تكون ثقيلة ومقرونة بالخوف والاضطراب، ﴿يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾.
- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوْنَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكِةِ تَكُوْنُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧)

إشارات:

- «الشوكة» من «الشوك»، وهو تعبير يرمز إلى الجماعة المسلحة، فيكون معنى عبارة ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكِةِ﴾ القافلة التجارية غير المسلحة.
- «كلمات الحقّ»، هي سنن الله وأوامره وأولياؤه. «الدابر»، بمعنى ذيل الشيء أو عقبه، «يقطع دابر»، كناية عن استئصال شأفتهم.
- في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة علم النبي الكريم ﷺ أن أبا سفيان يرأس قافلة تجارية مهمّة عائدة من الشام وفي طريقها إلى المدينة. فجهّز ﷺ حملة قوامها ٣١٣ رجلاً من المسلمين لمصادرة أموال القافلة وإضعاف قدرة الكفار والتعويض عمّا قامت قريش بمصادرته من أموال المسلمين في مكّة. فعلم أبو سفيان رئيس القافلة بالأمر، وأرسل أتباعه إلى مكّة ليخبروا أهلها بنية النبي الكريم ﷺ، ثمّ غيّر مسار القافلة حتى وصل إلى مكّة.

ولمّا كان أكثر مشركي مَكّة شركاء في هذه القافلة، فقد استخدموا أساليب التهيب والتهديد، وتعبّأوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بأكثر من ألف مقاتل، وبمعيّة كبار رموز الكفر في مكة، ضمن جيش مسلّح تسليحاً كاملاً بقيادة أبي جهل وذلك لحماية تجّار القافلة الأربعين.

وفي اليوم السابع عشر من رمضان، تواجدت ثلاث جماعات في بدر، وهي أرض بين مكة والمدينة، جيش المسلمين وجيش المشركين وقافلة مكة التجارية.

وبعد أن علم النبي الكريم ﷺ بتحرك جيش العدو، تشاور مع أصحابه: هل يلحقون القافلة التجارية ويصادرون أموالها، أم أنّ عليهم أن يتهيّؤوا لمواجهة جيش العدو؟ فتباينت الآراء وتعدّدت، لكنّ النبي الكريم ﷺ قرّر في النهاية منازلة العدو، على الرغم من افتقار المسلمين إلى العدة والتجهيزات الكافية، ناهيك عن أنّهم لم يخرجوا أصلاً للقتال، مضافاً إلى أنّ جيش العدو كان يبلغ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، إلّا أنّ العاقبة مع ذلك كانت لجيش الإسلام الذي أمّده الله تعالى بمدد من عنده، وكان عدد القتلى من المشركين في هذه المعركة سبعين نفرًا من صناديد قريش على رأسهم أبو جهل، وقد قُتل جلّهم بسيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما أسر المسلمون سبعين مشركاً، ولم يُقتل من جند الإسلام سوى أربعة عشر شهيداً^(١).

التعاليم:

١ - التذكير بالمدد الإلهي ضروري وهو يعمل على تقوية الإيمان وترسيخه، ﴿وَرِأْدُ﴾.

٢ - لا يتحقّق النصر بالعدة، والعديد، والتجهيزات القتالية، بل العامل الرئيس في النصر هو إرادة الله تعالى، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾، نعم، إرادة الله هي الغالبة على الأسباب الطبيعية.

- ٣ - أحياناً تتحقق الإرادة الإلهية بسواعد المؤمنين، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾.
- ٤ - جُبل الإنسان على طلب العافية والدعة، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ (لنحرص على أن لا تضطرنا المصاعب والمشاق لأن نضحي بالموضوعات الرئيسية والبنوية من أجل قضايا ثانوية وبسيطة).
- ٥ - إحقاق الحق يتم بواسطة الكلمات الإلهية (الأولياء، السنن، الشرائع، الأحكام، التضحية، الجهاد والعمل بالأوامر الإلهية)، ﴿يُحَقِّقُ الْحَقَّ يَكْمِلُنِي﴾.
- ٦ - انتصار الحق على الباطل أسمى من الدخل الاقتصادي، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ يَكْمِلُنِي﴾.
- ٧ - النصر النهائي سيتحقق بعزة الحق وذلة الباطل، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ... وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ٨ - الهدف من الجهاد الإسلامي، إحقاق الحق ومحق الباطل وليس الفتوحات واحتلال البلدان، ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ يَكْمِلُنِي وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

إشارات:

- تسري هذه الآية الكريمة عن خاطر النبي الكريم ﷺ والمسلمين بأن الحق سينتصر في النهاية، وسيزهق الباطل.
- بحسب بعض الروايات، فإن ظهور الإمام المهدي «عج» هو المصدق الواضح لهذه الآية^(١)؛ إذ إنه «عج» بقيامه سيطوي حكومة الباطل، ويقيم على الأرض دولة حكومة الحق والعدل في العالم.

التعاليم:

- ١ - الوعود الإلهية لا تهدف إلى تحقيق غايات شخصية ومادية بل إلى إحقاق الحق ومحق الباطل، ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾.
- ٢ - الحق خالد وراسخ، والباطل فانٍ وزائل، ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾.
- ٣ - لا نخش غضب الأعداء الكافرين والمجرمين وسخطهم، فالله منجز إرادته، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿إِذْ تَسْتَخِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ «مُردف» من «الإرداف»، هو التابع والتالي، بمعنى أن نزول الملائكة الممدين كان متتابعاً ومتتالياً لنصرة المسلمين. ذكرت الآية ١٢٤ من سورة آل عمران ثلاثة آلاف من الملائكة الممدين، وفي الآية التالية تغير الرقم إلى خمسة آلاف من الملائكة المسؤمين. هذا الاختلاف في الأرقام ربما يعود إلى ميزان ثباتهم، بمعنى، كلما كان مستوى ثبات المسلمين أعلى، كان المدد الغيبي أكبر. من هنا، فإن «مردفين» تعني أن هؤلاء الألف ملاك أوردفوا بأفواج أخرى من الملائكة.

□ في ضوء القرائن الموجودة في الآية اللاحقة، فإن الملائكة نزلت لتشد من أزر المؤمنين وتقوي عزيمتهم، أي إنها لم تشارك في القتال ضد الأعداء المشركين، إذ، أي فضيلة، في هذه الحالة، لمجاهدي بدر إذا كانت الملائكة هي التي قتلت المشركين، مضافاً إلى أن قصة مقتل كل مشرك وأسماء قاتليهم مسجلة في صفحات التاريخ^(١).

□ كان عدد أفراد جند الإسلام ثلث عدد الكفار، كما إن عدتهم وإمكاناتهم الحربية كانت ضئيلة ولا تساوي شيئاً في مقابل عدة الكفار وتجهيزاتهم

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

القتالية، ويقول الإمام علي عليه السلام: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق»^(١)، كما إنهم لم يكونوا مستعدين من الناحية النفسية لقتال المشركين، وحينما وقع نظرهم على جيش الكفار الجرّار وتجهيزاتهم القتالية، فزعوا واضطربوا واستعاذوا بالله وهنا رفع النبي الأكرم ﷺ يديه إلى السماء بالدعاء قائلاً:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»^(٢). فاستجاب له ربه وأرسل إليهم مدداً من عنده، فثبت قلوبهم على القتال، حتى شربوا من كأس الانتصار.

وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر من المشركين، فقال: «جزاكم الله من عصابة شراً لقد كذبتُموني صادقاً وخونتم أمانة»، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: «إن هذا أعتى على الله من فرعون، إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد الله، وإنّ هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزى». وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقلب أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمة بن خلف فإنه كان مسمماً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي ﷺ: «اتركوه، فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيّبه». ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً رجلاً: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بشس القوم كنتم لنبيكم كذبتُموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس». فقالوا: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: «لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق»، وفي رواية أخرى: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»^(٣).

التعاليم:

١ - لا ننس نعم الله ومدده في أيام الشدة والضيق؛ لأن ذكر النعم يوقظ روح

(١) تفسير الفرقان.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) تفاسير الميزان؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الفرقان.

الشكر والشجاعة لدى الإنسان، ﴿إِذْ﴾.

٢ - الله تعالى قادر على أن يهب النعم بدون الدعاء، بيد أن الدعاء هو أحد أساليب التربية الإلهية، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

٣ - الدعاء المقرون بالحضور في جبهات القتال هو المؤثر، ودعاء المقاتلين مستجاب، ﴿تَسْتَغِيثُونَ... فَأَسْتَجَابَ﴾.

٤ - الدعاء مفتاح الإجابة، ﴿تَسْتَغِيثُونَ... فَأَسْتَجَابَ﴾.

٥ - أحياناً تترك الملائكة تأثيراً على حياة البشر، ﴿مُيِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾،

٦ - المدد الغيبي ينزل بعد أن نوظف كل ما وهبنا الله تعالى إياه، ﴿مُيِّدُكُمْ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد طرح القرآن الكريم في مواضع عدة مسألة نزول المدد الملائكي لنصرة المؤمنين، وحتى عند الاحتضار، يرسل الله تبارك وتعالى الملائكة ليلقوا الحق إلى المؤمن ليحفظه من وساوس الشيطان^(١).

وفي معركة بدر نزلت الملائكة لتشد من أزر المؤمنين وتثبتهم، فهي لم تشاركهم قتال المشركين، والدليل على ذلك أن التاريخ قد حفظ لنا أسماء الذين قُتلوا في تلك المعركة وقاتليهم، ومعظم قتلى المشركين كانوا على يد الإمام علي عليه السلام.

□ في الطبيعة، يوجد نوعان من الإلقاء هما:

الأول: إلقاء ملائكة الله الطمأنينة في قلوب المؤمنين، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُّوْا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(٢).

الثاني: إلقاء الشيطان الرعب والفرع، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بد للمقاتل من أن يتمتع بمعنويات عالية، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾؛ الدوافع والمعنويات العالية للمقاتلين من الأسباب الموجبة للنصر.
- ٢ - عندما تكون الحركة صحيحة وفي إطار نهج النبي، تصبح عناية الله تعالى ورفع عوامل الخوف والاضطراب حتمية، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾.
- ٣ - لا يُعزى نصر المؤمنين إلى عوامل المهارة الذاتية والخطط العسكرية والأسلحة وأعداد الجند أو حضور الملائكة فحسب، بل إن العامل الأصلي وراء ذلك النصر هو إرادة الله تعالى ومشيته، ﴿وَمَا الْقَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ويقول ﷺ في آية أخرى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).
- ٤ - المدد الإلهي ونصرة المؤمنين أساسهما العزة والحكمة، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَرَبَّتِ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾^(٣)

إشارات:

□ «النُّعَاس»، أول النوم وبيدائه، أو النوم القليل الخفيف الناعم، ولعلها إشارة إلى أنه على الرغم من هدوئكم النفسي إلا أنه لم يأتكم نوم عميق يمكن الأعداء من استغلاله والهجوم عليكم وهكذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظيمة في تلك الليلة^(٣).

(٣) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

□ وجاءت قريش بجيشٍ لَجِبٍ وتجهيزاتٍ هائلة، حتى النساء كنَّ ينشدن الأشعار والمغنيات يثرن الحماسة، وكنَّ يرجزن ويضربن بالدفوف وذلك من أجل رفع معنويات جيش المشركين، وما إن وصلوا أرض بدر حتى استولوا على آبارها، وكان المسلمون قد فزعوا لما بلغهم من كثرة جيش قريش؛ ولما رأى النبي الكريم ﷺ أنَّ أصحابه قلقون وربما لا ينامون الليل من الخوف، وأنهم سيقاتلون العدو بمعنويات منهارة وأجساد منهكة، قال لهم كما وعده الله: «لا تحزنوا فإن كان عددكم قليلاً فإنَّ الله سيمدكم بالملائكة»، وسرَّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوهم. المشكلة الأخرى التي كان أصحاب النبي يواجهونها هي أنَّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال، لما فيها من الرمال، فتزل المطر في تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبي فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال.

قد يكون المراد من ثبات القدم في الآية الاستقامة، لا ثبات الأرض بفعل المطر، وربما يجوز الاحتمالين معاً.

□ لعلَّه يقصد بالرجز وساوس الشيطان، أو رجزٌ بدنيٌّ كجناية بعض المسلمين، وعلى أيِّ حال، فإنَّ الماء ملاً الوديان من أطراف بدر بعد أن استولى الأعداء على آبار بدر، وكان المسلمون بحاجة ماسة إلى الغسل ورفع العطش، فإذا بهذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس^(١).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «اشربوا ماء السماء فإنه يطهر البدن ويدفع الأسقام، قال الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾»^(٢).

التعاليم:

١ - بفضل المشيئة الإلهية والمدد الغيبي يمكن للمرء أن يحظى بالأمن والطمأنينة وينام ملء جفونه في مقابل جيش العدو الجرَّار المدجج بالسلاح، ولكن إذا

لم يشأ الله تعالى فلن يهنا بالنوم ولن يذوق طعم الأمن والاستقرار ولو كان في روضة غناء وظروف مثالية، ﴿إِذَا يُفَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...﴾.

٢ - أحياناً تضحى الاستراحة والنعاس في الحرب نعمة إلهية كبرى، وبذلك يزول تعب المحارب، وفي الوقت ذاته، تسلب العدو فرصة الإغارة، ﴿النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...﴾.

٣ - الطهارة الظاهرية ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ والطهارة الباطنية ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾، لكل منهما قيمة مستقلة، ولكن الأكثر قيمة هو وجودهما مع بعض.

٤ - يريد الله تعالى من المسلم المجاهد أن يتطهر ويمتلك معنويات عالية وأن يكون صامداً ورابط الجاش، ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ... وَيَلْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾.

﴿إِذَا يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

إشارات:

□ «البنان» جمع «بنانة»، بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل أو الأصابع نفسها.

□ إن قطع الأصابع من الأيدي يمنع المرء من حمل السلاح، وقطعها من الأرجل يمنع الحركة، ويحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجلاً فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم، وإذا كان راكباً فالأهداف أيديهم وأرجلهم^(١).

□ لعل المراد بـ ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، زعماء الكفر ورموزهم، كما جاء في الآية الكريمة ﴿فَقَتَّلُوا أُمَّةَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)؛ أي، يجب أن تكون الأهداف رؤوس العدو^(٣).

□ من جملة المدد الإلهي الذي نزل على المسلمين بثّ الرعب والفرع في صفوف

(٣) تفسير الفرقان.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢.

الكفر، كما نقل جواسيسهم الذين تحسّسوا ليلاً حالة العدو أنّ جيش قريش مع كلّ تلك الإمكانيات العسكرية كان يعيش حالة من الرعب لا توصف، فكان الله أنزل عليهم جيشاً من الرعب والوحشة. ولكن في المقابل، اصطفت جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية لمواجهة عدوّهم، ولكن النبي ﷺ إتماماً للحجّة ولثلاً يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية، أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إنّ النبي لا يرغب في قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح، ورغبوا في الصلح، إلّا أنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

التعاليم:

- ١ - أحياناً يهدي الله تعالى المؤمنين ويدعمهم عن طريق ملائكته، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ...﴾.
- ٢ - ليس للملائكة قدرة من نفسها، فهي تستند إلى دعم الله ولطفه، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا...﴾.
- ٣ - لقد ثبت الله قلوب المؤمنين عن طريق الملائكة، لكنّه بثّ الرعب في صفوف الكافرين، ﴿فَثَبَّتُوا... سَأَلْتِي...﴾.
- ٤ - الله تعالى ينزل الطمأنينة والسكينة على أهل الإيمان، وعلى الكافرين الرعب والفرع، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ... فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾.
- ٥ - القلوب بيد الله تعالى، والسكينة والاضطراب أيضاً من عنده، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ... فَثَبَّتُوا... سَأَلْتِي... الرُّعْبَ...﴾.
- ٦ - الرعب والوحشة من عوامل هزيمة الكفار في معركة بدر، ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾.
- ٧ - ميول الإنسان ودوافعه تلعب دوراً حاسماً في رسم مصيره ونزول الرحمة أو العذاب الإلهي، ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا... فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾.

- ٨ - القوة والمُكنة لا تكفي لبث السكينة والطمأنينة. (لقد شعر المسلمون على قلة عددهم وعدّتهم بالطمأنينة والسكينة، فيما كان عدوّهم يكابد مشاعر الرعب والخوف على الرغم من وفرة عديدهم وعدّتهم)، ﴿أَمْنَةً مِنْهُ... الرَّعْبُ﴾.
- ٩ - يجب توظيف القوة القتالية في الحرب أقصى توظيف، وذلك بتوجيه الضربات إلى الأماكن الحساسة، ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾
 ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

التعاليم:

- ١ - لا ينزل الله غضبه دونما سبب أو حساب، بل إنّه جزاء على التمرّد والطغيان، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾.
- ٢ - مشاققة الرسول ﷺ مشاققة لله تعالى، ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٣ - من سنن الله تعالى أنّ من صارع الحق هلك، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ... فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
- ٤ - يصيب الكافرين في الدنيا الانتقام والهلاك وفي الآخرة عذاب النار، ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ... لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ «الرّحف»، في الأصل بمعنى الحركة إلى أمرٍ ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشي، أو الإبل المرهقة التي تخطّ أقدامها على الأرض أثناء سيرها، ويطلق على الجيش الجرّار الذي يشاهد من بعيد وكأنّه يحفر الأرض أثناء مسيره.

□ وفي عيون الأخبار قال الإمام الرضا عليه السلام: «وحرّم الله تعالى الفرار من

الزحف لما فيه من الوهن في الدين والاستخفاف بالرسول والأئمة العادلة عليهم السلام، وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين وما يكون من السبي والقتل وإبطال دين الله ﷻ وغيره من الفساد^(١).

□ وقد جاء في فضائل الإمام علي عليه السلام: «إني لم أفرّ من الزحف قطّ، ولم يبارزني أحد إلّا سقيت الأرض من دمه»^(٢). وقال عليه السلام في خطبة له: «إنّ أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله»^(٣).

التعاليم:

١ - إنّ الله تعالى ينتظر من المؤمن أكثر ممّا ينتظره من غيره (مسؤولية المؤمن تجاه الله تعالى أكبر)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾.

٢ - كثرة أعداد أفراد العدو لا تجيز الفرار من الجبهة، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ... زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ﴾.

٣ - إذا حمي وطيس المعركة، فلا يجوز للمقاتل الفرار من الجبهة، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ... فَلَا تُولُوهُمْ﴾؛ (طبعاً، لا يجوز الفرار من الجبهة عندما تستعدّ فئتان للقتال، ولكن إذا حمل العدو المسلّح بغتة على المسلمين دون أن يكونوا مستعدين للقتال، فعند ذاك لا بأس بالفرار)^(٤).

٤ - الفتوحات الإسلامية تنطلق من دوافع عقدية لا استعمارية ولا تنطلق من مجرد أطماع، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا... الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ ونور الثقلين.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٣.

(٤) تفسير الفرقان.

﴿وَمَنْ يُؤْلِمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْرٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيٍّ مِّنْكَ
 اللَّهُ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَيَسْكُ الْمَصِيرُ﴾ (١١)

إشارات:

□ «التحرّف» هو الزوال عن جهة الاستواء نحو الأطراف والجوانب، والمقصود أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالي إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء ثم يغفلوهم في توجيه ضربة قوية إليهم فيستخدمون فن الهجوم والانسحاب المتتابع، فالتحرّف من جانب إلى جانب لا يندهم لمكائد الحرب، و﴿مُتَحَيِّرًا﴾، يعني متأخراً إلى أصحابه من غير هزيمة ليستعين بهم فيرجع إلى القتال.

□ «باء» أي مهد الموضع وسطّحه، وكأنّهم اتخذوا منزلاً عند غضب الله تعالى.

□ كما نرى، فإنّ الآية الكريمة استثنت صورتين من مسألة تولية الدبر للعدو، وهما:

الأولى: هي إعادة التوضع التكتيكي ﴿مُتَحَرِّفًا﴾، والثانية: الالتحاق بفريق آخر من المسلمين للاستعانة بهم ومن ثمّ الهجوم الجماعي، ﴿مُتَحَيِّرًا﴾.

غير أنّ بعض التفاسير ذكرت حالات أخرى مثل الفرار لاستنفار المسلمين، أو الفرار للمحافظة على خندق أهمّ وموقع أفضل^(١). ولكن مع ذلك تبقى هذه الحالات صوراً متعدّدة للحالة الأولى التي مضى ذكرها آنفاً.

إذن، الغضب الإلهي يشمل الفارين من جبهات القتال، ﴿وَمَنْ يُؤْلِمِهِمْ... فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيٍّ مِّنْكَ اللَّهُ﴾، والمغضوب عليهم هم من الفئات التي نتبرأ منها إلى الله في كلّ صلاة، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، طبعاً معصية هذه الفئة قابلة للتوبة والصفح.

التعاليم:

- ١ - الفرار من الجبهة من الكبائر، وقد توعد الله تعالى مرتكبها بإنزال غضبه وعذابه عليه، ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ... فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيٍّ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٢ - لا بأس في الانسحاب التكتيكي، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾.
- ٣ - خداع الأعداء في الحروب جائز، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾.
- ٤ - الحضور في الجبهات مهم كأهمية عدم الفرار منها، أحياناً يذهب الإنسان إلى الجبهة، لكن مصيره يؤول إلى جهنم بسبب فراره منها، ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ... وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾.
- ٥ - النصر من عند الله تعالى، بيد أنه من الضروري استخدام فنون القتال والتكتيكات العسكرية والخطط الحربية، ﴿مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا﴾.
- ٦ - جهنم هي مأوى الفارين من الجهاد والمغضوبين من الله تعالى، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾؛ (في الحقيقة إن من يفر من المعركة يبحث عن ملجأ لكنه لن يجد غير جهنم ملجأ).
- ٧ - عاقبة الفرار من المعركة الذلة في هذه الدنيا، وعذاب في الآخرة ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾، عدا سوء العاقبة وبئس المصير، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧)

إشارات:

- ورد في الروايات والتفسير أن النبي الكريم ﷺ قال لعلي عليه السلام يوم بدر: «أعطني حفنة من تراب الأرض وحصاها»، فناولته علي ذلك، فرمى النبي جهة المشركين بذلك التراب فهبت ريح عاتية عليهم وكان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين وعيونهم فملاهم رعباً^(١).

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

حقاً، إنّ العامل الحاسم في نصر المسلمين على المشركين في معركة بدر هو الإرادة والمدد الإلهي، لا القوة المادية والفنون والتكتيكات الحربية، وإلا فكيف استطاع جيش قليل العدد والعدة ولا يملك سوى فارس واحد أو اثنين، هزيمة جيش جرّار مدجج بالسلاح وفيه مئة فارس؟

□ «البلاء»، معناه الاختبار، فإن كان بالنعم والنصر، سمي «بلاءً حسناً» وإذا كان بنزول المصائب والعقاب سمي «بلاءً سيئاً»، إذ يقول القرآن الكريم في شأن بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾^(١).

□ إذا تبنّى الإنسان عقيدة سليمة وسار في طريق الحق، وسعى وجهد بأمر الله تعالى، حينذاك ينزل عليه المدد الإلهي، ﴿وَلِيَسْلَىٰ لِّلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾، ويصبح وجوده وجوداً إلهياً، فقد جاء في الحديث القدسي الشريف: «إنّه ليتقرب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته...»^(٢). وإذا تحركت كانت حركته من عند الله تعالى. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، وفي المقابل، إذا انحرف عن المسار الإلهي، وتحرك طبقاً لأوامر الآخرين، أضحي وجوده، في الحقيقة، وجوداً شيطانياً^(٣).

التعاليم:

- ١ - حذار أن تفضي بكم نشوة النصر في الحرب إلى الغرور والتكبر والاستعلاء، ولا تنسوا الله تعالى ومدده إليكم، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ...﴾.
- ٢ - أفعال الإنسان في حالة بين الجبر والتفويض، فعندما تنسب إلى الإنسان فلائته يفعل ذلك باختياره دونما إكراه، ولكن، بما أنّ هذه الأفعال تتمّ بقدرة الله تعالى وتأثير منه، فهي، من هذه الزاوية، تُنسب إليه سبحانه، ﴿وَمَا رَمَيْتَ... وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٨؛ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٥٧.

٣ - حضور النبي والقائد له أثر كبير في استجلاب المدد الإلهي، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

٤ - الحرب والجهاد هي من أدوات الابتلاء والامتحان الإلهي، ليميز الله المؤمن الحقيقي عن المسلم ضعيف الإيمان أو الذي لا إيمان له، ﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾.

٥ - لم يكن المدد الإلهي وانتصار المؤمنين وهزيمة الأعداء أمراً اعتباطياً بلا حساب، بل عن دراية وعلم إلهيين، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

إشارات:

□ «ذلكم»، إشارة إلى أوضاع المسلمين والكفار في معركة بدر، والتذكير بالمدد الإلهي الذي نزل على المؤمنين من السماء والأرض، فأدى إلى هزيمة الأعداء، وتقدير الجملة هو «ذلكم لطف الله عليكم».

□ تخاذل الأعداء في خططهم حصل من خلال بث الرعب والهلع في قلوبهم ونشر الفُرقة بينهم وهبوط معنوياتهم، وإفشاء أسرارهم، وهبوب الرياح العاتية والرعد والبرق.

التعاليم:

١ - الله تعالى يردّ كيد الأعداء ضدّ المؤمنين، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾؛ (إذا حافظ المؤمن على روحه الإيمانية، فإنّ الله تعالى سيردّ عنه ما خفي من كيد الأعداء ودسائسهم أيضاً).

٢ - الإيمان هو مفتاح استجلاب المدد الإلهي، والكفر مقدمة لوهن الإنسان وهلاكه، ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

٣ - فلنتوكل على الله تعالى في كلّ الأحوال والظروف، ولا نخش كيد الأعداء ومؤامراتهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنْ تَسْتَفِیْهُوْا فَقَدْ جَاءَ كُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُوْذُوا نَعُوْذْ وَلَنْ تُغْنِیَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِیْنَ﴾ (١٩)

إشارات:

□ لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول من هم الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد أنهم المشركون الذين هُزموا في معركة بدر، وبعض آخر يقول: إنها موجهة إلى المؤمنين الذين انقسموا واختلَفوا على مسألة توزيع غنائم الحرب.

ما يؤيد الاحتمال الأول هو ارتباط هذه الآية بما سبقها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُهِیْءُ الْكُفْرِ﴾، وهم، كما نعلم، كانوا الفئة الكثيرة، ﴿فِئَةً كَثِيرَةً﴾، وتاريخهم حافل بالكفر وهم المغضوب عليهم، وفي هذه الآية يقول عز من قائل: ﴿وَإِنْ تَعُوْذُوا نَعُوْذْ... وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، علاوة على كلام أبي جهل حين كان يستعد لترك مكة متوجهاً إلى بدر، حيث ضرب على أستار الكعبة وقال: (اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين)^(١)، وقد كان مطمئناً لنصره، لكنه ذاق مر الهزيمة.

أما إذا كان الخطاب موجهاً إلى المسلمين، فهو لا شك إنذار لهم ليكفوا عن الجدل والاعتراض بعدما أنعم الله عليهم بالفتح، وإذا واصلوا جدالهم (اعتراضهم قبل الحرب وحين تقسيم الغنائم)، فإن الله سيحجب عنهم لطفه وسيتركهم لينهزموا أمام عدوهم، (ويبدو أن المعنى الأول هو الأنسب).

التعاليم:

- ١ - خير الإنسان وصلاحه هو في اجتناب الانحراف وترك معاندة الله ورسوله، ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ٢ - نزول اللطف أو الغضب الإلهي، رهنٌ بخيارات الإنسان وأعماله، ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوْا... وَإِنْ تَعُوْذُوا﴾.

٣ - لقد أتم الله الحجة على عباده، وسد جميع منافذ الأعذار بوجههم، ﴿وَأَن تَنْتَهُوا... وَإِن تَعُودُوا﴾.

٤ - الترغيب والترهيب معاً لازمان، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن تَعُودُوا نَعْدُ﴾.

٥ - يجب التصدي للاختلافات بصراحة وحزم، ﴿وَأَن تَعُودُوا نَعْدُ﴾، الصفح ليس محبباً دائماً.

٦ - كثرة العدد ليس لها أثر على عذاب الله وغضبه، ﴿وَلَن تَغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

٧ - النصر الإلهية رهن بالإيمان، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ دأب القرآن الكريم في آياته على أن يستتبع طاعة الله تبارك وتعالى بطاعة الرسول ﷺ، وقد ورد في أحد عشر موضعاً بعد عبارة «اتقوا الله» كلمة «أطيعون»، ما يعني أن شرط التقوى الإلهية الطاعة التامة للرسول الأكرم ﷺ.

□ من المعلوم أن طاعة الله وطاعة رسوله الكريم معاً واجبة، غير أن الآية التي نحن بصددنا نهت عن التمرد على أوامر الرسول فقط، وفي ذلك إشارة إلى أن مشكلة هؤلاء القوم هي في طاعة الرسول الكريم ﷺ، لا سيما أوامره في ما يخص الشؤون العسكرية في معركة بدر.

□ المراد بسماع كلام الرسول الأكرم ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ استيعابه وفهمه والإيمان بحقيقته، وذلك بقرينة الآية اللاحقة.

التعاليم:

١ - المؤمنون معرضون لعصيان أوامر الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، لذا، فهم بحاجة إلى إنذار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا...﴾.

٢ - معصية الرسول الكريم هي معصية الله تعالى. لاحظ أنه ﷺ قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، ولم يقل: «عنهما».

(إنَّ أوامر الله والرسول ذات جوهر واحد، لذا فطاعة الله تعالى هي طاعة الرسول ﷺ).

٣ - تترتب على السمع والفهم مسؤولية، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

٤ - الرجوع إلى صفحات التاريخ وأخبار الأسلاف العاصين، مدعاة لاستلهام الدروس والعبر، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ...﴾.

٥ - فلنخلص الطاعة للقائد، ونفي بالتزاماتنا، ونقرن الإيمان بالعمل، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

إشارات:

□ «صُمٌّ» جمع «أَصَمٍّ»، وهو الذي لا يسمع و«بُكْمٌ» جمع «أَبْكَمٌ»، وهو فاقد النطق، وهنا كُتِبَ به القرآن عن الذي لا ينصت لمقالة الحق، وسكت عن قوله.

□ أحياناً يطلق القرآن على الذين يرفضون التربية الإلهية، ولا يسلمون القلب للحق، الموتى ﴿فَأِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ﴾^(١).

وأحياناً الأنعام: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾^(٢)، ﴿وَيَا كُفْرًا كَمَا نَأْكُلُ الْأَنْعَامَ﴾^(٣).

أو أدنى مرتبة من الأنعام: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٤).

أو شرّ المخلوقات: ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾.

□ يقول الإمام علي عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾: «هم الكفار»^(٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٥) تفسير الدرّ المشور.

(١) سورة الروم: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٣) سورة محمد: الآية ١٢.

□ في يوم القيامة سيعترف فريق بأنهم لم يكونوا ينصتون لمقالة الحق، أو أنهم لم يكونوا يتدبرون فيها، وهو ما جعلهم من أصحاب النار. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ لَكِنَّهُمْ لَا يَطِيعُونَ اللَّهَ وَلَا رَسُولَهُ، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ... إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾.
- ٢ - قيمة الإنسان في التعقل، ولولاه لكان شرّ الدواب، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ... الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ (إِنَّ قيمة امتلاك السمع واللسان والعقل هي في حسن استخدامها، فما الفرق بين الذي لا يستخدم لسانه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الأبكم)؟
- ٣ - أولئك الذين يعرضون عن تعاليم الدين، لا عقل لهم، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٢)

إشارات:

□ الأشخاص اللجوجون فئات عدة:

- فئة غير مستعدة حتى للاستماع إلى الحق، ﴿لَا تَسْمَعُوا إِنَّا الْفَرَّانِ﴾^(٢).
- وفئة تسمع لكنها تسخر مما سمعت، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٣).
- وفئة تسمع وتعقل لكنها تقوم بتحريفه، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾^(٤).

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٦.

(١) سورة الملك: الآية ١٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٦.

وذلك بسبب أهوائها، وحسدها، وقسوتها، وعدم قدرتها على التمييز، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - من السنن الإلهية أن يفيض الله من فضله على الذين يملكون الاستعداد والقابلية، ويمنح كل واحد التوفيق واللطف بمقدار ما أوجد في نفسه من الجدارة والاستعداد لقبول نداء الحق، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.
- ٢ - من مسؤولياتنا خلق عوامل مناسبة في داخلنا تمكّنا من الانتهال من اللطف الإلهي، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.
- ٣ - ليس المعيار هو الإنصات إلى آيات القرآن، بل يجب التسليم للحق، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾.
- ٤ - لا يأبى الله أن يهدي الناس، لكنّ اللجوجين عن الحق معرضون، ﴿وَلَوْ عَلِمَ... لَأَسْمَعَهُمْ﴾.
- ٥ - الإنسان مختير، يستطيع أن يُعرض عن صوت الحق، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾؛ (نعم، من يطفى جذوة الرشاد والهداية في نفسه، سيمنع عن قبول فيض الله).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢)

إشارات:

□ صور الحياة متعدّدة منها:

- ١ - الحياة النباتية، ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٣).
- ٢ - الحياة الحيوانية، ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾^(٣).
- ٣ - الحياة الفكرية، ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(٤).

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٩.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(١) سورة المائدة: الآية ١٣.
(٢) سورة الحديد: الآية ١٧.

٤ - الحياة الأبدية، ﴿قَدْ مَتَّ لِحَيَاتِي﴾^(١).

□ إنَّ المقصود بالحياة التي تنبثق عن دعوة الأنبياء ليس الحياة الحيوانية؛ لأنَّ هذا النمط من الحياة موجود حتى بدون دعوة الأنبياء، بل هي الحياة الفكرية، والعقلية، والمعنوية، والأخلاقية، والاجتماعية، وباختصار الحياة على جميع الصُّعُد. طبعاً، ثمة احتمال آخر وهو أن يكون المقصود بالدعوة إلى الحياة هنا (في ضوء ورود الآية بعد آيات معركة بدر) هو الدعوة إلى الجهاد.

□ تتلخّص حياة الإنسان في الإيمان والعمل الصالح، وقد دعا الله تعالى والأنبياء ﷺ أيضاً الناس إلى هذه الحياة، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، إذن، طاعتهم والتسليم لأوامرهم هي السبيل للوصول إلى الحياة الطيبة، كما نقرأ في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾^(٢)، وبحسب روايات الفريقين، فإنَّ من أمثلة الحياة الطيبة تلبية دعوة النبي الكريم ﷺ في ما يتعلّق بولاية علي بن أبي طالب وأهل بيته^(٣).

□ إنَّ حُزُولَ الله بين المرء وقلبه هو دليل على حضور الله تعالى، وإحاطته بجميع المخلوقات، وأنَّ القدرة والتوفيق بيده وحده. فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو الذي يتحكّم في فاعلية العقل والروح، ولولا لطفه لما تعرّف الإنسان مطلقاً على حقيقة الحقّ وبطلان الباطل.

□ روي عن الإمام الصادق ﷺ أَنَّ أحد أمثلة حُزُولِ الله تعالى بين المرء وقلبه هي مسألة المحو والتثبيت، محو الكفر وتثبيت الإيمان، محو الغفلة والشكّ وتثبيت التذكّر واليقين^(٤). وفي موضع آخر يقول ﷺ أيضاً: «إنَّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً وكَلَّ ملكاً فأخذ بعنقه فأدخله في هذا الأمر طائعاً أو كارهأً»^(٥). وأيضاً عنه ﷺ في قوله ﷻ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: «هو أن

(٤) المصدر نفسه.

(١) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٥) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٠٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٣) تفسير الفرقان.

يشتهي الشيء بسمعه، وبصره، ولسانه، ويدّه. أمّا إنه وغشى شيئاً ممّا يشتهي فإنّه لا يأتيه إلا وقلبه منكّر لا يقبل الذي يأتي، يعرف أنّ الحق ليس فيه^(١) وربّما كان الحؤول بين المرء وقلبه كناية عن الموت.

التعاليم:

- ١ - شرط الإيمان الحقيقي هو الاستجابة لدعوة الله والرسول، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.
- ٢ - دعوة الله والرسول ذات حقيقة وجوهر واحد. لاحظ أنّ الفعل جاء في صيغة المفرد ﴿دَعَاكُمْ﴾ ولم يأت في صيغة التثنية «دعواكم».
- ٣ - الحياة الحقيقية هي في سلوك طريق الله والأنبياء، والجنوح عنه موت للإنسانية، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.
- ٤ - جميع تعاليم الدين وأوامر الأنبياء بما فيها أوامر الحرب والجهاد هي مدعاة لإحياء حياة الفرد والمجتمع على حدّ سواء، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.
- ٥ - من يؤمن بحضور الله تعالى وإحاطته بعباده، لا يُعرض عن دعوة الأنبياء، ﴿أَسْتَجِيبُوا... يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.
- ٦ - فلنلبّ دعوة الحقّ ما دامت الفرصة سانحة. (لذا، فإن حؤول الله تعالى بين المرء وقلبه هو كناية عن الموت)، ﴿أَسْتَجِيبُوا... يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.
- ٧ - ليس للمؤمن أن يغترّ ولا أن ييأس من هداية الكافر، لأنّ القلوب بيد الله تعالى يقبلها كيف شاء، ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.
- ٨ - كلّ فكرة تخطر بقلب الإنسان يعلم بها الله تعالى، ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.
- ٩ - الله أقرب إلى الإنسان من كلّ شيء، أقرب إليه من قلبه إلى نفسه، ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

١٠ - كلنا سوف نُحشر في يوم القيامة، شئنا أم أبينا، فليس أمامنا إلا تلبية دعوة رسل الله تعالى، ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ... إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «فِتْنَةً» استعملت في القرآن المجيد بمعانٍ مختلفة، فقد جاءت تارةً بمعنى الاختبار والامتحان، وتارةً بمعنى البلاء والعذاب والمصيبة، وأخرى بمعنى الشرك والكفر، وهي في الأصل، بمعنى إدخال الذهب في بوتقة النار ليميز جوده من رديته، ثم استعملت بمعنى الاختبارات التي تكشف الصفات الباطنية للإنسان، واستحدثت في الابتلاء والجزاء الذي يبعث الصفاء في روح الإنسان ويطهره من شوائب الذنوب، وأما في هذه الآية فإن هذه الكلمة جاءت بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التي يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر واليابس^(١).

□ في الآية السابقة نزل الحكم بطاعة أوامر الرسول الكريم ﷺ، وهنا تأمر الآية الكريمة برؤد الفتنة. لذا، يمكن أن نستنتج أن أحد وجوه الفتنة هي عدم طاعة النبي الكريم ﷺ، فيكون مفهوم هذه الآية مع الآية ﴿وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^{(٢)(٣)}.

مثال آخر على الفتنة هو شيوع الفساد والفاحشة، والتي تؤدي إلى انهيار النظام إذ تكون أضراره عامة وشاملة. على سبيل المثال، فساد حكام بني أمية، عندما تخلّوا عن ولاية إمام الحق، فمرّغوا كرامة المسلمين في حل الذلّ والخنوع. □ لا ريب أن السكوت وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدعاة لبروز

(٣) الميزان في تفسير القرآن.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

الفتنة وأن يعذب العذاب، إذ يقول النبي الكريم ﷺ في حديث مشهور: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَعْذِبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْكُرُوا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ»^(١). وعن الإمام علي عليه السلام، قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْذِبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ إِذَا عَمِلَتِ الْخَاصَّةُ بِالْمُنْكَرِ سِرّاً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْلَمَ الْعَامَّةُ؛ فَإِذَا عَمِلَتِ الْخَاصَّةُ بِالْمُنْكَرِ جَهَاراً فَلَمْ تَغْيِرْ ذَلِكَ الْعَامَّةَ اسْتَوْجِبَ الْفَرِيقَانِ الْعُقُوبَةَ مِنَ اللَّهِ ﷻ»^(٢).

□ إِنَّ الْمُرَادَ بِاجْتِنَابِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُثِيرُ الْفِتْنَةَ وَتُصِيبُ بِتَأْثِيرَاتِهَا الْجَمِيعَ لَيْسَ هُوَ اخْتِيَارُ الْعِزْلَةِ وَتَرْكُ الْقَضَايَا، بَلِ الْمُرَادُ هُوَ تَوَحُّيُ الْبِقِظَةِ وَالْحَذَرُ. يَقُولُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنَ اللَّبُونِ، لَا ظَهَرَ فَيُرْكَبُ وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبُ»^(٣).

□ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ عَلِيّاً عليه السلام مَقْعَدِي هَذَا بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا جَعَدَ نُبُوتِي وَنُبُوتُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»^(٤).

التعاليم:

- ١ - التمرّد على الدين والأحكام الإلهية، مدعاة لظهور الفتنة ونزول العذاب الإلهي، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾.
- ٢ - لا تكن مثيراً للفتنة ولا نصيراً للمفتنين، ولا تسكت إزاءهم، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾.
- ٣ - على أعضاء المجتمع المؤمن، أن يشعروا بالمسؤولية والالتزام تجاه أعمالهم وتجاه أعمال باقي أفراد المجتمع أيضاً؛ لأنّ المعاصي قد تطلّ، أحياناً، الآخرين بشررها، كمن يثقب السفينة التي يركبها، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١.

(٣) تفسير الفرقان.

(٤) تفسير «الانبياء عشرين»، ج ٤، ص ٣٢٢.

٤ - معرفة ألم العذاب الإلهي وشدته مدعاة لاجتناب الظلم والمعصية، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً... إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

إشارات:

□ «تَخَطَّفَ» من «الخطف» وهو الأخذ بسرعة.

□ كان مسلمو مكة قبل هجرة النبي الكريم ﷺ عرضة لأذى المشركين واضطهادهم، فأمرهم النبي بالهجرة فرادى وجماعات إلى البلاد الأخرى، فشد بعضهم الرحال إلى بلاد الحبشة، وبعضهم الآخر إلى اليمن والطائف، كما ذهب بعضهم إلى شعب أبي طالب، وكانوا في خوف واضطراب مستمر، ولما هاجروا إلى المدينة لم يكن لهم فيها أي بيت أو ملجأ، وكان عدد كبير منهم من أهل الصفة فقد كانوا يتخذون من مسجد النبي ملجأ لهم. ولم يكن حال الأنصار يختلف كثيراً في بداية هجرة النبي الكريم ﷺ عن باقي المسلمين، فقد كانوا يعانون شظف العيش ومرارة الفقر والقحط، لدرجة أنهم كانوا يقنعون بتمرة واحدة، هذا علاوة على ما كانوا يلاقون على يد اليهود من العذاب والهوان. لكن الله سبحانه وتعالى من على المسلمين في أواخر البعثة بالمُكنة والقدرة، وقد بلغت قوتهم وسطوتهم حدّاً كان أهل الذمة يدفعون الجزية لهم، وكان المشركون في هلع وخوف دائم من أن يُقتلوا أو يؤسروا فيتم استرقاقهم من قبل المسلمين، بل إن بعضهم كان يقدم أمواله للمسلمين طوعاً^(١). لذلك، يذكرهم الله تعالى هنا بأيام ضعفهم وذلتهم، ليستشكرهم على ما أنعم عليهم من منعة وأمن.

التعاليم:

- ١ - استذكّار أيام الضعف وآيام نصرة الله، تجعل المرء يتعد عن الفتن، ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً... وَأَذْكُرُوا﴾.
- ٢ - في البدء كان عدد المسلمين قليلاً. (استعمال كلمة «قليل» بدلاً من «قليلون»، لزيادة التأكيد على القلة).
- ٣ - كان المسلمون في مكّة يعيشون في خوف واضطراب دائمين قبل الهجرة إلى المدينة. «تخافون» (صيغة الفعل المضارع إشارة إلى الاستمرارية).
- ٤ - إذا كنّا نسير في طريق الحقّ فلا نستوحش من قلة عددنّا وضعف حيلتنا وتشردنّا، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتَ قَلِيلٌ﴾؛ فنصر الله قادم لا محالة، ﴿فَتَأْوِيكُمْ وَابْتَغِيكُمْ...﴾.
- ٥ - الأمن ﴿فَتَأْوِيكُمْ﴾، والقدرة القتالية والنصر ﴿وَابْتَغِيكُمْ بِصَرِهِ﴾، وانتعاش الأوضاع الاقتصادية ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، كلّها من نعم الله الخاصة.
- ٦ - استذكّار أيام الضعف ومقارنتها بآيام النصر، مدعاة لشكر الله تعالى وحبّه والتوكّل عليه، ﴿وَأَذْكُرُوا... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٧ - بفضل الإيمان منح الله تعالى فئة قليلة ضعيفة خائفة أسباب العزّة والقدرة والمكنة، (في ضوء مفهوم الآية برمتها).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية من أنّ النبي الكريم ﷺ أمر بمحاصرة يهود بني قريظة واستمرّت هذه المحاصرة واحداً وعشرين يوماً، حتى أُجبروا على المطالبة بالصلح - كما جرى ذلك مع اليهود من بني النضير - وذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكنّ النبي ﷺ رفض ذلك العرض (لعلّه كان يشكّ في صدق نياتهم) وقال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنهم

طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة وهو من أصحاب النبي ﷺ في المدينة وكانت له معهم صداقة قديمة، وكانت عائلته وأبناؤه وأمواله عندهم. فقبل النبي ﷺ ذلك الطلب وأرسل أبا لبابة إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى رقبته، بمعنى أنكم لو قبلتم فلسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحي جبرائيل ﷺ إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك. يقول أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله، وعند ذاك نزلت هذه الآيات في أبي لبابة، وقد عاد أبو لبابة معلناً ندمه الشديد وأتى بحبل وربط نفسه به إلى أحد أعمدة مسجد النبي ﷺ، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يقبل الله توبتي. واستمر على هذه الحال دون أكل وشرب إلى سبعة أيام، حتى فقد وعيه وسقط على الأرض مغشياً عليه، فقبل الله توبته، وقام المؤمنون بإبلاغه الخبر، لكنه أقسم أن لا يفك نفسه من العمد حتى يأتيه النبي ﷺ ويفك عنه الحبل، فجاءه النبي ﷺ وفك حبله، وقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها بالذنب وأن أنخلع من مالي، فقال النبي ﷺ: «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(١).

وقد ذكر سبب آخر لنزول الآية، إذ بعث بعض المسلمين قبيل معركة بدر بكتاب إلى أبي سفيان يعلمونه فيها عن خطة النبي الكريم ﷺ، فطلب أبو سفيان على أثرها المساعدة من مشركي مكة، فأمدوه بألف رجل للقتال في معركة بدر^(٢).

□ في البيان القرآني، تنطوي الأمانة على مفهوم واسع يشمل جميع شؤون الحياة السياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، من جملتها:

(أ) جميع النعم المادية والمعنوية، مثل العقيدة، القرآن، القائد، الابن، الماء، والتراب.

(١) تفاسير مجمع البيان، والصابي؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير مجمع البيان؛ الميزان في تفسير القرآن.

- (ب) أهل بيت النبي ﷺ^(١).
- (ج) نحن لأنفسنا أمانة كما ورد ذلك في آية أخرى أيضاً ﴿كُنْتُمْ مَخْتَلَتُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ولمجتمعنا أيضاً^(٢).
- (د) الأنفال، الغنائم، الخمس، الزكاة، والأموال العامة، (بسبب وجود الآية في سورة الأنفال وغنائم معركة بدر).
- (هـ) عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قوله: «أحكام الدين، الفرائض والواجبات الإلهية أمانة»^(٣).
- (و) الحكم والمسؤولية.
- إذن، فالخيانة هي العصيان وعدم أداء الحقوق والواجبات المتعلقة بهذه الأمانات، وقد نُقل عن ابن عباس قوله: إنّ من ترك شيئاً من الأوامر الإسلامية فقد ارتكب خيانة بحق الله ورسوله^(٤). كما إنّ تقدّم الأشرار على الصالحين في تقلّد المناصب الاجتماعية يعدّ خيانة لله ولرسوله.
- ويقول النبي الأكرم ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم». كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «لا تغتروا بصلاتهم ولا صيامهم فإنّ الرجل ربّما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»^(٥).
- إنّ من الواجبات والحقوق الإنسانية عدم خيانة الأمانة. على هذا، فإنّ الخيانة لا تجوز حتى مع غير المسلم.

التعاليم:

- ١ - لا تجتمع الخيانة مع الإيمان، فالأمانة شرط الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا﴾.

(١) ملحقات إحقاق الحق، ج ١٤، ص ٥٦٤. (٤) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧. (٥) الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.

(٣) تفسير نور الثقلين.

- ٢ - أحياناً، إشارة واحدة لصالح العدو تعدّ خيانة، (نظراً إلى سبب النزول الأول).
- ٣ - إفشاء الأسرار العسكرية خيانة قبيحة، (نظراً إلى سبب النزول الثاني).
- ٤ - خيانة الرسول الكريم ﷺ خيانة لله تعالى، ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ (العبارة ﴿لَا تَخُونُوا﴾ تتعلق بالله والرسول معاً، ثم تكررت بالنسبة إلى الناس).
- ٥ - من يخون الله والرسول إنما يخون نفسه، وضرر ذلك سوف يعود عليه، ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾؛ (طبقاً لهذا المعنى الذي يتناسب مع ظاهر الآية فإنه لا حاجة إذاً لأداة النهي «لا» لتسبق العبارة ﴿وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾).
- ٦ - أمانة الناس هي بمثابة أماناتنا، وخيانتها تعني خيانة أنفسنا، ﴿لَا تَخُونُوا... وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.
- ٧ - الخيانة قبيحة ومدانة بالفطرة، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
- ٨ - الخيانة الأخطر هي التي تكون عن وعي وقصد، ﴿وَتَخُونُوا أَمْثَلَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ (إنكم تعلمون قبح الخيانة وكذلك بعواقبها الوخيمة).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ لَكُمْ وَأُولَدَكُمْ فَتَنَّا وَاتَّكَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

□ في الحقيقة إن مدار جميع المعاصي مثل: المعاملات المحرمة، الاحتكار، الكذب، التطفيف، ترك الإنفاق، عدم أداء الخمس والزكاة، الطمع والتلکؤ، واليمين الكاذبة، وغمط حقوق الناس، الفرار من أرض المعركة، ترك الهجرة والجهاد... إلخ، كل هذه الأمور منشؤها حب المال والبنين. من هنا فلإنها جميعاً تعدّ موضوعات ابتلاء وامتحان، كما حصل مع أبي لبابة (في الآية السابقة) حين زلّت قدمه في مستنقع الخيانة وتعاون مع العدو من أجل المحافظة على أمواله وبنيه.

□ أولئك الذين نقلوا لأبي سفيان من المدينة أن المسلمين يتعبأون للاستيلاء على

قافلة قريش التجارية كانوا من المهاجرين الذين كانت لهم في مكة الأموال والبنين^(١).

□ لقد ذكر القرآن الكريم وبتعابير مختلفة أنّ المال والبنون فتنة، ونهى عن التعلق بهما، محذراً من احتمال أن يؤديا بالمرء إلى الانحراف، من جملة الآيات التي تناولت هذا الموضوع نذكر:

(أ) إمكان مشاركة الشيطان الإنسان في أمواله وبنيه، ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٢).

(ب) طلب الاستزادة من الأموال والبنين والآثار السلبية لذلك، ﴿وَتَكَاثَّرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٣).

(ج) المال والبنون إلهاء عن ذكر الله تعالى، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٤).

(د) لن تُغني عن الإنسان في يوم القيامة أمواله ولا أولاده، ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾^(٥).

□ ثمة مؤشرات في الآية تدلّ على أنّ اختبار الأموال والأولاد هو اختبار جاد وصعب للغاية، وأنّ اجتيازه ينطوي على أهمية قصوى، من هذه المؤشرات، أولاً: إنّ الآية استهلّت بجملة تحذيرية هي «واعلموا»، ثانياً، تبين أداة الحصر «إنّما» أنّ الاختبار بالمال والبنين مؤكّد ولا جدال فيه. ثالثاً، تذكر الآية أنّ المال والبنين هما عين الفتنة وليس وسيلة اختبار وفتنة^(٦).

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «لا يقولنّ أحدكم أللهم إني أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة»، ثمّ يوضح الحكمة من الاختبارات الإلهية بقوله: «ليتيّن الساخط لرزقه، والراضي بقسمه»^(٧).

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٤.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠.

(٦) تفسير راهنما (التفسير المرشد).

(٧) نهج البلاغة، الحكمة ٩٣.

التعاليم:

- ١ - الولع المفرط بالمال والبنين يودي بالإنسان إلى الخيانة، ﴿لَا تَخُونُوا... وَأَعْلَمُوا﴾، وأحياناً يبلغ هذا الولع مبلغاً تجعل الإنسان يتخلى عن مبادئه الإنسانية والدينية. (أداء الأمانة)، (نظراً إلى سبب نزول الآية السابقة).
- ٢ - قد يصبح المال والبنون مصيدتين خداعتين، ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.
- ٣ - التركيز على الثواب الإلهي العظيم، من أسباب ترك الدنيا والخيانة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- ٤ - على الرغم من سحر المال والبنون، إلا أنهما لا يساويان شيئاً إلى جانب ألطاف الله تعالى. (لاحظ أن عبارة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جاءت بإزاء ﴿أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ﴾^(١)).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

إشارات:

□ إن معايير التمييز بين الحق والباطل عديدة، منها:

(أ) الأنبياء وأولياء الله، وقد سمي النبي الكريم ﷺ الفاروق^(٢)، أو كما جاء

(١) وأنا أكتب هذه السطور، تحلّ علينا ذكرى عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام، هذا الإمام الذي ضحى في سبيل الله بكلّ ما يملك في يوم واحد، فقد واجه مصائب كانت كلّ واحدة منها كافية لكي تهدّ جبالاً فضلاً عن الإنسان، لكن العزاء الوحيد للإمام عليه السلام في كلّ ما مرّ عليه من مصائب ومحن هو أنّه كان يرى أنّ تضحياته لا تساوي شيئاً أمام عظمة الله تعالى، فمثلاً عندما تضرّج رضيعه ذو الستة أشهر بدمه وهو على يده تجلّد وقال: «هَوْنٌ عَلَيَّ أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ». وعلى خطأ الواقعة سارت أخته العقيلة زينب الكبرى، التي تحمّلت من المصائب ما تنوء بحمله الجبال، ففي عصر يوم عاشوراء طافت على شهداء بني هاشم وعندما رأت جسد أخيها وقد نالت منه السيوف والرماح، حمدت الله وأنت عليه وقالت: «اللهم تقبّل مِنَّا هذا القريان». وفي مجلس الطاغية يزيد، وقفت تخطب بإباء وشمم وقالت: «ما رأيت إلّا جميلاً». نعم، إنّ المؤمن إذا آمن بأنّ متاع الدنيا قليل وزائل، وأنّ الأجر العظيم هو عند الله تعالى، فسوف يتمكّن من مواجهة أعظم المصائب وأفدح الخطوب.

في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ فارق عليّاً فقد فارق الله»^(١).

(ب) الكتاب السماوي، إذ إنه من خلال عرض الأمور عليه يتميّز الحق عن الباطل.

(ج) التقوى، ذلك أنّ عاصفة الغرائز، والشهوات، والحب، والكراهة، مضافاً إلى عدم التقوى، تحجب الحقائق عن بصيرة الإنسان.

(د) العقل، إذ بدونه لا يمكن حتى الاهتداء إلى الوحي.

□ الفرقان والقدرة على تمييز الحقّ عن الباطل هي حكمة وبصيرة يهبها الله تعالى أهل التقوى، وليس لها علاقة بمستوى العلم والمعلومات.

□ يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: إنّ المراد من تكفير السيئات سترها في الدنيا ومن المغفرة إزالتها في القيامة لئلا يلزم التكرار. وقد ورد في تفسير «الأمثل في كتاب الله المنزل» أنّ الفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران) هو أنّ الأولى إشارة إلى الحجب من الدنيا، والثانية النجاة من الجزاء الأخروي، ويرد احتمال آخر هنا وهو أنّ (تكفير السيئات) إشارة للآثار النفسية والاجتماعية للذنوب والتي تزول بفعل التقوى، ولكنّ (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهي والخلاص من الجزاء.

□ أولئك الذين يتقون الله ويطرحون عنهم الأهواء النفسانية، يهبهم الله القدرة على تمييز الحقّ، وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٢)، وكأنّ الروح مرآة ينجلي غبارها بالتقوى، فتعكس نور الحقّ صافياً وشفافاً، ويقول الإمام علي عليه السلام: «فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفتدتكم، وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم وضياء سواد ظلمتكم...»^(٣)، وأيضاً عنه عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»^(٤).

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

(١) ملحقات إحقاق الحقّ، ج ٤، ص ٢٦.

(٤) المصدر نفسه، الحكمة ٢١٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

التعاليم:

١ - إذا تمسك الإنسان بحبل التقوى، فسوف يأخذ الله بيده في اختبار المال والبنين ويهبه القدرة على التمييز بين الحق والباطل، ﴿أَتُولِكُمْ وَأَوْلَكُمُ فَتَنَةٌ... إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

٢ - عمل الإنسان يترك تأثيره على ملامح رؤيته. فمن تمسك بالتقوى، أنعم الله عليه بالعلم، والفطرة، والعقل، والتجربة، والبصيرة، والمعرفة الخاصة، ﴿فُرْقَانًا﴾؛ جاءت في صيغة التنكير لتبين أن المقصود هي بصيرة خاصة.

٣ - التقوى هي معيار المعرفة الصحيحة ﴿فُرْقَانًا﴾، وكذلك عامل الكرامة الاجتماعية، ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ﴾، وهي بعد سبب المغفرة في الآخرة، ﴿وَيُفَيِّرْ لَكُمْ﴾.

٤ - منح المتقين بصيرة خاصة، وغفران ذنوبهم هو فضل من الله تعالى، ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿وَإِذْ يَتَكَبَّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُلْقِيَنَّكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَتَكَبَّرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾

إشارات:

□ «المكر» في اللغة هو التدبير والتخطيط والحيلة.

□ هذه الآية إشارة إلى «ليلة المبيت» ومؤامرة الكفار لقتل الرسول الكريم ﷺ، إذ جاءه جبرائيل عليه السلام وأخبره بما عزم عليه الكفار، فخرج إلى غار ثور ليلاً وأمر علياً عليه السلام بالمبيت في فراشه، فمكث فيه (في الغار) ثلاثاً ثم قدم إلى المدينة.

وفي ليلة الهجرة، وعندما استعد الإمام علي عليه السلام لكي يفتدي رسول الله ﷺ نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (١)(٢).

□ لقد ذكرت الآية الخطط الثلاث التي طرحها الكفار للتصدّي للنبي الكريم ﷺ والتي أسفر عنها اجتماع المشركين في دار الندوة، ليستقرّ رأيهم على خطة قتل النبي ﷺ، وذلك بأن يجتمع عليه من كلّ بطن رجل فيضربوه بأسيا فهم ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه على القبائل ولا يستطيع بنو هاشم محاربة جميع هذه القبائل.

□ ربّما كانت هذه الآية الكريمة ترتبط بالآية ٢٧ من هذه السورة التي تقول: ﴿لَا تَخْشَوْا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخْشَوْا أُمَّنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

□ يضع سرّه في أضعف خلقه، كما يقال، فكم من موقف ستخر الله تبارك وتعالى مخلوقاً ضعيفاً لإنجاز مهمة عظيمة، أو دفع مؤامرة خطيرة، فقايل ابن آدم تعلم من الغراب كيف يوارى سواة أخيه بعدما أعيته الحيل، ودابة الأرض هي التي كشفت عن موت النبي سليمان ﷺ بعدما أكلت منسأته، وطائر الهدهد هو الذي حمل الدعوة إلى ملكة سبأ بلقيس، وفيّلة أبرهة صارت كعصف مأكول بعدما هجمت عليها الطيور الأبايل، والبعوضة كانت السبب في هلاك الملك النمروذ، ومؤامرة مشركي مكّة أفشلتها خيوط بيت العنكبوت. كلّ ذلك هو من أجل البرهنة على وهن الإنسان وعجزه أمام القدرة الإلهية اللامتناهية.

التعاليم:

١ - التذكير بالمدد الإلهي والأخطار التي حال الله تعالى دون وقوعها، تزرع في النفس الطمأنينة والثبات، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ...﴾.

٢ - السجن والاعتقال والنفي، كلّها أدوات استخدمها طغاة التاريخ لمحاربة الحق، ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾.

٣ - الكفر يدفع بالإنسان إلى حدّ قتل الأنبياء، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... يَقْتُلُوكَ﴾.

٤ - لا يمكن لأيّ دليل أو برهان أن يقف في وجه كلمة الحق، فالكافرون بدلاً من إيجاد حلّ للقضايا والقبول بالحق، يسعون إلى محو الحق وأهله، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ...﴾.

- ٥ - مؤامرات الكفار ضدّ المسلمين مستمرة ولا تنتهي، وفي المقابل، فإنّ دعم الله تعالى للمسلمين لا ينتهي أيضاً، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾؛ (ليس صحيحاً أنّ الأعداء يحققون أهدافهم على الدوام، فتدبير الله تعالى يُفشل مخططاتهم).
- ٦ - من مكر لأهل الحقّ، كان الله خصيمه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾.
- ٧ - الله تعالى هو الحافظ للكتاب ولأوليائه، كما حفظ أشرف خلقه بخيوط بيت العنكبوت، ودفع عنه أكبر المؤامرات فغيّر بذلك مجرى التاريخ، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.
- ٨ - الله تعالى يطلع أوليائه، متى لزم ذلك، على مكائد الأعداء ومكرهم. فالمؤامرة التي أرادوا كتمانها، فضحها الله أمام العالمين، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا

إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- حديث الآية السابقة كان حول مؤامرات الكفار المتواصلة لطرد النبي الكريم ﷺ وقتله، فيما تعرض هذه الآية أمثلة لمكائد الأعداء في الإساءة إلى الدين الإسلامي والقرآن الكريم.
- «أساطير» جمع «أسطورة»، وهي الخرافة أو الخيال عن إنسان العصور الغابرة أو من صنع يديه.
- كان النضر بن الحارث قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلّم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار، ولَمّا قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن، فكان ﷺ إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدّثهم من أخبار أولئك ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد^(١)؟

(١) تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ في ظلال القرآن.

التعاليم:

١ - من أسلحة الأعداء التعمية على الحق، والاستخفاف به، والسخرية منه، ﴿قَالُوا قَدْ سَفَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، غير أن هؤلاء ليسوا سوى طبول فارغة، ليس لديهم سوى ادعاءات جوفاء، فهم أعجز من أن يأتوا بنظير للقرآن.

٢ - حتى الأعداء أقرّوا بفضل القرآن الكريم وأنه فوق كل تصوّر، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

٣ - التحجّر، والجمود، والاقْتَباس من السنن البالية هي من أقدم التّهم التي كان المؤمنون يوصمون بها، ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ
أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾

إشارات:

□ هذا النوع من اللعن والدعاء إمّا أن يكون من فرط التعصّب واللجاج، أو للتعمية. فهم يدعون على أنفسهم ليصدّق البسطاء أنهم على حقّ والإسلام على باطل.

□ لما نصّب رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام يوم غدير خمّ فقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي ﷺ النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وأمرتنا بالجهاد، والحج، والصوم، والصلاة، والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال ﷺ: «والله الذي لا إله إلا هو، إنّ هذا من الله» فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: أَللّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ^(١)، فرماه الله تعالى بحجر على رأسه فقتله،

(١) الغدير، ج ١، ص ٢٣٩. ٢٦٦، نقلًا عن ٣٠ عالمًا من علماء أهل السنة.

فنزلت الآيات الأولى من سورة المعارج^(١)، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

التعاليم:

١ - أحياناً تكون القدسانية المناقفة والإيمان الغليظة من أسلحة العدو في خداع المؤمنين، ﴿اللَّهُمَّ...﴾.

٢ - العناد واللجاج يدفعان الإنسان أحياناً إلى القبول بفناء نفسه، ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً...﴾.

٣ - من بين المناوئين للنبي الكريم ﷺ من كان يؤمن بالله وتأثيره في الوجود وفاعلية الدعاء، ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ... فَأَمْطَرْنَا... أَوْ أَثْنَيْتَا﴾.

﴿وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِمُعَذِّبِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)

إشارات:

□ نظراً إلى أن الآية اللاحقة تحمل تهديداً لكفار مكة بنزول العذاب عليهم، يتبين لنا أن المراد بانتفاء العذاب في هذه الآية هو، بطبيعة الحال، عدم نزول العذاب العام والشامل على المسلمين ببركة وجود النبي الكريم ﷺ بين ظهرانيهم، كما حصل للأمم السالفة التي هلكت بالعذاب الشامل، أما وقوع العذاب الخاص فلم ينتف، وذلك بدلالة نزول العذاب على النعمان بن الحارث كما ورد في الآية السابقة.

□ جاء في الأحاديث أن الله تعالى يرفع الشدائد والعذاب عن عموم الناس بسبب وجود بعض الأفراد المتطهرين والعلماء الربانيين بينهم. ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من العذاب الأليم الذي نزل على قوم لوط، حيث قال النبي إبراهيم عليه السلام للملائكة: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، أي هل تعذبهم مع وجود رجل مؤمن بينهم؟ فجاء رد الملائكة: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ﴾^(٢). أو ما جاء على

لسان الإمام علي عليه السلام بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به» وقرأ هذه الآية^(١).

أو ما ورد في الروايات عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله لذكريا بن آدم: «إذا عمّت البلدان الفتن فعليكم بقم وحواليها ونواحيها فإنّ البلاء مرفوع عنها»^(٢).

□ وقال رسول الله ﷺ: «إنّ لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً»، فقيل: يا رسول الله أمّا حياتك فقد علمنا، فما لنا في وفاتك؟ فقال: «أما في حياتي فإنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، وأما في مماتي فتعرض عليّ أعمالكم فاستغفر لكم»^(٣).

□ التمرّد وارتكاب بعض المعاصي، هما من أسباب نزول العذاب من السماء، والسبيل إلى رفعه هو التوبة والاستغفار، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وفي دعاء كميل نقرأ «اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء»، وفي آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَتْ رَيْكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَى يُظْلَمَ وَأَنْفُلَهَا مُضِلُّوهُنَّ﴾^(٤).

التعاليم:

١ - وجود النبي الكريم ﷺ والمؤمنين بين ظهراني المسلمين مدعاة لأمن أهل الأرض، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

٢ - الاستغفار جنة تمنع البلاء، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ (العودة عن الكفر والإلحاد نوع من الاستغفار).

٣ - الاستغفار له أهمية خاصّة عند الله تبارك وتعالى، كما أنّه يعمل على تغيير مصير أمة بأكملها، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٨٨.

(٤) سورة هود: الآية ١١٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢١٧.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤)

إشارات:

□ إذن، تقول الآية السابقة: إِنَّ اللَّهَ لَنْ يُنْزِلَ عَذَاباً عَاماً وَشَامِلاً، كما حصل مع قوم عاد وثمود، على المسلمين وذلك كرامةً لوجود النبي الأعظم ﷺ بينهم، وكذلك إذا هم استغفروا لذنوبهم، بيد أن هذه الآية الكريمة تعاود الحديث عن أولئك الذين يستحقون العذاب، وإن كان الله تعالى لن يعذبهم بسبب، كما قلنا، وجود النبي الكريم ﷺ بينهم، طبعاً قد يكون المقصود بالعذاب هنا هو نزول المصائب والمكاره من قبيل الحرب والأسر.

□ يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الله الله في بيت ربيكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا»^(١).

التعاليم:

١ - أولئك الذين يمنعون المؤمنين من دخول المسجد الحرام، غُدموا التقوى، وعليهم أن ينتظروا نزول العذاب الإلهي، ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ...﴾.

٢ - لقد نصّب الكفار أنفسهم سدنة للمسجد الحرام دون وجه حق، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ...﴾.

٣ - البيت الحرام سيّده النبي إبراهيم خليل الله ﷺ على أساس التقوى، لذا ينبغي أن لا يديره أشخاص عديمو التقوى، ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ...﴾.

٤ - من الضروري تنصيب سدنة يتولّون شؤون المسجد الحرام، ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ...﴾؛ (أن تعيّن الآية الكريمة شروط السادن لا نسيبه، في ذلك دلالة على وجوب تعيين السادن).

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

إشارات:

- «المُكاء»، هو الصفير، و«التَّصديّة»، بمعنى التصفيق.
- ربّما كان صفيرهم إيذاناً للأصنام حول الكعبة بحضورهم.
- يرى المفسّرون أنّ من أوضح الأمثلة على العذاب المذكور في العبارة ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ هو هزيمة المشركين في معركة بدر^(١).

التعاليم:

- ١ - إنّ القيام بالأعمال المسيئة والعبثية مثل الصفير والتصفيق في البقاع المقدّسة، دليل على عدم جدارة سدنّها بتولّي مسؤوليتها، ﴿إِنْ أُولَآئِذْهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ... وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾.
- ٢ - على مدى التاريخ، والطقوس الدينيّة عرضة للتحريف وإضافة اللغو والخرافات إليها، ﴿صَلَاتُهُمْ... مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾.
- ٣ - أحياناً نجد أنّ أقدس البقاع تكون مسرحاً لعرض أتفه الخرافات، ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾.
- ٤ - الكفر بالمقدّسات والإساءة إليها، تستتبع عذاباً إلهياً، ﴿مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.
- ٥ - اللجاج والإصرار على الكفر والانحراف، مدعاة لنزول العذاب، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ يرى بعض أن هذه الآية الكريمة نزلت في معركة بدر وما بذله مشركو مكة من أموال طائلة، غير أنها، أغلب الظن، تشمل جميع الأموال التي تصرف لمحاربة الإسلام.

□ قد يكون تكرر عبارة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لجهة أن بعض أغنياء الكفار دخلوا في الإسلام لاحقاً وكانوا يتحسرون على ما أنفقوا من أموال، والبعض الآخر بقي على كفره ومات عليه فأصبح من أهل الجحيم. نعم، إن جهنم أعدت للكفار الذين لم يبرحوا دائرة الكفر، أما المؤمنون، فهم لا يتحسرون حتى لو لم يحققوا النتائج المرجوة؛ لأن أجرهم محفوظ.

التعاليم:

١ - ما برح الكفار ينفقون أموالهم للحيلولة دون انتشار الإسلام، لكنهم في نهاية المطاف لا يحصدون غير الحسرات والهزائم المؤكدة، (في ضوء مفهوم الآية ككل).

٢ - في هذه الآية يخبر النبي الكريم ﷺ أن هؤلاء سيواصلون إنفاق أموالهم في المستقبل أيضاً من أجل تحطيم الإسلام، بيد أن النصر سيظل حليف الإسلام، ﴿سَيُنفِقُونَهَا... ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

٣ - جهود الكافرين لن تقف عند الهزيمة الدنيوية، بل إن عذاب الآخرة بانتظارهم، ﴿يُغْلَبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٤ - الكفر وعدم الإيمان هو سبب انحدار الإنسان إلى هاوية جهنم، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْرَ مِنَ الْطَبِّ وَيَجْعَلَ الْخَيْرَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا
فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٧)

إشارات:

□ «يَرْكُمَهُ»، بمعنى متراكم، والركام: ما يلقي بعضه على بعض.
□ صحيح أن جهنم لا حد لسعتها وما تنفك تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^(١)، إلا أن أهل النار محشورون ومحصورون فيها، كالجدار الواسع الذي زرعت فيه مسامير كثيرة، إلا أن كل مسمار محشور في موضعه.

التعاليم:

- ١ - من جملة إفرازات معركة الحق والباطل انكشاف البواطن، والدوافع، والأعمال، والالتزامات، والمؤامرات وذلك لتتميز جواهر الناس وطبيعة معادنها، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾.
- ٢ - تميز أهل الحق عن أهل الباطل سنة إلهية، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾؛ إذ يخاطب الله تعالى المجرمين في يوم القيامة قائلاً: ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَنَّى الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢).
- ٣ - ضيق المكان وضغطته وتراكمه من جملة خصائص جهنم وأهلها، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾.
- ٤ - الخسران الحقيقي للإنسان حين يصبح من أهل جهنم، ﴿فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يَؤُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨)

إشارات:

□ «الانتهاء»، هو الانزجار عما نهى عنه، وبلغ به نهايته.

(١) سورة ق: الآية ٣٠.

(٢) سورة يس: الآية ٥٩.

التعاليم:

- ١ - النبي الكريم ﷺ مأمور بإبلاغ سنة الله تعالى (المغفرة في حال التوبة والمحق عند لجاج الكافرين) إلى الناس كافة، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ... وَإِنْ يَؤُودُوا﴾.
- ٢ - توبة الكافر والملحد أيضاً مقبولة، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾.
- ٣ - طريق التوبة والإصلاح في الإسلام مفتوح بوجه التائب، فلا طريق مسدود ولا انسداد، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾.
- ٤ - راعن الإنسان هو معيار الحكم لا ماضيه، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا...﴾.
- ٥ - الدين الإسلامي لا يدعو إلى الحرب بل إلى الإصلاح، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾.
- ٦ - إسلام المرء يُسقط عنه ذنوبه، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «الإسلام يُجِبُّ ما قبله»^(١).
- ٧ - يجمع الأسلوب القرآني دائماً بين الترغيب والترهيب، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا... وَإِنْ يَؤُودُوا﴾.
- ٨ - ينبغي أن لا يُفتح باب الأمل دون ضوابط لئلا يعتقد المجرمون أن وراء ذلك ضعفاً، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا... وَإِنْ يَؤُودُوا﴾.
- ٩ - في البدء، الترغيب وإتمام الحجة، وإذا لم يجد نفعاً، الترهيب والشدة، ﴿إِنْ يَنْتَهُوا... وَإِنْ يَؤُودُوا﴾.
- ١٠ - شريعة الحكمة والعدل الإلهي تعاملت مع الجميع على مر التاريخ بصورة متساوية وثابتة، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(١) مستدرك الوسائل؛ مستنبط المسائل، ج ٧، ص ٤٤٨.

١١ - قضت السنة الإلهية بنجاة الأنبياء وانتصارهم، وبعذاب الكفار وخذلانهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول ﷺ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(١).

١٢ - فلناخذ الدروس والعبر من سيرة الآخرين ومصائرهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَتْهُمُ آيَاتُ اللَّهِ بِمَا يَكْمُلُونَ بُصِيرًا﴾

إشارات:

□ تشريع الحرب والجهاد في الإسلام ليس من أجل فتح البلدان واستعمارها، بل لنشر الدين الإسلامي ومحاربة الفتنة. يقول الله ﷻ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢)، لا بل أشد، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٣).

□ «الفتنة»، ذات معنى واسع، وتشمل كل أنواع الضغوط، فتارة يستعملها القرآن بمعنى الشرك وعبادة الأصنام، ربما لجهة أنّ المشركين يمارسون كل أنواع التحجر، والجمود، والاضطهاد ضد أفكار طلاب الحق وأرواحهم وبالتالي على مجتمعهم، أو لجهة أنّ الشرك يفضي إلى العذاب الخالد. وكذلك يندرج ضمن مفهوم الفتنة فرض عقيدة الكفر على المؤمنين والأشخاص سليمي الفطرة^(٤).

□ وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليلغى دين محمد ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال تعالى»^(٥).

(٤) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٥) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩١.

وسُئِلَ الإمام الباقر عليه السلام عن تأويل هذه الآية فقال: «لم يَجِءْ تأويل هذه الآية بعدُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله رَخَّصَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِ وَحَاجَةَ أَصْحَابِهِ، فَلَوْ قَدْ جَاءَ تَأْوِيلُهَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ لَكِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ حَتَّى يُؤَخِّدَ اللَّهُ تعالى وَحَتَّى لَا يَكُونَ شَرَكٌ»^(١).

□ لا تتعارض هذه الآية مع حرية اعتناق الدين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٢)، لأنه يجب محق الفتن والطواغيت، لتتاح الأجواء للإنسان لكي يختار.

التعاليم:

- ١ - الغاية من تشريع الجهاد في الإسلام هو القضاء على الفتنة وتسلط الكفار وخلق مناخ مناسب للدعوة إلى الحق، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾.
- ٢ - حكم القتال سارٍ ما دام الكفار ماضين في حياكة المؤامرات والفتن، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾.
- ٣ - متى كف الأعداء عن القتال، سوف يكون لكلّ حادث حديث، ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ...﴾.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغَمُّ الْمَوْلَى وَيَغَمُّ النَّصِيرُ﴾

التعاليم:

- ١ - في إدارتنا القضايا العسكرية ووضع الاستراتيجيات السياسية يجب أن نتحسب لجميع الظروف والأبعاد، ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ... وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.
- ٢ - عليكم بواجباتكم إذا قصر الآخرون في واجباتهم أو أعرضوا، فالله مولاكم وهو ناصركم، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾.
- ٣ - لا تغفلوا عن ولاية الله تعالى ونصرته إياكم، ﴿فَأَعْلَمُوا﴾؛ (الإيمان بالولاية والنصرة الإلهية تقوي الدوافع والعزيمة على قتال مشيري الفتن، وذكر

ألطافه ﷺ تنزل السكينة في قلوب المؤمنين إزاء المؤامرات واللباج).

٤ - الله هو خير مولى، لأنه لا يكلنا إلى غيره ولا ينسانا، ولا يريدنا لحاجة في نفسه ولا يضيع أجر أحد، ﴿وَنِعَمَ الْمَوْلَى﴾.

٥ - نصره الله خير من أي نصير، ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾.

الجزء (١٠)

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١)

إشارات:

□ نزلت الآية الكريمة في أولئك الذين حاربوا مع الرسول الكريم ﷺ في يوم بدر، وحققوا النصر بتضحياتهم وثباتهم على العقيدة. أولئك الذين أقاموا الصلاة والصيام، وهاجروا وجاهدوا وبذلوا مهجهم في سبيل نصره الحق حتى شربوا رحيق الشهادة، أولئك الذين كان الرسول الكريم ﷺ قد وضع أمله فيهم، أقول: إن الآية الكريمة تتحدث عن هكذا أفذاذ، ولكن مع ذلك، فالله ﷻ يقول في هذه الآية: أيها المجاهدون البدريون، إن كنتم تؤمنون بالله ورسوله وبالكتاب، فعليكم أن تؤدّوا خمس ما غنمتم، أي أن شرط الإيمان بالله هو، مضافاً إلى الصلاة والصوم والجهاد، أداء الواجب، وهو الخمس.

□ ذكرت كل من «غنيمة» و«غرامة» ست مرات في القرآن الكريم، فكما إن الغرامة لا تقتصر على خسائر الحرب وتشمل مطلق الخسارة المالية، فإن مفهوم الغنيمة أيضاً لا ينحصر في دائرة مكاسب الحرب ويتسع للمنفعة أو المكاسب بصورة عامة. ولذلك لا تختلف مصادر اللغة مثل لسان العرب، وتاج العروس، والقاموس، وكذلك مفسرو أهل السنة من أمثال القرطبي، والفخر الرازي، والآلوسي في عمومية لفظ الغنيمة في اللغة.

وينضم إليهم الراغب أيضاً، إذ يقول في مفرداته: إِنَّ أصل الغنيمة من العَنَم، ثم يقول: ثم استعملوه في كلّ مظفور به من العدى وغيره. وفي القرآن الكريم استعمل لفظ الغنيمة لغير غنائم الحرب كما في الآية الكريمة ﴿فَوَعَدَ اللَّهُ مَكَانَهُ كَثِيرَةً﴾^(١)، ويقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحَقَّ وَعَنَمٌ»^(٢).

□ طبقاً لما ورد في الروايات وبحسب عقيدة الشيعة، فإنّ الغنيمة في هذه الآية تعني كلّ مغنم أو مكسب بما في ذلك المكاسب التجارية. والحقيقة أنّ نزول الآية في معركة بدر ليس بدليل على أنّ الخمس مختصّ بغنائم الحرب، ولو كان الأمر كذلك لوجب القول: إنّ حالة خمس واحدة وردت في هذه الآية، في حين وردت حالات أخرى في الروايات.

□ حظي الخمس في الروايات أيضاً بأهمية خاصة، حيث ذهبت إلى أنّ من لم يُخمس ماله فلا يحقّ له التصرف فيه وهو عليه حرام.

□ لقد أوجب الفقهاء الخمس في سبعة موارد:

- ١ - الربح والكسب والدخل السنوي.
- ٢ - الكنز.
- ٣ - المعادن.
- ٤ - اللآلي التي يحصل عليها الغوّاصون من أعماق البحر.
- ٥ - المال الحلال المخلوط بالمال الحرام.
- ٦ - الأرض التي يشتريها الكافر الذمي من المسلم.
- ٧ - الغنائم الحربية^(٣).

□ من الواضح أنّ الله تعالى ليس بحاجة إلى الخمس، لذا، فإنّ سهم الله هو لأجل تحكيم الشريعة الإلهية وولاية الرسول الكريم ﷺ، ولأغراض الدعاية وإيصال رسالة الإسلام إلى أسماع العالم، وكذلك من أجل إنقاذ المستضعفين والتصدي للمفسدين.

(٣) للاستزادة انظر: رسائل توضيح المسائل.

(١) سورة النساء: الآية ٩٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٠.

وقد ورد في الروايات عن الإمام الرضا عليه السلام أنه سُئل عن هذه الآية ف قيل له: فما كان لله فلمن هو؟ فقال: «لرسول الله ﷺ، وما كان لرسول الله ﷺ فهو للإمام»^(١) وهذه الأسهم الثلاثة توضع في عصر غيبة الإمام تحت تصرف النواب الخواص أو النواب العوام أعني المجتهد الجامع للشروط والمرجع الديني^(٢).

□ «ذي القربى»، بشهادة معظم روايات الشيعة^(٣)، وبعض روايات أهل السنة، ليسوا جميع قرابة رسول الله ﷺ، بل أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين لهم الإمامة والولاية، وأنَّ الخمس يختص بالقائد وبالحكومة الإسلامية لا بأقارب النبي.

علاوة على الروايات، فإنَّ مجيء «ذي القربى» بعد «الله وللرسول» وبخاصة حرف اللام، دليل على أنَّ ذا القربى هم أشخاص معيّنون سائرون على نهج الله ورسوله.

□ ورد في الروايات أيضاً، أنَّ المصارف الأخرى للخمس هي المساكين وابن السبيل من السادة من بني هاشم، وذلك لحرمة الزكاة على فقرائهم، لذلك كان يجب سدَّ عوزهم وفاقتهم عن طريق الخمس^(٤). إنَّ الشريعة الإسلامية ومن أجل القضاء على الحرمان والفقر في المجتمع أوجبت أمرين هما: الأول، الزكاة الذي يخصص لجميع فقراء المجتمع، والثاني، الخمس الذي يُعطى قسم منه للمحتاجين والفقراء من السادة، ويُشار إلى أنَّ إعطاء الخمس والزكاة للفقراء يكون لما يكفيهم لسنة واحدة لا أكثر.

□ سُئل الإمام الرضا عليه السلام: أ رأيت إن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ما يصنع به؟ قال: «ذاك إلى الإمام، أ رأيت رسول الله ﷺ كيف يصنع؟ أليس إنَّما كان يعطي على ما يرى؟ كذلك الإمام»^(٥).

(١) تفسير الصافي.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ٥٤٤.

(٤) مجمع البيان؛ سائل الشيعة، ج ٦، الخمس.

(٥) تفسير الصافي.

التعاليم:

- ١ - دفع الخمس واجب، حتى وإن كان المغنم قليلاً، ﴿غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٢ - أما وقد نصركم الله في «بدر»، حريّ بكم أن تؤدّوا حقّ الله ورسوله وأهل بيته ﷺ من خمس الغنائم، ﴿غَنِمْتُمْ... فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ﴾.
- ٣ - الإسلام يعترف للشخصية المعنوية بالملكية، ﴿وَالرَّسُولَ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾.
- ٤ - القضاء على الفقر والحرمان يقع في صميم برامج الإسلام، وينبغي تخصيص غنائم الجهاد لصالح الفقراء والمحرومين، ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.
- ٥ - الإيمان مدعاة للعمل بما تقتضيه المسؤولية والإيثار، ﴿لِلَّهِ حُمُسُهُ... إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ﴾.
- ٦ - التخلّي عن المال عسير على الإنسان، وأحياناً على المقاتلين أيضاً، ﴿غَنِمْتُمْ... إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ﴾.
- ٧ - دفع الخمس دليل على كمال الإيمان، فبعد استعراض الإيمان والعبادة والهجرة والجهاد يقول ﷺ: ﴿لِلَّهِ حُمُسُهُ... إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ﴾، من هنا فإنّ وجوب الخمس دائم، لا فصلي أو مؤقت، وذلك لاشتراط الآية الإيمان.
- ٨ - العبوديّة هي سرّ الانتهاال من نمير المعارف الإلهيّة، والنبى الأكرم ﷺ هو العبد الخالص لله تعالى، ﴿وَمَا أَرْزَأْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.
- ٩ - بركة وجود النبى الكريم ﷺ بين المسلمين مدعاة لاستنزال النصر الإلهي للمسلمين، ﴿وَمَا أَرْزَأْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾.
- ١٠ - بنزول المدد الإلهي في معركة بدر، تجلّت حقبة الإسلام، ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ فكان مظهراً لقدرة الله تعالى وعظمته، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ «الْعُدُوَّة» من «الْعَدُو» وتعني في الأصل التجاوز، ولكنها تطلق على أطراف كل شيء وحواشيه لأنها تتجاوز الحد الوسط إلى أحد الجوانب. و«الدنيا» من «الدُّنُو» بمعنى الأدنى والأقرب، و«القُصْوَى» و«الأقصى» هو الأعلى والأبعد. وهاتان منطقتان في ميدان أرض المعركة في بدر، إذ كان المسلمون في الجانب الشمالي من ميدان الحرب الذي هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء في الجانب الجنوبي وهو الأبعد، أو يحتمل أن يكون المسلمون في القسم الأسفل في الميدان وكان الأعداء في القسم الأعلى منه وهو يعدّ ميزة لهم.

□ لم يكن تفوق المشركين في معركة بدر يقتصر على العدة والعديد والاستعداد الجسمي والمعنويات العالية، بل إنهم كانوا قد تمركزوا في موقع استراتيجي أعلى محاذاً للبحر الأحمر ما يسمح لهم بالفرار، لكنّ الله تعالى دفع بالمسلمين إلى مواجهة أمر مقدّر، إذ لم يجدوا مفرّاً من قتال المشركين ودخلوا في معركة لم يخططوا لها وهم الذين جاؤوا، في الأصل، للإغارة على قافلة قريش فحسب، فكان أن كتب الله لهم النصر في تلك المعركة الخالدة بلطفه وكرمه.

ملاحم معركة بدر

إذا ما رسمنا لوحة لمعركة بدر بالاستناد إلى آيات هذه السورة منذ بدايتها وحتى الآن، يتبين لنا بوضوح المدد الإلهي الذي نزل على المسلمين:

١ - في هذه المعركة كان هدف المسلمين الإغارة على قافلة المشركين فقط ولم يكونوا متهيئين لقتال العدو بأيّ حال، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ «الآية ٧».

٢ - عندما اندلعت الحرب، امتعض بعض ويدي أن، ﴿قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُوْنَ﴾ «الآية ١٥».

٣ - كان بعض منهم يفزع من الموت، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ «الآية ١٦».

٤ - اضطرب بعضهم واستغاث آخرون، ﴿تَسْتَيْشُونَ رَبَّكُمْ﴾ «الآية ١٩».

٥ - أنزل عليهم المطر من أجل تطهيرهم من الأرجاس والأدران وتثبيت الأرض الرملية تحت أقدامهم، «الآية ١١».

٦ - لم تكن طاعة المسلمين تامة لقيادتهم، ﴿قَالُوا سَكِينًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ «الآية ٢١».

٧ - لقد وُصم تاريخ بعضهم بالخيانة، (كأبي لبابة) «الآية ٢٧».

٨ - كان قائدهم عرضة للتهديدات والمؤامرات، ﴿يَنْكُرُ بِكَ﴾ «الآية ٣٠».

٩ - لو كان الله قد أوكل الأمر إليهم، لما استطاعوا الوصول إلى توافق بسبب المشاكل الكثيرة التي عصفت بهم، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾.

مضافاً إلى أمثلة أخرى تشير كلها إلى أنّ وقوع معركة بدر كانت خطة إلهية لإبراز قوة المسلمين وقدرتهم، وتوجيه ضربة مهلكة إلى معنويات الكفار والمشركين.

لهذا السبب سميت معركة بدر في الآية السابقة بـ«يوم الفرقان»، وذلك لأنّ نزول المدد الغيبي كان من الكثافة والوفرة بحيث برزت الحقيقة خلالها مشرقة وساطعة للجميع، لهذا السبب فإنّ من يتنكر لها إنّما يفعل ذلك عن عناد ولجاج، ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

التعاليم:

١ - التذكير بحوادث الماضي والمدد الإلهي ودراستها أمرٌ ضروري، ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾.

٢ - عندما تقتضي المشيئة الإلهية، ترتفع جميع عوامل الضعف والخلل، ﴿يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

- ٣ - انتصار المسلمين في معركة بدر، حجة واضحة ضدّ الشرك ودليل ساطع على حقّة التوحيد والإسلام، ﴿لِيَقْضَىٰ... لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ﴾.
- ٤ - الهداية والإيمان عن وعي أمر ذو قيمة، كما إنّ الهلاك والضلال عن وعي أمر قبيح للغاية، ﴿لِيَهْلِكَ... عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ... عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.
- ٥ - يقوم الإسلام على البراهين والأدلة الساطعة المحكمة، ولا جرم أن دين كهذا لهو جوهر الحياة، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.
- ٦ - لقد كتب الله النصر للمسلمين سلفاً، وهو ما يفسّر اختلاف المشاهد والقرارات، ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ وهنا يمكن أن نتبين بأنّه سميع وعليم، ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتَهُ وَلَتَضَعِفُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن تأتي الآية الكريمة على استعراض الطاف الله ومدده الغيبي الذي أنزله على المسلمين، تتحدث عن مسألة مهمّة وهي أنّ الله تعالى أظهر الكفّار قلة في عيون المسلمين، وقد تمّ ذلك على مراحل عدّة هي: إنّ النبي الكريم ﷺ قد رأى في منامه من قبل أنّ قلة من المشركين تقاثل، ونقل هذه الرؤيا إلى المسلمين فازدادوا إصراراً وعزيمة على القتال. وفي المقابل أراء المسلمين قلة في عيون الكفّار لثلا يطلبوا تعزيزات إضافية من مكة لمحاربة المسلمين، (وقد ذكر ذلك في الآية اللاحقة).

كما إنّ عاتكة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة وقد تناقلت الأفواه رؤياها فازداد الناس اضطراباً، فقد رأت قبل ثلاثة أيام من مجيء رسول أبي سفيان إلى مكة، أنّ شخصاً يصرخ: أيّها الناس تعجلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادي إلى أعلى جبل أبي قبيس وأخذ حجراً كبيراً فرماه فتلاشى الحجر في الهواء، ولم يبق بيت في مكة لقريش إلّا نزل فيه منه شيء،

كما إنَّ وادي مَكَّةَ يجري دماً عبيطاً، فلَمَّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها وقصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا. هذه كانت ملامح من تفاصيل الخطة الإلهية لنصرة المسلمين في معركة بدر^(١).

□ يقول النبي الأكرم ﷺ: «الرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله والرؤيا من تحزين الشيطان والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه»^(٢). فرؤيا الأنبياء وأولياء الله هي من القسم الأول، لذلك فهي ذات حجية. وفي حديث شريف روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «رؤيا الصالحين بشارة من الله وهي جزء من أجزاء النبوة»^(٣).

طبعاً، رؤيا أولياء الله بحاجة إلى تأويل، كرؤيا النبي يوسف ﷺ سجود الشمس والقمر والنجوم له، وأحياناً تكون الرؤيا بياناً لحكم أو واقعة، وهذه لا تحتاج إلى تأويل مثل رؤيا النبي إبراهيم ﷺ حول ذبح ولده إسماعيل، أو رؤيا النبي الأعظم ﷺ في هذه الآية.

□ هذا وإن رؤيا الأنبياء قبس من شعاع الوحي، وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عدّة رؤى صادقة للنبي إبراهيم ﷺ والنبي الكريم ﷺ.

التعاليم:

- ١ - لا يجوز نشر المعلومات والأرقام أو الكشف عن نقاط القوة لدى العدو، أو كلّ ما يسبّب الاختلاف بين المسلمين ويضعف معنوياتهم، لا سيّما خلال احتدام المعارك في جبهات القتال، ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ...﴾؛ معنويات المقاتلين تلعب دوراً حاسماً في تحقيق النصر أو الهزيمة.
- ٢ - الله تعالى يحفظ المؤمنين في أحلك الظروف، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ﴾.

(٣) المصدر نفسه، ج ٦١، ص ١٧٧.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٤١.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

إشارات:

□ عندما تراءى للكفار أن المسلمين قلة صغيرة قالوا: ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا عليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد^(١)، ولكن عندما بدأت الحرب رأوا أعداد المسلمين وكانتها تضاعفت أضعافاً كثيرة، فارتعبوا وفزعوا^(٢).
ويقول الله ﷻ في مكان آخر: ﴿يَرَوْنَهُمْ مَشَاهِدَ رَأْيِ الْيَمِينِ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - التقدير الإلهي لا يسلب الإنسان إرادته، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾، ترغيب الفريقين في المنازلة في معركة بدر يشي بأن خيار الحرب لم يكن خارج إرادتهم.
- ٢ - المدد الإلهي نزل على المسلمين قبل أن تبدأ المعركة، ﴿فِي مَنَائِكَ﴾ وأثناءها أيضاً، ﴿يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ...﴾.
- ٣ - أحياناً، حين يشاء الله تعالى نصره المؤمنين يتحكم بالأبصار من خلال أعمال الولاية التكوينية، ﴿يُرِيكُمُوهُمْ... فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾.
- ٤ - استفادة الإنسان من حواسه أيضاً بيد الله تعالى، ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.
- ٥ - النصر في المعارك لا يعتمد على العدد والكثرة فقط، بل تحسمه عوامل أخرى من قبيل الإيمان ومعنويات المقاتلين والطف الله تبارك وتعالى وتقديراته، (في ضوء مفهوم الآية برمتها).

(١) تفسير الصافي.

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتَهُ فَبُكَّةٌ فَاقْبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

إشارات:

□ المقصود بالذكر ليس الذكر اللساني فقط، وإنما الخشوع الباطني والتذكير باللطاف الله ومدده ووعوده، والتذكير بعزته وعظمته وسطوته، يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في هذا السياق: «من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً». ثم قال: «أما لا أعني سبحان الله والحمد لله... وإن كان منه؛ ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرم، فإن كان طاعةً عمل بها، وإن كان معصيةً تركها»^(١).

التعاليم:

- ١ - شرط الإيمان ثبات القدم، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... فَاقْبَتُوا﴾.
 - ٢ - نحن مكلفون بالثبات في الجبهات، ﴿فَاقْبَتُوا﴾، ولكن حتى هذا الثبات يجب أن ندعو الله تعالى أن يمنحنا إياه، ﴿رَبَّنَا أَنْتَ عَلَيْنَا مَبِينٌ وَكُنْتَ أَقْدَمًا﴾^(٢).
 - ٣ - جبهة المسلمين يجب أن تكون معطرة بذكر الله، وكلما زادت المعضلات، اشتدت الحاجة إلى ذكر الله تعالى، ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.
 - ٤ - لا يكفي ذكر الله، بل الإكثار من الذكر، ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، فإذا لم يُذكر الله كثيراً عندما يشتد وطيس المعارك والحوادث المهمة في الجبهات، كان احتمال الجنوح عن الهدف والعمل والأسلوب أكبر.
 - ٥ - في جبهات القتال، يجب أن يحلّ ذكر الله تعالى محلّ ذكر الزوجة والأبناء، والأموال... إلخ، ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾.
- يقول الإمام السجاد زين العابدين (عليه السلام) في دعائه لأهل الثغور: «اللهم صلّ

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٠.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٦٣.

على محمد وآله وأنسهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخداعة الغرور، وامح عن قلوبهم خطر المال الفتون، واجعل الجنة نصب أعينهم^(١).

٦ - الثبات وذكر الله هما سر الانتصار في المعارك، والفلاح الخالد، ﴿فَاقْبَلُوا وَادْكُرُوا... لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

٧ - ميادين القتال والجبهات واحدة من مراكز الفلاح، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦)

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى عاملين من عوامل انتصار المؤمنين وهما «الثبات» و«ذكر الله»، وهنا تطرح الآية الكريمة عامل الطاعة والوحدة، ذلك أن الآية السابقة ذكرت ثبات القدم كناية عن عامل جسمي وظاهري، أما هنا فتذكر الصبر كعامل باطني وروحي.

□ «الريح» تعبير عن القوة والهيبة، كالريح التي تجعل العلم يهتز خفياً، دلالة على الثبات والزهو والعظمة. وإذا ذهبت هذه العظمة نتيجة للاختلافات والنزاعات، فستحل محلها الذلة والهوان. تماماً كما لو أفرغت دواليب السيارة أو الكرة من الهواء الموجود فيها، فإن الكثير من الأسفار، والرحلات، والألعاب الرياضية سوف تتعطل.

□ الوحدة واجتناب الاختلاف والفرقة هي من الأوامر الإلهية الأكيدة الواردة في العديد من الآيات، والتي ينبغي العمل بها في جميع المجالات، لا سيما في أوقات الحرب والنزاعات المسلحة مع العدو إذ تكون أكثر إلحاحاً، وقد أثنى الله تبارك وتعالى في سورة الصف على مسألة الاتحاد والنظام وحرص صفوف المجاهدين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَرْمُوسَةٌ﴾ (٢).

التعاليم:

- ١ - يجب أن ينطلق الجهاد تحت إمرة قائد المسلمين ويحكم من الله ورسوله (أو خليفته الحقيقي)، ﴿إِذَا لَيْتَ فِئَةً فَاتَّبِعُونَا... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ٢ - الشريعة والقائد الإلهي يشكّان محور الوحدة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ (﴿وَأَطِيعُوا﴾ إشارة إلى الشرائع الإلهية، و﴿وَرَسُولَهُ﴾ إلى القائد الإلهي).
- ٣ - النزاعات تجعل باطنكم خواء وظاهركم بلا عزة وإباء، ﴿فَنَفْسُكُمُ وَالْأَنفُسُ فَسَهَابٌ مُّسَوِّغٌ لِّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (كم من مصائب وهزائم تجرّعها المسلمون بسبب تركهم العمل بهذه الآية)!

- ٤ - فلتتمسك بالطاعة والوحدة، وإذا وجدت أو حصلت أشياء بعكس ما نشتهي، فلتصبر ونتحمل بعضنا، ﴿وَأَصْبِرُوا﴾.
- ٥ - الإيمان بأن الله تعالى مع الصابرين، يسوق المرء نحو الصبر والثبات، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.
- ٦ - نصره الله ومدده ينزلان على الصابرين، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧)

إشارات:

- لما أفلت أبو سفيان بالقافلة التجارية من قبضة المسلمين، ورجع إلى مكة سالماً، أرسل إلى أبي جهل أن قد رجعنا إلى مكة بسلام فارجعوا إن كنتم جئتم لنصرتنا، فتملّك أبا جهل الغرور وركب رأسه قائلاً: لا نرجع حتى نبيدهم عن بكرة أبيهم ونشرب نخب انتصارنا عليهم، لكنّ الله تعالى شاء أن يذوق أبو جهل مرّ الهزيمة في تلك المعركة ويشرب كأس الموت الزؤام.
- توجز الآيتان السابقتان مع هذه الآية أسباب النجاح في عوامل عدّة هي: ثبات القدم وذكر الله، وطاعة القائد، واجتناب الاختلافات، والصبر، وعدم الاغترار وترك الرياء وحبّ الدنيا.

التعاليم:

- ١ - الغرور والرياء من آفات القوة في جبهات الحرب، ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾.
- ٢ - الفرق الأساس بين الحروب الإسلامية وغير الإسلامية هو في طبيعة الهدف. فهدف المسلمين منها هو رفع الفتنة (الآية ٣٩ من هذه السورة)، أما أهداف الآخرين فهو الوصول إلى السلطة والقدرة، ﴿بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾.
- ٣ - وأنت تعتزم الذهاب إلى الجبهة، عليك أن تُخلص النية وتتجنب التظاهر والرياء، ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾؛ (صحيح أن سياق الآيات يتعلق بموضوع معركة بدر، إلا أن مفهومها عام يشمل جميع المنافقين الذين يتواجدون في الجبهات لأغراض الرياء والتظاهر وبث الشائعات وإضعاف الروح المعنوية للمقاتلين).
- ٤ - تسعى جبهة الباطل إلى سد منافذ الحقّ وصدّ الحركة المعنوية الإلهية في المجتمع، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - فليعلم الأعداء أنهم مهما حاولوا الوقوف بوجه الله فلن يخرجوا من دائرة سطوته وحكومته، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٨)

إشارات:

□ كلمة «جار» تعني المعين، والمجير، والشريك، والمجاور للدار، والحليف، والمعنى الأول هو الأنسب هنا. «نكص» تعني الإحجام والرجوع القهقري، و«عقب» هو كعب الرجل، والمراد بـ «نكص على عقبيه» هو أنه دار على كعبه وأعطى ظهره.

□ قد يكون المقصود بخطاب الشيطان لأتباعه في هذه الآية هو وساوسه، أو أنه

يحقق أهدافه وهو في صورة إنسان، فيقوم بالإغواء والوسوسة، ولدينا شواهد من الروايات على ذلك^(١).

لما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بكر بن عبد مناف بن كنانة من الحرب وكاد ذلك أن يثنىهم فجاء إبليس في جند من الشياطين فتبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جشع مال كناني ثم المدلجي وكان من أشرف كنانة وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم أي مجيركم من كنانة، فلما رأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم نكص على عقبيه، عن ابن عباس والسدي والكلبي وغيرهم، وقيل: إنهم لما التقوا كان إبليس في صف المشركين آخذاً بيد الحارث بن هشام فنكص على عقبيه فقال الحارث: يا سراقه أتخذ لنا على هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون فقال: والله ما نرى إلا جعاسيس يثرب، فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقه فبلغ ذلك سراقه فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان.

□ يلجأ الشيطان إلى الدعاية الإعلامية لصالح جبهة الباطل، إذ يرفع من معنوياتهم في بداية المعركة، ثم عندما يشهد نزول المدد الإلهي يتركهم وينسحب.

التعاليم:

١ - واحد من الأساليب التي يتبعها الشيطان في الإغواء، تزيين القبائح، ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾؛ نعم، إن تصويب الأعمال القبيحة والانحرافات دليل على نفوذ الشيطان في أفكار الإنسان.

٢ - الشيطان والمتشيطون يبررون للآخرين الفساد ويزينونه لهم، ﴿زَيْنَ... لَا غَالِبَ... جَارٌ لَكُمْ﴾.

٣ - الإيمان يستتبع مدد الملائكة ودعمهم، أما الكفر فيستتبع دعم الشيطان، ﴿جَارٌ لَكُمْ﴾.

- ٤ - الشيطان منافق ومخادع وكذاب وغادر، ﴿جَارٌ لَّكُمْ... بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.
- ٥ - الشياطين تقذح شرر الفتن والمعارك، لكنها تتحاشى الدخول فيها، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.
- ٦ - التوكل على غير الله هو سبب إيكال الإنسان إلى نفسه في الملمات، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ... إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.
- ٧ - العلاقات غير الإلهية تكون مهزوزة وغير موثوقة، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.
- ٨ - الشيطان مطلع على قدرات الملائكة، ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ لذلك، حين رأى قدرة الملائكة نكص وتراجع، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.
- ٩ - يستطيع الشيطان مشاهدة بعض خبايا الأمور، ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.
- ١٠ - الشيطان يؤمن بالله وبشديد عذابه، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقد ورد في الرواية عن ابن عباس أن إبليس كان يكذب في دعواه الخوف من الله، فلو كان يخاف حقًا لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه^(١).

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إشارات:

□ المنافقون وضعاف الإيمان ممن لا يؤمنون بالنصرة الإلهية، كانوا يظنون أن المسلمين مخدوعون، إذ لم يكن يخطر ببالهم أنهم سينتصرون على الرغم من قلة عددهم وعدتهم.

التعاليم:

- ١ - عليل السريرة تجده في خندق واحد مع المنافقين، ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾.

٢ - يعتقد المنافقون أنّ المسلمين مغرّرين بهم ومغرورين. (فهم يقولون: هل من المعقول أن يحاربوا بهتاف «الله أكبر» ويصدور عارية؟! هل من المعقول...)، ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ؟﴾

٣ - الميول والرؤى تترك تأثيراً على طبيعة تصوّرات الإنسان. إذ يمكن بناء تصوّرات عدّة عن عمل واحد، فهذا يعتقد أنّه يتوكّل على الله، وذاك يعتقد أنّه مغرّرين به ومغرور، ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ﴾.

٤ - التوكّل على الله شيء، والغرور شيء آخر، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ...﴾ (التوكّل على الله في معركة بدر كان عامل النصر).

٥ - يجدر التوكّل على من لا يقهر، وتتّصف جميع أعماله بالحكمة، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ (قدرة الله مقرونة بالعزّة والحكمة).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَ رُءُوسَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ لقد ذكر القرآن الكريم في آيات عدّة مسألة شدّة احتضار الكافر، منها الآية ٢٧ من سورة محمّد، والآية ٩٣ من سورة الأنعام، وذلك في مقابل سهولة احتضار المؤمن كما ورد في الآية ٣٢ من سورة النحل ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

□ «يتوفّى»، بمعنى يستوفي، والقرآن الكريم يقول: نحن نتوفّى الكافر بينما يبقى جسده في الدنيا، أي يتمّ استيفاء الروح، وفي هذا دلالة على أنّ حقيقة الإنسان تتلخّص في الروح، فما دام الإنسان حيّاً، في جسمه روح، وبعد الموت تفارق الجسم، فيفنى وتبقى هي.

التعاليم:

١ - الله تبارك وتعالى بتعذيبه الكفار يسرّي عن النبي والمؤمنين، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ...﴾.

- ٢ - الملائكة تميز المؤمنين من الكافرين، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
 - ٣ - العذاب الأخروي الإلهي للكافرين يبدأ مع لحظة توفيتهم، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى... يَصْرِيئُوتٌ وَجُوهُهُمْ﴾.
 - ٤ - العذاب يشمل عالم البرزخ أيضاً، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.
 - ٥ - العقوبات الإلهية ليست انتقاماً إلهياً بل هي جزاء ما اقترفه الإنسان، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ...﴾.
 - ٦ - ظلم شخص واحد، هو ظلم لجميع الناس، ﴿لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ (أقلّ الظلم من الله هو ظلم عظيم والله تعالى منزّه عن ذلك).
 - ٧ - العذاب الإلهي يستند إلى العدل، ﴿لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.
- ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - أحياناً يغدو الكفر واللجاج عادة لبعض، وفي هذه الحالة يستحق نزول العذاب، ﴿كَذَّابٍ﴾.
- ٢ - جميع الأمم متساوية عند الله، ومن يجنح منها نحو الكفر والضلال، أنزل عليها العذاب، ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا... فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، إن سنّة الله في معاقبة الكفار ثابتة، وعذاب المشركين في معركة بدر لم يكن حكماً خاصاً.
- ٣ - المعصية سبب العذاب الإلهي، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.
- ٤ - الله تبارك وتعالى لا يُعجزه أن يعذب الكافرين، بل إن كلّ الأمم (مثل فرعون القوي والمشركين الضعفاء) عاجزة أمام عذاب الله وغضبه، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ ورد في أحاديث عدة أنّ عوامل كثيرة تؤدي إلى تغيير النعم الإلهية مثل الإقامة على الظلم والمعاصي، أما العودة عن المعصية والانحراف والحركة في مسير الحق، فتؤدي إلى نزول أنواع النعم الإلهية^(١).

والحقيقة، أنّ ارتكاب المعاصي والظلم تسلب الإنسان استحقاقه في التمتع بالأنعام الإلهية. ويشير الإمام علي عليه السلام إلى هذا الأمر في الخطبة القاصعة، وكذلك نقرأ في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم... اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم...»^(٢).

□ وفي كتابه إلى مالك الأشتر، يقول الإمام علي عليه السلام: «وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد»^(٣).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تعوذوا بالله من سطوات الله بالليل والنهار»، قيل: وما سطوات الله؟ فقال: «الأخذ على المعاصي»^(٤).

التعاليم:

١ - زوال النعم هو نتيجة لأفعالنا، وإلا فإنّ سنة الله تقضي باستمرار النعم، ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً... حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٢ - الله تبارك وتعالى يهب النعم ويرفعها طبقاً لسنة وحكمته، ﴿لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً... حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾.

٣ - لقد سبقت رحمة الله نعمته، ﴿أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾.

(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) مصباح المنجد وصلاح المتعب، ج ٢، ص ٨٤٤. (٤) الكافي، ج ٢، ص ٢٦٩.

- ٤ - مضافاً إلى العقوبات الفردية، العقوبات الاجتماعية أيضاً لها شرائع وقوانين في الإسلام، ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾.
- ٥ - تقوم فطرة الإنسان على الإيمان والظهور، لكنه هو الذي يقوم بتغييرها، ﴿يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٦ - الإنسان هو الذي يصنع التاريخ، وليس الاقتصاد أو حتمية التاريخ أو البيئة تصنع الإنسان، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا...﴾، طبعاً دون أن نغض الطرف عن تأثير البيئة والاقتصاد، ولكن ما نريد قوله هو أن الدور الرئيس هو لإرادة الإنسان، وليس لأي من هذه العوامل أن تجبر الإنسان على فعل ما.
- ٧ - الأفراد هم الذين يشكلون المجتمع، وأي تحول إيجابي أو سلبي في المجتمع ينبثق عن التحول الفكري والشفافي لأفراده، ﴿قَوْمٍ... يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٨ - سعادة الأمم وشقاؤها رهن بالتحولات الداخلية فيها، لا السلطة أو الثروة، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٩ - عند دراستنا للمجتمعات، تكون معنويات الأفراد هي المحور لا الحظ أو الخرافات، أو النظم الحاكمة أو حتمية التاريخ... إلخ، ﴿يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ١٠ - جميعنا في عين الله، وعذاب الكفار يستند إلى علم الله المحيط، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ^٢ وَكُلُّ كَاثِرٍ ظَلِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

□ هذا التعبير ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مكرّر، إذ ورد في الآية قبل السابقة، لكنه تكرار لا يتعارض مع البعد البلاغي للآية، وذلك لاختلاف المواضع. فالآية السابقة تتحدث عن العذاب الإلهي للظالم، وهنا عن تغيير النعم بسبب تغير

حال الناس. طبعاً، ربّما يكون المقصود في الآية السابقة العذاب الآخروي وهنا العذاب الدنيوي.

التعاليم:

- ١ - علينا استلھام العبر والدروس من سيرة الماضين، ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾.
- ٢ - التكذيب بآيات الله مدعاة لهلاك الإنسان، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾.
- ٣ - للإنسان حرية الاختيار، ومصيره رهن عمله، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يُذَوِّبُهُمْ﴾.
- ٤ - الظلم والمعصية سبب نزول العذاب الإلهي، سواء أكان ظلماً للنفس أم للآخرين أم للأنبياء والدين، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يُذَوِّبُهُمْ... كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.
- ٥ - بعض الصعاب والشدائد وحوادث الدنيا وزوال النعم هي بسبب معاصي الإنسان، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يُذَوِّبُهُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.
- ٦ - التكذيب بآيات الله وارتكاب المعاصي ظلم، ﴿كَذَّبُوا... كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إشارات:

□ في الآية ٢٢ كان المراد بـ «شَرِّ الدَّوَابِّ» هم الذين لا يعقلون، والمقصود هنا هو أولئك الكافرون الذين لا يؤمنون. لذا، يتبين من ذلك أنّ جذور الكفر تعود إلى عدم التعقل الصحيح. يربط القرآن الكريم قيمة الإنسان وفضله بالعقل والإيمان، فإذا لم يعقل أو كفر، فقد أخرج نفسه من دائرة الإنسانية. الإنسان الحقيقي هو الذي يعقل ويؤمن.

إذن، فالكافر الذي يدرك الحقّ لكنّه لا يؤمن به، هو عند الله أخطأ المخلوقات حتى وإن كان له شأن بين الخلق.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦)

إشارات:

□ كانت معاهدة النبي الكريم ﷺ مع اليهود تقضي بعدم مساعدة هؤلاء للمشركين، وعدم إيذائهم المسلمين، لكنهم نقضوا عهدهم ونصروا المشركين بأن أمدوهم بالأسلحة والتجهيزات في معركة الخندق.

□ ورد في الرواية: «ثلاث من كنَّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم؛ من إذا اتَّمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف»^(١).

التعاليم:

١ - قائد المسلمين له صلاحية عقد المعاهدات مع الكفار، ﴿عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾، كما هو الحال مع النبي الأكرم ﷺ الذي كان يعقد المعاهدات مع الكفار، وإن كان بعضهم لا يلتزم بها، ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

٢ - نقض المعاهدات لا يشكل مانعاً من عقد معاهدات جديدة، ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

٣ - نقض العهود لا ينسجم مع مفهوم الإنسانية، ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ... يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾.

٤ - الكفر مدعاة لنقض العهود، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾.

٥ - نقض العهود سببه عدم الورع والتقوى، ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ... وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

٦ - الخطر الأكبر يأتي ممَّن أصبح نقض العهد لهم عادة ونهجاً، وبالتالي لا يرون ضيراً في ذلك، ﴿يَنْقُضُونَ... فِي كُلِّ مَرَّةٍ... لَا يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا ثَقَفْتُمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾

إشارات:

□ «ثقف»، تعني بلوغ الشيء بدقة وسرعة، وفيها إشارة إلى وجوب التنبه في التعامل مع الكفار.

□ «تشريد»، بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب، أي ينبغي أن يكون الهجوم على الكفار بشكل تفرّق معه المجموعات الأخرى من الأعداء ممّن يساندهم خلف الجبهات لتلقي في قلوبهم الرعب بحيث لا يفكّرون بالهجوم عليكم مرةً أخرى.

التعاليم:

- ١ - يجب أن يكون تصديكم للأعداء مباغتاً وسريعاً ودقيقاً وصاعقاً، وهذه هي من أهمّ مبادئ الحرب والقتال، ﴿ثَقَفْتُمُ... فَشَرِدَ بِهِمْ﴾.
- ٢ - لا بدّ للقائد من أن يمتلك بصيرة ورؤية واسعة بحيث لا يغفل عن دسائس المتآمرين، وأن يتخذ القرارات الصحيحة والحاسمة بالتصدي لهم، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ﴾.
- ٣ - ينبغي أن لا نكتفي بالدفاعات التقليدية الأمامية للجبهة، بل علينا أن نأخذ بالاعتبار الدفاعات الخلفية للعدوّ والقائمين على الخطط، ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾، كما هو الحال مع قيادة السيارة، إذ يقتضي الأمر ألا نركّز نظرنا على المشهد القريب، بل علينا أن ننظر إلى المشاهد البعيدة أيضاً.
- ٤ - عقوبة من ينقض العهود ويعرّض أمن المجتمع واستقراره للخطر أن يُسلب استقراره ويعيش في هلع واضطراب، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ﴾.
- ٥ - الإسلام هو دين الرأفة والرحمة، ولا شك في ذلك، إلّا أنّه، في الوقت ذاته، لا يتسامح مع الخيانة، ونقض العهود، والإخلال بالنظام والأمن، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ﴾.
- ٦ - لا بدّ من المحافظة على هيبة المجتمع المسلم ومهابته، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾.

- ٧ - يجب ردع الكفار لئلا يفكروا في معاودة الهجوم علينا، ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾.
- ٨ - الإسلام دين الدعوة والموعظة، لكنه أيضاً دين القدرة والتصدي بحزم لناكثي العهود والمشائين، ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾، لذا ينبغي أن يكون تعاملنا مع الخطوط الأمامية حازماً ليكون درساً وعبرة للآخرين، ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَأَنذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

- «فأنذر إليهم» من «نذ»، بمعنى الإلقاء أو الإعلام والرد، والمراد أعلن أولاً عن ردّ عهودهم ثم نفذ ذلك، لئلا يُفاجأوا، وكذلك كيلا تكونوا غدرتم بهم.
- «على سواء»، إما بمعنى المعاملة بالمثل، أي كما إنهم نقضوا العهد بأعمالهم التي اقترفوها، فالفعل أنت من جهتك أيضاً، فهذا حكم عادل، يتساوى وما فعلوه، أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح وصريح لا لبس فيه ولا خدعة^(١).

- إذن، مقصود الآية الكريمة هو، أنه في حال ظهور شواهد وقرائن على خيانة العدو، فيجب توجيه ضربة استباقية لهم من خلال إلغاء المعاهدة.

التعاليم:

- ١ - بالنسبة إلى القضايا العسكرية والاجتماعية الحساسة، لا ننتظر حدوث الخيانة، ولكن مع ذلك يجب أن نتحسب أيضاً للاحتتمالات المنطقية في الخيانة، ﴿وَأَمَّا تَخَافُ... خِيَانَةٍ﴾.
- ٢ - الإسلام يتمسك بالعقود والمعاهدات التي يبرمها، والوفاء بها واجب ما لم يُحتمل وجود خيانة، ﴿وَأَمَّا تَخَافُ... خِيَانَةٍ فَأَنذِرْ لَهُمْ﴾.
- ٣ - تقدير القرائن والشواهد الخاصة بالخيانة واتخاذ القرار بإلغاء العقود

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الميزان في تفسير القرآن.

والمعاهدات كلّ ذلك من صلاحيات قائد المجتمع الإسلامي، ﴿فَأَيْدِ
إِلَيْهِمْ﴾؛ (لاحظ أنّ الخطاب موجه إلى النبي الكريم ﷺ لا إلى الأمة
الإسلامية).

٤ - لا بدّ من التمسك بالمعاهدات طالما لا توجد أمارات على الخيانة، وفي غير
هذه الحالة يجب اللجوء إلى خيار الإلغاء، ﴿فَأَيْدِ إِلَيْهِمْ﴾.

٥ - إن كنتم تخشون خيانة العدو، فالحل ليس في الغدر، بل في إلغاء المعاهدة
والإعلان عن ذلك، ﴿فَأَيْدِ إِلَيْهِمْ﴾.

٦ - يجب مراعاة العدل والإنصاف حتى مع العدو، ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ تعني بالعدل^(١).

٧ - إلغاء المعاهدة من باب المعاملة بالمثل، أمرٌ عادل، ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾.

٨ - الخيانة محرمة وقبيحة أيّاً كان مرتكبها كافراً أم مسلماً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ﴾.

٩ - إعلان الحرب على من تربطنا بهم معاهدات ومواثيق، خيانة، ﴿فَأَيْدِ إِلَيْهِمْ...
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

١٠ - لا يجوز أن نسبق السنن الإلهية، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... سَبْقُوا﴾.

١١ - لا بدّ للمسلمين من الإمساك بزمام المبادرة لئلا يظنّ الكفار أنّ لهم سبق
عليكم، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾.

١٢ - لن يحقق الكافرون أهدافهم بالخيانة، ﴿لَا يَفْزَحُونَ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

يُؤْتِكُمْ إِيَّانَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ تطلق هذه الآية دعوة استنفار للمسلمين ليتعبأوا في مواجهة الأعداء من خلال

الاستعداد وتجهيز أنفسهم بجميع أنواع الأسلحة والإمكانات والوسائل والأساليب الدعوية وحتى بالشعارات والأناشيد، حيث إن تطبيق هذه الأوامر يدخل الرعب في قلوب الأعداء من القوة القتالية للمسلمين.

□ روي أن النبي الأكرم ﷺ بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل فوراً جماعة إلى اليمن لشرائه. ونقل عنه ﷺ قوله: «إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب في صنعه الخبير والرامي ومنبله»^(١).

□ لقد أجاز الإسلام سباقات الرماية والفروسية، كما أجاز الرمح والخسارة فيها، وذلك من أجل الاستعداد القتالي لدى المسلمين.

□ مرجع الضمير في «لهم» هو الكفار والذين ذكروا في الآية السابقة ممن يُخشى خيانتهم. والمعنى هو، يجب الاستعداد في مقابل العدو الذي تحتملون خيانتهم حتى في إطار العهود والمواثيق.

التعاليم:

١ - ينبغي على المسلمين أن يتعبأوا للقتال على صعيد التجهيزات والعدد والعدة... إلخ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة خيانة الأعداء أو حملاتهم، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

٢ - الهدف من التعبئة العسكرية هو صيانة الدين والوطن والمسلمين، لا الإغارة أو الفتوحات والاستعمار... إلخ، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ...﴾.

٣ - يجب على الدولة أن لا تألوا جهداً في تخصيص الميزانيات الدفاعية لحماية النظام الإسلامي، وإرهاب أعداء الله، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

٤ - لا بد لجميع المسلمين من أن يتعبأوا لمواجهة دسائس العدو ومؤامراته، وأن يتلقوا التدريبات العسكرية لهذا الغرض^(٢)، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

(١) تفسير الفرقان.

(٢) أعلن الإمام الخميني (ره) عن جيش من عشرين مليون بعد انتصار الثورة يوم كان عدد سكان إيران ٣٠ مليون.

- ٥ - لا نرتجي دائماً من المباحثات والحوار خيراً، فقد تضطرتنا الظروف أحياناً إلى اللجوء إلى القوة، ﴿يَنْ قُوَّةً﴾.
- ٦ - في كلِّ عصر لا بدّ من توفير أحدث الإمكانيات القتالية الدفاعية، وأن لا نستثني أيّ شيء، بما في ذلك القوّة السياسيّة أو العسكرية أو الإمكانيات الدعائية والإعلامية واللوجستية، ﴿يَنْ قُوَّةً﴾.
- ٧ - يجب أن لا نتورّع عن استخدام أيّ وسيلة لإدخال الرعب في قلوب الأعداء، بما في ذلك الممارسات الظاهرية، ﴿يَنْ قُوَّةً﴾، فقد ورد في قوله ﷺ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾؛ الحديث الشريف: «منه الخضاب بالسواد»، لثلا يقول الأعداء إنّ مقاتلي الإسلام من الشيوخ وكبار السن^(١).
- ٨ - حتى تعليم فنون القتال للنساء يصبح ضرورياً إذا كان الهدف إرهاب العدو، ﴿يَنْ قُوَّةً... تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.
- ٩ - لا تقنعوا بإمكانياتكم الراهنة، وعليكم أن تدفعوا بالاستعدادات العسكرية والدفاعية إلى حدّ تهديد الأعداء، ﴿يَنْ قُوَّةً... تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.
- ١٠ - الوحدة والاتحاد نوع من القوّة، لأنّه لا يمكن إرهاب العدو بالفرقة، ﴿يَنْ قُوَّةً... تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾.
- ١١ - الجميع جنود تحت لواء الإسلام، والتعبئة الشعبيّة ضرورية، ﴿وَأَعِدُّوا... تَرْهَبُونَ... وَمَا تُنْفِقُوا...﴾.
- ١٢ - الخيول الحربية في ذلك العصر، والتجهيزات العسكرية في عصرنا يجب أن تكون في حالة استنفار واستعداد، ﴿رَبَاطُ الْخَيْلِ﴾.
- ١٣ - جهوزية القوّة البشرية والمعدّات العسكرية، كلاهما لازمان، ﴿يَنْ قُوَّةً وَمِنْ رَبَاطِ الْخَيْلِ﴾.
- ١٤ - يجب أن يكون للإسلام نظام وحكومة، فبدون ذلك لن يرتعب الأعداء، ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾.

١٥ - يجب تقوية البنية الدفاعية للمسلمين في المجالات الثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والعقدية... إلخ، من أجل أن يرتعب العدو على كل صعيد، ويُقضى على مؤامراته ودسائسه، ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾ جاء في صيغة مطلقة).

١٦ - يجب المحافظة على القيم الإلهية والحقوق الإنسانية في آنٍ معاً، ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٧ - الإسلام يهتم بالعقيدة والكرامة الإنسانية لا بالأهداف الشخصية والعنصرية والقومية، ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ﴾.

١٨ - ليس كلّ الأعداء معروفين ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾، ربّما كان المقصود المنافقين، ذلك لأنّ العبارة نفسها استعملت في سورة أخرى، ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ تَحْنُ تَقْلُوبُهُمْ﴾^(١).

١٩ - لا تشغلوا بالتصدي للأعداء الظاهريين فقط، بل يجب التحوّل للأعداء المستترين راهناً وآتياً، ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾.

٢٠ - تأمين القوة الدفاعية تحتاج إلى نفقات، فالشعارات والمواعظ وحدها لا تكفي، ﴿تُنْفِقُوا﴾.

٢١ - على الشعب أن يساهم في المجهود الحربي وتأمين نفقات الجبهات، ولا يختصّ هذا بأوقات الحرب فقط، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا...﴾؛ (صيغة الآية مطلقة وتعني أنّه يجب على المسلمين دائماً أن يرصدوا المبالغ للمحافظة على استعدادهم).

٢٢ - لا يكفي توفير الأسلحة والأفراد، بل ينبغي توفير الدعم المالي، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾.

٢٣ - إرسال المساعدات إلى الجبهات بكلّ الوسائل واجب، بالأموال، والأنفس، والجاه، والمعلومات، والقلم... إلخ، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

٢٤ - أيّ جهد، أو إنفاق، أو تسخير للإمكانات من أجل تقوية البنية العسكرية للحكومة الإسلامية يعتبر من أمثلة الإنفاق في سبيل الله تعالى، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢٥ - يعود الإنفاق بالخير والبركة على صاحبه شرط أن يكون في سبيل الله تعالى، لا طلباً للرياء، أو السمعة، أو التظاهر، أو بسبب العلاقات والاعتبارات الأخرى، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢٦ - المساعدات المالية هي عامل اقتدار الأمة، ونتيجتها ستعود على الشعب والوضع الاقتصادي للمجتمع وعزة المسلمين، ﴿يُؤْتِكُمْ إِيَّاهُمْ﴾.

٢٧ - إغماط حقوق الآخرين وعدم دفع رواتبهم ومكافأتهم بصورة كاملة، ظلم، ﴿يُؤْتِكُمْ إِيَّاهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَقْضُونَ﴾.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

إشارات:

□ كتب الإمام علي عليه السلام إلى عامله مالك الأشتر قائلاً: «لا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوك والله فيه رضا فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحك، فإن العدو ربما قارب ليتغفل»^(١)

التعاليم:

١ - لن يجنح العدو للسلام ما لم يكن المسلمون في أوج قوتهم، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾.

٢ - الإسلام ليس طالب حرب، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا... فَاجْنَحْ﴾.

٣ - قرار الحرب والقبول بالصلح هو من صلاحيات النبي وقائد المجتمع المسلم.

الآية تقول: ﴿فَاجْنَحْ﴾ لا: «فاجنحوا».

- ٤ - لا يجوز استغلال حالة القوة والافتقار لإملاء الشروط، ﴿فَاجْنَحْ﴾.
 - ٥ - إذا ما قبلتم باقتراح الصلح، توكلوا على الله، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ﴾.
 - ٦ - اعلّموا أنّه في قبولكم لاقتراح الصلح قد تبرز احتمالات الخطر والتأمر، أو ملامة بعض الأصدقاء، ولكن في كلّ الأحوال يجب التوكل على الله تعالى، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.
 - ٧ - الإيمان بأنّ الله سمع مطلق وعلم شامل، يدعو الإنسان إلى التوكل عليه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ إذا أردنا تفسير هذه الآية فيجب أن نضعها إلى جانب الآية ٥٨، ليكون المعنى، إذا أيقن القائد الإسلامي من خلال الشواهد والقرائن بأنّ العدو يدبر لخدعة في إطار تقديمه مقترح الصلح، فله أن يتصرّف بشكل آخر، ولكن إذا احتمل حسن نيّته فيجب أن يُقدم على الصلح ولكن مع توخّي الحذر والاحتياط.

□ فسّرت بعض الروايات مفهوم النصرة الإلهيّة في هذه الآية بمساندة الإمام علي عليه السلام وتأييده النبيّ الكريم ﷺ. فقد جاء في كتاب ابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي الأكرم ﷺ قوله في حديث قدسي: «أنا الله الذي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، محمّد عبدي ورسولي، أيّده بعليّ»، فأنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، «فكان النصر عليّاً»^(١).

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص ١٩٩؛ ملحقات إحقاق الحق، ج ٣، ص ١٩٤؛ بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢.

التعاليم:

- ١ - على قائد المجتمع المسلم أن يقبل بعرض الصلح الذي يقدمه العدو حتى لا يقال عن المسلمين: إنهم طلاب حرب، ولكن مع توخي الحذر لئلا يكون في الأمر مكيده، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا... فَأَجْنَحْ... وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾؛ (بمعنى إذا كان ثمة احتمال للخديعة).
 - ٢ - إذا كان الناس يقظين، وشملهم الله تعالى بلطفه، فسيتّم دحر كلّ مؤامرات الأعداء، ﴿فَأَبَنتَ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾.
 - ٣ - إذا قمنا بمسؤولياتنا على أتم وجه، فلا ينبغي لنا أن نخشى شيئاً، ذلك أن الله تعالى هو حلّال المشاكل، ﴿أَيَّدَكَ بِتَقَرُّو﴾.
 - ٤ - المدد الإلهي والدعم الشعبي كلّ يصبّ، بمشيئة الله، باتجاه نصرتكم، ﴿أَيَّدَكَ بِتَقَرُّو. وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.
 - ٥ - الدعم الشعبي يكون فاعلاً إذا ما تمّ في إطار المشيئة الإلهية، ﴿فَأَبَنتَ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ... وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.
 - ٦ - طلب المدد من الناس بعد الله ليس شركاً، ﴿أَيَّدَكَ بِتَقَرُّو. وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.
 - ٧ - الشعب هو الظهير القوي للقائد والذراع الضاربة له، ﴿أَيَّدَكَ... وَالْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

التعاليم:

- ١ - التأليف بين القلوب بيد الله تعالى، ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾.
- ٢ - الوحدة والألفة والمحبة من نعم الله تعالى التي ذكرها والتي منّ بها على الناس وعلى النبي الكريم ﷺ، ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾.
- ٣ - الأهمّ من الوحدة الظاهرية هو الانسجام القلبي والباطني، ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾، وإلا فالكفار أيضاً متحدون في الظاهر، لكن قلوبهم متفرقة،

﴿نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى﴾^(١).

٤ - الشعب يكون ذراع القائد عندما يكونون متّحدين، وإلا فإن تفرقتهم تقصم ظهره، ﴿أَلَيْكَ يَتَصَرَّوْا وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٥ - كانت القبائل العربيّة قبيل الإسلام في دوامة من العداء الشديد في ما بينها، ﴿وَأَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... مَا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٦ - الثروة والمنصب لا تجلبان المحبة دوماً، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ... مَا أَلَفَتْ﴾.

٧ - خلق المحبة والتواشج بين المؤمنين، قس من العزة والحكمة الإلهية، ﴿وَأَلَفَ بَيْنَهُمْ... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ ربّما أمكن تفسير الآية على النحو التالي: يا أيّها النبي، الله تعالى كافيك وكافي من اتّبعك من المؤمنين.

طبقاً للمعنى الأول، فإنّ المؤمنين يدافعون عن النبي تحت راية الله تعالى، أمّا المعنى الثاني فهو، أنّ الله كافي المؤمنين إلى جانب النبي الأكرم ﷺ.

□ نقل بعض المفسّرين أنّ جماعة من يهود بني قريظة وبني النضير قالوا للنبي الكريم ﷺ: نحن نسلم ونتبعك، فنزلت هذه الآية محذرة النبي من كيدهم ومطمئنة إيّاه بأنّ المعول عليه هم المؤمنون. وبالمناسبة، فإنّ هذه الآية تمهيد لحكم الجهاد الذي نزل في الآية اللاحقة.

□ في كتاب «فضائل الصحابة» أورد الحافظ أبو نعيم، وهو من مشاهير علماء السنة أنّ هذه الآية نزلت في حقّ علي بن أبي طالب، فالمقصود بالمؤمنين هو علي عليه السلام^(٢).

□ إذا كان طلب المعونة من الناس والاتكاء على دعمهم في إطار مشيئة الله تعالى وإرادته، فلا يتنافى ذلك مع التوحيد. فالشرك يبدأ عندما يكون الاتكاء على دعم الآخرين وعونهم في مقابل قدرة الله وإرادته، لذا، فما دامت القلوب والأفكار والمعونات قبسات من الإرادة الإلهية، فلن يخرج الأمر عن دائرة التوحيد، ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾.

التعاليم:

١ - التبعية قيمة عندما تكون مقرونة بالإيمان، فلا تبعية بلا إيمان ولا إيمان بلا تبعية، ﴿اتَّبِعْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

إشارات:

□ تنفي هذه الآية أن يكون توازن القوى معتمدا على العدد وحده، بل تربطه بقوة الإيمان والمعنويات العالية والصبر، ولثلا يُتصور أن غلبة عشرين نفراً على مئتين هو من باب المبالغة، تكرر الآية المسألة فتزيد العدد قائمة إن مئة من المسلمين يغلبون ألفاً إن توفر فيهم شرطاً الإيمان والصبر.

□ في الحقيقة، إن أغلب معارك صدر الإسلام التي خاضها المسلمون ضد الكفار لم يكن ميزان القوى لصالحهم أبداً. ففي معركة بدر كان عدد المسلمين ٣١٣ مقاتلاً في مقابل ألف من المشركين، وفي أحد كان عدد المسلمين ٧٠٠ أما جيش العدو فكان يناهز ٣ آلاف مقاتل، وفي معركة الخندق، كان عدد المسلمين ٣ آلاف والمشركون ١٠ آلاف، وذكروا أن عدد المقاتلين المسلمين في معركة مؤتة كان ١٠ آلاف وقد واجهوا جيشاً جراراً للعدو قُدِّر بمئة ألف مقاتل.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أما علمتم أن الله ﷻ قد فرض على المؤمن في

أَوَّلُ الْأَمْرِ أَنْ يُقَاتِلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ عَشْرَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُوَلِّيَ وَجْهَهُ عَنْهُمْ»^(١).

التعاليم:

- ١ - من مسؤوليات القائد حثّ الناس على الجهاد وقتال العدو. (أهمية إلقاء قائد الجند الخطب قبل ساعة الصفر للمعارك)، ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرِيضٌ﴾.
- ٢ - المهمّات الصعبة تحتاج إلى ترغيب وحضّ وتلقين، ﴿حَرِيضٌ﴾.
- ٣ - الدعاية في الحرب والجهاد تعدّ أمراً حيوياً، ﴿حَرِيضٌ﴾.
- ٤ - الإيمان، والاستقامة، والثبات هي عوامل مصيرية في جبهات القتال، وليس فقط العدد وميزان القوى الظاهري، ﴿عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَغْلِبُوا بِأَثْنَيْنِ﴾.
- ٥ - في صدر الإسلام، كان نصاب حكم الجهاد ينعقد بوجود عُشر قوات العدو، ﴿عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَغْلِبُوا بِأَثْنَيْنِ﴾، وهذا يفسّر قوّة إيمان المسلمين في صدر الإسلام ومعرفتهم ويقينهم، إذ كانوا يضمنون نصرهم على قوّة توازي عشرة أضعافهم، ﴿يَغْلِبُوا﴾ إشارة إلى ضمان النصر).
- ٦ - يجب أن يتوافر جند الإسلام على ثلاث خصائص هي: الإيمان، الصبر، البصيرة. («مؤمنون» و«صابرون» بالنسبة إلى المسلمين، وبالنسبة إلى الكفار «لا يفقهون»).
- ٧ - التكليف الإلهي يأخذ بالاعتبار القابليات الفكرية والجسمية للإنسان. (أحياناً يستدعي الأمر أن يقاتل المرء عشرة أشخاص، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة، وفي أحيان أخرى قد يتطلّب الأمر أن يقاتل شخصين، وهو موضع إشارة الآية اللاحقة).

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

إشارات:

□ المراد بـ «الضعف» هنا هو ضعف الإيمان والمعنويات، ذلك أن عدة جيش الإسلام وعديدهم لم ينخفضا.

□ في هذه الآية وفي التي سبقتها إشارة إلى ثلاثة عوامل نفسية للنصر، وبدونها تقع الهزيمة لا محالة، وهذه العوامل هي: الصبر، الإيمان والبصيرة. طبعاً، العامل الأساس في تحقيق النصر هو إرادة الله تعالى وإذنه. والدليل على ذلك الهزيمة التي وقعت للمسلمين في معركة حُنين على الرغم من كثرتهم ﴿أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ... ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(١).

□ الأحكام المتباينة لهذه الآية وتلك التي سبقتها هي لارتباطها بفريقين مختلفين وفي ظروف مختلفة، لا أن حكم الآية الأولى نُسَخَ بالآية الثانية^(٢).

التعاليم:

١ - في مسير الإدارة، يتطلب الأمر، أحياناً، تغيير القوانين بسبب تبدل الظروف لتتناسب مع المتلقي، ولا يتعارض هذا مع مسألة الحسم والقطع، ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ﴾.

٢ - تحديد الواجبات وتغيير القوانين، بيد الله وحده، ﴿خَفَّفَ اللَّهُ﴾.

٣ - الإيمان يتأرجح بين المدّ والجزر، ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٤ - الكثرة ليست دائماً دليل قوة المعنويات، إذ تجد أحياناً العدد كبير لكن المعنويات هابطة، ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

٥ - عند تشريع القوانين، يجب أخذ معنويات الأشخاص واستعداداتهم بالاعتبار،

(٢) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) سورة التوبة: الآية ٢٥.

﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

- ٦ - العامل الرئيس للهزيمة هو داخلي وليس خارجياً، ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.
- ٧ - ينبغي على القادة العسكريين أن يتنبهوا إلى مسألة معنويات جند الإسلام، ونشاطهم، وإصرارهم على القتال، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.
- ٨ - أحياناً يتسبب ضعف الإرادة في خفض الاستعداد القتالي والنفسي من عشرة أضعاف إلى ضعفين؛ (أي ينخفض بنسبة ٨٠ في المئة) في هذه الآية ﴿يَأْتُهُ... يَفْلِبُوا وَيَأْتِيَنَّ﴾، في حين الآية السابقة تقول: ﴿يَأْتُهُ يَفْلِبُوا أَلْفًا﴾.
- ٩ - حتى في حال ضعف المعنويات، يجب أن تكون قوة المسلمين ضعف قوة الكفار، ﴿فِيكُمْ ضَعْفًا... وَإِنْ يَكُنْ يَنْكُمُ أَلْفٌ يَفْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾.
- ١٠ - لا ينبغي أن نغتر بنصرنا، فقد كان بإذن الله، ﴿يَاذَنْ اللَّهُ﴾.
- ١١ - الصابر حبيب الله وفي حرزه ومشمول بمدده، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.
- ١٢ - يجب أن يعلو شعار ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في جبهات القتال وحيثما كانت الحاجة للصمود والصبر، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧)

إشارات:

- «يشخر» من الشخانة وهي الضخامة والغلظة والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الثبات والنصر والفوز المعلن المقتدر.
- في هذه الآية تنبيه للمسلمين لئلا ينشغلوا بموضوع الأسرى وأخذ الفدية لإطلاق سراحهم وجمع الغنائم، ويتناسوا الهدف الأصلي للجهاد، فيتلقوا ضربة قاصمة.

التعاليم:

- ١ - تحديد أساليب القتال والأسر من مسؤوليات النبي، ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ...﴾.

- ٢ - كانت سنة الأنبياء وسيرتهم عدم أسر العدو ما لم يثبتوا قواعدهم، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ... حَتَّى يُثْخِنَ﴾.
- ٣ - يجب أن لا يغفل المؤمنون عن خطر التثبيت بالدنيا، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾.
- ٤ - أثناء احتدام القتال لا يجوز أسر أفراد العدو ما لم تتم السيطرة التامة عليه، ﴿مَا كَانَ... حَتَّى يُثْخِنَ﴾.
- ٥ - مهمة المقاتل أولاً تثبيت موقعه، (لا أسر أفراد العدو أو جمع الغنائم)، ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٦ - التركيز على الهدف واجتناب التشتت في الحرب، مسألة حيوية، ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٧ - الدنيا زائلة وفانية، ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾.
- ٨ - قمع أعداء الدين وتحكيم قاعدة التوحيد هدف أخروي، ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ... وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.
- ٩ - الهدف الأساس للحرب والجهاد في الإسلام هو تحقيق المصالح الأخروية (استجلاب رضا الله تعالى، ترسيخ الحق والسعي من أجل إنقاذ المستضعفين)، لا كسب الغنائم وأسر العدو وأخذ الفدية، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.
- ١٠ - التعاليم الإلهية في مجال قضايا الحرب، تنطوي على الحكمة، وتطبيقها هو مفتاح العزة والنصر، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- ١١ - للدين الإسلامي صلة وثيقة بالقضايا الاجتماعية والدنيوية، لا بل إنه يتدخل في أدق التفاصيل التكتيكية الحربية، (في ضوء مفهوم الآية ككل).
- ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ فَاكْلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا
وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

إشارات:

□ لقد طرح المفسرون آراء عدة في معنى ﴿كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ نذكرها هنا:

(أ) في العبارة إشارة إلى السنّة الإلهيّة وهي أنه لا يُعَذَّب ما لم يبيّن الحكم، ويعضد هذا الرأي ما ورد في آية أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١).

(ب) مشيئة الله نصرته المسلمين في معركة بدر، إذ لولا قضاء الله بنصركم لكان أسركم للعدوّ قبل تثبيت مواضعكم بمثابة ضربة قاصمة لكم^(٢).

(ج) أو أنّ المراد هو ما ورد في الآية ٣٣ من هذه السورة وهو أنّه ما دام النبي الكريم ﷺ بين ظهرائكم، فإنّ الله لن يعذبكم، ﴿وَمَا كُنَّا لَنُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

إذن، في ضوء ما قيل، فإنّ معنى الآية يكون: لولا حضورك المبارك بينهم والذي ورد في الكتاب السماوي، لكان أسر المسلمين للكافرين في معركة بدر خطيئة كبيرة ولاستحقوا عليها عذاباً أليماً.

□ الغنائم في هذه الآية، بحسب الروايات، هي نفسها مبلغ الفدية لتحرير كلّ أسير، والذي كان يتراوح بين ٣ آلاف و٤ آلاف درهم.

التعاليم:

١ - أسر أفراد العدو أثناء احتدام القتال، تستتبعه هزيمة وعذاب أليم، ﴿لَكُمْ فِيهَا نَصَبٌ مِّمَّا كَفَرْتُمْ بِهِنَّ وَأَنْتُمْ بِهِنَّ كَافِرُونَ﴾.

٢ - لا يجوز الانشغال بالغنائم قبل دحر العدو بشكل تامّ، ﴿لَكُمْ فِيهَا نَصَبٌ مِّمَّا كَفَرْتُمْ بِهِنَّ وَأَنْتُمْ بِهِنَّ كَافِرُونَ﴾.

٣ - شرط استهلاك الشيء أن يكون حلالاً وطاهراً وطيباً، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

٤ - الغنائم لكم ولكن بعد أن تؤدّوا خمسها، ﴿فَكُلُوا مِمَّا...﴾. وقد مرّ علينا في الآية ٤١ أيضاً ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ...﴾.

٥ - احذروا أن يطفئ انشغالكم بالغنائم الحربية والفديات على الهدف الأسمى

للجهاد، واتقوا الله دائماً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ (نعم، إنَّ الانشغال بتقسيم الغنائم شرك).

٦ - العفو عن عقوبة التسرع في أخذ الأسرى في معركة بدر وتحليل الفديات المأخوذة لقاء تحريرهم (على الرغم من عدم مشروعية الأسر) من مظاهر الرحمة والمغفرة الإلهية، ﴿فَكُلُّوا... غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٧ - المغفرة الإلهية شعاع من رحمة الله، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي آيَاتِكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُم خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا آخِذَ بِكُمْ وَبِعَفْوٍ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

□ نزلت هذه الآية في العباس، وعقيل، ونوفل، إذ أسروا في معركة بدر، فأطلق النبي الكريم ﷺ سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم، لكنه أعاد إليهم فدياتهم بعد أن دخلوا في الإسلام^(١).

□ ورد في كتب التفسير أنَّ العباس عمَّ النبي الكريم ﷺ كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا يؤخذ عنه فداء إكراماً لرسول الله فقال ﷺ: «والله لا تذكرون منه درهماً»؛ (أي إذا كان الفداء قانوناً إسلامياً عاماً، فلا ينبغي أن يفرق بين عمي وبين أي أسير آخر). وقال لعمه العباس: «افد نفسك وافد ابن أخيك»، فقال: يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفي؟ فقال: «أعطه ما خلفت عند أم الفضل وقلت لها: إن أصابني في وجهي هذا شيء فأنفقه على ولدك ونفسك»، فقال له: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ فقال: «أتاني به جبرائيل من عند الله عزَّ ذكره»، فقال: ومحلوفه ما علم بهذا أحد إلا أنا وهي، أشهد أنَّك رسول الله...، وأعلن إسلامه^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نمونه، ج ٧، ص ٢٥٢.

□ ثمة خيارات ثلاثة مشروعة ومقبولة ومطروحة أمام النظام الإسلامي في ما يتعلق بأسرى الحرب، هي:

- ١ - إطلاق سراحهم دون فداء، كما حصل عند فتح مكة عندما أمكن الله المسلمين من الكافرين، وأتيحت لهم فرصة أسرهم واستفدائهم، غير أن النبي الكريم ﷺ، أطلقهم جميعاً بعبارة الشهيرة «أنتم الطلقاء»^(١).
 - ٢ - إطلاق الأسرى في مقابل أخذ الفدية المالية أو مبادلتهم بأسرى آخرين.
 - ٣ - إبقاؤهم في الأسر، ليحول المسلمون دون استعادة العدو لقدراته، وفي الوقت ذاته، تعليمهم مبادئ الدين وتعاليمه وهدايتهم للإسلام.
- بقي أن نقول، إن اختيار أحد هذه الخيارات الثلاثة هو من صلاحيات الحاكم الإسلامي حصراً.

التعاليم:

- ١ - النبي وقائد الحكومة الإسلامية مأموران بالحوار مع الأسرى وهدايتهم، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ...﴾.
- ٢ - ينبغي معاملة الأسرى معاملة طيبة لكي نمهد لهدايتهم وإرشادهم. (استعمال كلمتي «خير» و«مغفرة» للمنهزمين تعبير عن هذا المفهوم).
- ٣ - من الضروري دعوة الأسرى وإرشادهم، إذ يتوجب اغتنام أي فرصة سانحة في هذا المجال، ﴿قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ...﴾.
- ٤ - الخير الحقيقي يكمن في الإسلام والإيمان، ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا...﴾.
- ٥ - بشروا الناس أن باستطاعتهم أن ينالوا السعادة بأزهد الخير، ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا...﴾.
- ٦ - الهدف من الحرب هو هداية الناس ودحر الطاغوت، لا سفك الدماء والنهب والأسر وأخذ الفدى، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ...﴾.
- ٧ - حتى محاربة الرسول الأكرم ﷺ لا تحول دون قبول التوبة والإنابة ونيل المغفرة الإلهية، ﴿قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ... وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ...﴾.

٨ - اعتناق الإسلام يمحو ما سبق من ذنوب، ويستنزل اللطف والرحمة الإلهية، ﴿إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا... وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية والآية السابقة أنه ينبغي ألا تحجب الاحتمالات السيئة عنا مبادئ الإصلاح والإرشاد والهداية. فعلى الرغم مما قام به المشركون عبر سنوات طويلة من أذى للنبي الكريم ﷺ ومسلمي صدر الإسلام، إلا أنه عندما اقتضت المصلحة العليا للإسلام إطلاق سراح الأسرى فإن احتمال خيانتهم لم يمنع النبي الكريم ﷺ من القيام بالواجب.

إذن، لا إساءة الظن بالأسرى مئة في المئة، ولا حسن الظن بهم بصورة تامة، لا عنف تام، ولا رافة خالصة، بل التصرف بنباهة وحذر وحزم والتوكل على الله وإظهار الرافة والعطف واللين تجاههم.

التعاليم:

١ - احتمال خيانة الأسرى يجب أن لا يحول دون إطلاق سراحهم، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾.

٢ - للأعداء سوابق في الخيانة، ﴿خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾.

٣ - الله هو الحق، وهو الذي ينصر المؤمنين، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾.

٤ - الخيانة كانت السبب في الوقوع في أسر المسلمين والتمكين منهم، ﴿خَانُوا... فَأَمْكَنَ﴾.

٥ - الله أعلم بنوايا العدو، لذا فأحكامه نابعة من حكمته وعلمه بالمصلحة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِغُيِّهِمُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ وَلَدِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

□ في السنة الثالثة عشرة للبعثة، وبعد مضي عشر سنوات على الجهر بالدعوة،
واصل مشركو مكة أذاهم للنبي الكريم ﷺ والمسلمين، بل كانوا يوغلون في
أذاهم وتضييق الخناق عليهم، لكنهم لم يفلحوا في صدّهم عن دينهم،
فتوصلوا، في نهاية المطاف، إلى مؤامرة جماعية مدروسة تتلخص في قتل النبي
الكريم ﷺ وبمشاركة جميع القبائل، فيضربونه ضربة رجل واحد، وبذلك يتم
لهم اجتثاث الإسلام كما يحلمون.

ولما علم الرسول الأكرم ﷺ بكيد المشركين، وشهد، في الوقت ذاته،
تضحيات الإمام علي عليه السلام، استعدّ للهجرة، فكان ذلك في غرة شهر ربيع الأول إذ
ذهب إلى غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيام متوالياً عن عيون المشركين بصورة
إعجازية، وفي هذه الفترة كان الإمام علي عليه السلام يرفع شؤونه ويهيئ له الطعام
ويأتيه بأخبار مكة، حتى حانت ساعة الحسم، فأمر النبي الكريم ﷺ المسلمين
بالهجرة إلى يثرب، كما هاجر هو نفسه إلى هناك مصطحباً أهل بيته معه، فوصل
في الثاني عشر من شهر ربيع الأول إلى موضع مسجد قبا في يثرب وذلك بعد أن
قطع مسافة ٤٠٠ كم تقريباً، ثم التحق به بقية المهاجرين هناك، إذ كان في
انتظارهم أهل يثرب الذين أظهروا حفاوة بالغة في استقبالهم واحتضانهم، وقد
غير الأنصار اسم مدينتهم من يثرب إلى مدينة النبي أو مدينة الرسول، ثم دعا
المسلمين من مهاجرين وأنصار إلى مسجد قبا وكان عددهم حوالي ثلاثمئة
شخص، وأخى بينهم إذ قال ﷺ: «تأخوا في الله أخوين أخوين»، ليثبت قلوبهم
على المحبة والأخوة ويحول دون تفرقهم واختلافهم^(١).

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ سيرة ابن هشام؛ فروغ ابدیت (شعاع الأبدية)، ج ١، ص ٤١٧ -

□ المهاجرون، هم الذين آمنوا بالرسول الكريم ﷺ في مكة، فتعرضوا لأنواع الأذى والعذاب على يد المشركين، ما اضطرهم إلى ترك بيوتهم وأموالهم هناك وهاجروا إلى المدينة ليلتحقوا بالنبي الكريم ﷺ. أما الأنصار فهم المسلمون الذين آووا الرسول والمهاجرين ونصروهم.

□ الآية الحالية تتناول محاور عدة مثل: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ضرورة الهجرة، وعدم تولي المترفين الذين لم يهاجروا، التعاهد بالنصرة بين المهاجرين والأنصار ما لم يكن في ذلك إضرار بالعهود السابقة، وانفراج شدة المسلمين وخلاصهم.

□ جرت عادة الأمم والشعوب على جعل الأحداث والمناسبات العظيمة في حياتهم الاجتماعية أو العلمية أو الدينية والتي شكّلت نقطة تحوّل في المصير القومي بداية لتاريخهم، على سبيل المثال، اتّخاذ المسيحيين من حادثة ولادة المسيح بن مريم بداية للتاريخ الميلادي، أو اتّخاذ العرب عام الفيل (وهو العام الذي حمل فيه أبرهة الحبشي بجيشه على مكة فردّ الله كيده وأباده هو ومن معه) بداية لتاريخهم.

إنّ الدين الإسلامي هو الشريعة السماوية الأكمل والمستقلة عن سائر الأديان التي سبقته، من هنا، لم يتّخذ المسلمون التقويم الميلادي أساساً لتاريخهم، ولا عام الفيل، على الرغم من كونه عام ولادة النبي الأكرم ﷺ، كما لم يتّخذوا ذكرى البعثة النبوية الشريفة مبدأً لتاريخهم. بيد أنّه مع هجرة الرسول الأكرم إلى المدينة، وتأسيسه حكومة مستقلة استطاع المسلمون في ظلها أن يمارسوا نشاطاتهم وطقوسهم بحرية كاملة، ولهذا السبب، اختار النبي ﷺ ذكرى هجرته بداية للتقويم الهجري الإسلامي^(١).

ويستفاد، أيضاً، من عبارة ﴿مِنْ أَوَّلَى يَوْمٍ﴾، في الآية الكريمة ﴿لَمَسِجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلَى يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾^(٢) والمتعلّقة ببناء مسجد قبا،

(١) فروغ ابدیت، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

كدليل آخر لاعتماد التقويم الهجري، ذلك أَنَّ أَوَّل خطوة أقدم عليها الرسول الأكرم ﷺ هي بناؤه مسجد قبا^(١)، والحقَّ يقال، لولا الهجرة النبوية لظلَّ الإسلام محصوراً في مكّة ودفن فيها.

□ من المعلوم، أَنَّ جلَّ ما يعانیه الناس من بلايا ومصائب هو نتيجة انغماسهم في الملذات والرفاهية وترك الهجرة الإيجابية البناءة، فلو عاد العلماء والمتخصّصون المسلمون الذين يعيشون في بلاد الغرب إلى أوطانهم، لساهموا في إضعاف الأعداء، وفي المقابل تقوية الإسلام والبلدان الإسلامية.

□ إِنَّ موضوع الهجرة لا يختصّ بالنبي الكريم ﷺ وحده، بل إِنَّ الهجرة من بيئة الشرك، والكفر، والمعاصي هو من أجل المحافظة على الدين والإيمان، أو لإنهاء حالة التمرد على أوامر الله تعالى، إذ يقول الذين يعزّون تلوّثهم بالمعاصي إلى وجودهم في بيئة موبوءة ﴿كُنَّا مُسْتَظْفِعِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فبرّد الله ﷻ عليهم بالقول ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(٢)؛ طبعاً، يتبيّن في ضوء كلمة «مستضعفين» أنّه إذا توافر الاستعداد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب على المسلم أن يؤدّي الفريضة ويسعى إلى إصلاح المجتمع ولا يتخلّى عنه.

□ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِذَا عُصِيَ اللَّهُ فِي أَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا فَاخْرُجْ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا»^(٣).

كما تجب الهجرة لأغراض تلقّي العلوم والمعارف أو لتدريس العلم للآخرين وتفقيهم، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٤).

□ لقد شهد عصر صدر الإسلام هجرتين: الأولى: في العام الخامس للبعثة،

(١) العلامة جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي، ج ٣، ص ٤٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٧. (٣) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٥.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

عندما هاجرت طائفة من المسلمين إلى بلاد الحبشة، والثانية: الهجرة من مكة إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة للبعثة.

التعاليم:

١ - الإسلام، والإيمان، والعقيدة كلها لا تكفي ما لم تقترن بالنضال والجهاد. فمسلمو صدر الإسلام إما كانوا مهاجرين أو (مؤيين)، أو مجاهدين أو مناصرين للمجاهدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...﴾؛ (عندما تتباين الظروف، يصبح لكل تكليفه الخاص، فهذا يكلف بالهجرة، وذاك يكلف بإيواء المهاجرين).

٢ - الرابطة الولائية هي من نصيب الذين هاجروا، وجاهدوا، وقدموا المعونة الآخرين، ﴿أُولَئِكَ بِمَقْعُتِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾.

٣ - لقد جعل الله تعالى بين المهاجرين والأنصار حق الولاية، ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بِمَقْعُتِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ﴾.

٤ - الهجرة صوب المجتمع الإسلامي هي شرط الولاية، ومن لم يهاجر فلا ولاية له، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَدِهِمْ...﴾.

٥ - في المجتمع الإسلامي، يجب التمييز بين المجاهدين والمهاجرين وبين المترفين الذين أبوا الهجرة، ﴿ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾.

٦ - من لم يهاجر لا يُنصر ولا يُستنصر. (يمكن تفسير كلمة ﴿وَلَدِهِمْ﴾ على نحوين: النحو الأول، «توليكم ودعمكم إياهم». والنحو الثاني، «توليهم ودعمهم إياكم»).

٧ - يجب استقبال التائبين الذين يرومون الالتحاق بصفوف المسلمين بالأحضان، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ (لذا، بمجرد أن يهاجر من امتنع عن الهجرة سابقاً، علينا أن نفتح له قلوبنا).

٨ - إذا تعرض المسلمون في باقي البلاد لضغوط الكفر، علينا أن نبادر إلى نصرتهم إن طلبوا النصرة، ﴿وَإِنْ أَسْتَعَاذَكُم مِّنَ الَّذِينَ فَعَلُوا بِكُمْ النَّصْرَ﴾.

٩ - في مجال تنظيم العلاقات مع الآخرين يجب ترتيب الأولويات، فما دام الكفار ملتزمين بمواثيقهم مع المسلمين، فلا يجوز نصره المسلمين الذين يقعون تحت سلطتهم، ﴿وَلَا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

إشارات:

□ يطرح المفسرون في معنى ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا﴾، ثلاثة وجوه هي:

(أ) إذا لم تطبقوا حكم الله في الولاية بين المؤمنين، وأثرتم بدلاً من ذلك تولي الكفار، فسوف ينجم عن ذلك فساد كبير؛ لأنهم متحدون وأنتم متفرقون.

(ب) إذا لم تحركوا ساكناً بالنسبة إلى المسلمين الذين يتعرضون لضغوط، فلربما تعرضوا لإبادة جماعية، أو أنهم سيرتدون عن الإسلام.

(ج) إذا لم تراعوا المواثيق والعهود مع الكفار، من خلال تقديم الدعم والنصرة لطائفة من المسلمين الذين يرزحون تحت سلطة الكفار، فإن هؤلاء سينقلبون ضدكم وبالنتيجة سيؤدي ذلك إلى حدوث فتنة كبيرة.

التعاليم:

١ - إذا كان بعض الكفار أولياء بعض، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وكان المسلمون غير متعاضدين، فسوف تصيبهم فتنة وفساد كبير، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً﴾.

٢ - القبول بولاية الكافرين وسلطتهم فيه فساد وفتنة كبيرة في الأرض، ﴿وَلَا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً﴾.

٣ - إذا لم تربط المسلمين وشائج قوية ومحكمة، فإن الكفار المتحدين سيقضون عليهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤)

التعاليم:

- ١ - الإيمان يسبق العمل، ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾.
- ٢ - تبرز قيمة الأعمال عندما تصطبغ بصبغة إلهية، وتنطلق من منطلقات إلهية، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - يتجسد الإيمان الحقيقي في هجرة المسلمين، وجهادهم، وإيوائهم إخوانهم المجاهدين ونصرتهم، ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.
- ٤ - حتى المؤمن الحقيقي ليس بمنجى عن الخطأ والمعصية، وبالتالي يحتاج إلى الحقيقة الإلهية، ﴿الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.
- ٥ - الهجرة والجهاد عاملا مغفرة واستجلاب للرزق الإلهي الخاص، ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٦ - إذا غضضتم النظر عن الرزق الزهيد من أجل الهجرة والجهاد، فستألون رزقاً كريماً وطيباً من الله تعالى، ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٧ - الإنسان مكلف دوماً، أحياناً بواجب الجهاد، وأخرى بإيواء المهاجرين، وثالثة بنصرة المقاتلين، (في ضوء مفهوم الآية ككل).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِكَ مَنَّكَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَوْفَوْا بِعَهْدِهِمْ وَإِلَىٰ رِجْلِ اللَّهِ كَذَبُوا يَوْمَئِذٍ﴾ (٧٥)

إشارات:

□ من الأمثلة التي تجسد مفهوم هذه الآية، الإرث الذي كان معمولاً به قبل الإسلام، إذ كان أحياناً على أساس التبني، وأخرى على أساس عقد الأحلاف، فجاء الإسلام وأبطل كل هذه الأنواع وثبت الإرث على أساس

القربة والنسب والتدين.

□ لطالما استند الأئمة والعلماء إلى هذه الآية للبرهنة على موضوع إمامة الإمام علي عليه السلام وخلافته، فمضافاً إلى سوابقه في العلم والجهاد والتقوى، استدّلوا أيضاً بقرباته الخصيصة من النبي الكريم ﷺ، وذلك لإثبات إمامته وخلافته المباشرة^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب على أوائل المؤمنين أن يؤاخوا من يدخل في الإيمان ويهاجر لاحقاً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ... فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾، نعم، إنّ الحُضن الدافئ للمجتمع الإسلامي مفتوح للجميع، فالمسلم ليس منكفئاً أو منغلِقاً على نفسه، حتى وإن كان يحظى بمزايا معنوية أكبر.
- ٢ - المؤمنون ذوو القربى، لهم حقّ الولاية بعضهم على بعض بسبب صلة الرحم، وكذلك ولاية الإيمان، والهجرة، والجهاد، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.
- ٣ - بحسب الشريعة الإلهية، توجد تراتبية بين الأرحام، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.
- ٤ - الهجرة هي شرط الالتحاق بصفوف المؤمنين الحقيقيين. (الهجرة هي الوعاء الذي يجمع القوى المؤمنة)، ﴿وَهَاجِرُوا...﴾.

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

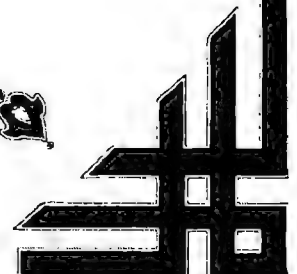
(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، تفسير أطيب البيان.



سُورَةُ التَّوْبَةِ

السورة: ٩ الجزء: ١٠ - ١١

عدد الآيات: ١٢٩



ملاحح سورة التوبة

السورة التاسعة في القرآن الكريم، وتضمّ ١٢٩ آية، نزلت في السنة التاسعة للهجرة^(١)، نزل قسم منها قبيل معركة تبوك، وقسم آخر أثناءها، وثالث بعد انتهاء المعركة.

اشتهرت السورة باسمين، كما ورد في الروايات، هما التوبة والبراءة. فسبب تسميتها بالتوبة لما ورد من مزيد الكلام عن توبة الإنسان وعودته إلى لطف الله تعالى، أمّا تسميتها بالبراءة فهو لجهة أنها تستهلّ بإعلان البراءة من المشركين.

اعتبر بعض المفسّرين هذه السورة استكمالاً لسورة الأنفال وذلك لارتباط موضوعات السورتين، وهو ما يفتر، بحسب هؤلاء، عدم شروعها بالبسملة، غير أنّنا نعتقد، بالاستناد إلى ما وردنا عن أهل بيت النبي ﷺ، أنّ هذه السورة مستقلة عمّا قبلها، وعدم استهلالها بالبسملة يعود إلى شروعها بعبارة البراءة من المشركين، وذلك لأنّ بسم الله هي للأمان، وأنّ هذه السورة بدأت بالبراءة من المشركين الذين نقضوا العهود، وقد سئل الإمام علي عليه السلام: لِمَ لم تنزل براءة بالبسملة فقال ﷺ:

«لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت لرفع الأمان»^(٢).

ويكفي ما ورد عن رسول الله ﷺ لبيان الأهمية القصوى لهذه السورة المباركة إذ قال: «نزلت عليّ براءة والتوحيد في سبعين ألف صف من صفوف الملائكة، وكان كلّ صف منهم يوصيني بأهمية هاتين السورتين»^(٣).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير نمونه، ج ٧، ص ٢٧٥.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إشارات:

□ ذكرت الروايات أسماء عدّة لهذه السورة مثل «البراءة» و«التوبة»، ونستشف من ذلك أنها ليست تتمة لسورة الأنفال بل هي سورة مستقلة.

□ نظراً إلى مضمونها الرادع والزاجر، فقد نزلت بدون بسملة. نعلم أنّ البسملة هي جزء من كلّ سورة، وليست إضافة تشريفية أو... تستهلّ كلّ سورة.

□ إعلان البراءة من المشركين جاء بسبب نقضهم العهود والمواثيق كما ورد في الآيتين ٧ و٨، وإلا فإنّ القاعدة العامة هي مراعاة العهود والالتزام بها ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها. ويعضد هذا الرأي ما ورد في الآية ٤: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ لِمَآ مَدَّيْتُمْ﴾.

يشار إلى أنّ المسلمين، وبسبب ضعفهم، كانوا أصلاً ملتزمين بالعهود، غير أنّ مطلبهم الأساس كان اجتثاث الشرك من جذوره وبأسرع وقت.

قصة إعلان هذه الآيات

□ لما فتح النبي الكريم ﷺ مكة في العام الثامن للهجرة، لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة وكان سنّة العرب في الحج أنّه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها، وكانوا يتصدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يردّه، ومن لم يجد عارية اكترى ثياباً، ومن لم يجد عارية ولا كرياً ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت، وكانت المرأة إذا أرادت أن تزيد الطواف حول البيت وطلبت عارية وكرياً ولم تجده طافت بالبيت عريانة، وأشرف لها الناس، فشقّ ذلك على الرسول الكريم ﷺ وعلى المسلمين، وقد كانوا في ذروة اقتدارهم

وقوتهم، فانتظر النبي نزول الوحي فيهم، حتى نزلت آيات من أول سورة براءة في المدينة، فدفعها إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، وقد اختار ﷺ أبا بكر لكونه شيخاً كبيراً ولا يستثير حساسية المشركين، فلما خرج أبو بكر ووصل مشارف مكة نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك»، فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علياً عليه السلام في طلبه وقال: «أنا منه وهو مني»، فلحقه بالروحاء أخذ منه الآيات وذهب إلى مكة وقرأها على المشركين. فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ فقال: «لا إن الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني».

□ وردت قصة تلاوة الإمام علي عليه السلام لهذه الآيات في العديد من مصادر أهل السنة، برواية الصحابة من بينهم أبو بكر، وعلي عليه السلام، وابن عباس، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله الأنصاري^(١).

وفي المقابل سعى بعض علماء أهل السنة^(٢) إلى تصوير المسألة على أنها أمر عادي لا ينطوي على أي مزية للإمام علي عليه السلام، وأن إناطة مهمة إبلاغ الآيات إليه إنما هي لتأليف قلبه وليس فضلاً أو مزية، في حين نحن نعلم أن تأليف قلب شخص ما، يستدعي الرفق به لا تكليفه بمهمة شاقة وصعبة من قبيل إبلاغ آيات البراءة من المشركين في عقر دارهم، خصوصاً من قبل شخص أوغر صدور المشركين بقتله صناديدهم في العديد من الحروب!

□ فعندما أمر الله تبارك وتعالى النبي موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد، قال ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُوا لِسَانِي فَأُرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، بيد أن الإمام علياً عليه السلام الذي

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ٢١٢ و ٢٨٣؛ ج ١، ص ١٥١ و ٣٣٠؛ مستدرک الصحيحین، ج ٣، ص ٥١؛ تفسير المنار، ج ١٠، ص ١٥٧؛ تفسير الطبري، ج ١٠، ص ٤٦؛ تفسير ابن كثير ج ٢، ص ٣٢٢-٣٣٣؛ إحقاق الحق، ج ٥، ص ٣٦٨؛ وفضائل الخمسة، ج ٢، ص ٣٤٢؛ وفي الغدير، ج ٦، ص ٣٣٨. وردت أسماء ٧٣ راوياً قاموا بنقل هذه الحادثة.

(٢) مثل الفخر الرازي والآلوسي في تفسيريهما.

قتل رؤوس الشرك ذهب بمفرده إلى مكة وقرأ آيات البراءة على المشركين بنفس مطمئنة، وفي منطقة مهمة وحساسة مثل منى وبيجار جمره العقبة.

□ أمّا البنود التي طرحها الإمام علي عليه السلام في منشوره فهي:

١ - إعلان البراءة من المشركين وفسخ المواثيق معهم.

٢ - منع المشركين من الحج في الموسم القادم.

٣ - منع العرابة من الطواف.

٤ - منع المشركين من دخول البيت الحرام.

□ هذا وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع كثيرة اسم الله واسم رسوله الكريم ﷺ جنباً إلى جنب، مثل:

(أ) في الهبة واللفظ، ﴿أَعْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١).

(ب) في البيعة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٢).

(ج) في الطاعة والتبعية، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣).

(د) في البراءة من الآخرين، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

التعاليم:

١ - فسخ العهود والمواثيق مع المشركين، هي من صلاحيات القائد، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(المراد عهود عدم الاعتداء والتعرض المبرمة مع المشركين).

٢ - نعم للوفاء بالعهود، ولكن لا للتأمر، ﴿بَرَاءَةٌ... إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾.

٣ - إنّنا مكلفون من الناحية القانونية بالوفاء بالعهود، غير أنّ البراءة القلبية من المشركين والمنحرفين مبدأ ديني^(٤)، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) تفسير أطيب البيان.

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.

- ٤ - الله تبارك وتعالى هو المشرع، ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾^(١)، بيد أنه في السيرة والعمل يذكر الله والرسول جنباً إلى جنب، ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٥ - البراءة دليل حزم واقتدار، والصمت تجاه المؤامرات ونقض العهود دليل ضعف، ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ٦ - لا بأس من إبرام الموائيق والعهود مع المشركين في ظروف معينة، ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾.
- ٧ - إذا ألغيت المعاهدة بسبب وجود احتمالات التآمر والخيانة، ينبغي إعلام العدو بذلك لكي لا يشعر بالغدر، ﴿بِرَأۡةٍ مِّنَ اللَّهِ... إِلَى... الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

إشارات:

- إعلان البراءة من المشركين كان في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة (عيد الأضحى)، لذا يكون انتهاء مهلة الأربعة أشهر في العاشر من شهر ربيع الثاني^(٢).
- إن مهلة الأربعة أشهر، بحسب الروايات^(٣)، كانت لمن لم يكن لهم ميثاق من قبل، أما أصحاب الموائيق فكانت المهلة انتهاء آجال موائيقهم، سواء أكانت أقل من أربعة أشهر أم أكثر.

التعاليم:

- ١ - بعد إلغاء الموائيق والعهود، امنحوا العدو الفرصة للتفكير، ﴿فَيَسِيحُوا... أَرْبَعَةَ أَشْهُرًا﴾؛ (بحسب المصادر التاريخية، فإن الكثير من المشركين دخلوا في الإسلام في مهلة الأربعة أشهر).

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة الكهف: الآية ٢٦.

(٢) الكافي، ج ٤، ص ٢٩٠.

- ٢ - في زمان قوتكم واقتداركم، لا تحملوا على العدو دونما إنذار مسبق، ﴿فَيَسْخَرُوا... أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.
- ٣ - فليعلم أولئك الذين يأبون الدخول في الإسلام، أنهم أينما يولّوا وجوههم فلا مهرب لهم من حاكمية الله تعالى، ﴿غَيْرُ مُعْجِزٍ﴾.
- ٤ - الحرب على الإسلام حرب على الله تعالى، ﴿غَيْرُ مُعْجِزٍ﴾.
- ٥ - قضت سنة الله تعالى أنه إذا ضيع الإنسان فرصة الإنابة إلى الله فسيشقى، ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

إشارات:

- الآية الأولى من السورة كانت إعلان براءة إلى المشركين أنفسهم، وفي هذه الآية الكريمة إعلان براءة من المشركين إلى عامة الناس.
- ﴿الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ هو يوم عيد الأضحى^(١)، أو يوم عرفة أو مناسك الحج^(٢)، وهو في مقابل مناسك العمرة المسماة بالحج الأصغر.

التعاليم:

- ١ - اكشفوا الحقائق للناس منعاً لأيّ تظلم أو دعاية مضادة لكم، ﴿وَأَذِّنْ... إِلَى النَّاسِ﴾.
- ٢ - لا بدّ للداعية من أن يعرف أهمية عنصري الزمان والمكان في الدعوة، ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

٣ - يجب اللجوء إلى أسلوب الترغيب والترهيب معاً، ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ... حَيْرَ لَكُمْ وَإِنْ قَوْلَيْتُمْ فَأَعْلَمُوا﴾.

٤ - إذا أردنا قطع الارتباط، فلنترك خطأ للرجعة، ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ﴾.

٥ - مهلة الأربعة أشهر دليل على لطف الله لا عجزه، ﴿غَيْرَ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

إشارات:

□ إعلان البراءة يقتصر على المشركين ناكثي العهد والمتآمرين، لأن أمثال بني ضمرة وبني خزيمة الذين ظلوا أوفياء لعهودهم، استثنوا من البراءة في هذه الآية.

□ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «خَطَبَ عَلِيٌّ عليه السلام النَّاسَ وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ فَقَالَ لَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَلَا يَحْجَنَّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ مُدَّةٌ فَهُوَ إِلَىٰ مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ مُدَّةٌ فَمُدَّتُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ»^(١).

التعاليم:

١ - يجب احترام عهود أولئك الذين يحترمون التزاماتهم وعهودهم، ﴿عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾.

٢ - الوفاء بالعهد واجب، حتى مع المشركين، ﴿عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ... فَأَتُوا﴾.

٣ - من ينصر أعداءكم، فهو عدو لكم، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾^(٢).

٤ - الوفاء بالعهد، دليل تقوى، ﴿فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج ٢١، ص ٢٦٧.

(٢) ذلك أن مما تنص عليه المعاهدات هو عدم مساعدة أعداء الإسلام، إذن، أما وإنهم قد ساعدوهم، فقد نقضوا المعاهدة وأصبحوا أعداءكم.

﴿إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

□ الكفار الذين آذوا الرسول الكريم ﷺ والمسلمين في مكة لمدة ثلاثة عشر عاماً، ولم يتورعوا عن الكيد والتآمر على النبي والإسلام طيلة تسعة أعوام أخرى بعد الهجرة، أولئك يستحقون القتل.

□ كلمة «حيث» ظرف تستعمل للزمان والمكان معاً، بمعنى متى وأينما وجدتم المشركين.

□ سئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ فقال: «يعني آمنوا»^(١).

التعاليم:

١ - إذا استمرّ المشركون في تأمرهم وعداوتهم بعد اجتياز جميع مراحل الدعوة، والاستدلال، وعقد المعاهدات، فلکم أن تلجأوا إلى جميع الأساليب والوسائل لقمعهم مثل: قتلهم وأسرهم، سدّ المنافذ عليهم ومحاصرتهم، ﴿فَاقْتُلُوا... وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ﴾.

٢ - الحزم جنباً إلى جنب المرونة، كلاهما مطلوبان، ﴿فَاقْتُلُوا... فَخَلُّوا﴾.

٣ - نعم لحرية اعتناق الدين السماوي، ولكن لا للانحراف الفكري وسقوط العقل والإنسانية، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

٤ - على المسلمين أن يكمنوا دوماً للمتآمرين ويتربصوا بهم الدوائر، ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

٥ - يجب أن تكون التشكيلات الأمنية للمسلمين قوية لدرجة تتمكن معها من رصد تحركات المتآمرين في الخارج أيضاً، ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

- ٦ - من أجل قمع تحركات الأعداء المتآمرين، يجب السيطرة على جميع الحدود والمنافذ، ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.
- ٧ - اقبلوا توبة النائب حتى أثناء الحرب؛ لأن الإسلام دين السماحة والعزة، لا دين العقد والانتقام، ﴿فَأَقْضُوا... فَإِنْ تَابُوا﴾.
- ٨ - يجب أن تقترن التوبة بالفعل، فلا نخدع بتوبة بلا فعل، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا...﴾.
- ٩ - التوبة من الشرك إيمان، وعلامة التوبة الحقيقية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾.
- ١٠ - الصلاة على رأس العبادات، فلا تتعرضوا لمن يدي احتراماً للشعائر الدينية (الصلاة والزكاة)، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... فَحَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.
- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَةً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - أجيروا العدو إذا استجار بكم من أجل أن يتبين عقائدكم ويتعرف على الأفكار الإسلامية، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.
- ٢ - طريق الفكر والعقل مفتوح حتى للمشركين مهذوري الدم، وحتى لو احتمل المرء هداية شخص واحد فقط، فذلك أيضاً يستحق منه السعي والمحاولة، ﴿أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٣ - الإسلام دين الرأفة والشرف والكرامة، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.
- ٤ - حتى العدو يستحق أن تمنحوه فرصة للتفكير والاختيار، وفي ظروف الحرب أيضاً لا تحولوا دون الاعتلاء الفكري للناس، ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.
- ٥ - اللجوء إلى خيار الحق والقبول بالمعتقدات الصحيحة، يتطلب مهلة للتفكير، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

- ٦ - القرآن الكريم كلام مفهوم، ويفتح أبواب الهداية أمام الإنسان، وليس صحيحاً أنه كلام فوق الفهم الإنساني، ﴿يَسْمَعُ كُلُّمَ اللَّهِ﴾.
- ٧ - ينبغي على الحكومة الإسلامية أن تهتئ المجال للضالين لسماع كلام الله تعالى وتتيح الفرصة لدراسته، لأن ضلال بعض ليس عن حقد بل بسبب قصورنا نحن في الدعوة والإرشاد. إذ لربما غيروا عقائدهم إذا ما أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى كلمة الحق، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كُلُّمَ اللَّهِ﴾.
- ٨ - الإسلام دين الحرية، والإيمان النابع من الفهم والتدبر أفضل من ذلك الذي يأتي بالخوف والإكراه، ﴿فَأَجْرُهُ... يَسْمَعُ... أَلْفَهُ مَأْمَنُهُ﴾.
- ٩ - الدين الذي يتخذ من العقل والمنطق نهجاً له، لا يعجله شيء. فلنمنح العدو فرصة للاستماع إلى كلام الدين، ثم نؤمنه ليختار ما يراه صالحاً بروية وتدبر، ﴿يَسْمَعُ... أَلْفَهُ مَأْمَنُهُ﴾.
- ١٠ - كفر بعضهم نابع من جهلهم، فلو علموا لآمنوا، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧)

إشارات:

□ هذه الآية هي استفهام إنكاري وهي تبرر الآيات الأولى من سورة البراءة، وتبين سبب حكم البراءة من المشركين، ذلك أنهم لا يوفون بعهودهم والتزاماتهم.

□ لما كانت أطراف الكعبة حتى ٤٨ ميلاً تعتبر الحرم، فالمعاهدات والأحلاف التي تُبرم ضمن هذه المنطقة يقال لها: ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما هو الحال مع صلح الحديبية الذي أبرم على مسافة ١٥ ميلاً من مكة المكرمة.

□ ذكر موضع عقد الصلح أي «المسجد الحرام»، إنما هو إشارة على أهمية المكان، وإلا فإنّ الوفاء بجميع المعاهدات الأخرى واجب.

التعاليم:

- ١ - لما كان المشركون أكثر الناس عداوةً للمسلمين^(١)، فلا يُتَوَقَّع الوفاء من أكثرهم، ﴿كَيْفَ يَكُونُ...﴾.
- ٢ - إذا أردنا النقد، يجب أن لا يكون الكلام عاماً غير محدّد، وأن لا نغفل عن التزيين ضمن الجماعة، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾.
- ٣ - من الضروري معاملة الأعداء بالمثل، وفاء بالعهود أو نقضاً لها، ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ...﴾.
- ٤ - التقوى والوفاء بالعهد توأمان متلازمان، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨)

إشارات:

- «الإل»، معناها القرابة، والجيرة، والعلاقات العاطفية والإنسانية، والعرف^(٢).
- «الذمة»، العهد والميثاق الذي يجب الوفاء به، وإذا نُكث، ذمّ الناس الناكث.
- وهذه الآية تحمل تفسيراً للحزم والشدة في التعامل مع المشركين ناكثي العهد.
- لا يكفي أن نبني على مجرّد توجّسات من أنّ العدو سيهجم علينا ويفعل بنا كذا وكذا وننخذها ذريعة للهجوم عليه، بل ينبغي وجود قرائن وأدلة على تأمره ونيته في الاعتداء، إذ لا تصحّ العقوبة قبل الجريمة.

(١) ﴿تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ﴾ سورة المائدة: الآية ٨٥.

(٢) كانت بين مسلمي صدر الإسلام والمشركين صلة قرابة.

التعاليم:

- ١ - يتبين مقدار حقد العدو حين تُكتب له الغلبة، لا وقت ضعفه، ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾.
- ٢ - السكوت والتصرف الساذج إزاء العدو الذي لا يتورع عن فعل أي شيء إذا ظهر علينا، يُعتبر خطيئة، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.
- ٣ - المشركون لا يراعون الأمور العاطفية ولا حقوق الجوار ولا يوفون بعهودهم والتزاماتهم، ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.
- ٤ - يجب أن لا نخدعنا المظاهر والحيل السياسية والدعائية للأعداء، ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٥ - نقض العهود والنفاق والتظاهر والحيل السياسية، كلها فسق، ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.
- ٦ - المشركون في غالبيتهم فاسقون، ولكن مع ذلك لا تخلو صفوفهم من بعض العناصر السليمة، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ (يجب مراعاة العدل والإنصاف عند التوصيف).

﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ مِمَّا قَلِيلًا فَوَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الإنسان مخير في عمله واختيار طريقه، ﴿أَشْتَرُوا﴾^(١).
- ٢ - مهما كان الثمن في مقابل آيات الله، فهو بخس جداً، ذلك لأن الدنيا وما فيها متاع قليل أمام ألطاف الله تعالى على المؤمنين، ﴿أَشْتَرُوا... مِمَّا قَلِيلًا... سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) الآيات التي تشير إلى معاملة الإنسان لهي دلالة على حرية الاختيار عند الإنسان.

- ٣ - اللهث وراء زخارف الدنيا هو السبب وراء محاربة الدين وصدّ الناس عن سبيل الله، ﴿أَشْرَوْا يَافَايَ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَضُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾.
- ٤ - أتبع عمل، بيع الرضا الإلهي والجنة الخالدة في مقابل الدنيا الدنية الفانية، ﴿أَشْرَوْا... ثَمَنًا قَلِيلًا... سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾

إشارات:

- هذه الآية بيان للحكمة وراء شدة الأمر الإلهي في البراءة من المشركين.
- تحدّث الآيتان السابقتان عن مسألة نقض العهود والمواثيق معكم أنتم الحاضرون ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾، فيما تستعمل هذه الآية تعبير ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ لتبيّن أنّ محاربتهم تشمل أهل الإيمان جميعاً.

التعاليم:

- ١ - المشركون يضمرون العداوة والحقد للمؤمنين، لذا، لا تتردّدوا في التعامل بحزم معهم، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾.
- ٢ - جريمة المسلمين الكبرى من منظار الكفار هي إيمانهم بالله تعالى، وهي سبب عداوتهم أهل الإيمان^(١)، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾.
- ٣ - نقض العهود، هو بمثابة عدوان، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.
- ٤ - مراعاة حقوق ذوي القربى والوفاء بالعهود واجب، وتجاهلها نابع من روح العدوان، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.
- ٥ - محاربة المشركين الناكثين ذات طابع دفاعي، وكما ذكرت الآية ٣، لسنّا نحن الذين بدأنا الحرب، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

(١) مثل الآية ﴿وَمَا تَقْشُرُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَيْبِ﴾، (سورة البروج: الآية ٨).

﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلِأَخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ
وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ يقول الله ﷻ في الآيات السابقة: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾، فعند ذاك ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾، وهنا يقول تعالى شأنه، ليس فقط لا تتعرضوا لهم، بل اعملوا على نسيان الماضي، وتعاملوا معهم بأخوة ومحبة.

التعاليم:

- ١ - في التعاطي مع الآخرين، يجب مراعاة مسألة التدرج في الخطوات المتخذة. في البداية، لا تتعرضوا لهم، ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾، ثم بادروهم بالألفة والأخوة، ﴿فَلِأَخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ﴾.
- ٢ - التوبة الحقيقية هي التي تكون مقرونة بالعمل، ﴿تَابُوا وَأَقَامُوا...﴾.
- ٣ - التاركون للصلاة والزكاة ليسوا أخوتنا في الدين، ﴿فَإِنْ... وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلِأَخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ﴾.
- ٤ - الالتحاق بدائرة الأخوة الدينية رهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامُوا... فَلِأَخْوَانِكُمْ﴾.
- ٥ - الدين هو المعيار في علاقات الحب والبغض بالنسبة للمسلم، ﴿فَإِنْ تَابُوا... فَلِأَخْوَانِكُمْ﴾، وتقول الآية اللاحقة: ﴿وَإِنْ كُفُّوا... فَقَتِلُوا﴾.
- ٦ - يجب أن يكون التعامل مع النادم والتواب تعاملًا أخويًا، ﴿فَإِنْ تَابُوا... فَلِأَخْوَانِكُمْ﴾.
- ٧ - الهدف من الحروب الإسلامية دخول المشركين تحت لواء التوحيد، ﴿فَإِنْ تَابُوا... فَلِأَخْوَانِكُمْ﴾.
- ٨ - إلى أمس القريب كان هؤلاء مهدوري الدم، لكنهم بفضل توبتهم،

وصلاتهم، وزكاتهم، أصبحوا يتمتعون بحقوق اجتماعية متساوية أسوة بالمسلمين، وقتالهم حرام، ﴿فَلَاخَوْذَكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

٩ - يفتح العلم والمعرفة آفاق التدبر في آيات الله، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَكْثُرُوا أَيَمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٢﴾

إشارات:

□ سئل الإمام علي عليه السلام: لماذا تتبعت الفارّين في معركة صفّين ولم تتبّعهم في معركة الجمل؟ فقال عليه السلام: في صفّين كان رأس الكفر لم يزل حيّاً وقد جمع حوله أتباعه ليعيدوا الكرّة، أمّا في معركة الجمل، فإنّه بمقتل قائد الجند، لم يبق لهم محور يجتمعون حوله.

□ ويقول الإمام الصادق: «من طعن في دينكم هذا فقد كفر»، ثم تلا هذه الآية^(١).

التعاليم:

١ - الارتداد عن الدين، واحد من أمثلة نقض العهود، والاستهزاء بالدين، ﴿وَإِنْ تَكْثُرُوا﴾؛ (ربّما في ذكر ﴿تَكْثُرُوا﴾ بعد ﴿تَابُوا﴾ إشارة إلى الارتداد).

٢ - عقوبة الطعن بالإسلام والاستهزاء به هي الإعدام، ﴿وَطَعَنُوا... فَقَتِلُوا﴾؛ (يجب التصدي بشدّة للمسيئين للمقدّسات الدينية).

٣ - الحكمة من الجهاد الإسلامي هو الدفاع عن الدين، ﴿تَكْثُرُوا... وَطَعَنُوا... فَقَتِلُوا﴾.

٤ - لما كان نقض العهود والاستهزاء بالدين قد وقع من جانب رؤوس الكفر، إذن، فلا بدّ من محاربتهم، ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾.

٥ - عند القتال، يجب وضع مسألة القضاء على رؤوس التآمر ومركز القيادة

والعمليات على رأس الأهداف، ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةً الْكُفْرِ﴾.

٦ - لا تنخدعوا بأيّ يمين، فأيمان الناكثين لا اعتبار لها، ﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾.

٧ - من جملة أهداف الجهاد الإسلامي الحيلولة دون تأمر الأعداء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

﴿أَلَا تَقِيلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُتُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ
أُولَئِكَ مَرَّةً أَخَشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

التعاليم:

- ١ - يجب شرح أهداف الحرب ودوافعها للمقاتل المسلم، ﴿نَكُتُوا... وَهَكُتُوا...
بَدَءُوكُمْ﴾؛ (المعنى: أنّ الأعداء هم الذين بدأوا بنقض العهود، والتأمر
على الرسول الكريم ﷺ، وإشعال فتيل الحرب).
- ٢ - حربكم حرب دفاعية، لأنّ العدو هو من بدأ قتالكم، ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾.
- ٣ - عندما يشتد أوار الحرب، تجدر المقارنة بين نار الحرب ونار جهنم لكي
يسهل على المقاتل اتخاذ القرار، ﴿أَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾.
- ٤ - المؤمن الحقيقي لا يخشى إلا الله تعالى، ﴿فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُصِفُ صُدُورَ قَوْمٍ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ سؤال: ألم تقل الآية ٣٣ من سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ
فِيهِمْ؟﴾ إذن، كيف نفسّر العذاب في هذه الآية؟

الجواب: المراد بالعذاب في تلك الآية هو العذاب السماوي العاصف
كالذي نزل على قوم عاد وثمود، بينما العذاب في هذه الآية هو عذابات الحرب
ومآسيتها.

التعاليم:

- ١ - جبهات القتال هي مهبط المدد الإلهي، ﴿فَنَلُوهُمْ... وَنَضْرُكُكُمْ﴾؛ (منكم الحضور والجهاد ومن الله النصر والمدد).
- ٢ - المقاتلون هم الذراع القوية للحق وأدوات تنفيذ حكم الله تعالى، ﴿يَعِزُّهُمْ... بِأَيْدِيكُمْ﴾.
- ٣ - السنن الإلهية تجري بالأسباب والمجاري الطبيعية، ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾.
- ٤ - الهزيمة العسكرية للعدو تستتبع هزيمة نفسية وسياسية، ﴿يَعِزُّهُمْ... وَيُخْزِيهِمْ﴾.
- ٥ - يريد الله أن يهزم أعداء الدين ويذلهم، وينصر المؤمنين ويعزهم، ﴿وَيُخْزِيهِمْ وَنَضْرُكُكُمْ﴾.
- ٦ - من أهداف الحرب إبادة الكفر وإذلال الكافرين، وإنزال السكينة والطمأنينة على المؤمنين، ﴿يَعِزُّهُمْ... وَيُخْزِيهِمْ... وَيَشْفِ صُدُورَكُمْ﴾.
- ٧ - الحث على القتال والدعاية ضرورية قبيل المعركة، والله يبشر المؤمنين بشارة أكيدة، ﴿وَنَضْرُكُكُمْ... وَيَشْفِ صُدُورَكُمْ﴾.
- ٨ - قلوب المسلمين دائماً (كلمى) من فعال الكافرين، وتموج بالآلم والغيظ، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.
- ٩ - صحيح أن الحرب تترك مآسي كثيرة كالشهداء وتخلّف جروحاً غائرة في قلوب الكثير من العوائل المفجوعة، إلا أنها تحقق للأمة الإسلامية حياة ملؤها العزة والطمأنينة والكرامة. لاحظ أنه ﷺ قال: ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: «صدوركم».
- ١٠ - مصائر المؤمنين في القضايا الاجتماعية متشابكة، وإن نصركم شفاء لقلوب سائر المؤمنين، ﴿وَنَضْرُكُكُمْ... وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتُوبَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

التعاليم:

- ١ - صحيح أن الهدف من الحرب هو نيل رضا الله تعالى والحيولة دون الشرك،

والتأمر، ونقض العهود، غير أن من آثارها الجانبية والوضعية تسكين القلوب وطمأنة النفوس^(١)، ﴿وَيَذْهَبَ غِظٌ قُلُوبِهِمْ﴾.

٢ - بعد النصر احتفوا بأولئك الذين يحضرون عندكم للتضامن والتآزر معكم، ولا تعتبوا عليهم قائلين: أين كنتم قبل الآن؟ ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾.

٣ - إياكم والصدّ عن أولئك الذين يأتون إليكم، بحجة أنهم يخدعونكم! فالله أعلم بالتوبة الحقيقية من الرياء، ولكن طبقاً للحكمة الإلهية، يجب أن نتقبل ممن دخل في الإسلام، ولكن مع اتخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة، ﴿عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

إشارات:

□ هذه الآية، على غرار سابقتها، تحت المسلمين على الجهاد.

□ «الْوَلِيَّةُ» من «الولوج» مثل كلمة «بطانة»، وتعني الأسرار والأمور الخفية، والمراد هنا، الخواص ممن يُعتمد عليه في كتمان الأسرار.

□ بحسب العديد من الروايات، فإن المقصود بالمؤمنين الحافظين للأسرار هم الأئمة عليهم السلام الذين لم يتخذوا الولايج من دون الله^(٢).

التعاليم:

١ - الكون ومتعلقاته يسيرون نحو غاية وهدف. فلم يُترك الإنسان لمصيره وشأنه، إذن، يجب أن نغادر عالم الحدس والخيال، ونكون واقعيين، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

(١) في الآيات مثل ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَدَلَكُمْ مِمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة الطلاق، الآية ٧، ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ سورة الانشراح، الآية ٥، إشارة إلى حقيقة أن بعد الشدة الفرج.

(٢) تفسير نور الثقلين.

٢ - دعوى الإيمان وحدها لا تكفي، فالذي يفرق الصفوف عن بعضها هو العمل، والجهد، والامتحان، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا؟﴾.

٣ - الفائزون في امتحان الإيمان هم الذين لا ييؤحون بأسرار المجتمع الإسلامي إلا إلى الله، والرسول، والمؤمنين الحقيقيين، ﴿وَلِيَجْزِيَ﴾؛ (في صدر الإسلام كان بعض الأفراد تربطهم علاقات بالغرباء).

٤ - إفشاء الأسرار والمعلومات للغرباء واتخاذهم بطانة ومخزناً للأسرار، حرام، وهو دليل ضعف وعدم إيمان، وموضع تحذير وتوبيخ، ﴿وَلَوْ يَتَذَكَّرُونَ...﴾.

٥ - مسؤولية المسلمين إزاء الأعداء الأجانب هي الجهاد، وإزاء أعداء الداخل الكتمان وعدم اتخاذهم بطانة، ﴿جَاهِدُوا...﴾.

٦ - الله عليم بأحوال الناس وسرائرهم، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى امتحانهم، غير أن الامتحان سنة إلهية، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾.

٧ - إذا أفشيت أسراركم للأجانب، فإن الله عليم بذلك وسوف يحاسبكم عليه، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧)

إشارات:

□ صحيح أن سبب نزول الآية الكريمة هو عمارة المسجد الحرام، إلا أن حكمها يشمل جميع المساجد، من هنا استعملت الآية لفظة «مساجد» بصورة عامة، لا «المسجد الحرام» خاصة.

□ سدانة المسجد الحرام، وعمارته، والعناية به، وتولي شؤونه كانت بيد المشركين منذ صدر الإسلام وحتى فتح مكة.

□ من النقاط التي تضمنتها إعلان البراءة الذي تلاه الإمام علي عليه السلام على

المشركين، هو سلب المشركين حقَّ عمارة المسجد الحرام، بل منعهم من دخول المسجد الحرام أيضاً، (والذي سيأتي ذكره في الآية ٢٧).

التعاليم:

- ١ - ليس للكفار ولا المشركين دور في بناء المساجد والمؤسسات الدينية والثقافية للمسلمين، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٢ - لا ينبغي الاستعانة بأموال الأغيار في بناء وإدارة المراكز والمؤسسات المقدسة، حتى لا يصبح ذلك ذريعة لتدخلهم، وفخرهم، وطمعهم، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٣ - العمل وحده لا يكفي، فالنوايا لها دور رئيس، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾.
- ٤ - ليس كل دخل مشروعاً، ولا كل مشاركة ذات قيمة. فلا تدعوا حبكم لبناء المساجد يجنح بكم نحو إشراك الكفار في الشؤون الدينية لأن هذا دخل غير مشروع وإشراك بلا قيمة، ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾.
- ٥ - أولئك الذين يجهرون باللا دينية، لا يحق لهم التدخل في الشؤون الدينية، ﴿شَهِيدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾.
- ٦ - المشرك هو نفسه الكافر، ﴿لِلْمُشْرِكِينَ... شَهِيدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾.
- ٧ - الكفر هو سبب محق أعمال الكفار، وفسادها، وحبطها، ﴿بِالْكَفْرِ... حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ تعتبر المساجد قواعد مهمة لعبادة المسلمين واجتماعهم. من هنا، ينبغي للقائمين عليها أن يكونوا أفراداً صالحين ومنزهين، ويحملون برامج بناءة

وتربوية، وأن تكون مداخيلهم حلالاً لا يشوبها المال الحرام، علاوة على ذلك يجب أن يكونوا أشخاصاً ورعين، ومؤمنين، وموضع تكريم وتقدير؛ لأنه إذا كان عمّار المساجد من الطغاة والسلاطين، وأئمتها من الجهلة والجبّاء، وخدمتها أفراد متراخين وكسالي، فلا شك في أنه، في هذه الحالة، ستظلّ المساجد بعيدة عن هدفها الأصلي وهو البناء المعنوي والروحي للإنسان.

□ يقول المرحوم الفيض الكاشاني في تفسيره «الصابي»: إنّ عمارة المسجد تشمل ترميمه، وتنظيفه، وفرشه بالسجاد، وإنارته، وإقامة حلقات التدريس والدعوة فيه.

□ وردت في القرآن الكريم كلمة الزكاة ٣٢ مرّة، ٢٨ مرّة منها إلى جانب كلمة الصلاة.

□ يقول رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرّجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»^(١). وفي الحديث الكثير من الثناء على من يعتاد المساجد ومن ذلك: «جلس المسجد على ثلاث خصال أخ مستفاد، أو كلمة محكمة، أو رحمة متظرة»^(٢).

التعاليم:

١ - سدانة المساجد وعمارتها تتطلّب شروطاً هي:

- (أ) شرط عقدي، الإيمان بالمبدأ والمعاد، ﴿أَمِنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
- (ب) شرط عملي، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.
- (ج) شرط روحي، الشجاعة والتحصّن، ﴿وَلَوْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ (إذا كان سادن المسجد فرداً شجاعاً، فسيضحي المسجد مركزاً لمقارعة الظلم).
- ٢ - واجب سدنة المساجد وعمّارها، مساعدة المحرومين، ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ... وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

٣ - لا ينفصم الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنَ... وَأَقَامَ﴾، ولا تنفصل الصلاة عن الزكاة، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ ولا ينفصم المسجد عن الثورة، ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ... وَلَمْ يَخْشَ﴾.

٤ - يجب أن لا نغترّ، حتى مع توافر شروط الإيمان، والعمل الصالح، والصلاة، والزكاة، والشجاعة؛ لأنّ خطر الانحراف قائم دائماً، ﴿فَنَسِيَ أَوْلِيَّكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿أَجْمَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ شيبة والعباس كانا يفتخر كل منهما على صاحبه، وبينما هما يتفاخران إذ مرّ عليهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «فيم تتفاخران؟»، فقال العباس: حُببت بما لم يُحِبّ به أحد وهو سقاية الحاج، فقال شيبة: إنني أعمار المسجد الحرام، وأنا سادن الكعبة، فقال علي عليه السلام: «على أنني مستحي منكما، فلي مع صغر سنّي ما ليس عندكما»، فقالا: وما ذاك؟ فقال: «جاهدت بسيفي حتى أمتما بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم». فخرج العباس مغضباً إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم شاكياً علياً عليه السلام، فقال: ألا ترى ما يقول؟ فقال النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «ادع لي علياً»، فلما جاءه علي قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَمْ كَلِمَتِ عَمَّكَ الْعَبَّاسُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ؟» فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كنت أغضبت، فلما يبتئ من الحق، فمن شاء فليرضَ بالقول الحقّ ومن شاء فليغضب». فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: «يا محمد إنّ ربك يقرئك السلام ويقول: اتلُ هذه الآيات: ﴿أَجْمَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾»^(١).

□ يُشار إلى أَنَّ الإمام عليّاً عليه السلام احتجّ مراراً بهذه الآية للتأكيد على فضله، وذلك لأنّ الإيمان والجهاد أفضل وأشرف من الخدمات غير المعنوية التي كان يقدمها المشركون أيام الشرك.

التعاليم:

- ١ - ينبغي أن لا يؤخذ المرء بالعمل وحده، فالعمل بلا إيمان، هو سراب، وزيف، وجسد بلا روح، ﴿أَجْمَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ... كُنَّ ءَامَنَ﴾.
- ٢ - المجاهد المخلص أعظم درجة، وإن كان للآخرين خدمات في مجالات أخرى، ﴿أَجْمَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ... كُنَّ... وَجَهْدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - المساواة بين المجاهدين المؤمنين وبين الآخرين، أمر مذموم ومثال للظلم الاجتماعي، ﴿أَجْمَلْتُمْ... كُنَّ... وَجَهْدَ... الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - الإيمان، والهجرة، والجهاد كالتقوى، على رأس جميع الفضائل، ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا... أَكْظَمُ دَرَجَةً﴾.
- ٢ - إذا كان معيار الفضل عند الناس هو العلاقات العشائرية والعرقية، فالإيمان، والهجرة، والجهاد هي المعيار في ميزان الحساب الإلهي^(١)، ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - الإيمان هو الأساس في الفضائل الأخرى، ﴿ءَامَنُوا﴾.
- ٤ - النية هي أساس الفضل في جميع الأعمال، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - الفوز والفلاح إنما يتحققان في ظلّ الإيمان والهجرة والجهاد، ﴿ءَامَنُوا... وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

(١) لو اجتمع المسلمون وصحابة النبي الكريم ﷺ كلهم في صف واحد، فمن سيكون أولهم إيماناً وأطولهم صكوتاً في الجبهات وأكثرهم تعرّضاً للمصائب والمحن غير الإمام علي عليه السلام؟

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ الإنسان ضئيل وفانٍ، لكنَّ الله تعالى يشتريه بأعلى الأثمان، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، على الرغم من أنَّه تعالى هو الواهب لكلِّ ما نملك.

التعاليم:

- ١ - الله تبارك وتعالى يبشِّر المؤمنين المهاجرين والمجاهدين بالجنة^(١)، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
- ٢ - دليل جامعية وشمولية الدين هو انسجامه مع الفطرة، وزرعه الأمل في نفوس أتباعه، ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾.
- ٣ - البشارة والثواب من شؤون الربوبية، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
- ٤ - الحظوة بالرحمة الإلهية وجنة الرضوان دليل فوز وفلاح، ﴿الْفَارِزِينَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
- ٥ - رحمة الله تعالى ورضوانه، فوق النعم المادية، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ﴾؛ (لاحظ أنَّ الرحمة والرضوان وردتا قبل الجنة).
- ٦ - روضات الجنَّات زاخرة بالنعم^(٢)، ﴿نَعِيمٌ﴾.
- ٧ - إذا غضضنا النظر عن النعم الفانية في سبيل مرضاة الله، فسوف نصل إلى النعيم الأبدي، ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.
- ٨ - الفناء آفة النعم الدنيوية، وهذه الآفة غير موجودة في الثواب الآخروي القيامة، ﴿مُّقِيمٌ... خَالِدِينَ... أَبَدًا﴾.

(١) وردت بشارات أخرى في آيات كثيرة مثل: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ سورة الإنسان، الآية ٢١؛ ﴿صَلَوْتُ بَيْنَ رَبِّيهِمْ﴾ سورة البقرة: الآية ١٥٧.

(٢) جاء في مفردات الراغب أنَّ النعيم هو النعمة الكثيرة.

٩ - الثواب الأكبر بيده وحده ﷻ، أما ثواب الآخرين أيًا كانوا ومهما كانوا، فهو ثواب ضئيل وحقيق مهمما عظم، فذكر كلمة ﴿عِنْدِي﴾ قبل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ علامة على الحصر.

١٠ - الله تعالى يصف الدنيا كلها بأنها قليلة، وثواب المجاهدين بال «عظيم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

إشارات:

□ تهديدات القرآن الكريم إزاء التحذير من القبول بولاية الكفار مرعبة، فمن هذه التهديدات، ما ورد في سورة المائدة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (١).

وكذلك في سورة آل عمران: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (٢).

□ تعرّض بعض المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة لغضب الوالدين، لكنهم آثروا الدفاع عن حمى الدين على رضاهم.

□ ينبغي رفض ولاية الوالدين المشركين، لكن هذا شيء، وبرهما شيء آخر.

التعاليم:

١ - ليس للأب الكافر ولاية على ابنه المسلم؛ لأنّ حفظ الروابط الدينية أهمّ من أي رابطة، ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾.

٢ - لا ينبغي للعواطف أن تتغلب على القيم الدينية، ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾.

٣ - ولاية الكافر لا تجوز، وإن كان أقرب شخص، ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ... أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

٤ - ضوابط الدين والعقيدة مقدّمة على أيّ قرابة أو نسب، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾.

٥ - القبول بولاية الكفار ظلم، ﴿الظَّالِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ سأل الإمام علي عليه السلام جماعة: لماذا لا تهاجرون إلى المدينة وتلتحقون بالنبي الكريم ﷺ وتنصرون؟ فقالوا: إننا مع أخوتنا وأرحامنا، وندافع عن ديارنا^(١).

□ الطوائف التي استعرضتها الآية الكريمة هنا هي من باب المثال، ولهذا السبب فإن ذكر الآباء يشمل الأمهات أيضاً، والأبناء يعني الذكور والإناث، والإخوان يشمل الإخوة والأخوات.

التعاليم:

١ - يمكن معرفة إيمان المرء حين يقف على مفترق طريقي الدنيا والآخرة، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ﴾.

٢ - لاجتياز الجسور المادية، يجب ترسيخ المعتقدات والتقرب إلى الله تعالى، ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ... وَأَمْوَالٌ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾.

٣ - لا ينبغي لعوامل القرابة، والرحم، وتوافر الإمكانيات المادية أن تكون حاجزاً دون الجهاد، وحيثما أصبحت كذلك، سوف تكون مقدمة للغضب الإلهي، ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ... وَأَمْوَالٌ... أَحَبَّ... فَتَرَبَّصُوا...﴾؛ (يجب التضحية بكل شيء من أجل التقرب إلى الله والجهاد في سبيله. ذلك أن المحافظة على الدين أولى

من المحافظة على علاقات الرحم، والعاطفة، والمنافع الاقتصادية).

٤ - إذا شككت الرفاهية والرخاء ركناً أساساً في الحياة، فسوف تسقط الإنسانية وتبتعد عن الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، وحينذاك على الإنسانية أن تنتظر عذاباً إلهياً من حيث لا تحتسب، ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

٥ - المترفون اللامسؤولون لن تشملهم الهداية الإلهية، ﴿لَا يَهْدِي﴾.

٦ - ترجيح الأمور المادية على القيم المعنوية دليل فسق، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ... أَلْفَنَسِقِينَ﴾؛ (الخط الفاصل بين الإيمان والفسق هو ترك القيم المعنوية).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَوَّاتْ عَلَيْكُمْ ۖ وَالْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذَرِيَّتَ﴾

إشارات:

□ الآيات السابقة تشجع على الجهاد وتحذر من الموانع والعلائق المعيقة له، وهنا تستعرض الآية الطاف الله ومدده الغيبي لتزرع الدوافع الجهادية في الإنسان.

□ وقوله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواقع متعددة، وبدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وغيرها، وقد بلغ تعدادها ٨٠ موطناً^(١).

□ روي أنه: عندما سُم الخليفة العباسي المتوكل، نذر إن عوفي أن يتصدق بمال كثير، فلما عوفي سأل الفقهاء عن حد المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم: مئة ألف، وقال بعضهم: عشرة آلاف، فقالوا فيه أقاويل مختلفة، فاشتبه عليه الأمر فقال رجل من ندمائه يقال له صفعان: ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأل عنه؟ فقال له المتوكل: من تعني ويحك، فقال له: ابن الرضا، فقال له: وهو يحسن من هذا شيئاً؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٧، ص ٤٦٤.

وكذا وإلا فاضربني مئة مفرقة، فقال المتوكل: قد رضيت يا جعفر بن محمود، صر إليه وسله عن حدّ المال الكثير، فصار جعفر بن محمود إلى أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام فسأله عن حدّ المال الكثير فقال: «الكثير ثمانون»، فقال له جعفر: يا سيدي إنه يسألني عن العلة فيه، فقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»^(١).

ملاحم معركة حنين

□ حُنين منطقة قريبة من الطائف، وسميت الغزوة باسمها لوقوعها فيها، وقد عُبر عنها في القرآن بـ «يوم حنين»، ولها من الأسماء غزوة أوطاس وغزوة هوازن أيضاً، وذلك لأنّ إحدى القبائل تُدعى هوازن قد شاركت فيها.

في العام الثامن للهجرة، عقد النبي الكريم ﷺ لواءه وسلّمه علياً عليه السلام، وأمر حملة الرايات الذين ساهموا في فتح مكة أن يتوجهوا براياتهم مع علي بن أبي طالب عليه السلام إلى حُنين، وقد كان عددهم حوالي عشرة آلاف رجل، وانضمّ إليهم ألفا شخص كانوا قد أسلموا في فتح مكة، فصاروا حوالي اثني عشر ألفاً.

وقعت الحرب بعد صلاة الصبح حينما فوجئ المسلمون بهجوم هوازن من كلّ جانب وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّ معظم المقاتلين حديثي الإسلام من مقدّمة الجيش، فكان أن دُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم، إلّا أنّ علياً عليه السلام حامل لواء النبي الكريم ﷺ بقي يقاتل مع عدّة قليلة، وكان النبي في قلب الجيش وحوله بنو هاشم، وفيهم عمّه العباس، وكانوا لا يتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أيمن بن أم أيمن، فمرت مقدمة الجيش في فرارها من المعركة على النبي فأمر النبي عمّه العباس - وكان جهير الصوت - أن يصعد على تلّ قريب وينادي فوراً: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله ﷺ، فلما سمع المسلمون صوت

العبّاس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سيّما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كلّ جانب حملة شديدة، وتقدّموا بإذن الله، فنصرهم، بحيث تفرّقت هوازن شذر مذر مذعورة، والمسلمون ما زالوا يحملون عليها، فقتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم، فانتهت الحرب بنصر من الله مؤزّر للمسلمين. ولقد قيل كلام كثير حول عدد الأسرى ومقدار الغنائم التي حصل عليها المسلمون، وكيفية تقسيمها وما عرض لهذه الحرب وما تمخّضت عنه، وقد بسطت مصادر التاريخ وكتب المغازي الحديث في ذلك.

التعاليم:

- ١ - السبب الرئيس وراء انتصار المسلمين في صدر الإسلام هو النصره والمدد الإلهي، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ...﴾.
- ٢ - ذكر الالطاف الإلهية، يقوّي المعنويات والإيمان في الإنسان، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾.
- ٣ - معركة حُنين ذات أهميّة كبرى. (عبارة ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾ تشمل معركة حُنين أيضاً، وقد ذكرت بشكل مستقل لأهميتها)، ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
- ٤ - أحياناً تؤدّي الكثرة والإمكانات الماديّة إلى الغرور والغفلة، وبالتالي إلى الهزيمة، ﴿أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.
- ٥ - لا تنقطع الحاجة إلى المدد الإلهي في أيّ وقت، سواء في حال الضعف أم في حال القوّة والقدرة. فالمسلمون في معركة بدر كانوا قلة، لكنهم انتصروا بفضل النصره الإلهية، وفي حُنين كانوا كثرة، ولكن لم تُغنيهم كثرتهم شيئاً لولا النصره الإلهية، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
- ٦ - لا تأثير للأسباب الماديّة لولا المشيئة الإلهية، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾.
- ٧ - أحياناً، يستدعي الأمر تذكير الإنسان بنقاط ضعفه لحمله على التعبّد والتواضع، ولتحطيم غروره وكبريائه الفارغ، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

إشارات:

□ وردت كلمة «سكينة» ست مرات في القرآن الكريم، خمس منها لأغراض الحرب.

□ لقد تعددت ألطاف الله تعالى على المؤمنين في معركة حنين فبلغت أربعة أنواع، هي: السكينة، جنود غير مرئيين، العذاب على الكفار، وقبول توبة الفارين، (كما سيأتي ذلك في الآية اللاحقة).

□ قال رجل من الكفار للمؤمنين وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البلق والرجال عليهم الثياب البيض؟ فإنما كان قتلنا بأيديهم، وما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة، قالوا: تلك الملائكة^(١).

التعاليم:

١ - سقطات المقاتلين وزلاتهم في جبهات القتال، تؤدي إلى حرمانهم من المدد الإلهي الغيبي، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٢ - المدد الغيبي هو سر انتصار المسلمين، ﴿أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٣ - امتلاك المعنويات العالية والسكينة المنبثقة عن الإيمان من العوامل الرئيسة لإحراز النصر في المعارك، ﴿سَكِينَتَهُ﴾.

٤ - السكينة والاطمئنان ضروريان للقائد ولأتباعه في آن معاً، ﴿سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ففي هذه الآية أنزل الله سكينة على الرسول ﷺ الذي كان قلقاً من فرار المقاتلين واضطراب الناس، وعلى الناس الذين أصابهم الفزع.

٥ - الله تبارك وتعالى هو الذي أنزل السكينة الروحية على المؤمنين ﴿سَكِينَتَهُ﴾،

وفي آية أخرى يقول ﷺ: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١).

٦ - الإيمان بحضور الملائكة والمأمورين الإلهيين في المعركة لنصرة المؤمنين هو عقيدة قرآنية، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّا تَرَوُهَا﴾.

٧ - الموت في المعركة لمن يؤمن بالمبدأ والمعاد فخر، وهو للكافرين عذاب، ﴿وَعَذَابٌ﴾.

٨ - عاقبة جميع الكفار الهزيمة والذلة، ﴿وَعَذَابٌ... وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

التعاليم:

١ - قبول التوبة ليس واجباً على الله تعالى، بل هو فضل مرتبط بحكمته، ﴿مَن يَشَاءُ﴾.

٢ - الله تبارك وتعالى، يغفر ذنوب الإنسان ويرأف به ويحبّه، ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

إشارات:

□ واحدٌ من البنود الأربعة التي تلاها الإمام علي عليه السلام على المشركين في موسم الحج في العام التاسع للهجرة هو أنّه لن يحقّ لهم ابتداءً من العام القادم دخول المسجد الحرام.

التعاليم:

١ - الشرك نجسٌ، ﴿نَجَسٌ﴾، والطهارة الحقيقية هي في ظلّ الإيمان.

- ٢ - على المؤمن أن يبرأ من المشرك وينفر منه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.
- ٣ - عند إعلان برامجننا وآرائنا، ينبغي أن نلاحظ قدرتنا على التنفيذ، ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ (صحيح أن نجاسة المشركين تتعلق بالعام التاسع للهجرة، ولم يكن ذلك عام البراءة، إلا أن البراءة أُعلنت بسبب تعاضم شوكة المسلمين وقوتهم).
- ٤ - الاقتراب مقدّمة للدخول؛ لذا لا يجوز للمشركين حتى الاقتراب من البقاع المقدّسة، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾.
- ٥ - لقد بيّن الله ﷻ الحكمة وراء بعض النهي والتحريم الذي ورد في القرآن الكريم، ﴿نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا﴾.
- ٦ - ليست كلّ البقاع متساوية في القداسة، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.
- ٧ - لا بدّ من المداراة مع المناوئين وإمهالهم، ﴿بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا﴾.
- ٨ - عند إصدار الأحكام والتعليمات يجب الانتباه إلى ما يترتب عليها من توترات ونتائج، ﴿نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾.
- ٩ - حذار أن تعمل الضائقات الاقتصادية والضغط المالي على تراخي التزامنا بديننا، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.
- ١٠ - حيثما برز شعور اجتماعي بالقلق، ألحت الحاجة على بعث روح الأمل والتوكل على الله في الناس، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.
- ١١ - أرزاقنا ليست بيد الآخرين (المسافرين والسيّاح) بل بيد الله تعالى، ﴿يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾.
- ١٢ - لا تقلقوا لقطع العلاقات الاقتصادية مع الكفار إذا كان من أجل الدين، ﴿يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾.
- ١٣ - الناس مدينون بغناهم للفضل الإلهي أولاً ثم مهارتهم، وحنكة إدارتهم،

وقوة رأسمالهم ثانياً، ﴿يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

١٤ - أحكام الدين قائمة على علم الله وحكمته، ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

إشارات:

□ كان الكلام في الآيات السابقة عن نجاسة المشركين وضرورة قتالهم، وهذه الآية تشرح أسلوب التعامل مع أهل الكتاب، إذ تضع أمامهم طريقين هما: الحرب أو دفع الجزية.

□ كما أنَّ المسلمين وفي مقابل دفعهم الخمس والزكاة للدولة الإسلامية يحصلون على الخدمات والأمن، فإنَّ أهل الكتاب، أيضاً، عبر دفعهم مبلغاً معيناً (الجزية) يقومون، إلى حدِّ ما، بتأمين نفقات قيام الدولة بواجباتها تجاههم.

القائد الإسلامي هو الذي يقرّر مقدار الجزية. وبطبيعة الحال، يجب أن لا تكون مرتفعة بحيث تثقل كاهل أهل الكتاب، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما حدّ الجزية على أهل الكتاب؟ وهل عليهم في ذلك شيء موظف لا ينبغي أن يجوزوا إلى غيره؟ فقال: «ذلك إلى الإمام يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ما له بما يطبق إنَّما هم قوم فدوا أنفسهم من أن يُستعبدوا أو يُقتلوا، فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطبقون له أن يأخذهم به حتى يسلموا، فإنَّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وكيف يكون صاغراً وهو لا يكثرث لما يؤخذ منه، حتى يجد دُلاً لما أخذ منه، فيألم لذلك فيسلم»^(١).

□ من المعلوم أنَّ أهل الكتاب يؤمنون بالله وبيوم القيامة؛ لكننا نلاحظ أنَّ الآية

الكريمة تصفهم بأنهم لا يؤمنون، ذلك أن القرآن الكريم يصف الذين يؤمنون ببعض المعارف وينكرون بعضها الآخر بأنهم كافرون^(١). هذا فضلاً عن أن الإيمان بالمبدأ والمعاد إذا كان مختلطاً بالخرافات فهو بمثابة الكفر^(٢).

التعاليم:

- ١ - إذا لم يعمل أهل الكتاب بتعاليم أنبيائهم فهم عاصون، ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ... وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.
 - ٢ - وحده الدين الإسلامي دين الحق، وسائر الأديان الأخرى ليست كذلك؛ لأنها محرّفة ومشوبة بالخرافات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾.
 - ٣ - أمام كفار أهل الكتاب طريقتان لا ثالث لهما: إما الحرب أو دفع الجزية، ﴿قَتِلُوا... حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾.
 - ٤ - فرض الضرائب على أفراد أهل الكتاب إلزامي، ويجب أن يتم ذلك من منطلق قوة وأن يكون المال المستوفى نقداً، ويكونوا صاغرين، ﴿عَنْ يَدٍ... صَغِيرُونَ﴾.
 - ٥ - لا بدّ للدولة الإسلامية أن تمتلك القوة والمنعة حتى يخضع لها الآخرون، ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ... وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾.
 - ٦ - يجب أن تخضع الأقليات الدينية للنظام الإسلامي، ﴿صَغِيرُونَ﴾.
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَنفُسِهِمْ يُضْهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَمَ اللَّهُ أَنَّهُ يُوَفُّكُمْ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ «عزير»، في لغة العرب و«عزرا» في لغة اليهود، مثلما «عيسى» معرب «يسوع» و«يحيى» معرب «يوحنا».

(١) ﴿وَيَتُوبُونَ تَوْبَةً بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَنَكُفِّرُ بَعْضَكُمْ عَنْ بَعْضٍ... ثُمَّ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ سورة النساء: الآية ١٥٠.

(٢) تفسير الصافي.

عُزير هو أحد كبار علماء اليهود، وله مكانة خاصة في تاريخهم، حتى إنهم يسمّونه «منقذ اليهود»، وذلك لأنّ نبوخذنصر ملك بابل قتل رجالهم، وهدّم معابدهم، وأحرق توراتهم، وسبى نساءهم، وجاء بهم إلى بابل فمكثوا هناك، حتى جاء كورش ملك فارس وفتح بابل، فجاءه عزير فاستشفعه في اليهود فشقّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم.

□ هذه الآية، على نحو ما، توضيح ودليل للآية التي سبقتها والتي قالت: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

□ يعتقد الباحثون أنّ الكثير من تعاليم التوراة والإنجيل قد اختلطت بخرافات البوذيين، والبراهمة، ومعتقدات الإغريق، حتى إنّ الكثير من قصص الإنجيل موجودة في الديانة البوذية والبراهمانية.

بطبيعة الحال، فاليهود في عصرنا الحاضر لا يؤمنون بنبوة عزير لله، لكنهم كانوا كذلك في عصر النبي الكريم ﷺ، ونحن نقرأ في الروايات أنّ الرسول ﷺ سألهم بما مؤداه (إذا كنتم تُجّلون عزيراً، وتكرّمونه لخدماته العظمى، وتطلقون عليه هذا الاسم، فعلام لا تسمّون موسى وهو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للسؤال جواباً وأطرقوا برؤوسهم^(١)).

التعاليم:

١ - على الرغم من أنّ فئة صغيرة من اليهود تؤمن بأنّ عزيراً ابن الله، ولكنّ القرآن الكريم يصف الطائفة برمتها بالانحراف، والسبب هو أنّ الآخرين سكتوا عن هذا الفعل ولم يعترضوا، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾.

٢ - حذار من الغلو في شأن الشخصيات الدينية والإلهية، ﴿عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ...﴾.

٣ - اختلطت معتقدات اليهود والنصارى بالخرافات، ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَنَّهُمْ﴾.

٤ - عقيدة المشركين هي أنّ الأصنام شركاء لله، والملائكة بنات الله، ويؤمن

اليهود بأنّ عزيزاً ابن الله، ويؤمن المسيحيون بأنّ عيسى ابن الله، من هذا المنطلق فإنّ كلامهم يضاهي كلام الكفار، ﴿يُضْهِثُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
 ٥ - يعود أصل الخرافات في الديانتين اليهودية والمسيحية إلى معتقدات الكفار في الأمم السابقة، ﴿يُضْهِثُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

- «أحبار»، جمع «حبر»، ومعناه العالم، و«رهبان»، جمع «راهب»، وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكبّ على العبادة. وهؤلاء على الرغم من قدسيّتهم، فهم لا يخرجون عن كونهم عباداً لله لا معبودين.
- طاعة الأحبار والرهبان دون قيد أو شرط هي نوع من العبادة، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ أَطَاعَ رَجُلًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَهُ»^(١).
- وعنه عليه السلام أيضاً: «والله ما صلّوا ولا صاموا لهم ولكنهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتبعوهم»^(٢).
- في يوم القيامة تأخذ المشركين حسرات لأنهم جعلوا لله شركاء، ويقولون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ تُسَوِّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - الطاعة المطلقة لغير الله نوع من العبادة، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾.
- ٢ - عبادة الإنسان بأيّ شكل كانت، شرك. يجب أن لا نحول أيّ شخصيّة إلى صنم يُعبد، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٩٨.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٩٨.

٣ - النبي المعصوم الذي لا همّ له ولا هدف سوى الله تعالى، مقامه يختلف عن مقام العلماء؛ لذلك نجد أنّ اسم المسيح ذكر مستقلاً في الآية، ﴿أَخْبَارُهُمْ وَرُبُّكَهُمْ... وَالْمَسِيحَ﴾.

٤ - يجب أن تكون للمحبة والطاعة حدود، فأيّ نظام، أو قطب، أو مراد، أو مرشد، أو طاعة لتشكيل أو حزب... إلخ؛ إذا لم ينتهل من نمير الوحي والأمر الإلهي فلا يعدو عن كونه شركاً، ﴿أَتَّخِذُوا... أَزْيَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٥ - خطر الجنوح عن التوحيد نحو الشرك قائم في كلّ عصر ومصر، ﴿أَتَّخِذُوا... أَزْيَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٦ - التشريع بيد الله تعالى وحده. وأولئك الذين يؤمنون بغير شريعة الله، قد خرجوا عن نطاق الإسلام، ﴿أَتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُبُّكَهُمْ أَزْيَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٧ - الغلو في الأنبياء أو عبادتهم أو القول إنّهم أبناء الله، كلّ ذلك شرك، ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَن يُضْمَرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

إشارات:

□ صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ نَظْرَةً فَاخْتَارَنِي مِنْهُمْ، ثُمَّ نَظَرَ ثَانِيَةً فَاخْتَارَ عَلِيًّا أَخِي، وَوَزِيرِي، وَوَارِثِي، وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي فِي أُمَّتِي، وَوَلِيَّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي، مَنْ تَوَلَّاهُ تَوَلَّى اللَّهَ، وَمَنْ عَادَاهُ عَادَى اللَّهَ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ أَبْغَضَهُ أَبْغَضَ اللَّهَ، وَاللَّهُ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا كَافِرٌ، وَهُوَ نُورُ الْأَرْضِ بَعْدِي وَرُكْنُهَا، وَهُوَ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَالْعُرْوَةُ وَالْوَثْقَى»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

التعاليم:

- ١ - مؤامرات الأعداء لا تتوقف، ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع تدلّ على الاستمرار).
- ٢ - أحكام الإسلام ودين الله نور على نور وينبوع الحياة، ﴿نُورَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - الكفار مذاهب، كلّ مذهب يسعى ويستमित، لكنهم جميعاً يلتقون عند هدف واحد وهو إطفاء شعلة الدين، ﴿يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - استماتة الكفار في محاربة الدين كمن ينفخ في الشمس ليطفئها^(١)، ﴿يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.
- ٥ - الدعاية، واحدة من محاولات أعداء الدين، ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.
- ٦ - إذا كانت دعوة الإسلام على لسان النبي الكريم ﷺ نوراً، فلا شك أنّ استمرارها في الإمامة إتمام للنور^(٢)، ﴿يُسَمِّ تُوْرُهُ﴾.
- ٧ - الله تبارك وتعالى يزف بشرى النصر لأنصار الحقّ، ﴿أَن يُسَمِّ تُوْرُهُ...﴾.
- ٨ - الله تعالى يحفظ شعلة الدين، لا بل ينشرها، ﴿يُسَمِّ تُوْرُهُ﴾.
- ٩ - فليعلم الكفار أنّهم يواجهون الإرادة النافذة لله تعالى والقاضية بنصرة دين الحقّ، وأنّ أيّ محاولة ضدّ الدين الإسلامي محكومة بالفشل والخذلان، ﴿يُسَمِّ تُوْرُهُ﴾.
- ١٠ - الإسلام دين خالد ﴿يُسَمِّ تُوْرُهُ﴾، ومن يعاديه فهو كافر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.
- ١١ - إرادة الله تعالى تسير باتجاه إرضاء نبيه الكريم ﷺ، وإن لم يعجب ذلك الكافرين^(٣)، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) آل النمرود، وآل فرعون، وبنو أمية، وبنو العباس أمثلة حيّة على الكفار.

(٢) كما في آية إكمال الدين إذ تطرح مسألة الإمامة بوصفها إتماماً للنعمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: الآية ٣).

(٣) كما في قصّة تغيير القبلة إذ ولّى نبيّه الكريم ﷺ قبلة رضي بها ﴿قِيلَ رَضَينَهَا﴾ (سورة البقرة: الآية ١٤٤)، وكذلك ﴿وَلَوْ يَظُنُّكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾ (سورة الضحى، الآية ٥).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

□ لقد وردت هذه الآية الكريمة نفسها تقريباً في سورتين أخريين أيضاً هما: الآية ٢٨ من سورة الفتح، والآية ٩ من سورة الصف.

□ الدين الإسلامي هو المنتصر دوماً بما يتوافر عليه من منطق ودلائل، غير أن مراد هذه الآية هو السيطرة الفعلية الظاهرية وبسط حاكمية الإسلام على العالم. ويدلّ على ذلك أن كلمة «ظهر» جاءت في آيات أخرى بهذا المعنى، أي الغلبة والسيطرة، كما في الآية ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْجُوا مِنْكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾^(١). وآية أخرى حول الكفار ﴿وَأِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْجُوا مِنْكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾^(٢).

□ من جهة، إن هذه الآية لم يتحقق مضمونها على أرض الواقع بعد، ومن جهة ثانية، نعلم أن الله تبارك وتعالى قد وعد بالحاكمية المطلقة والشاملة للإسلام، وهو جلّ وعلا لا يخلف الميعاد، إذن، نستنتج في ضوء ما ورد في روايات كثيرة أنها تتحدث عن ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

□ لقد تواتر ذكر ظهور الإمام المهدي عليه السلام وثورته العالمية في العديد من الروايات عن طرق الفريقين، كما ورد في معظم مصادر الحديث للعامة، وهي من المسلّمات العقدية عند المسلمين، وإن أصّر بعض، على رأسهم الفرقة الوهابية، على حصرها في الشيعة فقط^(٣).

□ عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، «يكون أن لا يبقى أحد، إلّا أقرّ بمحمد ﷺ»^(٤).

كثيرة هي الروايات بشأن بسط حاكمية الدين في أرجاء المعمورة، من

(٣) منتخب الأثر.

(١) سورة الكهف: الآية ٢٠.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨.

جملتها رواية منقولة عن الإمام علي عليه السلام يُخبر فيها عن ظهور الإمام المهدي عليه السلام: «فوالذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا وتنادي بشهادة أن لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله ﷺ بكرة وعشياً»^(١).

التعاليم:

- ١ - الحق هو محور الدين الإسلامي وركنه، ﴿وَدِينُ الْحَقِّ﴾؛ (الأديان السماوية الأخرى كلها حق، بيد أن حقيقتها خُذشت بسبب ما جرى عليها من تحريف).
- ٢ - الحق يظهر على الباطل، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾.
- ٣ - فلنجعل إرادة الله تعالى محور حركتنا وإرادتنا، وإلا فإننا سنمحي ونهلك، ﴿لِيُظْهِرَهُ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- مر ذكر معنى الأحرار والرهبان في الآية ٣١ من هذه السورة.
- لقد كتم أحرار اليهود الحق، من أجل المحافظة على مصالحهم الشخصية، ولم يعترفوا بحقية الدين الإسلامي، أو أنهم تلقوا الرشا ليغفروا الذنوب بزعمهم، أو نصبوا المحاكم لتفتيش العقائد ورمي الآخرين بالزندقة.
- استغلال الإنسان منصبه حرام، والفساد المالي هو أكبر خطر يتهدد علماء الدين، ﴿لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾؛ (من أمثلة هذه الآية الذين يتولون إدارة الموقوفات ولا يتفقون ريعها في المصارف المخصصة لها).

الزكاة في الروايات

□ عن الصادق عليه السلام أنه سئل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: «الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟» ف قيل: أريدهما جميعاً، فقال: «أما الظاهرة ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك»^(١).

• وعنه عليه السلام أيضاً في رواية أخرى: «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله تعالى ولم يعظكموها لتكنزوها»^(٢).

• ورد في الروايات: «إذا ظهر القائم حرم جميع الكنوز والأموال المدخرة حتى يؤتى بها إليه فيستعين بها على عدوه».

• قال النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم القدر الذي يسع فقراءهم... إلا أن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً»^(٣).

• وعن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما نزلت هذه الآية: «كل مال تؤدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض»^(٤).

أبو ذر وآية الكنز

□ نقرأ في سيرة أبي ذر (رحمه الله) الصحابي الجليل، أنه عندما كان في الشام، كان يعترض على معاوية، وعثمان، وعمّال الخليفة بشأن كنزهم الذهب والفضة، وكذلك لما كان يتعرض له بيت المال من نهب وهدر، وكان يصيح بصوت عالٍ صباحاً مساءً أمام معاوية ثم عثمان: بشر أهل الكنوز بكئي في الجباه وكئي بالجنوب وكئي بالظهور أبداً حتى يتردد الحرّ في أجوافهم. وكان يقول: إنّ هذه الآية لا تختصّ بمانعي الزكاة، بل تشمل غيرهم أيضاً.

(١) تفسير الصافي.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير كنز الدقائق.

يقول صاحب تفسير الميزان (رحمه الله): إنه يتبين من سلوك أبي ذر مع عثمان، ومعاوية، وكعب الأحبار أنه كان يرى أن كثر الأموال في المجتمع الفقير حرام، حتى وإن جُمعت بطرق مشروعة ودفعت منها الزكاة. طبعاً كان بعض يرى أن ذلك اجتهاد شخصي لأبي ذر، لكن أبا ذر كان يقول: «ما قلتُ لهم إلا ما سمعتُ من نبيهم».

لم تقتصر سيرة هذا الصحابي الجليل على مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إزاء الأحكام فقط، ومحاربته مظاهر البذخ والترف الاقتصادي، كما لم يكن صراعه مع عثمان بن عفان على المال والجاه، بل إن معارضته كانت لمنكر اجتماعي يهّم المجتمع بأكمله.

وعلى أي حال، فإن الصحابي الزاهد أبا ذر (رحمه الله) لمّا واجه الخليفة عثمان بشدة ضاق الأخير به ذرعاً فنفاه إلى بلاد الشام، ثم بعد ذلك كتب إلى عامله على الشام معاوية ليرسله إلى المدينة قائلاً له: أن ابعث أبا ذر في جماعة من شرطتك ولا ترقه عليه، وليجدوا به السير ليل نهار، ولا يدعوه يستريح لحظة واحدة، حتى إن أبا ذر لمّا وصل المدينة مرض هناك، ولمّا لم يكن وجوده في المدينة هيناً على عثمان وأتباعه، نفاه إلى الربرة حتى مات فيها. وقد حاول الآخرون تبرئة عثمان من فعلته بأبي ذر، فألصقوا بهذا الصحابي تهمة الاشتراكية والفكر الاشتراكي ومعارضته الملكية الخاصة، غير أن العلامة الأميني (قدس سرّه) كتب في موسوعته الغدير بحثاً مفصلاً لردّ هذه التهمة^(١).

إن النفي المتكرر لهذا الصحابي الورع والمضايقات المستمرة التي تعرّض لها كانت بسبب صراعه مع جهاز الحكم وصرخات الاعتراض التي أطلقها ضدّ السياسة المالية لعثمان ونهج معاوية في اكتناز الذهب والفضة، وتبرير كعب الأحبار هذه السياسات، وهو أمر دأبت على ذكره مصادر التاريخ لكلا الفريقين^(٢)، وإن حاول بعض بنحو أو بآخر تبرير تلك المضايقات بتسويق بعض الأكاذيب للتأكيد على أن ذلك كان من أمارات حرية التعبير عن الرأي التي كفلها

(٢) تفسير الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

(١) الغدير، ج ٨، ص ٣٣٥.

الخليفة عثمان في ذلك العصر، أو ما قاله بعض المتزلفين من أن نفي أبي ذر كان عملاً بقاعدة «تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة» وأن حضوره في المدينة أو الشام هو الشر، وأن نفيه إلى الربذة كان مراعاةً للمصلحة^(١)، بيد أن الحقيقة الماثلة هي أن هذا السلوك المشين مع صاحب رسول الله ﷺ لا يمكن تبريره بأي شكل من الأشكال، هذا الصحابي الورع الذي رفع صوته عالياً عملاً بواجبه في محاربة الانحرافات وتطبيقاً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التعاليم:

- ١ - ليس كل علماء أهل الكتاب سيئين، ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْأَنْبَارِ﴾.
- ٢ - انتفاع العلماء بأموال الناس دون أن ينفعوا الناس بشيء سوف يؤدي إلى نفور هؤلاء من الدين، وربما كان ذلك مصداقاً للصّد عن سبيل الله، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ... وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - علماء اليهود والنصارى كانوا يصّدون الناس عن سبيل الحق من أجل دنياهم، ﴿وَيَصُدُّونَ... يَكْذِبُونَ﴾.
- ٤ - لا توجد في الإسلام قيود على الثروات والرساميل، ولكن ثمة شروط لطرق كسبها، فاكتناز الذهب وسوء إنفاق الثروات حرام، ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ (إذا كان اكتناز الذهب حراماً، فمن باب أولى أن احتكار أرزاق الناس حرام أيضاً).
- ٥ - اكتناز الأموال والجشع هو في الحقيقة احتكار وإخفاء، لأنه يتسبب في خلق الكثير من المشكلات للمجتمع، ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ... وَلَا يَفْقَهُنَهَا﴾.
- ٦ - لهث العلماء وراء الدنيا واكتناز الأثرياء للأموال مدعاة لنزول العذاب الإلهي، ﴿بَيَّيْرْتَهُمْ...﴾.

(١) ومنهم صاحب تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٦. ٤٠٧.

٧ - اكتناز الذهب والفضة والأموال واحتكارها وعدم إنفاقها، هي من الكبائر، لأن الله تعالى توعد مرتكبيها بالعذاب، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ... بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿يَوْمَ يُخَيَّمُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٥)

إشارات:

□ «تُكْوَى» مشتقة من «الكي»، وتعني إلصاق الحار من الحديد والنار بالموضع المقصود حتى يحترق الجلد.

□ وقد قيل في سبب ذكر هذه المواضع الثلاثة (الجباه والظهور والجنب) من بين سائر أعضاء الجسم: «حتى يتردد الحر في أجوافهم»؛ أي إن الحرارة المحرقة التي تمس هذه المواضع الثلاثة تنفذ إلى سائر الجسم وتستوعبه كله^(١)، أو إن السبب في ذكر هذه المواضع الثلاثة دون غيرها هو أن أصحاب الثروة حين كان يأتيهم المحروم أو الفقير كان رد فعلهم يظهر على جباههم أحياناً حيث يزوون ما بين عيونهم ويقبضون وجوههم، فيظهرون عدم الاعتناء بهم، وتارة ينحرفون عنهم، وتارة يديرون ظهورهم لهم، أو أن المراد بالجباه هو مقادير الجسم، والظهر هو خلف الجسم والجنب هو طرفا الجسم، والمعنى أن الكي يستوعب الجسم كله.

□ وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام حديث طويل يذكر فيه الكبائر وفيه: «ومنع الزكوة المفروضة لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يُخَيَّمُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾» (٢).

□ وفي إحدى الروايات نُقل عن أبي ذر قوله: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو

(١) تفسير الأمل في تفسير كتاب الله المنزل. (٢) تفسير كثر الدقائق.

جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة»، فقلت: ومن هم؟ قال: «الأكثرون أموالاً»^(١).

التعاليم:

- ١ - الله القادر على بعث الإنسان على نفس صورته الأولى، قادرٌ أيضاً على إحضار الأشياء مثل الذهب والفضة بنفس صورتها الدنيوية الأولى، ﴿هَذَا﴾.
- ٢ - يتناسب عذاب الإنسان وثوابه في يوم القيامة مع ما عمل في هذه الدنيا، ﴿هَذَا مَا كَسَزْتُمْ﴾.
- ٣ - أموال الدنيا هي إحدى أدوات التعذيب في يوم القيامة، ﴿هَذَا مَا كَسَزْتُمْ﴾.
- ٤ - في يوم القيامة سوف يسلب الله من ذائقة المكنزين لذّة المال والكنوز، ﴿تَذَوُّوْا﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كُلَّ فَوْءٍ يُقْتَلُوكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- السنة اثنا عشر شهراً، ومن الملفت أنّ كلمة «الشهر» أيضاً وردت في القرآن الكريم إثنتي عشرة مرة^(٢).
- أما العدد (١٢) فقد ورد مرّات عدّة في القرآن الكريم، وهو عدد مبارك، فهو عدد نقيب بني إسرائيل، وعدد العيون التي فجّرها الله تعالى لموسى، وعدد أئمة أهل البيت ﷺ ... إلخ.
- الأشهر الأربعة الحُرُم هي: ذي القعدة، ذي الحجة، محرم ورجب، والأشهر

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) الإعجاز العددي للقرآن.

الثلاثة الأولى متوالية وتسمى الأشهر السرد، ويسمى رجب بالشهر الفرد^(١).

□ لقد قضت إرادة الله تعالى منذ بدء الخليقة بوجود نظام لدوران القمر حول الأرض وبحركة الكواكب داخل المجموعة الشمسية طيلة العام.

□ إن احترام الأشهر الحُرْم نافذ المفعول ما دام العدو يحترمها ولا يستغلّ هذا التحريم لمهاجمة المسلمين خلال هذه الأشهر، أمّا إذا فعل ذلك، فلا شك في وجوب قتاله من قبل المسلمين استناداً للآية ١٩٤ من سورة البقرة، ﴿وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ مَّنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ يَسْئَلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ﴾.

□ ربّما في التعبير عن نفاذ هذا القانون واستمراره، إشارة إلى أنّ احترام الأشهر الأربعة الحُرْم كان قائماً في جميع الأديان السماوية، (حسبما ورد في الروايات).

□ ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ هذه الآية أوّلت في الأئمة الاثني عشر^(٢).

التعاليم:

١ - التقويم التاريخي الأفضل هو الذي يكون ثابتاً وطبيعياً وعماماً، والأشهر القمرية تتصف بهذه الخصائص الثلاث، ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ...﴾.

٢ - الأشهر الاثنا عشر لم توجد تدريجياً، بل إنّها وُجدت مذ خُلقت السموات والأرض، ﴿إِنَّا عَشَرَ شَهْرًا... يَوْمَ خَلَقْنَا...﴾.

٣ - المجاهدون وأسْرهم بحاجة إلى الزيارة، والتعليم، والراحة، ومتابعة شؤونهم الحياتية. إذن، لا بدّ من أن تخدم الحرب ثلث العام لتتيح لهم الفرصة لترتيب أوضاعهم، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، حتى الحرب لها قواعد وأصول ينبغي احترامها والامتناع عن التعرّض للغافلين والنساء وكبار السن والأطفال، وآلا يُهاجموا دون سبب وسابق إنذار.

- ٤ - ليست كلّ الأزمنة متساوية من حيث القدسية، ﴿وَمِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.
- ٥ - يوجد في الإسلام مكان آمن هو (مكة)، وزمان آمن أيضاً (الأشهر الحرم). والملفت أنّ محور الأشهر الثلاثة (ذي القعدة وذي الحجة ومحرم) من الأشهر الأربعة الحرم هو شهر الحج (ذو الحجة).
- ٦ - ضرر عدم الالتزام بالأشهر الحرم يصيب الإنسان نفسه، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.
- ٧ - الحرب ليست خيار الإسلام، فهو يقوم على الفكر، والبرهان، والحكمة، والموعظة، والتعايش السلمي، ولكن إذا فرضت من أجل دفع المعتدين على أمن المجتمع، أو ردع المستكبرين، أو الدفاع عن النفس، فحينئذ لا مناص منها حتى في الأشهر الحرم، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٨ - يجب أن لا نسمح للعدو بإساءة استغلال مقدساتنا الدينية وأحكامنا الفقهية، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، فإذا هجم العدو في الأشهر الحرم، يجب الرد بالمثل، فلا مجال في هذه الحالة للتمسك بالمثاليات الفارغة والقدسانية الجوفاء.
- ٩ - الهجوم على العدو يجب أن يكون بمثل ما اعتدى عليكم، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.
- ١٠ - يتحقق النصر في ظلّ التقوى، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّبُونَهُ عَامًا يُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُرُوا لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

□ «النسيء» و«النسيئة» من أصل واحد. وتطلق على ما يؤجل من إعطاء المال وقبضه لقاء السلعة، وكذلك تعني تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر.

□ كان الكفار، أحياناً، يتفلسفون فيغيرون في شريعة الله، وذلك بالقتال في الشهر الحرام، ويحرّمون بدله شهراً آخر غير حرام^(١).

التعاليم:

- ١ - لنحترم المقدّسات، فالتغيير والتبديل في شريعة الله تعالى، كفرٌ، ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، الخطورة لا تكمن في التحريم في الأشهر الأربعة الحرام، بل التمرد على شرع الله وحكمه.
 - ٢ - للكفر مراتب ومراحل، ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.
 - ٣ - أحد عوامل ضلال الكفار هو تنسئة الأشهر الحُرّم، ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
 - ٤ - التفسيرات والتأويلات الخاطئة من أجل تغيير أحكام الله وشرائعه هي أحد أسباب انحراف الناس، ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا...﴾.
 - ٥ - عرب الجاهلية كانوا مؤمنين بعدّة الأشهر الحُرّم على الرغم من أنهم كانوا ينسؤونها، ﴿لِيُؤْطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.
 - ٦ - الهداية لمن يقرّ بفساد أعماله ممكنة، ولكنها عسيرة لمن يرى صوابها، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

إشارات:

□ جاء في سبب نزول هذه الآية، أنها نزلت في معركة تبوك، عندما تناقل المسلمون عن المشاركة فيها، وكانت حجّتهم بعد المسافة بين المدينة وتبوك (حوالي ٦٠٠ كم)، وأنّ الوقت كان صيفاً قائظاً، مضافاً إلى أنّ الموسم كان موسم قطاف الثمار وجمع المحاصيل الزراعية، ناهيك عن نشاطات المنافقين

في تثبيط عزائم المسلمين وتهويل المواجهة وذلك بتضخيم قدرة جيش الروم وعظمة استعداداته^(١).

التعاليم:

١ - يتطلّب الأمر، أحياناً، توجيه النقد واللوم للمؤمنين، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ...﴾.

٢ - التعلّق بحبائل الدنيا والأمور المادية، يحول دون انفكاك الإنسان عن الشرى والتحليق إلى الثريا، ﴿أَنَّا قَلَّتُمْ...﴾؛ (طالب الدنيا يكون قصير الهمة).

٣ - قيمة الإنسان ومكانته أسمى من أن يركن لهذه الدنيا الدنية، ﴿أَرْضَيْتُمْ...﴾.

٤ - لا شك في أنّ الذي يؤثر الآخرة على متاع الدنيا الفانية، سوف يُقبل على جبهات القتال ويعرض عن الدنيا، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إشارات:

□ في هذه الآية والآية السابقة تأكيد على موضوع الجهاد من ثمانية وجوه هي: مخاطبة المؤمنين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، الاستفهام الاستنكاري والتوبيخ ﴿مَا لَكُمْ﴾، التعبير عن الجهاد بـ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، الأمر بالحركة نحو ميادين الجهاد ﴿أَنفِرُوا﴾، التهديد بالعذاب ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾، التهديد باستبدال المخاطبين ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾، التهديد بأنهم بتركهم جبهات القتال لن يضرّوا سوى أنفسهم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾، التهديد بالقدرة الإلهية ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

□ طبقاً لما ورد في بعض الروايات، فإنّ المقصود بالقوم الآخرين «قوماً غيركم»، هم أهل فارس واليمن الذي هبوا لنصرة دين الله تعالى^(٢).

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٧.

(٢) تفسير الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ كثر الدقائق.

التعاليم:

- ١ - عقوبة الفرار من جبهات القتال، العذاب والذلة في الدنيا، والدخول في نار جهنم في الآخرة، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.
- ٢ - الله تبارك وتعالى قادر على أن يستبدلنا بقوم آخرين، وسيفعل ذلك متى أراد ذلك، ﴿وَيَسْتَبْدِلُ﴾.
- ٣ - جمودنا وعدم تحركنا سيعود علينا بالضرر ولن يضر الله شيئاً، ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾؛ (كسلنا وتقاعسنا مدعاة لاستبدالنا بقوم آخرين).
- ٤ - قدرة الله اللامحدودة هي عامل استبدالنا بقوم آخرين، ﴿وَيَسْتَبْدِلُ... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- ٥ - من يمتلك قدرة لا محدودة، لن يضره أي شيء، ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعًا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

□ الآية موضع البحث تشير إلى مؤامرة المشركين الخبيثة لاغتيال النبي الأكرم ﷺ، والتي تُعرف بقصة «ليلة المبيت»، إذ قرّرت قريش أن تنتدب من كلّ قبيلة رجلاً ليهجموا على النبي الكريم ﷺ هجمة رجل واحد ويقتلوه ليتفرّق دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه. ولكن الله تعالى أطلع نبيه على تلك المكيدة، فاستخلف عليّاً عليه السلام في فراشه، وخرج ليلاً من مكة للهجرة إلى المدينة وكان معه أبو بكر فتوجّها نحو غار ثور الذي يقع جنوب مكة. وقام الكفار بتعقب أثر النبي الكريم ﷺ حتى وصلا غار ثور، لكنهم عادوا آيسين

إلى مكة بعد أن رأوا خيوط العنكبوت قد نسجت على فتحة الغار، فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعلي يجهزهم، فاشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً، فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي عليه السلام بالإبل والدليل، فركب رسول الله ﷺ راحلته وركب أبو بكر أخرى والثالثة لدليلهما فتوجهوا نحو المدينة^(١).

التعاليم:

١ - الإسلام ليس بحاجة لنصرتنا، الله ينصر دينه، فلا ينبغي أن نفتخر بنصرتنا إياه، ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ﴾.

٢ - لقد ضمن الله تعالى النصر للمسلمين في تبوك، ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

٣ - انتصارات المسلمين مظاهر للقدر الإلهية، ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

٤ - خروج النبي الكريم ﷺ من مكة كان بسبب أجواء الرعب والضغط التي خلقها الكفار، ﴿أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ - عندما يشاء الله تعالى فإنه يحامي عن أشرف خلقه النبي الأكرم ﷺ بأوهن البيوت (بيت العنكبوت)، ﴿إِذْ هُمْ فِي الْفَكَارِ...﴾.

٦ - السكينة والطمأنينة هبة من الله، لا يمكن توفيرها بالوسائل المادية، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾.

٧ - لقد أمدّ الملائكة بأمر الله تعالى المؤمنين بمدد، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٨ - الهجرة هي سبب عزة الإسلام وتلاشي الكفر، ﴿أَخْرَجَهُ... وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفَلِيكُ﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن؛ الدر الثور.

- ٩ - إرادة الله أقوى من أيّ إرادة أو رغبة، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ مِنْ أَلْفَبَاءٍ﴾.
- ١٠ - قوى الاستكبار بكل ما تملك من خبرات وإمكانات مادية لا تستطيع مجاراة قوة السكينة والطمأنينة عند المؤمنين^(١)، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾.
- ١١ - العزة، واعتلاء كلمة الله، والقضاء على مؤامرات الكفار ودسائسهم، مظهر لعزة الله تعالى وحكمته، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ... وَاللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾.
- ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ لهاتين الكلمتين المتقابلتين «خفاف» و«ثقال»، مفهوم شامل وواسع يستوعب جميع حالات الإنسان من بينها: متزوجون أم عزّاب، فقراء أم أغنياء، مشاة أم راكبون، معيلون أم غير معيلين، أصحاب تجارة أم أصحاب زراعة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: «شباباً وشيوخاً»^(٢).

□ جاء في تفسير «في ظلال القرآن» أنّ أشخاصاً مثل أبي أيوب الأنصاري ومقداد وأبي طلحة كانوا في سنّ الشيخوخة وكان يتهيأون للذهاب إلى جبهات القتال، وعندما كان يقال لهم إنكم شيوخ، كانوا يردّون بتلاوة هذه الآية.

التعاليم:

١ - عندما يصدر أمر التعبئة العامة للذهاب إلى جبهات القتال، لا ينبغي للمرء أن

(١) في إشارة إلى الآية ٣٠ من سورة الأنفال ﴿وَلَا يَنْفَكُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٤٨.

يضع العصي في الدواليب أو يختلق الأعذار، ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ (المشاكل الحياتية ليست أعذاراً للتخلف عن الجهاد).

٢ - أحياناً يكون لا مناص من إعلان التعبئة العامة في مقابل العدو، وإن كانت التجهيزات العسكرية قليلة، ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

٣ - الدين أغلى من المال والنفس، فكل شيء فداء للدين، أموالنا وأرواحنا. لاحظ أن الآية الكريمة تقول: ﴿يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾، ولم تقل: «بأموالكم أو أنفسكم».

٤ - الجهاد بالنفس على الفقراء والجهاد بالمال والنفس على الأغنياء، ﴿يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

٥ - الإخلاص هو ميزان قيمة الأعمال، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٦ - الأحكام الإلهية، بما فيها حكم الجهاد، تصب في خانة المصالح الحقيقية للإنسان، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧ - بعض الناس لا يعرفون أين تكمن مصالحهم الحقيقية، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨ - كسب القيم الحقيقية يتيسر في ظل العلم والمعرفة، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

إشارات:

□ هذه الآية من آيات الإخبار بالغيب في القرآن الكريم، إذ تنبئ بالحدث قبل وقوعه، وهو معركة تبوك، ذلك أن منطقة تبوك تفصلها عن المدينة المنورة مسافة طويلة، وموقعها على تخوم الحجاز.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾: «غنيمة قريبة لاتبعوك»^(١).

التعاليم:

- ١ - أموال الدنيا وغنائمها متاعٌ فانٍ، ﴿عَرَضًا﴾.
 - ٢ - الحرب محكٌ جيدٌ لاختبار الإنسان، ﴿وَلَكِنْ بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.
 - ٣ - من الضروري تعرية نفسيات المنافقين وفضح سرائرهم، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا... لَا تَبْعُوكَ﴾.
 - ٤ - اشتراك المنافقين في بعض الحروب كان من أجل أن يصيبوا بعض المكاسب المادية، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا... لَا تَبْعُوكَ﴾.
 - ٥ - القبول بالأعمال المريحة كثيرة المنفعة ليس دليل رشد وإيثار، ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾.
 - ٦ - لا تستقيم روحية المسلم الحقيقي مع حياة الكسل والترف الباذخ، ﴿بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.
 - ٧ - الكذب والنفاق توأمان، فالمنافق من أجل الفرار من العمل، يلجأ إلى اليمين الكاذبة، ﴿وَسَيَحْلِلُونَ﴾.
 - ٨ - اليمين الكاذبة ديدن المنافقين، ﴿وَسَيَحْلِلُونَ﴾.
 - ٩ - لا يمكن محو آثار ترك الجهاد بالتبريرات الواهية والكذب، لأنّ نتيجتها الحتمية هي التعاسة والثبور، ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
 - ١٠ - عواقب الفرار من أرض المعركة ستصيب الفارّ وحده، ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ يبدو أنّ بعض المنافقين كانوا يأتون النبي الكريم ﷺ ويلتمسون الأعذار للتملص من المشاركة في معركة تبوك. وكان الرسول الكريم يأذن لهم بالانصراف، فنزلت هذه الآية في إطار عتاب مبطن، وتأميره أن لا يأذن بالانصراف إلّا لمن لديه موانع حقيقية لا أعذار واهية.

□ تصرّح الآية التالية بأن الله تعالى قد حرم المنافقين من توفيق المشاركة في المعركة ﴿كَرِهَ اللَّهُ أُلْعَائِهِمْ...﴾، على هذا، فإنّ إذن النبي الكريم ﷺ

ينسجم مع كره الله ذهاب المنافقين إلى القتال، وأن العتب الإلهي إنما كان بسبب التعجل في فضحهم. ويعضد هذا الرأي ما جاء في الآية ٤٧ أيضاً إذ تتحدث عن الأضرار التي ينطوي عليها حضور المنافقين في الجبهات، لذلك، وفي ضوء ما تقدم، فإن إذن النبي الكريم ﷺ لا هو بمعصية، ولا هو دليل على سوء تقدير أو تدبير (والعياذ بالله).

التعاليم:

- ١ - يُحسن بالمرء أن يتعلم أصول الإدارة والتدبير من معلم الكون الله تبارك وتعالى، فهو يقرن العتب بالعفو والرحمة، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾.
- ٢ - سدّوا منافذ التحجج والأعذار بوجه المنافقين، ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾.
- ٣ - التخلّف عن المشاركة في الحرب يحتاج إلى إذن القائد، ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾.
- ٤ - الحرب محكّ جيّد للكشف عن معادن الأفراد، ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ...﴾.
- ٥ - ستر العيوب ليس دائماً ذا قيمة، فأحياناً يستلزم الأمر نزع الستار، ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ... وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾.
- ٦ - من أجل الكشف عن معدن المنافقين يجب التدقيق في سجلهم في زمن الحرب والجهاد، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾.
- ٧ - حركة المجتمع المسلم يجب أن تتسم بالصدق لكي ينفضح أمر المنافقين، ﴿يَبَيَّنَ... وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾.
- ٨ - حضور المنافقين في جبهات القتال لا يشكّل قيمة، غير أن فرارهم من أرض المعركة عارٌ يوصم به جيئهم، ﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾.

﴿لَا يَسْتَنْذِلكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ﴾

إشارات:

□ المؤمن الحقيقي الذي يعشق الجهاد والشهادة، لا يأبى من مواجهة الموت،

ولا يفتش عن حجج وأعذار. وليس أدلّ على ذلك أنّ جماعة من المؤمنين كانت تصرّ على النبي الكريم ﷺ أن يأذن لها بالمشاركة في القتال، وعندما لم يأذن ﷺ بسبب قلة الإمكانيات والتجهيزات، كانوا يبكون من فرط الضيق والحسرة^(١).

□ «وَخَرَجَ النَّاسُ فِي غَزَاةٍ تَبُوكَ قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: أَخْرِجْ مَعَكَ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ: لَا؛ فَبَكَى عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي»^(٢).

التعاليم:

- ١ - المؤمن لا يتملص من المسؤولية، ﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٢ - المتخلفون عن غزوة تبوك هم جماعة لا إيمان لهم، ﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٣ - الإيمان بالمبدأ والمعاد هو السبب الأساس للتقوى، وطلب الشهادة، والحضور في جبهات القتال، ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
- ٤ - ينبغي على المجاهدين الحقيقيين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ﴿يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٥ - التقوى تمنع التخلف عن الجهاد بالمال والنفس، ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾.
- ٦ - الإيمان بعلم الله تعالى يزرع الطمأنينة في نفس المؤمن عند الجهاد، ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾.
- ٧ - الورع يكشف عن معدنه في الحرب والجبهات، لا في البيت وأيام السلم، ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا... وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَنْزِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَتَبِهِمْ يَرْدَدُونَ﴾

إشارات:

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «... ومن تردّد في الريب وطمته سنايك الشياطين»^(١).

التعاليم:

- ١ - الحرب محك لاختبار صدق الإيمان والاعتقاد، ﴿يَسْتَنْزِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
- ٢ - المنافق لا يؤمن بالهدف، لذلك تجده دائماً يفتش عن أعذار وحجج وعن مهرب وإذن، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.
- ٣ - وجود الإيمان أو عدمه هو الباعث الأصلي وراء الذهاب إلى الجبهات أو الفرار منها، ﴿يُؤْمِنُونَ... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٤ - أسوأ من الريب البقاء عليه، ﴿فِي رَتَبِهِمْ يَرْدَدُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
أَقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾

إشارات:

□ تثبيط الله المنافقين ومنعهم من المشاركة في جبهات الجهاد هو بمعنى سلبهم توفيق المشاركة لا المنع العملي.

التعاليم:

- ١ - لم يكن المنافقون يرومون أبداً الذهاب إلى الجبهات، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا... لَأَعَدُّوا﴾.
- ٢ - التمهيد للواجب، واجب، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا... لَأَعَدُّوا﴾.

- ٣ - المؤمن كله استعداد للجهاد، وينتظر الذهاب إلى الجبهات بفارغ الصبر، وهو لا تنقصه الدوافع ولا غير مكترث، ﴿لَاَعْدُوا لَهُ عُدَّةٌ﴾.
- ٤ - المشاركة في الجهاد توفيق من الله وفضل، لا يحظى غير الأكفاء بشرف امتلاكه، ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾.
- ٥ - لا ينبغي للمتخلفين عن الحرب والجهاد أن يحظوا بالاحترام، ﴿أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

□ «الْخَبَال» هو الاضطراب والتردد. و«الْحَبْل»، يعني الجنون أما «الْحَبْل» فمعناه فساد الأعضاء.

«أوضعوا»، من «الإيضاع»، هو الإسراع في الحركة والنفوذ بين صفوف المقاتلين.

«الفتنة» هنا جاءت للتعبير عن الفرقة والضلال.

«السَّمَاع»، تطلق على الجاسوس الذي يعمل بما يؤمن مصالح العدو وذلك من خلال التجسس على المسلمين وجمع الأخبار للمنافقين.

التعاليم:

١ - جند الإسلام يجب أن يكونوا خُلصاً ومصطفين، فالعدد والكمية ليست معياراً، ﴿لَوْ خَرَجُوا... مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

٢ - الله تبارك وتعالى يسلي المؤمنين لثلا يحزنوا بسبب تخلف جماعة من المنافقين عن الجبهات، ﴿لَوْ خَرَجُوا... مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

٣ - حضور المنافقين في الجبهات، مدعاة لإضعاف المعنويات وللفرقة والريبة،

﴿وَلَا رَضَعُوا حِلَالَكُمْ﴾.

٤ - تحرّكات المنافقين سريعة للغاية، ﴿وَلَا رَضَعُوا﴾.

٥ - ليس جميع المسلمين يدركون الخطر الذي يشكّله المنافقون، فبعض البسطاء تنطلي عليهم أقاريلهم ويتأثرون بها بسرعة، ﴿سَتَعُونَ لَهُمْ﴾.

٦ - المنافق ظالم، والله تعالى ينذره، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

التعاليم:

١ - المنافقون يذهبون في أثر الفتنة عن سابق إصرار وترصد، ﴿ابْتَغُوا﴾.

٢ - متى ما أطلّت الفتنة برأسها، وجدتم أنّها تحمل بصمات المنافقين، ﴿ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾.

٣ - انتبهوا إلى ماضي أولئك الذين لم يخلصوا النية في توبتهم، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾.

٤ - تزيف الحقائق ورفع التقارير المحرّفة إلى القائد، من شيم النفاق، ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

٥ - على قائد الأمة الإسلامية أن يتوخى الحيلة والفتنة، وأن لا يثق بأيّ تقرير يُرفع إليه، ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

٦ - الفتنة والفرقة، هو الأسلوب الذي خبره المنافقون، ولن يكفّوا أيديهم عن ذلك إلا بتحقيق النصر الأكيد لجبهة الحق، ﴿ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ... حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾.

٧ - المدد الإلهي جعل مخططات المنافقين هواءً في شبك. فبالرغم من كلّ الفتن التي تثار ضدّ الإسلام، نجده يعلو ويتألق بدلاً من أن يهوي ويسقط، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾.

٨ - المنافق لا يصفو قلبه للنظام الإسلامي أبداً، ﴿كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَقِيَّتِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

إشارات:

□ قال جماعة من المفسرين: إن النبي ﷺ كان يُعَيِّنُ المسلمين ويُهَيِّئُهُمْ لمعركة تبوك ويدعوهم إلى التحرك نحوها، فبينما هو على هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة «بنو سلمة» يدعى «جد بن قيس» وكان في صفوف المنافقين، فجاء إلى النبي ﷺ مستأذناً أن لا يشهد المعركة، متذرعاً بأن فيه شبقاً إلى النساء، وإذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فرُبما سيهيم ولهاً بهنَّ وينسحب من المعركة، فأذن له النبي ﷺ بالانصراف. فنزلت الآية أعلاه معتقةً هذا الشخص. فالتفت النبي الكريم ﷺ إلى بني سلمة وقال: «من كبيركم؟» فقالوا: جد بن قيس، إلا أنه رجل بخيل وجبان، فقال: «وأي شيء أبشع من البخيل؟» ثم قال: «إن كبيركم ذلك الشاب الوضيء الوجه بشر بن براء» (وكان رجلاً سخياً سمحاً بشوشاً) (١).

التعاليم:

- ١ - القيادة العامة للقوات هي من مسؤوليات النبي وقائد المجتمع الإسلامي، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي﴾.
- ٢ - المنافقون الوقحون كانوا يعتبرون النبي الكريم ﷺ فتنة، ﴿أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَقِيَّتِي﴾.
- ٣ - الجهاد في سبيل الله من وجهة نظر المنافقين بلاء ومصيبة، ﴿وَلَا تَقِيَّتِي﴾.
- ٤ - الحرب هي محك للفتنة والاختبار، ﴿وَلَا تَقِيَّتِي﴾.
- ٥ - يلجأ بعض المنافقين إلى بعض الطروحات والمسائل الدينية من أجل خداع

(١) تفسير الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

المتدينين، ﴿وَلَا تَقْتَتِ﴾؛ (فهذا المنافق يتخلف عن حكم الله ورسوله بذريعة عدم النظر إلى بنات الروم والافتتان بهن)!

٦ - أولئك الذين يفرون من فتنه الحرب، سيقعون في فتنه أعظم، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

٧ - لا يمكن الفرار من الاختبار الإلهي أبداً^(١). فعلى الرغم من قوله ﴿وَلَا تَقْتَتِ﴾ فقد ابتلي بها، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾؟

٨ - حجج المنافقين للفرار من الجهاد مدعاة للكفر، ﴿أَشْذَنَ لِي... يَا كَافِرِينَ﴾.

٩ - إحاطة جهنم بالكافرين هي لجهة إحاطة المعصية بهم^(٢)، ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوِهِمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

التعاليم:

١ - النبي والقائد هما واجهة النظام الإسلامي والأمة. فكلمة ﴿تُصِيبَكَ﴾ استعملت بدلاً من «تصيبكم».

٢ - في منعرجات الحياة وعندما يدلهم الخطب يتميز العدو من الصديق، ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوِهِمْ...﴾.

٣ - في غزوات الرسول الكريم ﷺ، كان للنصر والهزيمة حضور، ﴿حَسَنَةٌ... مُصِيبَةٌ﴾.

٤ - المنافقون الانتهازيون يستغلون مصائب المسلمين لصالحهم، حتى يروجوا لفظتهم واستشرفهم للمستقبل، ﴿أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾.

(١) ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُؤْذُوا مَا كُنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٢).

(٢) وفي موضع نقرا: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَلْغَمَتْ يَدَهُ خَلِيطُهُ فَأَوَّلَتْكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ﴾ سورة البقرة: الآية ٨١.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

التعاليم:

١ - القائد والأمة يقتسمان الأفراح والأفراح. الآية السابقة تقول: ﴿تُصِيبُكَ﴾، وهنا تقول: ﴿يُصِيبُنَا﴾.

٢ - إننا مأمورون بأداء التكليف، وليس علينا أن نضمن النتائج. فالجهاد علينا لكن التقدير بيد الله تعالى، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

٣ - يرى المؤمن الحقيقي أنه حتى صعوبات الجبهة ومشاكلها هي في صالحه، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

٤ - مقادير الإنسان حُطَّت على جبينه قبل مولده، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

٥ - الخير كل الخير في ما قدّر الله للمؤمن؛ لأن المولى لا يبغي بعده شراً، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾.

٦ - المؤمن يرى نفسه تحت ولاية الله ووصايته، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾.

٧ - أسمى مراتب التوحيد، أن يتحرك الإنسان في مدار الشرائع الإلهية، ويسلم أمره لله الحكيم، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾.

٨ - يجب الاتكاء على الله وحده، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾.

٩ - شرط الإيمان هو التوكل على الله تعالى، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِمَّنْ عِنْدَهُ أَوْ بَأْيَدِنَا فَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَضُونَ﴾ (٥٢)

إشارات:

□ هذه الآية شرح لما سبقها من أن الله تعالى هو مولى المؤمنين، لا يكتب لنا إلا الخير، حتى لو كانت الشهادة.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في قوله عَلَيْكُمْ: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّمَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: «قال إما موت في طاعة الله تعالى أو إدراك ظهور إمام»^(١).

التعاليم:

١ - يجب أن نشرح المراد من ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ للصديق والعدو ونقوم بالدعوة لها، ﴿قُلْ﴾.

٢ - القيم ومعايير التقييم، تختلف عند المؤمنين والمنافقين، ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾، عند أهل الإيمان، فإنَّ العمل بالتكليف هو المهم، وليس الذهاب أو البقاء، المهم الاستمرار على النهج، لذا، فكلاهما نصر، الفتح أو الشهادة.

٣ - المنافقون إذا ما قُتلوا في حربهم ضدَّ النظام الإسلامي، أو ماتوا ميتة طبيعية فهم في الحاليتين يردون جهنم. إذن، فهم سوف يُعذبون في الحاليتين، إنَّ على يد المؤمنين أو بعذابٍ من عند الله، ﴿مَنْ عِنْدِي أَوْ يَأْتِيَنِي﴾.

٤ - المؤمن متيقن من هدف عمله ونتيجته، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

إشارات:

□ بحسب ما جاء في بعض التفاسير، فإنَّ هذه الآية تتحدَّث عن فريق من المنافقين تخلف عن غزوة تبوك فأراد أن يشارك بأمواله في دعم الجبهة لتكون له حصَّة، حسب ظنِّه، في النصر الذي حقَّقه المؤمنون في تلك الغزوة.

□ تفسير عدم قبول الله تعالى الدعم المالي من المنافقين إمَّا أن يكون عدم أخذ الأموال والمساعدات منهم في هذه الدنيا، أو أنَّهم لن يُثابوا عليها في الآخرة.

التعاليم:

- ١ - لا يُقصد من الإنفاق إشباع البطون فحسب، بل أيضاً إصلاح الروح والارتقاء المعنوي الذي ينشده الإسلام، ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.
 - ٢ - روح الإنسان وقصديته وسريته كلها عوامل تلعب دوراً في إضفاء القيمة على أعماله. فالمنافق الذي يغتم لنصر المسلمين، ويُسر لأذاهم، لن ينفعه عمله إذا كانت سريته على هذا النحو من البشاعة، ﴿أَنْفِقُوا... لَنْ يُنْقَبَلَ﴾.
 - ٣ - لا قيمة لإنفاق المنافقين وخدماتهم، فهي لن تُقبل وسيحبطها الله، ﴿أَنْفِقُوا... لَنْ يُنْقَبَلَ﴾.
 - ٤ - لا ينبغي قبول المساعدة من أي كان، ﴿لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾.
 - ٥ - التقوى وطهارة القلب هما شرطاً لقبول الأعمال، وثمة رابط يربط بين القضايا السياسية والاجتماعية والعبادية والأخلاقية، ﴿لَنْ يُنْقَبَلَ... كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.
 - ٦ - الفسق حجاب حاجز دون قبول الأعمال، ﴿إِنْ كُنْتُمْ... فَسِقِينَ﴾.
- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

إشارات:

- بيّنت الآية السابقة، جديلاً، أنّ المنافقين سواء أنفقوا رغبة أم كرهاً، فلن يقبل الله تعالى منهم عملهم، وهنا تتحدث بلغة الواقع، والحاصل فعلاً هو أنّ إنفاقهم كان عن كره لا عن رغبة.
- من المزايا التي تميّز بها مداخليل الحكومة الإسلامية من قبيل الخمس والزكاة والصدقات والإنفاقات الأخرى، على سائر مداخليل الدولة الأخرى هي:
- ١ - أنّ الفرد يؤدّي هذه الأموال بملء إرادته واختياره وبوحي من الوازع الديني.

- ٢ - يؤذيها دون خوف ويقصد القربة إلى الله تعالى.
- ٣ - هو يؤمن بأن هذه الأموال مغنم له وذخر في يوم القيامة.
- ٤ - يختار عالماً عادلاً ليؤدي إليه هذه الأموال.
- ٥ - إنه يعرف ويراقب مصارف هذه الأموال.
- ٦ - يؤمن بأن الزهد هو الشرط الأساس لمن يأخذ منه هذه الأموال، ويشكر الله ويحمده.

التعاليم:

- ١ - لن تُقبل أعمال الخير المشفوعة بالكفر والكسل والإكراه، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ...﴾.
- ٢ - لقد وصف الله تعالى المنافق في العديد من آيات القرآن بالكفر، ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾.
- ٣ - المتخلفون عن غزوة تبوك مسلمون بالاسم، لكن الكفر يملأ باطنهم، ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾.
- ٤ - القيمة الحقيقية للأعمال تكمن في النوايا والشوق واللهفة. نعم، النوايا والدوافع هي المهمة، لا الحركات الظاهرية^(١)، ﴿كَسَالٌ... كَرِهُونَ﴾.
- ٥ - هدف الإسلام من الإنفاق هو التطور المعنوي وليس إشباع البطون فقط، ذلك أن مساعدة المنافقين تُشبع البطون ولكن لا يحصل تطور معنوي عند من قام بالمساعدة، ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ... وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.
- ٦ - من علائم النفاق التكاسل في إقامة الصلاة، ﴿كَسَالٌ﴾ والإنفاق المُكره، ﴿كَرِهُونَ﴾.

(١) في قصة يوسف، غلقت زليخا جميع الأبواب وأرادت أن تحقق مآربها من يوسف عليه السلام، غير أنه فر صوب الباب وكانت زليخا تتبعه، فظاهر الأمر أن الاثنين يؤديان بعض الحركات الظاهرية، وكلاهما يركض، ولكن نية أحدهما الفرار من المعصية، ونية الآخر ارتكاب المعصية، وهذا هو المراد بمعنى النية والدافع في أعمال الإنسان.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

إشارات:

□ كلمة «تَزْهَقَ» تعني الخروج بصعوبة وأسف وحسرة.
 □ نهى الله تعالى عن التعجب، لا يعني وجوده في النبي الكريم ﷺ، بل إن الخطاب ينطوي على بعد تحذيري، أي على طريقة إياك أعني واسمعي يا جارة.

□ في نهج البلاغة، يصف الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه لحظات احتضار فئة وهي تسلم الروح إذ تتجسد أموالها أمام ناظرها، فتتركها وتذهب على حسرة ومضض^(١).

□ طرق العذاب بواسطة المال هي: في طريقة تهيبته وجمعه، في المحافظة عليه من السرقة والحرق وحسد الناس، في تركه على مضض، عند الاحتضار وفي تعرضه للحساب يوم القيامة، وسؤاله كيف جمعه، وفيه أنفقه؟

التعاليم:

- ١ - كان المؤمنون المعاصرون للنبي الكريم ﷺ يعانون فقراً مالياً بالمقارنة بالمنافقين آنذاك، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ...﴾.
- ٢ - كم من نعمة باطنها نقمة، وكم من إمكانيات اقتصادية أصبحت على صاحبها وسيلة للهلاك والشقاء، ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾.
- ٣ - من السنن الإلهية إذلال المنافقين الأغنياء، ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾.
- ٤ - العذاب الإلهي لا يقتصر على الآخرة، بل ثمة عذاب في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

- ٥ - الموت هو مفارقة الروح البدن، لا انعدامها وفناؤها، ﴿وَتَزْهَقْ﴾.
- ٦ - روح المنافق لا تستوفى لأنها لا قيمة لها، فهي تزهق من تلقائها، ﴿وَتَزْهَقْ﴾.
- ٧ - الاحتضار يكون شديداً على المنافق الثري، ﴿وَتَزْهَقْ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٨ - المال والبنون بالنسبة إلى المنافق تمهيد لأن يموت على الكفر، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ... وَتَزْهَقْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَكَاذِبُونَ﴾.
- ٩ - انظروا إلى عواقب الأمور لا ظواهرها، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ... وَتَزْهَقْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾

إشارات:

□ «يَفْرُقُونَ»، من الفَرَق بمعنى شدة الخوف، فكأنهم لشدة خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرق وتتلاشى.

التعاليم:

- ١ - اليمين الكاذبة أحد الأساليب التي يلجأ إليها المنافق، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾.
- ٢ - لا تعجلوا في قبول توبة المنافق وتصديق مدعياته، فهو كذاب، ﴿وَمَا هُمْ بِكُمْ﴾.
- ٣ - لا بد من تعرية المنافقين وفضحهم، ﴿وَمَا هُمْ بِكُمْ﴾.
- ٤ - الاستيحاش القلبي من علامات المنافق، ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾.

﴿لَوْ يَخْتَرِكُ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾

إشارات:

□ «الْمَلْجَأُ» يعني الحصن أو الحرز، وهو ما يأوي إليه الخائف عادة،

و«المَغَارَات»، جمع «مَغَارَة». «مُدْخِل» وهو السرب في الأرض والنفق، كالنقب مثلاً. «يَجْمَحُونَ» من «جَمَاح» أي يسرعون، لا يرد وجوههم شيء، ويقال أيضاً للخيول المسرعة الجامحة التي لا تطاوع أصحابها.

□ المنافقون يظهرون الإيمان إماً لخوف أو طمع في مال أو جاه. هذه الآية تشير إلى الطائفة الأولى^(١).

التعاليم:

- ١ - المنافق فَرَّقَ يَتَحَيَّنُ الفرص للفرار من الوضع الحالي، ﴿لَوْ يَحْدُوثُ...﴾.
- ٢ - أجواء المجتمع الإسلامي لا تطاق بالنسبة إلى المنافق، ﴿لَوْ يَحْدُوثُ...﴾؛ (المنافق يعيش حياة التشرد، وهو يتعايش مع المسلمين اضطراراً).
- ٣ - معاناة المنافقين واضطرابهم في المجتمع الإسلامي على الرغم من امتلاكهم الأموال والبنين، هو مثال لعذابهم في الحياة الدنيا. فالله ﷻ يقول في آية سابقة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وفي هذه الآية ﴿لَوْ يَحْدُوثُ...﴾.
- ٤ - المنافق في كرهه وفره خفيف الحركة وماكر، ﴿يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

- «اللَّمَزُ»، هو الاغتياب في الوجه، و«الهُمَزُ» الاغتياب بظهر الغيب.
- قَالَ الطَّبْرِسِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْسِمُ قِسْماً وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَتْ غَنَائِمَ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ جَاءَهُ ابْنُ أَبِي الْخُوَيْصَرَةِ التَّمِيمِيُّ وَهُوَ خَرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ أَضْلُ الْخَوَارِجِ فَقَالَ، اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: وَنِلْكَ

وَمَنْ يَغْدِلْ إِذَا لَمْ أَغْدِلْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْإِذْنَ لِي فَأَضْرِبْ عُقَّةَهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَضْحَابًا يَخْتَفِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمَّةِ^(١). فنزلت هذه الآية. ويشار إلى أن حرقوص هذا قد هلك في معركة النهروان بسيف الإمام علي عليه السلام.

التعاليم:

- ١ - المنافق لا يتورع عن إساءة الأدب والطعن حتى مع النبي الكريم ﷺ، ﴿يَلْمِزُكَ﴾.
- ٢ - القائد هو هدف المنافقين في هجماتهم ودعاياتهم المسمومة، ﴿يَلْمِزُكَ﴾.
- ٣ - لم يكن جميع صحابة النبي الكريم ﷺ عدولاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾.
- ٤ - يجب على المسؤولين في النظام الإسلامي ألا يتأثروا بهمز المنافقين ولمزهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾.
- ٥ - الأنانية هي منشأ بعض الانحرافات، والإساءات، والتصرفات الوقحة تجاه القائد، (في ضوء سبب نزول الآية).
- ٦ - دوافع الانتقادات، تكون، أحياناً، نابعة من المصالح الشخصية لا الحرص، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا﴾.
- ٧ - وضع السياسات المالية والاقتصادية في المجتمع الإسلامي هي من اختصاص النبي الكريم ﷺ وضمن صلاحيات القائد، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا... وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا﴾.
- ٨ - المنافق لا يقنع بنصيبه، فهو أناني ويفتقر إلى المنطق، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِمَّا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا... يَسْتَخْطُونَ﴾.
- ٩ - الحقد، والعداوة، والطعن، وإساءة الحكم عند بعض الناس كلها صفات نابعة من مصالحهم المادية والشخصية^(٢)، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا... يَسْتَخْطُونَ﴾؛

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨.

(٢) عن الإمام الصادق: «إِنَّ ثَلَاثِي النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ»، الكافي، ج ٢، ص ٢٢٨.

(نعم، إن منشأ بعض الأحكام الخاطئة والتفسيرات غير الصائبة هو البواعث الداخلية).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

إشارات:

تطرح هذه الآية أربع مراحل هي:

- ١ - الرضا والتسليم بما قسم الله تعالى، ﴿رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾.
- ٢ - الرضا باللسان، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾.
- ٣ - الأمل بفضل الله تعالى وكرمه، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾.
- ٤ - عدم التعلق بالدنيا والتوجه إلى الله تعالى، ﴿إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

التعاليم:

- ١ - لن يرضى المنافقون عن الله وعما قسم لهم أبداً، ﴿وَلَوْ﴾.
- ٢ - وضع السياسات والخطط لتوزيع موارد بيت المال وتسيير الشؤون المالية والاقتصادية بيد الله ومن اختصاص النبي وقائد الأمة الإسلامية، ﴿وَرَسُولُهُ﴾.
- ٣ - يجب أن لا ننظر إلى المصاعب والشدائد فقط، إذ يمكن بالصبر تحقيق مستقبل أفضل، ﴿سَيُؤْتِينَا﴾.
- ٤ - مرارة حرمان المؤمنين في الدنيا يمكن أن تتحول بالوعد الإلهية الحتمية بنعيم الجنة إلى شهد، ﴿سَيُؤْتِينَا﴾.
- ٥ - ليست لنا أيّ حقوق عند الله، فما جاد به علينا إنما هو من فضله ونعمه، ﴿فَضْلِهِ﴾.
- ٦ - ألطاف الله تعالى تنزل علينا بواسطة الأنبياء والأولياء، ﴿فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾.
- ٧ - حبّ الله يهيئ لمستلزمات الصبر، والرضا، والقناعة، ﴿إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

إشارات:

□ «الصدقة» و«الصدّاق»، مشتقتان من «الصدّق». و«الصدقة»، علامة الصدق في الإيمان بالله تعالى، و«الصدّاق» أو المهر، هو علامة على صدق المحبة للزوجة.

□ والمراد بالصدقة هنا في هذه الآية هو الزكاة الواجبة.

□ «الْفَقِير»، من «الفقر»، بمعنى حطّم الفقر عموده الفقري. و«المسكين»، من «المسكن»، وهو من لزم مسكنه من الفقر. بحسب بعض الروايات، فإنّ الفقير هو الشخص الذي يعاني حاجة مالية لكنّه متعفف لا يسأل أحداً، أمّا المسكين فهو أشدّ حاجة من الفقير، وهو بذلك مضطرّ ليستعطي الناس ويسألهم^(١).

□ من سياق الآيات السابقة التي بيّنت أنّ المنافقين لمزوا النبي الكريم ﷺ عندما قام بتقسيم الأموال ﴿يَلْزَمُكَ فِي الصَّدَقَتِ﴾، ثمّ هذه الآية التي تجيز صرف الزكاة لشرائع خاصة، يتبيّن لنا أنّ المنافقين كانوا يأملون أن يكون لهم سهم في الزكاة.

□ ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، هم الساعون في جباية الزكاة، وجمعها وحفظها وتوزيعها وتنظيم حساباتها، ويتمّ دفع أجرتهم من أموال الزكاة.

□ ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، قوم وحدّوا الله ولم تدخل المعرفة قلوبهم - أنّ محمداً رسول الله ﷺ - فكان رسول الله ﷺ يتألّفهم، ويعلمهم كي ما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات لكي يعرفوا ويرغبوهم.

□ بطبيعة الحال؛ إنّ دفع الزكاة لتأليف قلوب هؤلاء لا يعني شراء إيمانهم بالمال، ولكنها وسيلة ليدركوا جوهر الإسلام ويتعلّموه ومن ثمّ بلوغ مرتبة المعرفة والإيمان، «يتألّفهم، ويعلمهم كيما يعرفوا»^(٢).

□ ﴿وَالْفَرِمِينَ﴾ شريحة أخرى لمصارف الزكاة، وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم ولم يكن هذا العجز بتقصير منهم، بل لأسباب خارجة عن إرادتهم مثل الحريق أو السيل أو غرق السفن، والكوارث الطبيعية، وأدى بهم إلى أن يخسروا كل ما يملكون.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَوْ مُسْلِمٍ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْنًا وَلَمْ يَكُنْ فِي فَسَادٍ وَلَا إِسْرَافٍ فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْضِيَهُ»^(١).

□ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، جميع الأعمال الخيرة التي تؤدي إلى تقوية الدين الإلهي ونشره، وتشمل الدعوة والتبليغ الديني، الخدمات الترفيهية والأعمال التي تعمل على حل مشاكل المسلمين، وإن كان التجسيد الأمثل لها، كما ورد في معظم التفاسير، هو الحرب والجهاد.

□ ﴿وَأَيَّنَ السَّبِيلِ﴾، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالاقتراض.

نبذة عن الزكاة

□ نزل حكم الزكاة في مكة، ولكن، بسبب قلة عدد المسلمين وبالأخص أولئك الذين تجب عليهم الزكاة آنذاك، بادر المسلمون جميعاً إلى دفع الزكاة. وبعد أن توطدت أركان الحكومة الإسلامية في المدينة، ظهرت من جديد مسألة جباية الزكاة وجمعها في بيت المال، ومركزتها بيد الحاكم الإسلامي، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(٢).

□ وفي الحقيقة، إنَّ الزكاة لا تختص بالإسلام وحده، بل إنَّ هذا الحكم كان مشرعاً في جميع الأديان السابقة. فالنبي عيسى عليه السلام قال وهو في مهده: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾^(٣)، وكذلك النبي موسى عليه السلام إذ خاطب بني إسرائيل بالقول ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٤)، وبالنسبة إلى سائر الأنبياء جاء

(٣) سورة مريم: الآية ٣١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

أَيْضاً ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾^(١).

□ لقد عبّر القرآن الكريم عن الزكاة بأربعة أوجه هي:

١ - إيتاء المال، ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾^(٢).

٢ - الصدقة، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(٣).

٣ - الإنفاق، ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا﴾^(٤).

٤ - الزكاة، ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٥).

□ درج القرآن الكريم على ذكر الزكاة إلى جانب الصلاة، وطبقاً للروايات فإن شرط قبول الصلاة هو تأدية الزكاة. وتؤشّر هذه المعادلة إلى علاقة الإنسان وارتباطه بربه من جهة، وارتباط الإنسان بالناس من جهة ثانية. والحقيقة، أنه لم يقتصر أي من واجبات الدين بالصلاة كاقتران الزكاة بها.

□ لقد حُرِّمَت الزكاة على السادة من ذرية الرسول الأكرم ﷺ، إذ يروى أن أناساً من بني هاشم أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعله الله للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب إن الصدقة لا تحل لي ولا لكم ولكني قد وعدت بالشفاعة»^(٦) إلا إذا كان المعطي والآخذ كلاهما من بني هاشم.

□ ليس المقصود من تشريع قانون الزكاة، أن الإسلام يريد تقسيم المجتمع إلى شريحة فقيرة تأخذ الزكاة وأخرى ثرية تدفعه، بل إنه يمثل حلاً لظاهرة حقيقة موجودة في المجتمع. كما إن الأغنياء أنفسهم قد يتعرضون أحياناً إلى حوادث مختلفة مثل السرقة، أو الحريق، أو الدهس أو الحرب أو الأسر، ومن هنا لا بد للنظام الإسلامي من أن يخصص ميزانية لشؤون الضمان الاجتماعي.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

(٦) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٤، ص ٥٨.

□ جاء في رواية: «إِنَّ اللَّهَ ﷻك فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أَنَّ ذلك لا يسعهم لزادهم، إِنْهم لم يوتوا من قبل فريضة الله ﷻك، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقهم، لا ممَّا فرض الله لهم، ولو أَنَّ الناس أدوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير ولو أَنَّ الناس أدوا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم فقير محتاج»^(١).

□ وبخلاف ما يعتقد البعض بالنسبة لتحديد دخل الفرد، فإنَّ الإسلام يقول بضرورة منح الإنسان حرّية نسبية في هذا المجال، حتى يتمكّن من تنمية أمواله بجهوده ونشاطاته الذاتية وتسخير الإمكانيات الطبيعية؛ ولكن شرط أن يدفع ما عليه من حقوق مثل الزكاة.

□ إِنَّ شرط إنفاق الزكاة في سبيل الله ليس الفقر، بل يمكنه الإنفاق حيثما كان ذلك في مصلحة ترسيخ حاكمية الإسلام^(٢).

□ كما أنه يمكن الاستفادة من الزكاة لإنقاذ المجتمع من شرّ الأشرار، وهذا يندرج ضمن بند «المؤلفة قلوبهم»^(٣).

□ أمّا إذا كان أحدهم مديناً بالدية ولم يقوَ على دفعها، فهو من الغارمين، إذ يمكن مساعدته لدفع الدية من أموال الزكاة^(٤).

□ أمّا تعبير «وفي الرقاب»، فيشمل صرف الزكاة لتحرير السجّاء أو تأمين نفقاتهم.

□ إِنَّ صرف أموال الزكاة على الحالات الثماني المذكورة لا يعني بالضرورة توزيعها بالتساوي، بل تخضع لرأي الحاكم الإسلامي يوزّعها بما يراه مناسباً. والحقيقة أَنَّ الزكاة هي:

□ سبب لعدالة توزيع الثروات.

□ والشكر العملي على مواهب الله تعالى ونعمه.

□ وهي تقلّل من الفوارق الطبقيّة، وتُذهب بالبغضاء التي في نفوس الفقراء تجاه الأغنياء.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير المراغي.

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤.

(٢) تفسير روح المعاني.

□ والزكاة، تبعث في الإنسان روح السخاء والرأفة، وتخفف من شدة تعلقه بالدنيا والعلائق المادية.

□ وتشكل دعامة الضمان الاجتماعي للمحرومين، وكأنها تقول للفقير: لا تقلق، وللمفلس: لا تيأس، وللمسافر: لا تخش أن تنقطع بك السبل، وللموظف: حصتك محفوظة، وهي تعد العبيد بالحرية والخلاص، وتضفي الانتعاش على حقل الخدمات الإلهية، وتجذب قلوب الناس نحو الإسلام.

□ أما ثمرة التكاثر وكنز الأموال فهي الغفلة عن ذكر الله، استغلال الناس، قسوة القلب، الطغيان والترف الباذخ، ودواء جميع هذه الأمراض هو الزكاة.

□ ومضافاً إلى رفع الحرمان من المجتمع، فإنّ الزكاة تزيد من ميل الأفراد نحو الإسلام، أو على الأقل، تمنعهم من الاستمرار في مساعدة أعداء الإسلام. وقد ورد في الروايات أنّ أفراداً من ضعاف الإيمان يقوى إيمانهم بعد أن يُعطوا من أموال الزكاة ويتقربون من الإسلام^(١).

□ وإذا أردنا أن نوجز الزكاة في بضع كلمات نقول: هي صورة مشرقة للنظام الإسلامي، ومقدمة لإرساء أسس العدالة الاجتماعية، ومحو الفقر وتأمين معيشة الموظفين، وطريق إلى الشهرة العالمية وحرية الرقيق والأسرى، وتشغيل القوى، والمحافظة على شرعة المسلمين وكيانهم، وتوسيع للخدمات العامة.

التعاليم:

- ١ - الزكاة دليل صدق الإيمان، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾.
- ٢ - توزيع الزكاة يتم على أساس ما جاء به الوحي وليس الأماني. لقد ردّ ﷺ على لمزات المنافقين بالقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ...﴾.
- ٣ - لا يجوز إنفاق الزكاة في غير مصارفها الثمانية التي ورد ذكرها في الآية، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾.

- ٤ - واحد من أصول العدالة الاجتماعية الإسلامية، التكافل الاجتماعي وتأمين حياة المحرومين، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾.
- ٥ - ثروة الإنسان ليست ملكه وحده، بل للآخرين نصيب فيها، ﴿لِلْفُقَرَاءِ...﴾.
- ٦ - لا يجوز لمن يؤدي الزكاة أن يمنّ على الفقراء؛ لأنّ نصيب هؤلاء من الزكاة هو ملك لهم، ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾.
- ٧ - محاربة الفقر يجب أن تكون على رأس برامج النظام الإسلامي، ﴿فَرِيضَةً مِنْكَ اللَّهُ﴾؛ فالآية الكريمة ذكرت الفقراء ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ثمّ عقبت بالمصارف الأخرى.
- ٨ - يجب تأمين معاش الذين يسعون إلى إقامة الأحكام والتكاليف الدينية، ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.
- ٩ - لكلّ عمل قيمة وثمر، سواء أكان الساعي به فقيراً أم غنياً، ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.
- ١٠ - كما إنّه لا بدّ من تأمين القاضي مادياً حتى لا يفكر بالارتشاء، فإنّه يجب أيضاً تأمين العاملين على الزكاة حتى لا يجنحوا نحو الرشوة والاختلاس، ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.
- ١١ - من أجل جمع الزكاة، يجب أن تنتدب الدولة الإسلامية أشخاصاً للقيام بهذه المهمة، ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.
- ١٢ - نلاحظ بوضوح اختلاط القضايا المادّية والمعنوية بعضها ببعضها الآخر، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾.
- ١٣ - الإسلام، وبخلاف المستعمرين الأفاقيين والخذّاعين، ينشر عقيدته عبر حلّ المشاكل ويقصد القرية إلى الله، وباستخدام البراهين والإرشادات والنّصح، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾.
- ١٤ - من مسؤوليات الدولة الإسلامية أن تجعل من الأموال وسيلة لتأليف القلوب وجذبها^(١)، ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾.

(١) الهدية والإطعام وما شابه، هم من الوسائل التي يقرّها الإسلام لجذب قلوب الناس.

- ١٥ - لقد خصص الإسلام ميزانية لتحرير الرقيق، ﴿وَفِي أَرْقَابٍ﴾.
- ١٦ - نفقات الهيئات والتشكيلات الخاصة بالزكاة لا تشكل عبئاً، بل العملية تقوم على الاكتفاء الذاتي، ﴿وَالْمَعْلِيلِينَ عَلَيْهِا﴾.
- ١٧ - الدولة الإسلامية مسؤولة عن جباية الزكاة وتوزيعها على الفقراء، ومن فوائد هذه العملية، ألا يضطر الفقراء إلى الذهاب إلى الأغنياء مباشرة وما ينطوي عليه ذلك من شعور بالصغار والضعفة^(١)، ﴿وَالْمَعْلِيلِينَ عَلَيْهِا﴾.
- ١٨ - يتم تأمين ميزانية الجهاد والدفاع عن البلاد الإسلامية من أموال الزكاة والناس، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ١٩ - لا بدّ للدمال من أن يكون وسيلة للتقرب إلى الله تعالى، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٢٠ - تأمين نفقات من انقطعت بهم السبل، دليل على الأهمية التي يوليها الإسلام لقضايا السفر، والتجارة، والسياحة، ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾.
- ٢١ - قانون الزكاة، قانون مدروس وحكيم، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ... فَرِيضَةٌ... عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾.
- ٢٢ - ليس الإسلام دين عبادة فحسب، بل إنه يتضمن قوانين اقتصادية، ﴿فَرِيضَةٌ﴾.

﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١)

إشارات:

□ الضمير «منهم» إما أنه يعود على المنافقين، أو بعض الأفراد ضعاف الإيمان الذين تخلفوا عن القتال بسبب جبنهم وخوفهم، ثم بعد أن وضعت الحرب أوزارها جاؤوا إلى النبي بالحجج والأعذار.

(١) آية أخرى تقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ (سورة التوبة: الآية ١٠٣).

- ورد عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه وقد ذكر علياً عليه السلام وما أوصى الله فيه: «وذكّر المنافقين، والأتمين، والمستهزئين بالإسلام، وكثرة أذاهم لي حتى سموني أذنًا، وزعموا أنني كذلك لكثرة ملازمته إيتاي وإقباله عليه حتى أنزل الله ﷻ في ذلك ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾»^(١).
- وعنه ﷺ أيضاً أنه قال: «مَنْ آذَانِي فِي عِزَّتِي فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ». وقال في بضعته السيّد الزهراء عليها السلام كذلك: «مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي»^(٢).

التعاليم:

- ١ - دأبت جماعة على إيذاء النبي الأكرم ﷺ، ﴿يُؤْذُونَ﴾؛ (صيغة الفعل المضارع تدل على الاستمرار).
- ٢ - لم يكن جميع صحابة النبي الكريم ﷺ عدولاً، فمنهم من كان يؤذيه، ﴿يُؤْذُونَ﴾.
- ٣ - قيادة الأمة مقرونة بالأذى من القريب والغريب، ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾.
- ٤ - أذى النبي كفر^(٣)، لاحظ التقابل بين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ وبين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ٥ - كانت الدعاية المسمومة للمنافقين وتشويشهم يطال حتى شخص النبي الكريم ﷺ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.
- ٦ - الله تبارك وتعالى يُطلع رسوله الكريم ﷺ على الأحاديث السريّة والخصوصية للمناوئين، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.
- ٧ - اسمحوا لجميع الناس بالتعبير عن آرائهم حتى وإن قيل: إنكم أذن، لكيلا تُتهم بأننا لا نسمع لهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.
- ٨ - من آداب الإنصات الانتباه بكلّ جوارحنا إلى كلام المتكلّم. كلمة ﴿أُذُنٌ﴾ تعني أنّه ينصت لكلام الناس بكلّ مشاعره.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) ملحقات إحقاق الحق، ج ١٨، ص ٤٥٨ و ٤٣٩.

(٣) تفسير المنار.

- ٩ - أحياناً، يستوجب الأمر أن يتغاضى الإنسان عن بعض ما يسمع من أجل المحافظة على المصلحة العليا للأمة، ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٠ - أحياناً تكون الآثار التربوية والاجتماعية أو السياسية للسكوت أبلغ من التحرك أو الإعلان عن موقف، ﴿أُذُنٌ﴾.
- ١١ - القائد الحكيم يتصف برحابة الصدر والإنصات لمطالب جميع الفئات، والسلوك الودّي تجاهها، وستر العيوب، والإبقاء على باب الاعتذار والتوبة مفتوحاً أمام الناس، ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٢ - أنصتوا لحديث الناس بوجه طلق وسريرة محبة للخير، ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٣ - السكوت على المسموعات ليس دائماً علامة على الرضا، ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ١٤ - دافعوا عن المعدّبين. لقد ذكر الله تعالى أربع فضائل للنبي الكريم ﷺ لاستماعه لكلام العدو الذي كان يصفه بأنه «أذن»، هي: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ١٥ - إذا جاءكم مؤمن بنياً فصدقوه، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٦ - صحيح أن النبي الكريم ﷺ بُعث رحمة للعالمين، إلا أن الانتهال من فيض هذه الرحمة خاص بالمؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ١٧ - احذروا عاقبة أذى النبي الكريم ﷺ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْلِفُوكَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - يعيش المنافق دوماً في ريبة ووحشة واضطراب، ويحاول استغلال المعتقدات

الدينية للناس باليمين الكاذبة والتظاهر من أجل أن يجذب انتباههم،
﴿يَخْلِفُونَ... لَكُمْ﴾.

٢ - لا تنخدعوا بأي يمين، فالمقدسات، أحياناً، تصير ذريعة بيد الأشرار،
﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾.

٣ - بالنسبة إلى المؤمن، رضا الله تعالى هو المهم، لا إرضاء الناس، ﴿وَاللَّهُ...
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾.

٤ - رضا الرسول الكريم ﷺ من رضا الله تعالى. يقول ﷺ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ لا «يرضوهما»^(١).

٥ - من يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق، فله حصّة من النفاق، ويجب أن
يُوبَخَ، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ
الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

إشارات:

□ ﴿يُحَادِدِ اللَّهَ﴾، من «المحادة» وتعني إبداء العداوة لله وتجاوز حدوده.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: حادثة أي خالفته، والمحادة كالمجانبة
والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من الحدّ، ومعنى حدّ فلان فلاناً، أي صار في
حدّ غير حدّه كقوله: شاقّه، أي صار في شقّ غير شقّه، ومعنى ﴿يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ أي
يصير في حدّ غير حدّ أولياء الله بالمخالفة.

وقال أبو مسلم: المحادة مأخوذة من الحديد حديد السلاح، ثم للمفسرين
ههنا عبارات: يخالف الله، وقيل: يحارب الله، وقيل: يعاند الله.

(١) طبعاً قد يكون سبب عدم قوله «يرضوهما» هو أنه ما من أحد مثل الله تعالى بما في ذلك النبي
الكريم ﷺ.

التعاليم:

- ١ - محادثة القائد الحق، محادثة الله تعالى، ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
 - ٢ - اليمين الكاذبة التي تهدف إلى حفظ ماء الوجه، دليل على محادثة الله تعالى وعداوته، ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ... يُحَادِدُ اللَّهَ﴾.
 - ٣ - عاقبة لجاج الإنسان العالم في دين الله، أن يخلد في جهنم، ﴿أَلَمْ يَكْلَمُوا... فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.
 - ٤ - ذكر جهنم قد يمنع الإنسان من اللجاج والعناد، ﴿فَأَنذَرْتُ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.
- ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ مَخْرَجٌ
مَا تَحْذَرُونَ﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنَّ جمعاً من المنافقين كانوا قد قرروا قتل النبي ﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، وكانت خطتهم أن ينصبوا كميناً في إحدى عقبات الجبال الصعبة، وعندما يمرّ النبي الكريم ﷺ من تلك العقبة يُنفرون بعيره، فأطلع الله نبيه على ذلك، فأمر جماعة من المسلمين بمراقبة الطريق والحذر، فلما وصل النبي ﷺ إلى العقبة - وكان عمّار يقود الدابة، وحذيفة يسوقها - اقترب المنافقون متلثمين لتنفيذ مؤامرتهم، فأمر النبي حذيفة أن يضرب وجوه دوابهم ويدفعهم، ففعل حذيفة ذلك. فلما جاوز النبي العقبة - وقد زال الخطر - قال لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال: لم أعرف أحداً منهم، فعرفه رسول الله ﷺ بهم، فقال حذيفة: ألا ترسل إليهم من يقتلهم؟ فقال: «إني أكره أن تقول العرب: إنَّ محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»^(١).

(١) تفاسير: الميزان؛ في ظلال القرآن؛ مجمع البيان؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ الأمل في تفسير كتاب الله المتزل.

□ لَمَّا رَأَى الْمُنَافِقُونَ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ﷺ وَقَد تَّهَيَّأَ لِلْقِتَالِ قَالَ هَؤُلَاءِ بِسُخْرِيَّةٍ: أَيْظَنَ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ سَيَفْتَحُ حِصُونَ الشَّامِ الْحَصِينَةَ وَيَسْكُنُ قُصُورَهَا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُحَالٌ، فَأُطْلِعَ اللَّهُ نَبِيَّهَ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْدُوا عَلَيْهِمُ الْمَنَافِذَ وَالطَّرِيقَ، ثُمَّ نَادَاهُمْ وَلَا مَهْمَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالُوا، فَاعْتَذَرُوا بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَمْزُحُونَ وَأَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ^(١).

□ «السورة»، هي مجموعة من الآيات، وقد أطلق اللفظ اصطلاحاً على سور القرآن الـ ١١٤. ولم يكن هذا المصطلح معروفاً قبل الإسلام.

التعاليم:

- ١ - المنافق يتأبه القلق في كل لحظة لئلا ينفضح أمره، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾.
- ٢ - لقد علم المنافقون أن الله تعالى مطلع على أعمالهم وأن النبي الكريم ﷺ على حق، وينزل عليه الوحي من ربه، ولهذا السبب، كانوا قلقين من نزول سورة من عند الله تفضح سرائرهم، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ...﴾.
- ٣ - لقد نزلت آيات القرآن تدريجياً وبحسب المتطلبات، ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾.
- ٤ - السخرية والاستهزاء هو ديدن المنافقين، ﴿أَسْتَهْزِئُوا﴾؛ (لعل المراد بالاستهزاء هو النفاق).
- ٥ - سنة الله ووعده الذي لا يُخلف هو فضح المنافقين وتعريتهم، إذن، فلا خشية من أنيابهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ﴾.
- ٦ - إرادة الله تعالى غالبية على أهواء المنافقين، ﴿يَحْذَرُ... إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ﴾.
- ٧ - لا بدّ من تهديد المنافقين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ﴾.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ
وَأَيْنَيْهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

إشارات:

□ «الْخَوْضُ» في اللغة هو الدخول التدريجي في مائع كالماء أو الطين، وفي القرآن الكريم يعني الشروع بالأعمال القبيحة.

□ الآية تتعلق بغزوة تبوك، حين عزم المنافقون على قتل النبي الكريم ﷺ عند عودته من الغزوة، فقال أحدهم: وإذا افتضح أمرنا؟ فقال آخر: نقول: إنه كان مزاحاً، فكان عذرهم أقبح من ذنبهم^(١).

التعاليم:

- ١ - الكذب والتبرير هو الأسلوب الدائم عند المنافقين، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾.
- ٢ - من علامات المنافق، التراجع، والشعور بالضعف، والتدليس، والمداومة على الذنب حتى بعد افتضاح مؤامرتة، ﴿لَيَقُولُنَّ... نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.
- ٣ - لقد فضح الله تعالى المنافقين وأخبر عن تبريراتهم وعاقبتهم، ﴿لَيَقُولُنَّ... نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.
- ٤ - من أجل تبرئة أنفسهم، لجأ المنافقون إلى اليمين الكاذبة والقول إنهم كانوا يمزحون؛ (لام القسم في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ و«إنما» تدلّان على الحصر).
- ٥ - لقد أمر النبي الكريم ﷺ بتوبيخ المنافقين، ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.
- ٦ - لا يجوز اتخاذ المقدسات الدينية هزواً ولعباً، ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَقُفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

إشارات:

□ توجد أقوال حول من هي الطائفة التي عفا الله عنها، فمنهم من يقول:

(أ) أولئك الذين تابوا^(١).

(ب) إنّ الطائفتين كانوا ثلاثة، استهزأ اثنان وضحك واحد، فالطائفة الأولى الضاحك، والثانية الهازيان، وقال المفسرون: لما كان ذنب الضاحك أخف لا جرم عفا الله عنه، وذنب الهازيين أغلظ، فلا جرم ما عفا الله عنهما^(٢). لكنه تعالى لم يعف عن رؤوسهم.

(ج) أولئك الذين كان العفو عنهم لصالح النظام والدولة^(٣).

(د) العفو كان عن طائفة انحرفت لفترة قصيرة فحسب، في مقابل طائفة كان ذنبها أطول وأعمق واستمرت عليه، ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

التعاليم:

١ - لا يُقبل عذر الكذابين والمستهزئين في كلّ حين، ﴿لَا تَعْذِرُوا﴾.

٢ - لا عذر مع الارتداد، ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٣ - لا تغترّ بإيمان اليوم، فخطر سوء العاقبة والارتداد قائم، ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٤ - الإساءة والاستهزاء بالله ورسوله وآيات الله كفر، ﴿تَسْتَهْزِئُونَ... كَفَرْتُمْ﴾.

٥ - المنافق هو، في الحقيقة، كافر، ﴿كَفَرْتُمْ﴾.

٦ - عند تهديد المعارضين والمنافقين المتأمرين، يستحسن أن لا نغلق جميع الأبواب بوجههم، ﴿نَقُفْ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٣) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي.

٧ - بعض المنافقين يمكن الصفح عنهم، شرط أن يتوبوا، ﴿تَتُفَّ عَنْ طَآئِفَةٍ﴾؛ (للفنق أيضاً درجات).

٨ - سبب عذاب المنافقين هو كفرهم وأنهم مردوا على المعصية، ﴿تُعَذِّبُ... كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧)

إشارات:

□ لقد عرف عصر صدر الإسلام ظهور نساء منافقات كانت لهنّ، كما المنافقون، حصّة كبيرة في الفساد.

□ سؤال: من المعلوم أنّ الله تعالى لا ينسى، كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(١)، إذن ماذا تقصد الآية الكريمة بقولها: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؟

الجواب: إنّ نسبة النسيان إلى الله تعالى هنا هي من باب المجاز، بمعنى، أنّ الله يعاملهم كمنسيين (لا أنّه ينساهم).

سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؟ فقال: «إنّ الله لا يسهو ولا ينسى، وإنّما ينسى ويسهو المخلوق والمحدث»^(٢) وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «يعني بالنسيان أنّه لم يثبهم كما يثيب أوليائه الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين حين آمنوا به وبرسوله وخافوه بالغيب»^(٣).

التعاليم:

١ - المرأة والرجل، كلاهما له دور في إصلاح المجتمع أو إفساده، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾.

(٣) تفسير البرهان.

(١) سورة مريم: الآية ٦٤.

(٢) تفسير نور الثقلين.

- ٢ - يلعب بعض المنافقين دور القائد، وبعضهم الآخر دور المتفاد والمتأثر، ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ (للتفاق درجات).
 - ٣ - المنافقون، على اختلاف درجاتهم، تجمعهم مبادئ وأعمال مشتركة، ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.
 - ٤ - لا تصدقوا قول المنافقين في أنهم منكم مهما حلفوا لكم، فبعضهم أولياء بعض، ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.
 - ٥ - ثمة علاقة قوية تشدّ بعض المنافقين إلى بعضهم الآخر، ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.
 - ٦ - إشاعة الفواحش والدعوة إلى المنكرات والنهي عن المعروف من علامات النفاق، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.
 - ٧ - لا يوجد في قاموس المنافقين شيء اسمه فعل الخيرات، ﴿وَيَقْضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.
 - ٨ - ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله، من علائم نسيان الله تعالى، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.
 - ٩ - نسيان الله عبده وحرمانه من لطفه، هو نتيجة نسيان العبد ربه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾.
 - ١٠ - العقوبات الإلهية تتناسب مع أفعال الإنسان، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.
 - ١١ - المنافق يحسب حساباً للناس وليس لله تعالى، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾.
 - ١٢ - النفاق فسق، ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

التعاليم:

- ١ - المرأة والرجل متساويان في ما يتعلق بالتكاليف الإلهية، ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.
- ٢ - العذاب الإلهي هو نتيجة لعملنا وهو ردّ بالمثل. (تقول الآية ٦٥: إِنَّ

المنافقين قد اتخذوا المسلمين هزواً، وفي هذه الآية يستهزئ الله بهم حين يخاطبهم بكلمة ﴿وَعَدَ﴾ التي تستعمل عادةً في الخيرات و﴿حَسْبُهُمْ﴾ للإشارة إلى الاكتفاء والرضا).

٣ - الله تبارك وتعالى يتوعد المنافقين بجهنم ومن ثم الكافرين، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾.

٤ - مهما حاول المنافقون أن يصطفوا في الدنيا في صفوف المؤمنين، إلا أن موقعهم في الآخرة سيكون مع الكافرين، ﴿الْمُنَافِقِينَ... وَالْكُفَّارَ﴾.

٥ - تجمع جهنم كل أصناف العذاب والبلاء، لذلك، فهي تكفي كعذاب للمنافقين والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

□ «الْخَلَق» في الآية بمعنى النصيب والحصة.

□ قد يكون المراد من حبط الأعمال في الدنيا هو الكشف عن الوجه الحقيقي للمنافق وبطلان أعماله الصالحة.

التعاليم:

١ - تاريخ الأمم ومصائرهم شبيهة ببعضها ببعض، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

٢ - طريق الكفر والنفاق كان وما يزال موجوداً، وأن السنة الإلهية هي نفسها لم تتغير، ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

٣ - القوة العسكرية، ﴿قُوَّةً﴾ والاقتصادية ﴿أَمْوَالًا﴾ والموارد البشرية، ﴿وَأَوْلَدًا﴾ لا تحول دون نزول العذاب الإلهي.

- ٤ - المنافقون والكفار يتكثرون على سلطتهم وأموالهم وأولادهم، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً...﴾.
- ٥ - لا يشترط وجود الإيمان للمتّع بنعم الدنيا، فالكفار والمنافقون أيضاً لهم نصيب من هذه النعم، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾.
- ٦ - المتّع واللذائد الدنيوية أمدها قصير، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾.
- ٧ - ليست كلّ لذة أو نعمة دليل لطف الله تعالى، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا... حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.
- ٨ - لقد جعل الله تعالى نصيباً للمنحرفين عن الحق في هذه الدنيا، ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ لكنهم في الآخرة محرومون من أي نصيب أو نعمة^(١).
- ٩ - الانغماس في المفساد ومحاربة الدين هو عامل انحدار وسقوط، ﴿وُخْضِمَتْ﴾ خاضوا، غير أنّ التوبة والإنابة بعد كلّ معصية يمكن أن تشكّل حبل نجاة للإنسان.
- ١٠ - الكفر والنفاق مدعاة لحبط الأعمال، ﴿حِطَّتْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

إشارات:

- لكلّ قوم بلاء، فقوم نوح عليه السلام، هلكوا بالطوفان والغرق، وقوم عاد (قوم النبي هود عليه السلام) ابتلوا بالرياح الباردة والسموم، وقوم ثمود (قوم النبي صالح عليه السلام) بالزلازل والهدم والدمار، وقوم مدين (أصحاب النبي شعيب عليه السلام) بالصواعق المحرقة، وقوم لوط عليه السلام بخسف قريتهم وفنائهم جميعاً.
- «المؤتفكات» من «الائتفاك» بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس وهي إشارة إلى مدن قوم لوط التي قلب عليها سافلها نتيجة الزلزلة.

(١) ﴿أَوَلَيْكَ لَا تَخْلُقُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ (سورة آل عمران: الآية ٧٧).

التعاليم:

- ١ - العذاب الدنيوي من السنن الإلهية، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ...﴾ بمعنى، أن هذه السنن تسري عليكم أيضاً.
- ٢ - من كان وعيه أكبر، كانت مسؤوليته أكبر، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ...﴾؛ الناس في عصر النبي الكريم ﷺ كانوا مطلعين على مصائر الأمم السالفة.
- ٣ - تاريخ الأمم السالفة وأخبارهم تزخر بفوائد ودروس كثيرة. كلمة «نبا» تقال للخبر المهم والمفيد.
- ٤ - من لم يتعظ من دروس التاريخ، استحق التوبيخ والتقريع، ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ الاعتبار بالتاريخ أفضل درس للحياة الراهنة.
- ٥ - العذاب الإلهي ينزل دائماً بعد إتمام الحجة، ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ﴾.
- ٦ - التمرد على الأوامر الإلهية، ظلم للنفس، ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- ٧ - الإنسان مخير، وبإمكانه اتخاذ القرار حيال المعجزات، ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ... وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- ٨ - نزول العذاب الإلهي هو بسبب الإصرار على الظلم، ﴿كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١)

إشارات:

□ ذكرت الآية ٦٧ عبارة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بالنسبة إلى المنافقين، وهذه الآية تقول عن المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ربما يعود الاختلاف في التعبير إلى أن الوحدة والالتحام بالولاية هو الذي يشد المؤمنين بعضهم لبعضهم الآخر، بينما يفتقد المنافقون هذا الشعور، بدليل أنه عندما يكون الحديث عن المصالح

الشخصية يغيب الوفاء بينهم وتتلاشى وحدتهم الظاهرية الصورية كما يصف القرآن الكريم ذلك بأحسن العبارات ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^(١).

□ لقد ذكرت الآية الكريمة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذلك لأنها الأساس الذي تقوم عليه الفرائض الأخرى^(٢).

التعاليم:

- ١ - لكل من المرأة والرجل دور في إصلاح المجتمع، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾.
- ٢ - المؤمنون في المجتمع الإسلامي لهم حق الولاية المقرونة بالمحبة من الله تجاه بعضهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.
- ٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة واجبة على جميع الناس رجالاً ونساءً، وهي نابعة من حق الولاية في ما بينهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ﴾.
- ٤ - الأمر والنهي ممكنان في ظل المحبة والولاية، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ... يَأْمُرُونَ...﴾.
- ٥ - الاهتمام بحياة المحرومين وتطبيق قانون التكافل الاجتماعي للفقراء يقعان في خاتمة المسائل العبادية، ﴿وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ...﴾.
- ٦ - الإيمان بإصلاح الفرد والمجتمع له دور مهم، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ... يُؤْمَرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ﴾.
- ٧ - الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله ورسوله، كلها واجبات دائمة مفروضة على المؤمنين، ﴿يُؤْمَرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُؤْتُونَ... وَيُطِيعُونَ﴾؛ (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).
- ٨ - أولئك الذين يدعون الآخرين إلى فعل الخير، يجب أن يكونوا هم أنفسهم يعملون بما يقولون، ﴿يُؤْمَرُونَ... وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ﴾.
- ٩ - طاعة الله ورسوله يجب أن تنبع من الرغبة والتوق، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ (الطاعة في اللغة تعني الانقياد مع الميل والرغبة).

- ١٠ - طاعة الله لازمة في البرامج العبادية، وكذلك طاعة الرسول في البرامج الحكومية، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.
- ١١ - أعمال الإنسان هي التي تمهد لنزول الرحمة الإلهية، ﴿يَأْمُرُونَ... وَيَنْهَوْنَ... وَيُقِيمُونَ... وَيُؤْتُونَ... وَيُطِيعُونَ... سِرِّهِمْ اللَّهُ﴾.
- ١٢ - الرجل والمرأة متساويان في الانتهاز من فيض الرحمة الإلهية، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ... سِرِّهِمْ اللَّهُ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)

إشارات:

□ تبين هذه الآية كيفية تحقق الرحمة الإلهية التي ورد ذكرها في الآية السابقة، ﴿سِرِّهِمْ﴾.

□ طبقاً للروايات فإن «جَنّاتِ عدن» هي أشرف وأفضل بقعة في الجنة، وهي مستقرّ الأنبياء والصدّيقين والشهداء، وهي بقعة، من حيث السموّ والشرف، لا تخطر على بال بشر^(١).

□ المقارنة بين المنافقين والمؤمنين (الآيتان ٦٧ و ٦٨ مع ٧١ و ٧٢).

- ١ - المنافقون، «بعضهم من بعض»، بينما المؤمنون «بعضهم أولياء بعض».
- ٢ - المنافقون، «يأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف»، ولكن المؤمنون «يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر».
- ٣ - المنافقون، «نسوا الله»، أمّا المؤمنون «يقيمون الصلاة».
- ٤ - المنافقون، «يقبضون أيديهم»، والمؤمنون «يؤتون الزكاة».
- ٥ - المنافقون، «فاسقون»، والمؤمنون «يطيعون الله».
- ٦ - توعد الله المنافقين بـ«نار جهنم»، لكنّه بشرّ المؤمنين بـ«جَنّاتِ، ومساكن».

٧ - المنافقون «لعنهم الله»، فيما يحظى المؤمنون بـ«رضوان من الله».

٨ - المنافقون لهم «عذاب مقيم»، والمؤمنون لهم «فوز عظيم».

التعاليم:

١ - المرأة والرجل متساويان في التمتع بالنعم الإلهية ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

٢ - المزية الكبرى للجنة هي خلود الإنسان فيها وخلود نعيمها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

٣ - حياة الآخرة ليست حياة معنوية صرفة بل هي حياة مادية وجسمانية أيضاً، ﴿جَنَّاتٍ... وَسَكَنٍ طَيِّبَةٍ﴾.

٤ - المسكن يكون ذا قيمة عندما يكون موقعه راقياً، ﴿وَسَكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾.

٥ - ينبغي توظيف ميل الإنسان الطبيعي نحو الماء، والخضرة، والرياض، والبساتين، والمساكن لترسيخ الاتجاهات المعنوية والروحانية لديه، ﴿وَعَدَ اللَّهُ... جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾.

٦ - النعيم المعنوي والروحي للجنة أسمى من نعيمها المادي، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٧ - للجنة درجات ومراتب، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي... جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٨ - الوصول إلى الثواب الأخروي ورضا الله تعالى، هو الفلاح الأكبر، ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّجِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٦﴾

إشارات:

□ ما لم يلجأ المنافقون إلى الحرب والتأمر، ويصبحوا مثل الكافر الحربي، فإن جهادهم يكون باللسان فقط^(١).

□ قبل نزول هذه الآية، كانت معاملة الرسول للمنافقين معاملة كريمة، ولكن بعد نزولها اتسمت معاملته ﷺ لهم بالشدة والغلظة^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب أن يكون الجهاد بأمر ولي أمر المسلمين، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادٌ﴾.
- ٢ - في النظام الإسلامي، الإمام هو القائد العام للقوات المسلحة، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادٌ﴾.
- ٣ - الإسلام هو شريعة الجهاد ضد الكفر والنفاق، ﴿جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.
- ٤ - فلنجاهد العدو الأجنبي الظاهر، ﴿جِهَادِ الْكُفَّارِ﴾، وكذلك العدو الداخلي المستتر، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾.
- ٥ - ولي أمر المسلمين يجب أن يظهر الحزم في مواجهة الاستكبار، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادٌ... وَأَغْلَظُ﴾.
- ٦ - معلوم أن النبي الكريم ﷺ هو ينبوع الرحمة والرافة، لكن أمر الله تعالى في هذه الآية بالتشديد وإظهار الغلظة إنما هو بسبب كفر الأعداء ونفاقهم، ﴿وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٧ - جهاد الكفار والمنافقين إنما هو جزاؤهم في الدنيا؛ لأن لهم عذاب جهنم في الآخرة، ﴿وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾.
- ٨ - المنافق له عاقبة السوء، ﴿وَيُشَرِّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ
يَتَالَوْا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ نلاحظ أن الآية ٦٦ تذكر قول النبي الكريم ﷺ للمنافقين ﴿كَفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيْمَنَكُمْ، فيما يقول الله تعالى هنا: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، بمعنى أن النبي استعمل في الآية السابقة تعبير الإيمان بالنسبة إلى هؤلاء بينما يستعمل الله تعالى هنا تعبير الإسلام في حديثه عنهم، وتفسير هذا الاختلاف هو أن النبي ﷺ ليس له إلا أن يحكم بالظاهر، وبما أنهم أسلموا فكان يعتبرهم مؤمنين، أما الله تعالى العليم بما تخفي صدور هؤلاء فقد وصفهم بما هم عليه، أي مسلمين لا مؤمنين^(١).

□ تشمل الآية جميع المؤامرات والدسائس التي حاكها المنافقون ضد النبي الكريم ﷺ والإسلام، غير أن تفاسير الفريقين تعتبر الآية إشارة خاصة إلى ليلة العقبة حيث تريض المنافقون بالنبي الأعظم ﷺ في العقبة ليفتكوا به بعد أن ينفروا بغيره، لكن الله فضح كيدهم ولم ينالوا ما همّوا به، ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَزَّ يَنَالُوا﴾.

□ روي أن أحد المنافقين ويدعى جلاس سمع بعضاً من خطب الرسول الكريم ﷺ أيام غزوة تبوك، وأنكرها بشدة وكذبها، وبعد رجوع المسلمين إلى المدينة حضر رجل يقال له: عامر بن قيس - كان قد سمع جلاساً - عند النبي ﷺ وأبلغه كلام هذا المنافق فلما حضر جلاس وسأله النبي ﷺ عن ذلك أنكر، فأمرهما النبي ﷺ أن يقسما بالله - في المسجد عند المنبر - أنهما لا يكذبان فاقتربا من المنبر في المسجد، وأقسما، إلا أن عامراً دعا بعد القسم وقال: اللهم أنزل على نبيك آية تعرف الصادق. فأمن النبي ﷺ والمسلمون على دعائه. فنزل جبرئيل بهذه الآية. فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمَا﴾ قال جلاس: يا رسول الله إن الله اقترح علي التوبة، وإنّي قد ندمت على ما كان منّي، وأتوب منه، فقبل النبي ﷺ توبته^(٢).

التعاليم:

١ - الكذب واليمين الكاذبة، من علامات المنافق، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) الميزان في تفسير القرآن.

- ٢ - المنافقون جاحدون، فقد نالوا بفضل الإسلام ما نالوا، لكنهم مع ذلك لم يتوبوا عن الهمز واللمز وقبيح الكلام، ﴿وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ...﴾.
- ٣ - اقتران اسم الرسول الكريم مع لفظ الجلالة (الله) تبارك وتعالى ونسبة الأعمال إليهما معاً ليس شركاً، ﴿أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.
- ٤ - الله تبارك وتعالى هو وحده ينبوع الفضل. لاحظ أنه ﷻ يقول: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا «من فضلها»^(١).
- ٥ - عمل الإسلام على الارتقاء بالتربية الفكرية والأخلاقية، وكذلك تحسين الأوضاع المادية للحياة الإنسانية، ﴿أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.
- ٦ - طريق التوبة مفتوح حتى لأولئك الذين هموا بقتل النبي الأكرم ﷺ، ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾.
- ٧ - المنافقون يلقون عذاباً في الدنيا لأنّ نظام علل الكون يقوم على الصدق، ﴿يُعَذِّبُهُمْ... فِي الدُّنْيَا﴾.
- ٨ - عذاب المنافقين في الدنيا هو التشريد، والحيرة، والاستيحاء الباطني، فهم في اضطراب دائم^(٢)، ﴿يُعَذِّبُهُمْ... فِي الدُّنْيَا﴾.
- ٩ - عاقبة المنافقين أن يصبحوا بلا نصير، وأن تتلاشى تنظيماتهم ويركنوا إلى العزلة والمهانة، مجردين من أيّ دعم شعبيّ أو حكومي، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لِنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

□ قيل في سبب نزول الآية الكريمة: إنّ رجلاً من الأنصار يدعى ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف وكان من الأنصار قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً،

(١) الآية ٦٢ من هذه السورة ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْزَقُوا﴾ ولم يقل: «برضوهم».

(٢) ﴿يَخْتَبِرُونَ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ سورة المنافقون، الآية ٤.

فقال: «يا ثعلبة قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالاً لأعطينَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، قال: فاتَّخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة، ففتنَّحَى منها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، فبعث رسول الله ﷺ المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، وقال ما هذه إلَّا أخت الجزية، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» فأنزل الله ﷻ الآيات^(١).

□ يذكر الفخر الرازي في تفسيره أنَّ ثعلبة أتى الرسول الكريم ﷺ وسأله أن يقبل فقال النبي: «إنَّ الله منعني من قبول ذلك». الحقيقة، إنَّ الإنسان لا يعلم صلاحه وخيره، فأحياناً يصرَّ على ما فيه ضرره، لذلك، يجب عليه التسليم بما قسم الله تعالى له.

□ شبيه بذلك، عدم الوفاء بعهد الله تعالى، إذ جاء في سورة الأعراف ﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَٰلِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - الإنسان جاحد لا يشكر ربه ولا يفي بعهده تجاهه تعالى، ﴿عَنْهُدَ اللَّهُ... لَنَصَّدَّقَنَّ... بِحُلُوبِهِ﴾.

٢ - لا تعولوا كثيراً على العهود التي تُبرم في أوقات الفقر والشدة، ﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ... بِحُلُوبِهِ﴾.

٣ - ما لم يتوافر الإنسان على الجدارة والأهلية ربِّما تتحوَّل نِعَمُ الله إلى نِقَم تنزل عليه. يكون المال ذا قيمة إذا لم يؤدَّ إلى سقوط الإنسان، ﴿ءَاتَيْنَاهُمْ... وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

٤ - التعلق بزخارف الدنيا يودي بالإنسان إلى مصير أسود، فمن يبخل في أداء الزكاة والصدقات، سيطوي عن دينه كشحاً رويداً رويداً، ﴿يَجْلُوا... وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - نقض عهد الله تعالى والبخل على المحرومين، يؤدي بالإنسان إلى سوء العاقبة، ﴿يَجْلُوا... فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا﴾.
- ٢ - للنفاق درجات، باللسان وبالسلوك وفي القلب، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
- ٣ - يكون النفاق، أحياناً، مؤقتاً، وأحياناً أخرى دائماً^(١)، ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.
- ٤ - نقض العهد والكذب، تستتبع النفاق، كما إن الذنب لا يولد إلا الذنب، ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا... بِمَا أَخْلَفُوا... وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.
- ٥ - الإنسان هو مصدر شقائه، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا... وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾

إشارات:

- ربما يكون المراد بـ «السّر» هو الكفر الباطني للمنافقين، وبـ «النجوى» المؤامرات الجماعية، و«الغيوب» أهدافهم ونواياهم^(٢).

التعاليم:

- ١ - يسعى المنافقون إلى التغطية على مؤامراتهم، لكن الله تعالى يحذرهم بشأنها، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا...﴾.

(١) عن الإمام علي عليه السلام: أن المراد بـ «يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ»، هو يوم القيامة. بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٣٢.

(٢) تفسير الفرقان.

٢ - المعرفة الناقصة تولد عملاً ناقصاً، ﴿أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ... أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾.

لو يعلم الإنسان أن الله تعالى يعلم سرّه وجهره، لزاده ذلك تقوى، وأذهب بنفاقه، ولما تعرّض للتوبيخ.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو، وكان محتاجاً لمعونة الناس في هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو غيرها، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبي الكريم ﷺ. أما الفقراء كأبي عقيل الأنصاري، أو سالم بن عمير الأنصاري، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، فأدّخروا منه صاعاً لمعيشتهم وأهليهم، وأتوا بالآخر إلى النبي ﷺ وقدموه وشاركوا بهذا الشيء اليسير. غير أن المنافقين عابوا كلا الفريقين، فاتّهموا الأغنياء بأنهم ينفقون رياءً وسمعة، وسخروا من الفقراء بأنّ جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات^(١).

□ شرط الإنفاق ليس المال والثروة، بل الإخلاص، والإيمان، والسخاء. قرأنا في الآية ٧٩ أنّ ثعلبة، وعلى الرغم من ثروته الهائلة، لم يؤدّ حقوق الله تعالى عليه، بينما قدّم أبو عقيل الأنصاري العامل البسيط بضغّ تمرات لنصرة جبهة الإسلام.

(١) «يَلْمِزُونَ» التي تعني تتبع المعاب هي بالنسبة إلى المؤمنين النافذين، أما «يَسْخَرُونَ» فهي للمؤمنين الفقراء المستضعفين.

□ يقول الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْخَرُ، وَلَا يَسْتَهْزِئُ، وَلَا يَمَكُرُ، وَلَا يَخَادِعُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَجَازِيهِمْ جَزَاءَ السَّخَرِيَّةِ، وَجَزَاءَ الاسْتَهْزَاءِ، وَجَزَاءَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا»^(١).

التعاليم:

- ١ - الاستهزاء والسخرية أسلوب اعتاده المنافقون. لَا يَصْدَقُونَ لَكُنْهُمْ يَلْمِزُونَ الآخرين فِي الصَّدَقَاتِ، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾.
- ٢ - المؤمنون ينفقون عن رغبة وطيب خاطر، ﴿الْمُطَوِّعِينَ﴾؛ (بمعنى عن تطوع ورغبة).
- ٣ - إضعاف الروح المعنوية للذين يقدمون الدعم للجبهات عمل محرّم ويتسم بالنفاق، ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَوِّعِينَ... وَكُنَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
- ٤ - يريد المنافقون ثني الناس عن الجهاد وتجريدتهم من الدوافع من خلال السخرية والدعاية المسمومة، ﴿يَلْمِزُونَ... فَيَسْخَرُونَ﴾^(٢).
- ٥ - المنافق يعطي الأهمية لمقدار المال لا للنوايا والخصال؛ لذلك تجده يستهزئ بالمؤمنين الفقراء ويعيب عليهم قلة ما ينفقون، ﴿يَلْمِزُونَ... وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.
- ٦ - يجب توظيف جميع الإمكانيات لسد حاجات المجتمع، ﴿جُهْدَهُمْ﴾.
- ٧ - لكل مسؤولية تتناسب وطاقته، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.
- ٨ - علينا أن نؤدّي واجبنا وأن لا يثنينا عنه استهزاء العدو، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾؛ لأن الله تعالى سيجازيهم على أعمالهم، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾.
- ٩ - يجب أن تكون العقوبة على قدر الجريمة، ﴿فَيَسْخَرُونَ... سَخِرَ اللَّهُ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣١٩.

(٢) تقول الآية ٧ من سورة المنافقون ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْرِئُوا عَلِيَّ مَن عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾.

﴿اَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

إشارات:

□ العدد سبعون يراد به الكثرة والمبالغة لا بيان عدد بعينه. ومعنى الآية هو، مهما استغفرت لهم فلن يكون لاستغفارك أثر، وليس لأحد أن يقول: إن الرسول الكريم ﷺ لو استغفر إحدى وسبعين مرة فسيغفر الله تعالى لهم، ونظير ذلك ورد في الآية ٦ من سورة المنافقون ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إذ لم تذكر الآية الكريمة عدداً معيناً. كما روي عن النبي الكريم ﷺ قوله: «لو علمت أنه لو زدت على السبعين مرة غفر لهم لفعلت»^(١).

□ أحياناً يبلغ الإنسان حداً من الانحدار لا ينجيه بعده شيء، كالمرضى، مثلاً، الذي لو فارقت روحه جسده، فلن يكون لمحاولات الأطباء حينذاك أي أثر.

التعاليم:

- ١ - معصية الاستهزاء بالدين عظيمة لدرجة لا ينفع معها استغفار النبي الكريم ﷺ، ﴿فَيَسْحَرُونَ مِنْهُمْ... فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.
- ٢ - ما لم يغير الإنسان نفسه، ويحدث ثورة في داخله، فلن يجدي معه حتى دعاء النبي الكريم ﷺ، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ... كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾.
- ٣ - التعاطف والرأفة بالمنافق اللجوج لا طائل من ورائه، ﴿اِنْ تَسْتَغْفِرْ... فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - الله تبارك تعالى ليس ضئيلاً على هداية عباده، لكن المنافقين فقدوا الأهلية والاستحقاق، ﴿كَفَرُوا﴾.
- ٥ - الكفر يحول دون المغفرة، والفسق حجاب الهداية، ﴿كَفَرُوا... الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨١﴾

إشارات:

□ سبب نزول الآية هو معركة تبوك. فهي تذكر ثلاث علائم للمنافقين:

(أ) أنهم فرحون بتخلفهم عن الذهاب إلى جبهات القتال بدلاً من إبداء الندم.

(ب) يشق عليهم الجهاد بالمال والنفس.

(ج) تثيبت الآخرين عن الذهاب إلى الجبهات.

□ بحسب ما ورد في الآيات السابقة، فإن المنافقين كانوا يحاولون إضعاف عزيمة الآخرين في تقديم المعونات، وبحسب هذه الآية، يتخلفون عن الحضور في جبهات القتال ويثبطون عزيمة الآخرين عن الحضور.

التعاليم:

١ - إبداء الفرحة لعدم الذهاب إلى الجبهات وعدم إطاعة أوامر الرسول الكريم ﷺ دليل على النفاق، ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾.

٢ - أنكى من التخلف عن الجبهات، الإساءة إلى حرمة ولي أمر المسلمين وقدسيته، وعدم طاعة أوامره، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، ولم يقل ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾.

٣ - الطاعة التامة لأوامر رسول الله ﷺ واجبة، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾.

٤ - ثمة فرق بين المؤمن الجبان وبين المنافق. الأول يقدم معونات مالية، ويحمل في قلبه رغبة للجهاد، فيما المنافق لا يساعد ولا رغبة له في ذلك، ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾.

٥ - يحاول المنافقون من خلال تثيبت الناس والتعلل ببعض المشاكل مثل حرارة الجو، ثني الناس عن الجهاد، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

٦ - حينما تُقرع طبول الحرب، يجب أن نستعد لها لكي نقضي على شائعات المنافقين ودعايتهم المسمومة، ﴿وَقَالُوا... قُلْ﴾.

- ٧ - الردّ على دعاية العدو تكون باستخدام مفرداته نفسها، ﴿الْحَرِّ... أَشَدُّ حَرًّا﴾.
- ٨ - ذكر المعاد محرّك قوي نحو الجبهات، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، المؤمن الحقيقي لا تمنعه حرارة الجوّ من الجهاد أبداً.
- ٩ - المنافقون أناس سطحيون يهتمّون بالظواهر، ولا يملكون معرفة عميقة، ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

□ لو يعلم المنافقون أيّ ثواب ضيّعوا بتركهم الجهاد، وأيّ فرص أهدروا وأيّ نعم جحدوا، لضحكوا قليلاً وبكوا كثيراً، ولو أنّهم بكوا العمر كلّه لن يوافوا طول بكائهم في يوم القيامة.

التعاليم:

- ١ - البكاء والعيول على المكاره، هو الجزاء الدنيوي للمتخلفين عن الجهاد، ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً﴾.
- ٢ - العقوبة على قدر الجريمة ومتناسب معها، ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾.
- ٣ - بضعة أيام من الضحكات والمسرات للمنافق سوف يعقبها حسرات وبكاء طويل، ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ... وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِيُخْرِجَ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ «خالف»، تأتي بمعنى المتخلف عن الحرب، وكذلك بمعنى المخالف، وهناك

معنى ثالث يقول به بعضهم وهو المتخلف عن الجبهة لشيخوخة أو مرض أو عجز.

□ من تاب توبة نصوحاً، تقبل الله منه، لكن طلب المنافقين الذهاب إلى الجبهة هو رياء وتظاهر بالثورية.

□ يستفاد من الآية الكريمة أَنَّ النبي الكريم ﷺ قد خرج بنفسه من المدينة إلى تبوك، وبعدما وضعت الحرب أوزارها عاد إليها. كما تخبر الآية عن أساليب المنافقين في المستقبل ليقوم النبي الكريم ﷺ بفضحها وتعريتها.

التعاليم:

١ - لا تعولوا على دعوات المنافقين للمشاركة في الجهاد، ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ... فَاسْتَدْنُوكَ... فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا...﴾؛ هؤلاء عند توجه الركب إلى الجبهة يستأذنونك بالبقاء، وعند العودة يستأذنونك بالمشاركة!

٢ - حذار من أولئك الذين كانوا بالأمس متخلفين عن القتال، واليوم أصبحوا متطوعين، ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾.

٣ - لا تنسوا الماضي الأسود لبعض الأفراد، ﴿رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٤ - قاطعوا المنافقين واحقروهم، ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾؛ القتال إلى جانب النبي الكريم ﷺ، نعمة إلهية يجب أن يحرم منها وإلى الأبد المنافقون الفرحون بترك الجبهة، ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَمَا تَوْأَمَهُمْ فَلْيُقَاتِلْهُمْ﴾

إشارات:

□ دأب النبي الكريم ﷺ في سيرته العطرة على المشاركة في مراسم تشييع ودفن أموات المسلمين، والدعاء لهم والصلاة عليهم. في هذه الآية، يمنع الله تعالى نبيه الكريم ﷺ من حضور جنازات المنافقين أو الصلاة عليهم.

□ عن الإمام الصادق (عليه السلام): «كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى على مَيِّت كَبَّرَ وتشهَّد، ثم كَبَّرَ وصَلَّى على الأنبياء، ثم كَبَّرَ ودعا للمؤمنين، ثم كَبَّرَ الرابعة ودعا للمَيِّت، ثم كَبَّرَ وانصرف، فلما نهاه الله ﷻ عن الصلوة على المنافقين كَبَّرَ وتشهَّد ثم كَبَّرَ وصَلَّى على النبيِّ صَلَّى الله عليهم، ثم كَبَّرَ ودعا للمؤمنين، ثم كَبَّرَ الرابعة وانصرف ولم يدع للمَيِّت»^(١).

التعاليم:

- ١ - أحد أساليب النضال ضدَّ المنافقين هو النضال السلبي، ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.
- ٢ - أموات المنافقين أيضاً يجب أن يُحتقروا، من خلال عدم المشاركة في تشييع جنازتهم والامتناع عن زيارة قبورهم، ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.
- ٣ - يجب استخدام الصلاة كسلاح لمعاقبة المخالفين، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.
- ٤ - الصلاة على المَيِّت وزيارة القبور، دليل على حرمة المؤمن واحترامه بعد الموت، وهو عمل ممدوح، ولَمَّا كان المنافق لا حرمة له، فقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ﴾.
- ٥ - المنافق كافر وفاسق، ﴿كَفَرُوا... فَسِقُوا﴾.
- ٦ - إنما الأعمال بخواتيمها، فالخطر كلَّ الخطر حين يعاجل الإنسان بالموت قبل التوبة وهو في حال الفسق، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

إشارات:

□ المنافقون في صدر الإسلام كانوا يتمتعون بالأموال والأولاد ووفرة الإمكانات،

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ٣، ص ١٨١.

ولم يكن ذاك حال المسلمين؛ لذا كان خطر انجذاب المسلمين إلى هؤلاء والتأثر بأساليبهم قائماً، فنزل التحذير الإلهي للمسلمين بهذا الشأن في هذه الآية والآية ٥٥ من هذه السورة مع اختلاف قليل في الألفاظ.

□ كلمة «تَزْهَقُ» تعني الخروج بصعوبة وأسف وحسرة.

التعاليم:

١ - يجب أن لا نشعر بالحقارة والصغار أمام تمتع الآخرين بالإمكانات والثروات، ﴿وَلَا تَفْخَبْ﴾.

٢ - أحياناً يكون المال والبنون وسيلة ابتلاء وعذاب لا سعادة ورفاهية، ﴿يُعَذِّبُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

٣ - أحياناً تشكل المظاهر الدنيوية أدوات العذاب الإلهي، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

٤ - الموت هو مفارقة الروح الجسم، لا فناؤها، ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾.

٥ - لا شك في أن عمراً يقضيه الإنسان في نكران الجميل والجحود يجعله في لحظة الاحتضار يغادر الدنيا كافراً، ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

٦ - معيار القيمة هو حسن العاقبة والموت على الإيمان، لا التمتع بزخارف الدنيا لأيام معدودات، ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

□ «الطَّلُوفُ»، بمعنى القدرة والإمكانات المادية، و«أولو الطَّلُوفِ» هم المستطيعون والقادرون مالياً وجسمياً.

□ المراد بـ «السورة» مجموعة من الآيات التي تتناول موضوعاً معيناً؛ لذا فإنه يطلق لفظ سورة أيضاً على جزء منها.

التعاليم:

- ١ - الجهاد هو شرط الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا﴾.
 - ٢ - النبي الكريم ﷺ كان يتقدم الصفوف في جبهات القتال، ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾.
 - ٣ - لا بد للجهاد من أن يكون بإذن ولي أمر المسلمين وبمعيته، ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ...﴾.
 - ٤ - لا يجوز للإنسان أن يبرّر ضعفه، ونفاقه، وخوفه من المشاركة في الجهاد بأخذ الإذن، ﴿اسْتَدْنَكَ﴾.
 - ٥ - الجهاد هو أهم ما يخيف المرفهين الكسالى؛ لذا لا تعول على مشاركتهم، ﴿اسْتَدْنَكَ أَوْلُوا الطَّوْلِ﴾.
 - ٦ - المنافقون لهم قلوب يائسة، ﴿وَطَلِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.
 - ٧ - طلب الدنيا، والانغماس في الرفاهية، وروح النفاق كلها تسلب الإنسان صواب الرؤية وعمق المعرفة، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾.
- ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَيْرَاتُ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أن نحزن من عدم مشاركة المنافقين والمترفين في الحرب، ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ...﴾.
- ٢ - يظنّ المنافقون أنّ تخلفهم عن الجهاد سيجعل الإسلام بلا نصير، ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ...﴾.
- ٣ - القائد يتقدم صفوف المقاتلين، ﴿الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.
- ٤ - الإيمان بالنبي غير كافٍ وحده، بل يجب أن يقترن بمصاحبته وملازمته، ﴿ءَامِنُوا مَعَهُ﴾.
- ٥ - لا بد للجهاد من أن يكون متعدد الأبعاد، ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٦ - الفوز والفلاح يتحقق في ظلال الإيمان والجهاد، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٧ - الحرب والجهاد من أسباب نزول الخيرات والبركات الإلهية على المجاهدين، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾.

٨ - المجاهدون مفلحون، سواء انتصروا أم هُزموا (ظاهرياً)، ﴿جَنَّهُدُوا... أَلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

التعاليم:

١ - ثواب المجاهدين معدّ سلفاً، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾.

٢ - الجنة مخلوقة، وهي موجودة فعلاً، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾.

٣ - لنسخر الغرائز والرغبات الطبيعية في طريق الاعتلاء والهداية. (الإنسان بطبيعته يتوق إلى الحداثق، والروضات، والأنهار)، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٤ - الإقامة الدائمة في جنة الرحمة الإلهية هي السعادة الحقيقية، ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ «المُعَذِّر» بالتشديد فيه قولان: أحدهما أنه المحق؛ فهو في المعنى المعتذر، لأن له عذراً، فيكون «المعذرون» على هذه أصله المعتذرون، ولكن التاء قلبت ذالاً فأذغمت فيها وجعلت حركتها على العين؛ كما قرئ «يخضمون»؛ والقول الآخر إن المعتذر قد يكون غير محق، وهو الذي يعتذر ولا عذر له والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب^(١).

(١) من باب التفعيل، فيكون معذراً (أي لا عذر له)، ومن باب الافتعال يكون معتذراً (فيكون له عذر مقبول). نقلاً عن تفسير راهنما (التفسير المرشد).

□ بعض هؤلاء كانوا محققين في أعذارهم، أي كانت لهم أعذار حقيقية، ومن هذا الباب أذن لهم بالقعود، بيد أن فئة من هؤلاء تخلفت عن الجهاد بغير عذر، وهي المقصودة بالعذاب.

□ «الأعراب»، هم سكان البادية الذين يعيشون في البراري، وهم البعيدون عن أي حضارة أو تمدن.

التعاليم:

- ١ - في معركة تبوك صدر الأمر بالتعبئة العامة، ومن كان معذوراً كان يقدم عذره بين يدي النبي الكريم ﷺ فيأذن له بالقعود بصورة رسمية، ﴿وَبَلَّغَ الْمُعْذَرُونَ﴾.
- ٢ - الجهاد أمر حكومي لا شخصي؛ لذلك فإن الحضور في الجبهات والتخلف عنها يجب أن يكون بأمر قائد المسلمين^(١)، ﴿وَبَلَّغَ الْمُعْذَرُونَ... لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.
- ٣ - أولئك الذين أعرضوا عن فريضة الجهاد، وهموا بالفرار، في إيمانهم خلل وكذب، ﴿كَذَّبُوا﴾.
- ٤ - الكذب ليس باللسان فقط، فعمل الإنسان، أحياناً، قد يكون ينطوي على دلائل تكذب المدعى، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾.
- ٥ - سيلقى المعذرون عاجلاً جزاءهم لفرارهم من التكليف المناط بهم، ﴿الْمُعْذَرُونَ... سَيُصِيبُ... عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١)

إشارات:

□ ورد في سبب نزول الآية أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله، إني شيخ كبير أعمى وعاجز، وليس لي حتى من يأخذ بيدي ليذهب بي

(١) بالنسبة إلى مسألة الحضور في الجبهات، مر علينا في الآيات السابقة ﴿فَاسْتَشْذَوْهُ لَخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَا مَعَهُ أَبَدًا﴾.

إلى ميدان القتال، فهل أعذر إذا لم أحضر وأشارك في الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت الآية وعذرت مثل هؤلاء الأفراد^(١).

عجباً لعشاق الإسلام، فهذا شيخ كبير وأعمى وعذره معه، ولكن مع ذلك، ضميره لم يسمح له بترك الجبهة فجاء إلى النبي ﷺ ليأمره بما يرى!

□ ربما يكون المقصود بالخرج وعدم وجود ما ينفقون هو أن تأمين نفقات عوائلهم وأبنائهم لا يتيسر إلا بوجودهم، ومن هذا الباب، فإنهم إذا ذهبوا إلى الجبهة، لن يوجد من يعيل عوائلهم^(٢).

□ الدين الإسلامي ليس فيه حرج ولا يكلف الإنسان فوق طاقته، إنه دين سميح ومرن، ولا يعرف الانسداد. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وما أمروا إلا بـدون سعتهم وكل شيء أمر الناس به فهم يسعون له وكل شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم ولكن الناس لا خير فيهم»، ثم تلا هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يُمْسِكُونَ حَدًّا إِذَا نَضَّوْا إِلَهُ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - التكاليف الإلهية على قدر استطاعة البشر ووسعهم، ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ... حَرَجٌ﴾؛ (الضعفاء والمرضى الذين عدموا الصحة والقدرة الجسمية معذورون من الجهاد بالنفس والفقراء الذين لا قدرة مالية لهم معذورون من الجهاد بالمال).
- ٢ - لا يُرفع التكليف بفعل الخير عن أحد أبداً، فكل حسب استطاعته ووسعه، فالضعفاء مكلفون بفعل الخير وتقديم الدعم على النحو الذي يستطيعون، بما في ذلك العميان الأصحاء، فهم مأمورون بالدعاء للمجاهدين بالخير بألسنتهم وقلوبهم، ﴿إِذَا نَضَّوْا﴾.
- ٣ - أولئك الذين تتوق نفوسهم إلى الجهاد؛ لكنهم أعفوا منه، هم من المحسنين، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٩١.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج ١، ص ١٦٥.

(٣) تفسير راهنما.

٤ - لا مؤاخذه ولا ضمان على الأمين الذي يرتكب خطأ خارجاً عن إرادته ودون قصور أو تفريط منه^(١)، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢)

إشارات:

□ تحدّث الآية السابقة عن أولئك الذين يفتقدون الاستطاعة المالية لمساعدة جبهات الجهاد، وهنا تحدّث عن الفقراء الذين لا يجدون، لشدة فقرهم، مطية أو مركباً يركبونه للذهاب إلى الجبهات، فيتحرقون أسفاً وحسرة وتفيض عيونهم بالدموع، هؤلاء لهم من الثواب مثل ما للمجاهدين. روي عن الحسن البصري قوله: إنّ رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك، فأشرف على المدينة قال: «لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتهم في مسير، ولا أنفقتهم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم فيه». قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حبسهم العذر»^(٢).

التعاليم:

- ١ - تأمين التجهيزات العسكرية للمقاتلين على عاتق الدولة، ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾.
- ٢ - قيمة الإنسان بالنوايا والروح المعنوية التي يحملها، وليس فقط بالحركة والتجهيزات المادية والمالية، ﴿وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ﴾؛ (تشني الآية على الفقراء الذين لا مال لهم ولا إمكانيات، ولكن لديهم إيماناً راسخاً ويتحرقون للمشاركة في الجهاد).

(١) مثل الموظف الأمين الذي يتعرّض إلى السرقة أثناء نقله نقود المصرف، أو الحمال الذي يتعرّض إلى حادث مروري أثناء حمله بضاعة. إذن، فكل خطوة إصلاحية نابعة عن دوافع خيرة غير مغرضة، تتعرّض إلى حادث طارئ وأضرار غير متوقعة، فلا ضمان على صاحبها. وفي الفقه أيضاً توجد قاعدة في هذا الشأن هي قاعدة «الإحسان ونفي الحرج».

(٢) تفسير الدر المنثور.

٣ - المؤمن يتحرّق ألماً وتفيض عيناه بالدمع لعدم مشاركته في الجهاد، ﴿تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ﴾.

الجزء (١١)

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣)

إشارات:

□ لاحظ الهوة العميقة التي تفصل المؤمن عن المنافق! فالآية السابقة حدّثتنا عن المؤمن الذي تفيض عيناه بالدمع لعدم امتلاكه مطية أو مركباً ليشترك في الجهاد، ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، فيما نرى في هذه الآية كيف يسعى المنافقون الأغنياء بكافة الوسائل للتملّص من الذهاب إلى جبهات الجهاد فهم يستأذنون النبي الكريم للبقاء!!

التعاليم:

- ١ - لا فرق بين فقير وغني للذهاب إلى الجبهة، فالثروة لا تشكّل ميزة ولا عذراً للتخلف عن الجهاد، ﴿...عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.
- ٢ - التملّص من المسؤولية مدعاة لسوء العاقبة وفقدان الرؤية الصحيحة، ﴿وَطَبَعَ... لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَذِّرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

إشارات:

□ نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلاً؛ لأن النبي

الكريم ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَ أَنْ لَا يَجَالَسَهُمْ أَحَدٌ وَلَا يَكَلِّمَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ هَذِهِ الْمَقَاطِعَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الشَّدِيدَةَ بَدَأُوا يَعْتَذِرُونَ عَمَّا بَدَرُ مِنْهُمْ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ لِتُبَيِّنَ حَالِ هَؤُلَاءِ وَحَقِيقَتَهُمْ^(١).

التعاليم:

- ١ - ينبغي للمسلمين أن يكونوا مقتدرين بحيث يجبرون المسيئين على الاعتذار إليهم، ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾.
 - ٢ - يجب التصدي بحزم للمنافقين المعتذرين، ﴿لَا تَقْتَرِبُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ﴾.
 - ٣ - الله تعالى يخبر من غيبه نبيه الكريم ﷺ عن أحوال المنافقين وأعمال الناس، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لِلَّهِ﴾.
 - ٤ - بعد أن تضع الحرب أوزارها، يبدأ المنافقون بتقديم الحجج والأعذار، ﴿يَعْتَذِرُونَ... إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.
 - ٥ - علم الله تعالى إزاء الغيب، والشهود، والظاهر، والباطن، واحد، فهو لا يخفى عليه شيء، ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾.
 - ٦ - ذكر يوم القيامة، هو من أفضل وسائل تهذيب الإنسان وبناء روحه، ﴿تُزَادُونَ... يُبَيِّنُكُمْ﴾.
 - ٧ - الإنسان مسؤول عن أفعاله كلها، ويوم القيامة هو يوم الفضيحة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾.
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُغَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَاغْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥)

إشارات:

□ الإعراض إما أن يكون عن سماحة ونبل وصفح أو عن غضب ونفور، وقد اشتملت هذه الآية على كلا المعنيين؛ فهؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت^(٢).

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٩٣.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

- لقد أمر رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك، ألا يجالس أحد المنافقين المتخلفين عن الجبهة أو يكلمهم^(١).
- في الآية السابقة، لم يُقبل من المنافقين اعتذارهم، وفي هذه الآية، توسلوا باليمين الكاذبة بسبب ضعف موقفهم والذلة والهوان الذي أصابهم.

التعاليم:

- ١ - ما كلّ يمين ينبغي الركون إليها والوثوق بها، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ... فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.
- ٢ - المنافقون يسيؤون استغلال المقدسات ولفظ الجلالة (الله)، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾.
- ٣ - لا بدّ للمسلم من أن يكون من أهل التولي والتبري، وصاحب موقف، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.
- ٤ - قاطعوا المعذّرين المتخلفين عن جبهات القتال والجهاد واعزلوهم وضيّقوا عليهم الخناق، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.
- ٥ - فلنبتعد عن الفاسدين والأجواء الفاسدة؛ لأنّ روحية النفاق والمعائب الإنسانية كالأمراض المعدية، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.
- ٦ - النفاق رجس الباطن وداء الروح، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.
- ٧ - جهنّم هي أثر فعل فعال الإنسان نفسه، وليست انتقاماً إلهياً، ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

- يمين المنافقين في الآية السابقة هي لتهدئة خواطر المؤمنين لكيلا يتعرّضوا لهم، أمّا يمينهم في هذه الآية فإنّها تشير إلى أنّهم أرادوا من المؤمنين مضافاً إلى سكوتهم العملي إظهار الرضا القلبي عنهم، ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾، والملفت

أنهم لم يكونوا يقيمون لرضا المؤمنين وزناً، لكن إصرارهم على كسب هذا الرضا إنما كان الهدف منه اتقاء ردة فعل المؤمنين وغضبهم، حتى يحافظوا على مركزهم الاجتماعي ونفوذهم في داخل المجتمع!

□ يقول النبي الأكرم ﷺ: «مَنْ التَمَسَ رَضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ التَمَسَ رَضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»^(١).

التعاليم:

- ١ - يحاول المنافقون كسب رضا الناس وتثبيت موقعهم بينهم، فهم لا يهتمهم رضا الله تعالى ولا التوبة، ﴿لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾.
- ٢ - لنسع إلى كسب رضا الله تعالى، لا رضا الناس، فعفو الناس غير مهم، بل المهم هو عفو الله وعذابه، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَرْضَى﴾.
- ٣ - لما كان الله تعالى غير راضٍ عن المنافقين، إذن، أولئك الذين يرضون عنهم قد انشقوا عن طريق الله. وطريقهم بعيد عن طريق الله، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا... فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَرْضَى﴾.
- ٤ - رضا المؤمنين لا يعني دائماً رضا الله تعالى، ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا... فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَرْضَى﴾.
- ٥ - لا ترض عن الفاسق أبداً ما دام سادراً في فسقه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧)

إشارات:

□ «الأعراب» هم سكان البادية، مفردها «أعرابي» وليس «عرب».

- وصف الأعرابي يعني البعد عن الثقافة والتعاليم الدينية. ذكرت كلمة «الأعراب» عشر مرّات في القرآن الكريم. عدا مرّة واحدة، البقية كلّها موضع ذمّ.
- وجاء في رواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «تفقهوا في الدين فإنّه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي». وفي رواية نقرأ: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العربُ وسائر الناس أعراب»^(١).
- الناس على عصر النبي الكريم صلى الله عليه وآله كانوا فئتين: سكّان البادية، وسكّان المدن، وبما أنّ الآيات السابقة تتحدّث عن انتصار المسلمين في معركة تبوك؛ لذا قد يكون في الآية الكريمة إشارة إلى أنّه يجب عدم الغفلة عن سكّان البوادي المجاورين الجهلة، إذ لربّما حرّكهم الأعداء لإثارة الفتن والقتال.

التعاليم:

- ١ - البداوة تلازم، عادة، الابتعاد عن الثقافة والعادات الدينية، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾.
- ٢ - البيئة الاجتماعية والثقافية للإنسان لها تأثير على وعيه ومواقفه إزاء الحقائق والمعارف، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾.
- ٣ - أحياناً يضحى الأشخاص غير الواعين الذين لا يملكون حظاً من الثقافة، العوبة بيد الكفار والمنافقين، وربّما تفوّقوا عليهم في الحمافة، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.
- ٤ - للكفر والنفاق درجات، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.
- ٥ - الجهل هو أحد عوامل الكفر والنفاق، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا... أَلَّا يَعْلَمُوا﴾.
- ٦ - معرفة أحكام الدين واجبة وإلا يكون المرء أعرابياً، ﴿يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٧ - سكّان المدينة الجاهلون بحدود الله هم كالأعراب بل أدنى منزلة، ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

- «المَغْرَم»، من «الغرامة»، بمعنى ملازمة الشيء؛ ولذلك يقال: «غريم» للدائن والمدين اللذين لا يدع كلّ منهما صاحبه. ويقال للغرامة التي تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلا بأدائها، «مغرم».
- «دَوَابِّ»، جمع «دائرة»، تقال للحادثة الصعبة والأليمة التي تحلّ بالإنسان.

التعاليم:

- ١ - يعتقد المنافق ومن ليس له علم أو إيمان بحدود الله والتعاليم الإسلامية أنّ الإنفاق خسارة وغرامة، ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾.
- ٢ - المنافق حسود لا يتمنى للآخرين غير الشرّ، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾.
- ٣ - من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فمن يتمنى الشرّ للآخرين، أصابه ذلك الشرّ، ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السَّوْءِ﴾.
- ٤ - الله تبارك وتعالى عليم بأقوال الإنسان وخصاله، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ سُبْحَانَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾

التعاليم:

- ١ - لا يمتنعنا توبيخ جماعة أن نشني في الوقت نفسه على أختارها. لاحظ أنّ الله ﷻ وبيّن فريقاً من الأعراب ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾، لكنّه تعالى أثنى بعد ذلك على أختارهم، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾.
- ٢ - ينبغي أن لا تحجب حياة البداوة والبيئة الاجتماعية عن الإنسان خيار الرشد والتطور، ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾.

- ٣ - الإيمان يمهد للإنفاق والطمأنينة، ﴿يُؤْمِنُ... وَيَسْخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَى﴾.
- ٤ - فلنستخر الإمكانيات المادية في سبيل التقرب إلى الله تعالى، ﴿وَيَسْخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَى﴾.
- ٥ - ليس العمل وحده بل العمل المقرون بالنية الخالصة مدعاة للقرب من الله تعالى. فتجد المؤمن والمنافق كلاهما ينفق، لكن الله امتدح إنفاق المؤمن فقط، ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَى﴾.
- ٦ - العمل على كسب رضا رسول الله ﷺ لا يتعارض مع التوحيد، ﴿إِنَّا قُرْبَى﴾.
- ٧ - المؤمن المنفق مشمول بدعاء الرسول الكريم ﷺ، ﴿وَصَلَّاتِ الرَّسُولِ﴾.
- ٨ - المؤمن ينعم في كنف رحمة الله تعالى، ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾؛ والمنافق غارق في المكاره والحوادث المريعة، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (الآية السابقة).
- ٩ - الإنفاق الخالص للأعراب الذين يعيشون في أجواء تنعدم فيها الثقافة والتعليم، أجدد بالاحترام والتقدير، ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَى... فِي رَحْمَتِهِ... عَفْوٌ رَجِيمٌ﴾.
- ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة تقسم مسلمي صدر الإسلام إلى ثلاث فئات هي:

- ١ - السابقون في الإسلام والهجرة.
 - ٢ - السابقون في نصرة النبي وحماية أصحابه المهاجرين.
 - ٣ - الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ونهجهم.
- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم، ثم ثنى بالأنصار، ثم ثلث بالتابعين لهم بإحسان، فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده»^(١).

□ بإجماع المسلمين، فإنّ خديجة الكبرى عليها السلام زوج النبي الكريم ﷺ هي أول امرأة آمنت بالدعوة ودخلت في الإسلام، وإجماع الشيعة وفريق كبير من أهل السنة، فإنّ أول رجل آمن بالدعوة هو علي بن أبي طالب عليه السلام^(١). كما قال أحد المؤرخين: لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أولهم إسلاماً، وإنّما اختلفوا في بلوغه^(٢).

طبعاً، لما لم يستطع جماعة إنكار سبق علي عليه السلام في الإيمان والإسلام فسعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخرى، أو التقليل من أهميته، بالقول: إنّ علياً عليه السلام في ذلك الوقت كان في العاشرة من عمره، وهو غير بالغ طبعاً، وعلى هذا فإنّ إسلامه يعني إسلام صبيٍّ ومثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير في تقوية جبهة المسلمين وزيادة اقتدارهم في مقابل الأعداء. لكننا نقول ردّاً على هؤلاء: إنّ عيسى ويحيى عليهما السلام تبوّأ مقام النبوة صبيّين، وكان لذلك قيمة!

التعاليم:

- ١ - السبق في العمل الصالح له قيمة، ولا بدّ من صيانة مكانة طلائع الثورات، ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ﴾.
- ٢ - تبعيّة السلف في أعمالهم الصالحة، وليس أيّ تبعيّة، هي التي تنطوي على قيمة، ﴿أَتَبِعُوهُمْ يَاحَسَنَ﴾.
- ٣ - الله تعالى يرضى عن المؤمن ما دام المؤمن راضياً بقضاء الله، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.
- ٤ - الجنّة في ظلال الإيمان والسبق والهجرة والنصرة والاتباع بإحسان، ﴿وَالسَّيِّفُونَ... وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾.

(١) وردت بعض الروايات في موسوعة الغدير، ج ٣، ص ٢٢٠ - ٢٤٠؛ إحقاق الحق، ج ٣، ص ١١٤ - ١٢٠.

(٢) تفسير القرطبي ج ٥، ص ٣٠٧٥؛ نقلاً عن مستدرک الحاكم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَنَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

إشارات:

□ «مَرَدُّوا» تعني التمرين والقيام على صفة أو عادة ما، لدرجة أن تتحول إلى طبيعة جديدة.

□ العذاب مرتان، ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾، الأول، الفضيحة أمام الناس وهتك أسرارهم، والثاني، شدة الاحتضار وتسليم الروح، بدليل ما ورد في الآية ٥٠ من سورة الأنفال ﴿يَضْرِبُوكَ وَيُجَاهِدُونَ وَأَذْبَرُوكَ﴾، أو يحتمل أن يكون المراد بالعذاب مرتين هو المعاناة النفسية والعذاب الروحي، مضافاً إلى العذاب الجسمي.

التعاليم:

- ١ - خذوا حذرکم من المنافقين المتربصين بکم هنا وهناك، ﴿حَوْلَكُم﴾.
- ٢ - نعم، إِنَّ کفر الأعراب ونفاقهم شديد لکنه جهار، بينما نفاق بعض أهل المدينة مستتر وخفي، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ﴾.
- ٣ - للنفاق أوجه، وجه سطحي وظاهر، وآخر عميق ومتجذر، ﴿مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ...﴾.
- ٤ - النبي الكريم ﷺ لا يعلم الغيب من دون عناية الله تعالى وتعليمه إياه، ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾.
- ٥ - أولئك الذين يصرون على انتهاج طريق الانحراف وتمرسوا عليه، لهم عذاب أشد، ﴿مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ... سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾.
- ٦ - المنافق مضنوك في الدنيا والآخرة، وضنكه ليس ببعيد، ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

□ نزلت الآية الكريمة في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا عن الاشتراك في غزوة تبوك، ليس نفاقاً بل منعهم حبهم للحياة والدنيا. لكنهم لما سمعوا الآيات التي نزلت في ذم المتخلفين ندموا أشد الندم فجاؤوا إلى مسجد النبي الكريم ﷺ وربطوا أنفسهم بأعمدته، فنزلت هذه الآية وقبل الله توبتهم، ففك رسول الله ﷺ قيدهم^(١).

التعاليم:

- ١ - لم يكن جميع صحابة النبي ﷺ عدولاً، فمنهم من ارتكب السيئات، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾.
- ٢ - يجدر بالإنسان أن لا يركز على حسناته فحسب، بل عليه أن يفتش عن سيئاته وإصلاحها، ﴿اعْتَرَفُوا... خَلَطُوا﴾.
- ٣ - الاعتراف بالخطأ ونقد الذات مضافاً إلى توقّر رصيد من الأعمال الصالحة، كلّها تمهّد للعفو الإلهي، ﴿اعْتَرَفُوا... يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٤ - صحيح أن الله تعالى وعد عباده بالمغفرة، بيد أن على الإنسان أن يتوسّط الخوف والرجاء، ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٥ - المذنب النادم بحاجة إلى الأمل، وحضن الإسلام مفتوح لاستقباله، ﴿اعْتَرَفُوا... إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

□ الآية الكريمة مدنية نزلت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وبعد نزولها

أمر رسول الله ﷺ مناديه فنأدى في الناس: إِنَّ الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة... أيها المسلمون، زكّوا أموالكم تقبل صلواتكم.

□ يصلي النبي الكريم ﷺ على المزكّين، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، فيما يصلي الله تبارك وتعالى على المجاهدين المضرجين بدمائهم وهم يدفعون الأعداء، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - إحدى وظائف الحاكم الإسلامي هي أخذ الزكاة من الناس، ﴿خُذْ﴾.
- ٢ - الإسلام يسمح بالملكية الخاصة، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.
- ٣ - الزكاة جزء صغير من المال، حبذا لو أدّيتموها عن طيب نفس وخاطر، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.
- ٤ - تأدية الزكاة دليل صدق دعوى الإيمان لدى الإنسان، ﴿صَدَقَ﴾.
- ٥ - الزكاة تطهر الروح من البخل، وحب الدنيا، وحب المال، ﴿تَطَهَّرُهُمْ﴾.
- ٦ - الزكاة مدعاة لسمو الفضائل الأخلاقية لدى الفرد والمجتمع، ﴿وَزَكَّيْهِمْ﴾.
- ٧ - كان الرسول الأكرم ﷺ يصلي على الناس العاديين؛ لأن إعطاء الأهمية للناس سيشتجّعهم على فعل الخيرات ويقوّي من عناصر شخصيتهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٨ - يجب أن تكون العلاقة بين دافعي الضرائب وجباتها علاقة حميمة ومعنوية، ﴿خُذْ... وَصَلِّ﴾.
- ٩ - دعاء النبي الكريم ﷺ في حق الناس مستجاب، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.
- ١٠ - لا يليق القول إنّ الزكاة فرض عليهم فلا حاجة لشكرهم، بل يجدر بنا شكرهم، ﴿خُذْ... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

١١ - ليس بالضرورة أن يكون الثواب مادّيّاً، أحياناً الثواب المعنوي يكون أبلغ أثراً، ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.

١٢ - الشكر والثناء يخفف من عبء التكليف، ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾.

١٣ - العلم الإلهي هو مصدر الأوامر والتكاليف، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

إشارات:

□ بعض المذنبين ممن تخلّفوا عن غزوة تبوك جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأصرّوا عليه ليقبل توبتهم فنزلت هذه الآية لتقول لهم: إنّ التوبة ليست بيد النبي الكريم ﷺ بل بيد الله سبحانه الغفور الرحيم، وما يعطى من صدقات وزكاة للنبي الكريم ﷺ إنّما يعطى الله تبارك وتعالى.

□ لما كان النبي الكريم ﷺ يأخذ الزكاة من الناس بأمر من الله تعالى، على هذا، فإنّ الله هو الآخذ الحقيقي لها، وكذلك الحال مع آية البيعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(١).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وما تقع في يد السائل [الصدقات] حتى تقع في يد الربّ تبارك وتعالى، ألم يقل في هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾»^(٢).

□ عن علي بن حسان الواسطي عن بعض أصحابه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ جارية هي في الإمام بعد رسول الله ﷺ؟ قال: «نعم»^(٣).

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) تفسير البرهان.

(٣) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

- ١ - حتى النبي الكريم ﷺ لا يحقّ له قبول التوبة أو رفضها، فما بالك بالقساوسة ورعاة الكنيسة، فهذا الأمر خاصّ بالله تعالى وحده، ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾.
- ٢ - أداء الزكاة شرط التوبة الحقيقية، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.
- ٣ - الإصلاح الباطني للإنسان مرجح على تقديم المعونات المادية، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.
- ٤ - التوبة لا تقتصر على الندم فقط، بل لا بدّ من أن يتبعها الإصلاح والعمل، ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.
- ٥ - لما كان الله تبارك وتعالى هو الذي يلي الصدقات، فيجب علينا، إذن، أن نعطي الصدقات عن طيب خاطر، وأن تكون من أفضل أموالنا وبأحسن أسلوب، ﴿إِنَّ اللَّهَ... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.
- ٦ - الزكاة ضريبة إسلامية تنطوي على قدسيّة، ذلك أنّ الله تبارك وتعالى هو من يليها، ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشَكَّرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ تبرهن هذه الآية على عقيدة الشيعة في «عرض الأعمال» على أولياء الله تعالى، إذ تبين صراحة علم الله تعالى، ورسوله، والمؤمنين بأعمالنا. ويتمّ عرض الأعمال هذا بصورة يومية، أو أسبوعية، أو في رأس كلّ شهر، فإذا كانت صالحة سرّ لها أولياء الله، أما إذا كانت سيئة، اغتمّوا وحزنوا. والحقيقة أنّ الإيمان بهذه العقيدة (عرض الأعمال) له أثر في زرع التقوى والحياء في نفس الإنسان، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «ما لكم تسوؤون رسول الله ﷺ؟» فقال له رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: «أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه؟ فإذا رأى

فيها معصية ساء ذلك فلا تسوؤوا رسول الله ﷺ وُسْوَءَهُ^(١).

□ وبحسب ما ورد في الروايات، فإنَّ المراد بـ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، الأئمة المعصومون حيث يطلعهم الله تعالى على أعمالنا^(٢).

التعاليم:

- ١ - الإنسان مخير في أعماله لا مجبر، ﴿اعْمَلُوا﴾.
- ٢ - إذا عرف الإنسان أنَّ أعماله تحت بصر الله وسمعه، فسيحترز من ارتكاب المعاصي، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾.
- ٣ - كلما كان الرقباء على الأعمال أكثر، ازداد حياء الإنسان من ارتكاب المعاصي، فكيف إذا كان هؤلاء الرقباء هم الله، ونبيه، والمؤمنين، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ...﴾.
- ٤ - العمل ميزان التقييم، فما يعرض في هذه الدنيا على أولياء الله وما يعرض في يوم القيامة للحساب هو العمل، ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ... فَيُنِشْكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
- ٥ - أعمال الإنسان تنطوي على حقائق سوف تظهر له في يوم القيامة، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ... فَيُنِشْكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَخْرَجْتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

إشارات:

□ ﴿مُرْجُونَ﴾ من «الإرجاء»، بمعنى التأخير والتوقيف، وفي الأصل أخذت من الرجاء أي الأمل، ولما كان الإنسان قد يؤخر شيئاً ما أحياناً رجاء تحقق هدف من هذا التأخير، فإنَّ هذه الكلمة قد جاءت بمعنى التأخير، إلا أنه تأخير ممزوج بنوع من الأمل.

□ يذكر الله ﷻ في هذه الآيات ثلاث طوائف هي:

(أ) المنافقون المسترون في المدينة، (الآية ١٠١).

(ب) الذين ارتكبوا معصية واعترفوا بفعلتهم وأملوا في التوبة، (آية ١٠٢).

(ج) المنحرفون الذين أصروا على المعصية ولم يتوبوا، مصيرهم بيد الله تعالى، (الآية موضع البحث).

□ جاء في الروايات^(١)، أَنَّ المرجين قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة، وجعفر الطيار، وأشباههما من المؤمنين، ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم، فيكونون من المؤمنين فتجب لهم الجنة ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار، فهم على تلك الحال إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، أو أنهم الذين تخلفوا عن معركة تبوك وندموا لكنهم لم يعترفوا بلسانهم بخطأهم.

التعاليم:

١ - الأمر بيد الله تعالى، إن شاء يعفو عن المذنبين وإن شاء يعذبهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ - من أجل إصلاح مذنبين مختلفين، ينبغي استخدام أساليب مختلفة، فمن الضروري أن نبقى بعض الأفراد في حالة بين الخوف والرجاء، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

٣ - العذاب أو اللطف الإلهي منشأهما العلم والحكمة لا الانتقام، ﴿عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

□ سبب نزولها هو أَنَّ قوماً من المنافقين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن

يسمح لهم ببناء مسجد في حيّ بني سليم - قرب مسجد قبا - حتى يصلّي فيه العاجزون، والمرضى، والشيوخ، وكذلك ليصلّي فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا في الأيام الممطرة، ويؤدّوا فرائضهم الإسلامية، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ عازماً على التوجّه إلى تبوك. فأذن لهم النبي ﷺ، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلّي فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، وعند عودته بإذن الله فسوف يأتي مسجدهم فيصلّي فيه. فلما رجع النبي ﷺ من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه الحضور في مسجدهم والصلاة فيه، وأن يدعو الله لهم بالبركة، وكان النبي ﷺ لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحي وتلا عليه هذه الآيات، وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبي بحرق المسجد المذكور وبهدم بقاياها وأن يجعل مكانه محلاً لرمي القاذورات والأوساخ^(١).

□ وبحسب بعض الروايات فإنّ بناء مسجد ضرار في المدينة كان بأمر من أبي عامر - والد حنظلة غسيل الملائكة - وقد كان من الزهاد والعباد النصاري، وله نفوذ واسع في الخزرج. عندما هاجر النبي الأكرم ﷺ إلى المدينة واحتضنه المسلمون ونصروه، وبعد انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر، رأى أبو عامر - الذي كان يوماً من المبشرين بظهور النبي الكريم ﷺ - أنّ الناس قد انفضّوا من حوله، وبقي وحيداً، عند ذلك قرّر محاربة الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفار مكة، واستمدّ منهم القوة لمحاربة النبي ﷺ ودعا قبائل العرب إلى ذلك. فكان ينفذ ويقود جزءاً من مخططات معركة أحد، ولما انتهت هذه المعركة هرب أبو عامر من المدينة وذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به على قتال النبي ﷺ. ويا للعجب العجيب، فرأس النفاق والكفر يخرج من صلبه حنظلة عاشق الإسلام والنبي الكريم والشهيد الذي غسّله الملائكة^(٢)!

□ عندما طلب هؤلاء من النبي الكريم ﷺ الصلاة في مسجد ضرار كانوا قد

(١) تفاسير: مجمع البيان؛ المنار؛ نور الثقلين. (٢) تفسير الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

طرحوا ثلاثة أسباب لطلبهم هي: حبّهم في إقامة صلاة الجماعة، خدمة المصلّين من العاجزين والشيوخ، وحبّهم في النبي وصلاته. وجميع هذه الأسباب كانت مغلفة بالنفاق، فهذا ديدن المنافقين دائماً، فالسامريّ تأمر على النبي موسى ﷺ، والمسجد الأموي يشيّد في مقابل المسجد النبوي، والمصاحف ترفع على رؤوس الرماح أمام الإمام علي عليه السلام. فكما أحرقت عجل السامريّ، فكذلك يُحرق مسجد المنافقين ليكون درساً للتاريخ.

شيّدت في الكوفة والشام مساجد كثيرة ابتهاجاً بنصر يزيد على الإمام الحسين عليه السلام، وقد كان أئمتنا يطلقون عليها المساجد الملعونة! □ الإسلام يحرم أيّ ضرر، «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»^(١)، ومن الأضرار المحرّمة:

- (أ) الإضرار بالنفس، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمَظَرَ﴾^(٢).
- (ب) الإضرار بالناس، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣).
- (ج) الإضرار بالزوجة، ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ عَلَيْهِنَّ﴾^(٤).
- (د) الإضرار بالأبناء، ﴿لَا تُضَارُّ وَلَدَهُ يَوْلِيَهَا﴾^(٥).
- (هـ) الإضرار بالورثة، ﴿مِنْ بَعْدٍ وَصِيٍّ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾^(٦).
- (و) العلم المضّر، ﴿وَلَا تَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٧).
- (ز) الإضرار في المعاملات والديون، ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾^(٨).
- (ح) الإضرار بالدين والوحدة، ﴿مَسْجِدًا ضَرَارًا﴾.

التعاليم:

١ - العدوّ يستغلّ المسجد والدين ليحارب بهما الدين، فحذار أن ننخدع

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| (١) وسائل الشيعة، ج ٢٦، ص ١٤. | (٥) سورة البقرة: الآية ٢٣٣. |
| (٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥. | (٦) سورة النساء: الآية ١٢. |
| (٣) سورة المائدة: الآية ٢. | (٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢. |
| (٤) سورة الطلاق: الآية ٦. | (٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٢. |

بالشعارات البراقة والألقاب، ﴿أَتَّخِذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

٢ - حتى صلاة النبي الكريم ﷺ يريد المتآمرون استغلالها لصالحهم؛ (في ضوء سبب نزول الآية).

٣ - بناء المسجد مهم؛ ولكن الأهم هو توفر النوايا الخالصة للباني والسادن، ﴿أَتَّخِذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

٤ - الإضرار بكل أنواعه محرّم في الإسلام حتى وإن كان تحت غطاء المسجد، ﴿أَتَّخِذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

٥ - احترام المسجد وقديسيته تذهب في حال كان وسيلة للاستغلال بيد الأعداء؛ (في ضوء سبب نزول الآية).

٦ - الله تبارك وتعالى يدافع عن نبيه الكريم ﷺ وعن دينه، ويفضح مؤامرات المنافقين عن طريق وحيه، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾.

٧ - كل مسجد يثير الفُرقة بين المسلمين هو مسجد ضرار، ﴿أَتَّخِذُوا مَسْجِدًا... وَتَقْرِبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ - المنافقون في خدمة الكفار، ﴿وَلَا رَيْبَ أَنَّكُمْ عَادِئُونَ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ﴾.

٩ - ونحن نحارب العدو الخارجي، ينبغي أن لا نغفل عن مؤامرات أعداء الداخل. لقد طلب المنافقون من النبي الكريم ﷺ قبل معركة تبوك افتتاح مقرهم رسمياً غير أنه ﷺ خلف علياً عليه السلام في المدينة، وبعد عودته هدم مسجد ضرار.

١٠ - الإضرار بوحدة المسلمين صنو الكفر، ﴿وَكُفِّرُوا وَتَقْرِبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١١ - اليمين الكاذبة هي أسلوب المنافقين، ﴿وَلَيَحْلُلَنَّ﴾.

١٢ - لا تتخذوا بمزاعم العدو ودعايتهم الكاذبة، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾.

١٣ - الكذب خصلة الكفار والمنافقين، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿لَا نَقُتُّ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُتِيسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحُجُبَ الْمُطَهَّرِينَ﴾

إشارات:

□ مسجد قبا هو المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، حيث بُني بعد هجرة النبي الكريم ﷺ إلى المدينة^(١).

□ يقول الفخر الرازي: بيّن الله تعالى أن المسجد الذي بني من أول الأمر على التقوى أحق بالقيام فيه من المسجد الذي لا يكون كذلك. وثبت أن علياً ما كفر بالله طرفة عين، فوجب أن يكون أولى بالقيام بالإمامة ممن كفر بالله في أول أمره^(٢).

التعاليم:

١ - لا تصلّوا في مسجد اتَّخَذَ كقاعدة لمناوئي النظام الإسلامي، ﴿لَا نَقُتُّ فِيهِ أَبَدًا﴾.

٢ - العبادة لا تنفصل عن السياسة، حتى الصلاة يجب أن لا تكون وسيلة لتقوية الباطل ونصرته، ﴿لَا نَقُتُّ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ (مناصرة الكفر والنفاق والفرقة حرام).

٣ - القائد هو قدوة للآخرين، لم يدخل النبي الكريم ﷺ مسجد ضرار، لكيلا يدخله الآخرون أيضاً؛ لذا فخطاب الآية موجه إلى النبي، ﴿لَا نَقُتُّ فِيهِ﴾.

٤ - لا بدّ للقائد من أن يكون سباقاً في اتّخاذ المواقف، ﴿لَا نَقُتُّ فِيهِ﴾.

٥ - في حال نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، علينا في المقابل أن نوَفِّرَ لهم أماكن بديلة سليمة ومفيدة ونرشدهم إليها، ﴿لَا نَقُتُّ... تَقُومَ﴾.

٦ - قيمة كلّ شيء رهن بالأهداف والدوافع التي تحكم القائمين عليه، ﴿أُتِيسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾.

٧ - المسجد بمثابة فرصة للتطهر من أدران الجسم والروح، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

٨ - مجالسة الصالحين ميزة وقيمة، ﴿فِيهِ رِجَالٌ...﴾.

٩ - قيمة الأماكن من قيمة الذين يرتادونها. فقيمة المسجد بمصلّيه، لا بقبته ومئذنته، ﴿لَمَسْجِدٌ... أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

١٠ - الصلاة والمسجد وسيلتا تهذيب وتطهير، ﴿لَمَسْجِدٌ... فِيهِ... يَتَطَهَّرُوا﴾.

١١ - الميل إلى الكمال والطهارة هو في حد ذاته كمال، ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

١٢ - المتطهر حبيب الله، ﴿يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩)

إشارات:

□ الآية السابقة تعقد مقارنة بين مسجدين، مسجد ضرار ومسجد قبا، وهنا مقارنة بين فريقين: المؤمنون الذين بنوا مسجد قبا، والمنافقون الذين بنوا مسجد ضرار على أساس الكفر، والنفاق، والفرقة.

□ كلمة «شفا»، بمعنى حافة الشيء وطرفه. و«جُرُفٌ»، حافة النهر أو حافة البئر التي جرف الماء ما تحتها فأصبحت كالهوية. و«هار»، المتصدّع المشرف على السقوط.

التعاليم:

١ - قيمة الأعمال بالنيات، لا بظواهرها. فمسجد قبا أُسّس لله ومن أجل نيل مرضاته، بينما مسجد ضرار أُسّس للتفريق بين المسلمين، ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ!﴾

٢ - البنيان الباطل أساسه في الهواء، ﴿بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾.

٣ - أحياناً يكون المسجد منحدرأ يودي بمؤسسه إلى هاوية جهنم، ﴿فَأَتَاهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾.

٤ - إساءة استغلال المراكز الدينية والمعتقدات الدينية للناس ظلم، ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنِيَ لَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

التعاليم:

١ - البنيان العقدي للمنافقين واه ومبني على الشك والريبة، ﴿بَنَوْا رِبَّةً﴾.

٢ - أحياناً تضحي الأمراض الروحية والنفسية بمثابة طبيعة متأصلة تستعصي على التغيير، ﴿لَا يَزَالُ... رِبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣ - الأمراض النفسية والروحية لا تبرأ بالتوبة الظاهرية واللسانية، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤ - للمنافقين قاعدة وتشكيلات خاصة بهم، ﴿بُنِيَ لَهُمْ﴾.

٥ - المنافق يفتقد الشعور بالطمأنينة والراحة، ﴿رِبَّةً﴾.

٦ - الله تبارك وتعالى كان مطلقاً على نية المنافقين في تأسيس مسجد ضرار، ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

إشارات:

□ الدنيا سوق، والناس زبائن، فهم البائعون، والله تعالى المشتري، وأموالهم وأنفسهم متاع وبضاعة، والتمن هو الجنة، فإذا باعوا لله، فقد أنجزوا صفقة مربحة لا خسارة فيها أبداً، وإذا باعوا لغيره، فصفتهم خسارة لا ربح فيها.

□ وينطوي البيع لله على مزايا عدة منها:

١ - إنا وما نملك لا نعدو كوننا من فيض الله وملكه، فلا يجدر أن نبيع بضاعته لغيره.

٢ - الله تعالى يشتري القليل أيضاً، ﴿مِنْكَالَ ذَرَوُ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

٣ - إنه تعالى يقبل بمعايب البضاعة وهو الذي يصلحها ولا يفضح صاحبها.

٤ - الثمن الذي يدفعه هو الجنة، فهو يزايد على البضاعة، ويشتري بأعلى الأثمان، فمن الحمق والخسران أن يبيع الإنسان لغيره.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها»^(١).

التعاليم:

١ - هل مع الله تعالى يبحث الإنسان عن مشترٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾؟

٢ - الله تعالى يشتري نفس المؤمن، لا نفس المنافق أو الكافر، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ - الجهاد بالنفس أولى بالقبول عند الله من الجهاد بالمال، ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾.

٤ - الجنة في ظلال الجهاد، والسيوف، وبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، ﴿لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٥ - إذا كان الجهاد في سبيل الله ومن أجل مرضاته، فسيان عند المؤمن أن يقتل أو يُقتل، ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٦ - هدف المؤمن من الحرب هو محق الباطل وأهله أولاً، ومن ثم الشهادة، ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٧ - الصفقة مع الله تعالى مربحة بلا أدنى ريب، ﴿وَعَدَا عَلَيْكَ حَقًّا﴾؛ في المعاملة مع الله لا يجد الإنسان إلا الحق، بخلاف المعاملة مع الآخرين، الذين إما

أن تنقصهم الجدّة أو الدوافع الصادقة كأن يشوبها الغلوّ والأهواء أو من أجل إزاحة الغريم.

٨ - فضل الجهاد والمجاهدين والشهداء لا يقتصر على الإسلام فحسب، بل إنّ ذلك كان موجوداً في التوراة والإنجيل أيضاً، وإذا لم نجدّها اليوم في كتبهم، فذاك دليل على التحريف، ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

٩ - لا حقوق لنا على الله تعالى، إلّا ما ألزم ذاته المقدّسة تجاهنا، تفضلاً منه ومئة، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

١٠ - لقد عقد الله تبارك وتعالى صفقته مع المجاهدين المخلصين. الآية الكريمة تقول: ﴿بَايَعْتُمْ﴾ لا: «بعتهم».

١١ - البشارة الأعظم هي تبديل الفناء خلوداً والدنيا بالآخرة، وكلّ ما سوى ذلك خسران وحسرات، ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا﴾.

١٢ - إلى جانب توبيخ المنافقين المتخلفين عن الجهاد، لا بدّ من الشناء على المؤمنين المجاهدين، ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا﴾.

١٣ - الفلاح الأكبر لا يتحقّق إلّا في ظلّ المعاملة مع الله تعالى، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ إِلَىٰ عِزِّ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَشَرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ تذكر الآية الكريمة تسع خصال للمؤمنين المجاهدين هي: التوبة من الذنوب، الدوران في مدار العبادة، الحمد باللسان، والسعي بالأرجل، والركوع والسجود بالأبدان، وبعد تهذيب النفس، يبادرون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح المجتمع، والتزام دائرة الشرائع الإلهية.

□ التوبة من الذنوب تمهّد الطريق للعبادة، اللسان الشاكر المقرون بالنشاط

والحركة، يخلق في النفس الاستعداد للركوع والسجود في حضرة الله تعالى،
أما الأمر والنهي عن المنكر فيصون الحدود الإلهية في المجتمع.

□ «التائبون»، تعني أن المؤمنين الذين يبيعون أنفسهم وأموالهم لله تعالى، إنما أشعلوا في دواخلهم ثورة الإصلاح، والتهديب، والإعراض عما سبق من أعمالهم الشائنة، والدخول في صفقة مربحة مع الله سبحانه وتعالى^(١).

□ لقي عُبَاد البصري الإمام علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟﴾ فقال علي بن الحسين عليه السلام: «أتم الآية» فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، فقال علي بن الحسين عليه السلام: «إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحججة»^(٢).

□ جاء في الحديث الشريف في المراد بـ ﴿السَّابِقُونَ﴾: «إن السابحين هم الصائمون»^(٣).

التعاليم:

١ - وفاء الله تعالى بعهده لابن آدم مشروط بشبات الأخير على حفظ الحدود الإلهية، ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ... السَّابِقُونَ﴾.

٢ - الجهاد الأكبر والتهديب هو شرط الجهاد الأصغر في الجبهات، ﴿يُقَاتِلُونَ... السَّابِقُونَ﴾.

٣ - الإسلام دين شامل وجامع، الدمع إلى جانب السيف، والعبادة مع السياحة، ﴿يُقَاتِلُونَ... السَّابِقُونَ... السَّابِقُونَ﴾.

(١) وقد حدث ذلك على أرض الطف أيضاً، فأسماء مثل زهير والحر لم تكن لامعة قبل تلك الواقعة، لكنهما وبعد التحول الذي أصابهما والصفقة التي عقداها مع الله تعالى، والتي بموجبها باعا نفسيهما لله ليحلّقا في سماء المجد والخلود الأبدي.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٤٦.

(٣) تفسير نور الثقلين.

- ٤ - المطلوب هو أن تكون الكمالات عادة وملكة للإنسان، ﴿التَّكْبِيرُ الْمَكِيدُونَ...﴾.
- ٥ - تقوية الروح المعنوية لجند الإسلام تكون بذكر الله والعبادة، لا بالخمير والموسيقى... كما يحصل في جبهة العدو، ﴿يُقْتَلُونَ... التَّكْبِيرُ الْمَكِيدُونَ...﴾.
- ٦ - الحركة، السعي، السياحة، الهجرة، تهذيب النفس، كلها فضائل إذا كانت لنيل الكمال والقرب الإلهي، ﴿التَّكْبِيرُ...﴾ (الرجال المؤمنون لا يتسمرون في مكان واحد).
- ٧ - الجندي الإسلامي هو من يحرص على إقامة الصلاة والعبادات، ﴿يُقْتَلُونَ... الرَّاكِبُونَ التَّكْبِيرُونَ...﴾.
- ٨ - مسيرة الكمال تتطلب أولاً تهذيب النفس ومن ثم تهذيب المجتمع، ﴿التَّكْبِيرُ الْمَكِيدُونَ... الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾.
- ٩ - ينبغي ألا يشغلنا قتال الأعداء على الحدود، عن المفسدات والمنكرات في الداخل، ﴿يُقْتَلُونَ... الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾.
- ١٠ - إذا أردنا حفظ حدود الله، علينا أن نحارب العدو الخارجي ومفسدات الداخل في آن معاً، ﴿يُقْتَلُونَ... وَالشَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ...﴾.
- ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

إشارات:

□ نقل بعض مفسري العامة بعض الأحاديث الموضوعة لعدد من الرواة الوضاعين، زاعمين أن هذه الآية نزلت في أبي طالب! في حين أن الأدلة والقرائن العديدة تشير إلى إيمان أبي طالب. يشار إلى أن راوي الأحاديث الموضوعة في شأن أبي طالب هو سعيد بن المسيب وهو من أعداء الإمام علي عليه السلام، أما ذنب أبي طالب فهو كونه والد الإمام علي عليه السلام! (١)

التعاليم:

- ١ - النبي الكريم ﷺ وسائر المسلمين سواسية أمام الشريعة، ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.
 - ٢ - الشرك ذنب لا يغتفر، حتى مع استغفار النبي الكريم ﷺ للمشركين، ﴿مَا كَانَ... أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.
 - ٣ - الروابط الدينية أقوى وأهم من الروابط العاطفية، فلا ينبغي لعواطف القرابة أن تغلب على الدين، ﴿مَا كَانَ... وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾.
 - ٤ - قرابة النبي الكريم ﷺ لا تقي من ورود جهنم، ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾.
- ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة كان الحديث عن أنه لا يحق للنبي الكريم ﷺ ولا المؤمنين أن يستغفروا للمشركين، وإن كانوا ذوي قرى، وهنا تدفع الآية شبهة الوعد الذي وعده النبي إبراهيم ﷺ لعمه آزر بالاستغفار ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾^(١)، قائلة إن وعد إبراهيم كان على أمل هدايته، ولكن لما مات عمه على الشرك، ترك الاستغفار.

□ سؤال: إذن، لماذا استمر النبي إبراهيم ﷺ بالدعاء والاستغفار لعمه حتى بعد وفاته ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْ لِي وَلَوْلَدِي﴾^(٢)؟

الجواب: الوالد تطلق على الأب الحقيقي، غير أن كلمة أب تدلّ مضافاً إلى المعنى المعروف، على المعلم والعم ووالد الزوجة والجد أيضاً. لذا، فدعاء إبراهيم ﷺ كان لوالده الحقيقي وليس لعمه المشرک.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(١) سورة مريم: الآية ٤٧.

- يطلق القرآن الكريم وصف «أب» على عم إبراهيم في ١١ آية، ليدكره بالإنسان الذي كان يكفله، لكنه مع ذلك لم يتأثر به.
- نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في «أواه»: «كثير الدعاء والخاشع المتذلل»^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب رفع أي شبهة تدور حول أولياء الله، وتقديم التفسير الصحيح بشأنها، ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾.
- ٢ - الوفاء بالعهد واجب حتى مع الكفار، ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾.
- ٣ - علم الأنبياء محدود، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ...﴾.
- ٤ - لا تفقدوا صبركم إزاء سلوك الكفار العنيف^(٢)، ﴿نَبَرًا مِنْهُ... لَاؤَاهُ حَلِيمٌ﴾.
- ٥ - البراءة من العم في سبيل الله دلالة على حب إبراهيم عليه السلام لله تعالى وخشوعه له، ﴿لَاؤَاهُ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١١٥)

إشارات:

- الآية الكريمة إشارة إلى أحوال أولئك الذين دخلوا في الإسلام لكنهم رحلوا عن هذه الدنيا قبل أن يؤدوا واجباتهم^(٣)، أو أنها إشارة إلى الآية السابقة في وجوب التبري من أعداء الله تعالى، وأنهم إذا واصلوا نهجهم في عدم الاكتراث واللامبالاة، فهم أيضاً ضالّون، وسيلتحقون بأعداء الله. أو ربّما نزلت

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) لقد هدد آزر إبراهيم بالرجم إذا لم يكف عن دعوته: ﴿لَنْ تَنَالُوا آلَئِمْكُمْ﴾ سورة مريم: الآية ٤٦، ولكن مع ذلك ظل النبي إبراهيم عليه السلام محافظاً على حلمه وصبره.

(٣) تفسير مجمع البيان.

الآية لطمأنة أولئك الذين استغفروا للمشركين قبل العلم بحرمة الاستغفار.

□ عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «أما علمت أن الإمام الفرض عليه والواجب من الله إذا خاف الفوت على نفسه أن يحتج في الإمام من بعده، والحنة معروفة مبينة، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فطب نفساً وطيب نفس أصحابك، فإن الأمر يجيء على غير ما تحذرون إن شاء الله»^(١).

□ الإضلال عذاب يصيب به الله من أثر العافية ولم يكثر بهداية الله. المعارضة الواعية لتعاليم الله تعالى مدعاة لسلب الهداية الإلهية، ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ يُضِلُّ... حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا ينزل العذاب الإلهي إلا بعد التوضيح والتبيين وإتمام الحجة، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾.
- ٢ - الهداية الإلهية هداية تامة، فهي مضافاً إلى شرح أسباب السعادة، تنذر بمصادر الخطر والتهديد أيضاً، ﴿يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية الكريمة: «حتى يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه»^(٢).
- ٣ - عندما ينهى الله تعالى عن شيء إنما ينبع ذلك من علمه وحكمته، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ
مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

التعاليم:

- ١ - بدلاً من تقوية العلاقات مع ذوي القربى المشركين، قوّوا علاقتكم بالله مالك السموات والأرض، فهؤلاء عاجزون عن النصرة في مقابل قدرة الله تعالى، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ... وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ...﴾.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧)

إشارات:

□ حملت معركة تبوك مصاعب جمة للمسلمين منها: بُعد الطريق، الجوّ القاطظ، موسم جني المحاصيل وقطف الثمار، ناهيك عن قوّة العدوّ ورهبته في النفوس. من هنا، أثر بعض المسلمين من غير المنافقين مثل أبي خثيمة، الفراش الوثير الناعم، والزوجة، والطعام اللذيذ، والظلال الوارفة على الجبهة ومشقاتها، لكنّه تذكّر فجأة النبي الكريم ﷺ، فقام من فوره وركب راحلته وانطلق إلى النبي ﷺ والمسلمين فأدركهم بعد أيام قليلة.

□ المنافقون في معركة تبوك كانوا على ثلاث فئات:

١ - فئة تخلّفت عن الجبهة بذريعة الافتتان بنساء الروم الجميلات.

٢ - فئة كانت تثبّط الناس عن الذهاب إلى الجبهة.

٣ - فئة تذرّعت بشدّة حرارة الجوّ، أو استأذنت فأذن لها.

وفي المقابل، كانت توجد فئة ذهبت مع النبي الأكرم ﷺ إلى جبهات القتال بدافع الحبّ والإخلاص، ومنهم من لم يكن يملك مطيّة أو مركباً، فكانت أعينهم تفيض بالدمع وقلوبهم بالحسرات. ومن هؤلاء الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي تخلّفت عن الجبهة لعدم امتلاكه مركباً، لكنّه أوصل نفسه في الوقت المناسب إلى النبي الكريم ﷺ.

□ لقد عانى المسلمون في معركة تبوك أوضاعاً عصيبة للغاية لدرجة أنّ أشخاصاً عدّة كانوا يشتركون في ثمرة واحدة^(١).

□ قد تكون هذه الآية وراء تسمية السورة بالتوبة مضافاً إلى البراءة.

التعاليم:

- ١ - لقد كان لطف الله تعالى يشمل نبيه الكريم ﷺ والمقاتلين المسلمين في أوقات الشدة والخطر، ﴿تَابَ اللَّهُ﴾.
- ٢ - جميع البشر وعلى الأخص الأنبياء، محتاجون إلى لطف الله وكرمه، ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾.
- ٣ - التوبة الإلهية تعني اللطف الإلهي الخاص بالنبي الكريم ﷺ والمؤمنين، إذ ينعكس اللطف أحياناً في صورة العفو والصفح عن المذنبين، ﴿تَابَ اللَّهُ﴾.
- ٤ - علامة الإيمان الحقيقي هي طاعة القائد في أحلك الظروف، ﴿أَتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾.
- ٥ - شدائد الحياة ومصاعبها ليست سوى سويغات قليلة ثم تنتهي، ﴿سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾.
- ٦ - الإنسان معرض في كل لحظة للانحراف والانحدار؛ لذا ينبغي التوجه إلى الله تعالى، ﴿كَأَذْبِغُ قُلُوبُ قَرِيبٍ﴾.
- ٧ - اللطف الإلهي هو حبل النجاة من السقوط، ﴿تَابَ اللَّهُ...﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُتُوبَائِهِمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

إشارات:

□ لقد ندم المسلمون الثلاثة الذين امتنعوا من المسير مع النبي ﷺ والاشتراك في غزوة تبوك، ولما رجع النبي ﷺ أبدوا ندمهم وطلبوا منه العفو إلا أن النبي لم يكلمهم وأمر المسلمين أيضاً أن لا يكلموهم، وأمر زوجاتهم أيضاً أن لا يقتربوا منهم. فضاق فضاء المدينة عليهم واضطروا للالتجاء إلى الجبال في أطراف المدينة، وكانوا يستغفرون ويتضرعون ويكون كل بمعزل عن صاحبه،

وأخيراً، وبعد خمسين يوماً من التوبة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قبلت توبتهم ونزلت الآية في ذلك^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب معاقبة المتناقلين عن الحرب، العاصين أمر القائد، وذلك بمقاطعتهم لفترة معينة، ﴿خُلِفُوا﴾.
- ٢ - الخصام، والتجاهل، والمقاطعة من الأساليب التأديبية بحق المتخلفين والمجرمين، ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ... وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - النضال السلبي ضد المتخلفين يجعل المجتمع بالنسبة إليهم سجنًا بلا أسوار ولا حراس، ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾.
- ٤ - صحيح أن النبي الكريم ﷺ هو مجلى الرحمة الإلهية، إلا أنه بإمكانه استخدام أسلوب الخصام والمقاطعة بصفته مربيًا، ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.
- ٥ - عذاب الضمير، من العذابات التي يعاني منها الإنسان، ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.
- ٦ - اليأس من الناس تمهيد للتوبة والتوجه إلى الله تعالى، ﴿لَا مَلْجَأَ... ثُمَّ تَابَ﴾.
- ٧ - توفيق التوبة أيضاً ممكن في ظلّ لطف الله وعنايته، في البداية يرجع الله بفضلله على الإنسان، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى يتاح للإنسان توفيق الندم، والاعتذار، والتوبة، ﴿لِيَتُوبُوا﴾، حينذاك، وعندما يتوب الإنسان يقبل الله توبته، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾.
- ٨ - وهكذا، وبعد فترة من النضال السلبي ضد المذنبين، وتركهم ومقاطعتهم، نقوم بتهيئة أجواء مناسبة لإصلاحهم، ليعودوا إلى أحضان المجتمع فنعاود معاملتهم باللطف والرافة، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

إشارات:

□ يُستفاد من روايات الفريقين أَنَّ المراد بـ ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في الآية الكريمة النبي الكريم ﷺ، وآل بيته الكرام عليهم السلام.

□ الآية ١٧٧ من سورة البقرة تقول: إِنَّ الصادقين هم المؤمنون، والمنفقون الذين يقيمون الصلاة، ويوفون بعهودهم، ويصبرون على المشاكل، وتعرف الآية ١٥ من سورة الحجر والآية ٨ من سورة الحشر الصادقين بأنهم المهاجرون الذين أودوا وأخرجوا من ديارهم وضحووا بما لديهم.

التعاليم:

- ١ - الصداقة والصحبة ومعاشرة الصادقين من جملة عوامل التربية والحيلولة دون وقوع الإنسان في مستنقع الانحراف، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ٢ - علينا بملازمة القادة الإلهيين وعدم مفارقتهم، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ٣ - القادة الإلهيون معصومون، ولولا ذلك لما أمر الله تعالى بملازمتهم^(١)، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ٤ - كمال المجتمع يتيسر في ظلّ الإيمان والتقوى وطاعة المعصوم، ﴿ءَامِنُوا اتَّقُوا... مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ٥ - لا بدّ للناس في كلّ عصر من معصوم يتبعونه، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

(١) عجباً من صاحب التفسير الكبير الذي يقول: إِنَّ المعصوم فرد عادي، غير أنّ إجماع الأمة معصوم من الخطأ!! فهل أنّ إجماع البشر الخطائين والفاسقين يوجب العصمة؟

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَّالُونَ مِنْ عُذُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية الكريمة عدة مبادئ في الحرب هي:

- ١ - الإيمان بأنّ تحمّل مصاعب الحرب عمل صالح يترتب عليه مرضاة الله تعالى.
- ٢ - المقاومة والصمود إزاء المصاعب والتحديات.
- ٣ - إذلال العدو وقهره.

التعاليم:

- ١ - أصحاب القائد ومن حوله ممن يحظون بعلم وإمكانات أوسع، تقع عليهم مسؤولية أكبر، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ... أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾.
- ٢ - عندما تكون المسألة الدفاع عن حياض الإسلام، فلا أهمية للقرية أو المدينة، ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾.
- ٣ - الطاعة التامة للنبي الكريم ﷺ واجبة، وليس لأحد أن يتخلف عن أوامره الحكومية، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ... أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾.
- ٤ - من مسؤوليات الرسول، القيادة العسكرية العامة في الحرب، ﴿يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - نفس النبي الكريم ﷺ أولى من نفوس المسلمين، على المسلم أن يفتدي قائده الإلهي بنفسه، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا...﴾.
- ٦ - على المسلمين أن يكونوا مستعدين لتحمل الصعاب والضغط في سبيل العقيدة، ﴿ظَمَأٌ... نَصَبٌ... مَخْمَصَةٌ﴾.

- ٧ - يجب على المجتمع الإسلامي أن يحارب الكفر، ﴿يَفِظُ الْكُفَّارَ﴾.
- ٨ - المسيرات والتحركات الجماعية للمسلمين التي تؤدي إلى إغاية الكفار وإخافتهم لهم فيها ثواب عند الله، ﴿مَوْطِئًا يَفِظُ الْكُفَّارَ﴾.
- ٩ - ليس الدفاع والقتال فحسب، بل كل حركة، أو جهد، أو مشقة في الجبهة تحتسب عند الله تعالى وهو يشيب عليها، ﴿لَا يُضِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ... عَمَلٌ صَلَاحٌ﴾.
- ١٠ - مقدمات الجهاد والقتال أيضاً تندرج ضمن الأعمال الصالحة والعبادات، ﴿وَلَا يَطْشُرُونَ مَوْطِئًا... عَمَلٌ صَلَاحٌ﴾.
- ١١ - المحسن الحقيقي يكون ثورياً ومجاهداً في الجبهات، ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ (الجود بالنفس غاية الإحسان).
- ١٢ - الحصول على الثواب الإلهي يأتي في ظلّ تحمّل الصعاب والآلام، فمن جدّ وجد، ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ... أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ١٣ - الإيمان برضا الله وثوابه، يهون على الإنسان الصعاب، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

إشارات:

□ لعل المقصود بـ ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أن ثواب الله تعالى أفضل من عمل المجاهدين، أو أن أفضل ما يقومون به هو الجهاد بأموالهم وأنفسهم.

التعاليم:

- ١ - الكَمّ والمقدار في الإنفاق ليس مهمًا، فالله تعالى يشيب عليه سواء أكان قليلاً أم كثيراً، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

- ٢ - أعمال الخير لا تذهب سدى، فأعمال الإنسان كلها مسجلة عند الله، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ... وَلَا يَقْطَعُونَ... إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.
- ٣ - التحرك نحو جبهات القتال من أفضل الأعمال، ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٤ - الثواب الإلهي أفضل وأعظم من عمل الإنسان، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ...﴾.
- ٥ - مواصلة العمل الصالح، مدعاة لمضاعفة ثوابه، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٦ - سنة الله هي في أن يُعلي دينه بجهود المؤمنين وهمهم؛ (لولا الحاجة إلى جهودهم، لما حفلت الآياتان بكل هذا التشجيع والحض).

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

إشارات:

□ منذ أن نزلت الآيات التي حملت بشدة على المتخلفين عن الغزوات، والتي أدت إلى انتهاج النبي الكريم ﷺ أسلوباً شديداً معهم، أخذ المسلمون يسارعون إلى الجهاد والاستعداد للغزوات اللاحقة، لدرجة أنهم كانوا يتركون رسول الله ﷺ وحيداً في المدينة، فنزلت هذه الآية لتنبيه المسلمين إلى هذا الأمر، وأن ينظموا مسألة خروجهم إلى الجبهات^(١).

□ كان الأعراب المسلمون يتقاطرون على المدينة لتعلم أصول الدين وتعاليمه، الأمر الذي أدى إلى هجرتهم إلى المدن وما انطوى عليه ذلك من تبعات وآثار سلبية. من هنا، نزلت الآية الكريمة لتأمرهم بأن تأتي طائفة منهم فقط للتفقه في الدين، ثم ترجع إلى ديارها لنشر ما تعلموه من أحكام الدين.

□ المقصود بـ«الدين»، هو مجموعة الأحكام والتشريعات الإلهية والتعاليم الظاهرة والباطنة للإسلام. الإسلام، وهو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى، ﴿إِنَّ

الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا^(١) يعني التسليم لله.

□ التفقه في الدين، هو بذل الجهد لاكتساب المعرفة العميقة بالدين، والعقائد، والأحكام الإسلامية. أحياناً قد تكون دوافع التفقه في الدين عند الإنسان دنيا يصيبها، أو منصباً رفيعاً يسعى إليه، أو رغبة في متابعة الدروس والبحث والدراسة، أو تمضية الوقت وعدم التخلف عن ركب الأصدقاء، أو يكون في أحيان أخرى من أجل رفعة دين الله وكسب مرضاته تعالى والفوز بالجنة وخلاص الأمة. والآية الكريمة ترفع من قيمة الخيار الأخير لذلك تحذر الناس لئلا يكون جهادهم لغير الأمور المعنوية وتدعوهم إلى طريق الله تعالى، ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، ولنا في وصية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لولده خير دليل على ذلك إذ يقول له: «تَفَقَّهْ فِي الدِّينِ فَإِنَّ الْفَقْهَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢). وفي ليلة عاشوراء، كان للإمام الحسين عليه السلام عبارات مشابهة إذ يشي على الله تبارك وتعالى بالقول: «الحمد لله الذي فقَّهنا في الدين»^(٣).

□ سئل الإمام الصادق عليه السلام: إذا حدث على الإمام حدثٌ كيف يصنع الناس؟ قال: «أَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْهُ قَوْلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؟ قال: «هم في عذرٍ ما داموا في الطلب، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم»^(٤).

التعاليم:

١ - لا بد للإنسان من أن يكون ذا نظرة شمولية عند التخطيط والإدارة، حتى لا يؤدي التركيز على مسألة واحدة إلى الإخلال بباقي المسائل، ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْهُ﴾.

٢ - الهجرة والإيمان متلازمان، فإما أن تكون هجرتكم للدفاع عن حياض الدين

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٦.

أو للتفقه في تعاليمه وأصوله، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾.

٣ - ينبغي إرسال الأفراد إلى المراكز العلمية ليتفقهوا في الدين الإسلامي، ليكون لدينا طلبة دينيون في جميع المناطق، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾.

٤ - العالم الذي لا ينفر في البلاد الأخرى ليس بفقيه كامل، ﴿نَفَرَ﴾، روي عن أحد أئمتنا قوله في من يلزم بيته: «كيف يتفقه في الدين»^(١)؟

٥ - التفقه في الدين وتعليمه للناس واجب كفائي، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ... مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾؛ (الجهاد والاجتهاد كلاهما واجب كفائي)^(٢)؛ لذا ينبغي التخطيط بشكل يضمن عدم تعرض النظام العلمي لطلبة العلوم الدينية للتداخل والالتباس).

٦ - الهدف من التفقه هو تحذير الناس، وتوعيتهم، وإنقاذهم من الغفلة، وعدم الاكتراث حيال المشاكل، ﴿وَلْيُنْذِرُوا﴾.

٧ - يجب عدم تجاهل القضايا الفكرية والعقدية والأخلاقية حتى في زمن الحرب، وأن لا يشغلنا العدو عن العدو الداخلي (الجهل والغفلة)، ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا... فَلَوْلَا نَفَرَ... لَيَنْفَقَهُوا﴾.

٨ - التفقه لا يعني تعلم أحكام الدين فحسب، بل يشمل جميع المعارف الدينية التي تتيح الدراسة والدقة والتعمق، ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾.

٩ - المعارف الدينية يجب أن تكون عميقة وغائرة، ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾.

١٠ - الدعوة الدينية تتطلب وعياً عميقاً بها، ﴿لَيَنْفَقَهُوا... وَلْيُنْذِرُوا﴾.

١١ - يمكن الوثوق بكلام الفقيه المتخصص بالإسلام، ﴿لَيَنْفَقَهُوا... وَلْيُنْذِرُوا﴾؛

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) يقول الإمام علي عليه السلام: «والجهاد فرض على جميع المسلمين، لقول الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، فإن قامت بالجهاد طائفة من المسلمين وسع سائرهم التخلف عنه ما لم يحتج الدين بلون الجهاد إلى المدد فإن احتاجوا لزم الجميع أن يمدّوهم حتى يكتفوا، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَنَّ﴾، وإن دهم أمر يحتاج فيه إلى جماعتهم نفروا كلهم. قال الله ﷻ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٤٨.

(أحياناً يكون شخص واحد فقط في تلك المنطقة، إذن، خبر الواحد له حجية).

١٢ - التفقه في الدين له قيمة حين يكون الفقيه محيطاً بعصره، واعياً بمسارب العدو وما يحيكه من مؤامرات، لكي يستطيع بالتالي أن ينذر قومه، ﴿لِيَنْفَعَهُمْ... وَلِيُنْذِرُوا﴾.

١٣ - هجرتان ضرورتان لطلبة العلوم الدينية، الأولى الهجرة إلى الحوزات العلمية، والثانية من الحوزات صوب المدن والقرى؛ لذا لا يجوز البقاء في الحوزات لغير الأساتذة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ... لِيَنْفَعَهُمْ... وَلِيُنْذِرُوا... إِذَا رَجَعُوا﴾.

١٤ - مسقط رأس الداعية أولى بنشاطه الدعوي وعمله الثقافي، ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾.

١٥ - على العلماء أن يذهبوا إلى الناس، لا أن ينتظروا قدومهم، ﴿رَجِعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

١٦ - محور الدعوة يجب أن يدور حول خلق التقوى وذكر المعاد، ﴿وَلِيُنْذِرُوا... لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

١٧ - لا ينبغي للفقهاء أن يتوقعوا أن يطيعهم جميع الناس طاعة مطلقة، ذلك أن فريقاً منهم لن يسلكوا طريق الله والدين أبداً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ

اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

□ قتال العدو الأدنى ينطوي على مزايا نذكر منها: تكلف مالا وإمكانات أقل، معلوماتنا عنه أكثر، اختيار جبهة القتال تكون أسهل، وإمكان التعبئة العامة لمواجهة أكبر، ناهيك عن أن خطر هذا العدو أقرب، وسبيل دفعه أقصر والوصول إلى منطقة القتال أسرع، فهو عدو، وفي الوقت ذاته، ظهير لعدو أبعد.

□ «غِلْظَةً» بمعنى شدة وصلابة، وقدرة وحمة، من غير قساوة القلب أو اكفهرار. من هنا، كلما أظهر جيش الإسلام قدرة أكبر في المسائل العسكرية، والتدريبات، والاستعراضات، والمسيرات العسكرية، والزي والشعارات، كان أدعى للثناء والاحتراف. ولنا في رسول الله ﷺ خير قدوة، فعندما دخل مكة أمر المسلمين بأن ينظموا مسيرة أمام ناظري أبي سفيان، ليستعرضوا قوة الإسلام واقتداره وعظمة جند الإسلام، وليمعن عن هذا الطريق في إضعاف الروح المعنوية عند المشركين.

□ مفهوم «الأقرب فالأقرب»، هو إعطاء الأولوية لما هو أقرب للإنسان في جميع المسائل التي تتعلق بالتعاليم الإسلامية، ففي الإنفاق والصدقات، الأولوية هي لليتيم والفقير من ذوي القربى، وفي تقديم الزكاة يجب أن يبدأ الإنسان بالمحتاجين في منطقته القريبة، وفي الحرب يجب معالجة العدو الأقرب، وفي الدعوة والإرشاد الأولوية لذوي القربى وأبناء المحلة أو المنطقة القريبة، وفي المسجد يحظى الجار بالأولوية، وفي الطعام والضيافة الأولوية تكون لذوي القربى، والوقوف في الصف الأول في صلاة الجماعة يكون لمن هم أقرب إلى الإمام في خصالهم وكمالهم.

□ تطرح هذه الآية الكريمة فكرة جهاد الفتح والتحرير لا الجهاد الدفاعي، من هنا، فهي تستعرض خصال المقاتلين المسلمين، ولا تتحدث عن الظروف الخاصة بهجوم الكفار^(١).

□ ثمة أمثلة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة حيث يوصي فيها النبي الكريم ﷺ جند الإسلام مراعاة التقوى في الحرب وأن لا يؤذوا نساء الكفار، وآلا يقطعوا شجرة، وقد روي أنه ﷺ تألم كثيراً لمقتل فتاة من الكفار^(٢).

التعاليم:

١ - يجب أن يقترن الإيمان بالعمل والكفاح، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا﴾.

(١) تفسير في ظلال القرآن.

(٢) المصدر نفسه.

٢ - دفع شر العدو الأقرب أولى، ﴿يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾؛ (الاستراتيجية القتالية للإسلام تتمثل في التصدي أولاً للعدو الأقرب، وفي الحرب الفكرية والعقدية، يجب البدء بالشبهات الشائعة والمطروحة).

٣ - يجب تهيئة كل ما من شأنه خلق عناصر الصلابة والشدة، بدءاً بشجاعة المقاتلين إلى توفير الأسلحة والعتاد المتطور لهم، وليس انتهاءً بتقديم التعليم والتكنولوجيا المتخصصة، ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

٤ - لا بدّ للجيش الإسلامي من أن يتمتع بالصلابة والهيبة، ﴿غِلْظَةً﴾.

٥ - يجب أن تقترن الشجاعة الداخلية بالصلابة الظاهرية، ﴿وَلِيَجِدُوا﴾.

٦ - الغلظة والصلابة الإسلامية جنباً إلى جنب التقوى والورع، ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

٧ - الجهاد هو أحد تجليات التقوى الإلهية، ﴿فَتَتَلَوُا... أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

٨ - التقوى عنصر أساس ومهمّ للمقاتلين في الجبهات ذلك أنهم في الحرب قد يقعون تحت طائلة الأهواء والشهوات والأحقاد، ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

التعاليم:

١ - إبداء السخرية واتخاذ المواقف السلبية حين نزول الوحي القرآني كلها علائم النفاق، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ... يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ...﴾.

٢ - المنافقون من خلال أسئلتهم المغرضة، يحاولون نقل معنوياتهم السلبية إلى الآخرين، ﴿يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا...﴾.

٣ - للإيمان مراتب، ومراحل من الزيادة والنقصان، كما إنّ النفاق ينبسط ويتمدد، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

٤ - القرآن وسيلة فضلى لتمييز المؤمن من المنافق، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

- ٥ - الشعور بالسرور والنشاط النفسي جراء الاستماع إلى آيات القرآن الكريم، علامة على الكمال ورقى الإيمان، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.
- ٦ - القرآن الكريم عامل بشرى لأهل الإيمان، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

إشارات:

□ من المعلوم، أنه كلما زاد هطول المطر على الميتة المرمية في بركة، فاحت رائحة التّن من البركة أكثر فأكثر، وهذه الرائحة الكريهة ليست بسبب المطر، بل بسبب الميتة نفسها. كذلك هو الحال مع روح اللجاج والتكبر عند الإنسان، فكلما نزلت شآبيب الوحي الإلهي، زاد مرضى القلوب والمتكبرون لجاجاً وتعصباً وعناداً.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي «شكاً إلى شكهم»^(١).

التعاليم:

- ١ - الأمراض النفسية كالأمراض الجسمية، إذا لم نبادر إلى معالجتها، فسوف تستفحل حتى تقضي على الإنسان، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.
- ٢ - الكفر والجحود والتعمية على الحق هي أمراض خطيرة تصيب روح الإنسان وفـ____ـزاده، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.
- ٣ - عاقبة المنافق وخيمة، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - امتحان الإنسان من السنن الإلهية الثابتة على مرّ العصور والأزمان، ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾.
 - ٢ - الحكمة من الحوادث والامتحانات الإلهية هي التوبة واليقظة، ﴿لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾.
 - ٣ - قسوة القلب وسوء العاقبة هما مآل المنافق، ﴿لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾.
- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا
حَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

إشارات:

- المنافقون لا يتأثرون بأيّ من التحذيرات التي يطلقها القرآن الكريم، فهم كالمصباح المعطوب لا يضيء مهما أوصلناه بالطاقة الكهربائية.

التعاليم:

- ١ - المنافق يخشى افتضاح سريره الخبيثة واضطراب أمره، ولهذا تجده يسعى إلى الإخفاء والتستر، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾.
- ٢ - المنافقون ينفرون من نزول الآيات الإلهية، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.
- ٣ - المنافقون ينفرون من مجالس القرآن الكريم، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ... انصَرَفُوا﴾، الابتعاد عن القرآن علامة النفاق والروح العلية.
- ٤ - نزول العذاب الإلهي سببه نفور روح الإنسان من الهداية، ﴿انصَرَفُوا حَرَفَ اللَّهُ﴾.
- ٥ - سبب إغراضهم عن القرآن الكريم، افتقادهم الإدراك والفهم الصحيح، ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

إشارات:

- لم يخاطب الله تبارك وتعالى أحداً من عباده بهاتين الصفتين سوى نبيه الكريم ﷺ. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
- إذا ما تأملنا قليلاً صفات القادة الإلهيين التي استعرضتها هذه الآية وقارناها بصفات القادة البشريين، سنقف على مدى اللطف الذي أحاط به الله تبارك وتعالى عباده ووجوب طاعتهم أولئك القادة.

التعاليم:

- ١ - رسول الله ﷺ اختير من بين الناس، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.
- ٢ - رسول الله ﷺ حامل همّ أمته، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.
- ٣ - على القادة المسلمين أن يشاركوا الناس أفراحهم وأتراحهم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.
- ٤ - النبي الكريم ﷺ لا يدخر جهداً لهداية الناس وإرشادهم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٥ - من عوامل تأثير الكلام في نفوس الآخرين أن يكون المرء ممتن ينشد الخير لهم، ويحرص على تحقيق مصالحهم، ويعطف عليهم، ولا ينتظر منهم جزاء ولا شكوراً، وكذلك أن يتواضع لهم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ... حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ... رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.
- ٦ - القائد المسلم رؤوف ورحيم بالمؤمنين فقط، وبالعَدُو غليظ شديد، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

إشارات:

□ تحدثت الآية السابقة عن رحمة النبي الكريم ﷺ ورأفته بالمؤمنين، وهنا تستدرك هذه الآية بالآية يعتقد هؤلاء أن رافة النبي ورحمته بهم هو لحاجته إليهم، فلئن أعرض جميعهم عنه ﷺ، فإن الله تعالى معه ولن يتركه. وكذلك، لو أن جميع الناس أداروا ظهورهم للشمس فلن يضرّوا الشمس شيئاً.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: «هو المُلْكُ العظيم»^(١).

□ الله تبارك وتعالى الذي حفظ بتدبيره نظام الكون العظيم، قادر على أن يحفظ الإنسان الصغير بلطفه.

□ يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة مخاطباً ربه:

«مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟»

التعاليم:

١ - إعراض الناس عن الدين يجب أن لا يؤثر على إيماننا ومعنوياتنا، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ﴾.

٢ - من كان الله معه، فماذا ينقصه ﴿حَسِبَ اللَّهُ﴾؟

٣ - التوكل على الله سرّ الانتصار على المشاكل، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»



سُورَةُ يُوسُفَ

السورة: ١٠ الجزء: ١١

عدد الآيات: ١٠٩



ملاحح سورة يونس

هي السورة العاشرة في ترتيب سور القرآن الكريم، وهي مكّية ونزلت في أوائل البعثة الشريفة، آياتها تسع ومئة، ومحاور موضوعاتها تدور حول التوحيد وحقّية القرآن الكريم والردّ على منكري الوحي، وإنذار المشركين وإخافتهم، وبيان عظمة الخلق والخالق، والتنبيه إلى أنّ الدنيا فانية وضرورة التركيز على الآخرة.

تطرّقت السورة السابقة (التوبة) إلى سلوك المنافقين وعذابهم، وترسم هذه السورة بعض ملاحح سلوك المشركين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «و﴿الرَّ﴾ معناه: أنا الله الرؤوف»^(١).

ورواية أخرى تقول: هذه الحروف هي متشابهات القرآن^(٢).

التعاليم:

- ١ - القرآن الكريم ذو رفعة وعظمة يفصح عنها اسم الإشارة للبعيد، ﴿تِلْكَ﴾.
- ٢ - القرآن الكريم كتاب حكيم، فهو الحَكَم، ويحوي تعاليم حكيمة، وكذلك ذو مضمون محكم؛ (لم يتمكن التاريخ ومضي الزمان ولا الأعداء أن يحدثوا فيه ثغرة أو خللاً)، ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾

إشارات:

□ ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ تحمل أوجهاً ومعاني هي:

- ١ - حُسن السابقة، كما يقال لأحدهم: «له قدمٌ في الحرب، وقدم في الإسلام»، أي له قصب السبق في الجهاد وفي الإسلام.
- ٢ - صدق المنزلة وسموها.
- ٣ - بمعنى القائد والمرشد الصادق. لقد وردت روايات من طرق الفريقين

تفسّر قدم الصدق بأنّه النبي الكريم ﷺ وولاية علي عليه السلام^(١).

٤ - الشفاعة، وفي رواية أنّ معنى قدم صدق شفاعة محمد ﷺ^(٢).

□ لم يقدّم الكافرون أيّ برهان منطقي على سبب رفضهم دعوة النبي الكريم ﷺ، بل إنهم كانوا يعتبرونها أمراً مستبعداً؛ لذلك كانوا يكفرون بها. وحتى الأصول العقدية كانوا ينكرونها بإبداء التعجّب فقط، مثلاً:

- في التوحيد كانوا يقولون: ﴿أَجْمَلُ الْآلِمَةِ إِلَٰهًا وَحِدًا﴾^(٣).

- في النبوة: ﴿أَهْلَدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٤).

- في المعاد: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٥).

- في الإمامة: ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا... وَلَمْ يَوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾^(٦).

التعاليم:

١ - جذور الكفر تعود، في العادة، إلى استبعاد نزول الوحي والتعجّب منه، ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾.

٢ - الجدارة المعنوية للإنسان لا تظهر عليه عياناً، فإذا ما حظي أحدهم بلطف خاص من لدن الله تعالى فلتتقبّل ذلك ولا نستبعده، ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

٣ - الأنبياء مطلعون على آلام الناس وهمومهم، فهم قدوات، ﴿وَمِنْهُمْ﴾.

٤ - مسؤولية الأنبياء تقديم البشائر والنذُر، ﴿أَنْذِرْ... وَنَذِيرٌ﴾.

٥ - ليس كلّ ما لا تبلغه أفهامنا ننكره، فالإنكار والافتراء من أساليب الكفار، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا لَسَجْرٌ يُّٰيُنُ﴾.

٦ - الإيمان تمهيد لأن يكون للإنسان قدم صدق ومنزلة خاصّة عند ربه، ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤١.

(٥) سورة يس: الآية ٧٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(١) تفسير القرطبي؛ تفسير البرهان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة ص: الآية ٥.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِئِنَّهُ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

إشارات:

□ ستة أيام هنا تعني ست مراحل في الخلق، وربما كان المقصود فترة تعادل ستة أيام.

□ «العرش»، بمعنى مركز التدبير، وهو كناية عن السلطة والاقتدار، كما نقول: فلان ترتع على العرش، أو أزيح عن العرش، فنعني بذلك استلام السلطة أو فقدانها. فسلطة الله تبارك وتعالى كانت قبل أن تُخلق السموات والأرض في حيز الوجود، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١)، وكذلك بعد خلقتها وبعد نهاية الكون، وستبقى سلطة الله تعالى على جميع الكون حتى يوم القيامة، ﴿وَيَجِلُّ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مُّنِينٌ﴾^(٢).

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّهُ إِنَّمَا سَمِّيتُ كَعْبَةً لِأَنَّهَا مَرْبِعَةٌ، وَصَارَتْ مَرْبِعَةً لِأَنَّهَا بِحِذَاءِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَهُوَ مَرْبَعٌ، وَصَارَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ مَرْبِعاً لِأَنَّهُ بِحِذَاءِ الْعَرْشِ وَهُوَ مَرْبَعٌ، وَصَارَ الْعَرْشُ مَرْبِعاً لِأَنَّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي بَنِيَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ أَرْبَعٌ، وَهِيَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٣).

التعاليم:

١ - خلق الكون تم بدقة وعلى مراحل، ﴿وَسِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ (إذا كان الكون محكوماً بنظام وتدبير دقيق، فهل يعقل أن يكون خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات بدون نظام)؟!!

٢ - معرفة الله أولاً، ومن ثم عبادته سبحانه، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي... فَاعْبُدُوهُ﴾.

٣ - للكون قانون وهو يسير نحو غايته. تدبير الأمور يقتضي الإحاطة بالعاقبة

(١) سورة هود: الآية ٧.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٧.

(٣) علل الشرايع، ص ٣٩٨.

وامتلاك هدف وقانون، ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾.

٤ - العبادة تليق بمن امتلك أمر الخلقة والتدبير، وليس بغيره، ﴿خَلَقَ... يُدِيرُ... ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾.

٥ - الله خالق الكون ﴿خَلَقَ﴾ يمسك به، ﴿أَسْتَوَى﴾ ويدبر شؤونه بحكمة، ﴿يُدِيرُ﴾ ولا مجال لأحد دون إذنه، ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ﴾، لذا، فإن تأمل هذه الحقائق يخلق في الإنسان روح العبودية والخضوع لله تعالى، ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾.

٦ - شفاعة أي مخلوق يجب أن تكون بإذن الله تعالى، فلا نجعل الأصنام شفعائنا، ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

٧ - لا انفصام للألوهية عن الربوبية. فالطواغيت يسعون إلى اعتبار الله هو الخالق، وهم الساسة والمدبرون لشؤون الخلق، وبذلك يفصلون بين الدين والدولة، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

٨ - الإنسان يؤمن بخالقه؛ لكنه يحتاج فقط إلى تذكير، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يَكْفُرُونَ﴾

إشارات:

□ تحدثت هذه الآية عن مسألة المعاد ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وعن إمكانه أيضاً ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وغايته، الثواب أو العذاب، ﴿لِيَجْزِيَ﴾.

□ لعل المراد بـ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ هو أن الله تعالى يثيب أهل الإيمان لقسطهم وعدلهم^(١). بطبيعة الحال، إن الفضل الإلهي لا يتنافى مع القسط، إذ توجد إشارات في آيات أخرى إلى الثواب الإلهي المضاعف، من جملتها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ ذُنُوبُهُمْ أَوْفَتْهُمْ أَجْرُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢)، و﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

(١) تفسير مجمع البيان والتفسير الكبير للفخر الرازي.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٦.

(٣) سورة فاطر، الآية ٣٠.

التعاليم:

١ - مآبنا إلى الله تبارك وتعالى، فلا يحسن أن نفكر عبثاً في إرضاء هذا وذاك، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٢ - كل البشر سوف يُبعثون بعد الموت، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

٣ - المعاد هو مادّي وجسماني، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ (الإعادة تعني عودة الشيء نفسه كما كان).

٤ - قدرة الله تعالى على الخلق دليل على قدرته على البعث والنشور، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٥ - ليس الإنسان فقط، بل جميع الخلائق سوف تُبعث، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٦ - كما إنّ الله تبارك وتعالى خلق الكون بأكمله من أجل البشر، فإنّه تعالى سيعيد الخلق كلّ من أجل إثابة البشر، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ...﴾.

٧ - لا يزال الخلق مستمراً، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾.

٨ - الهدف الأصلي للمعاد هو إثابة المؤمنين، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ومعاقبة الكافرين، وفقاً لميزان العدل الإلهي.

٩ - الثواب الإلهي يكون على أساس القسط والعدل. (ولا يتنافى ذلك مع الاستزادة من فضله)، ﴿لِيَجْزِيَ... بِالْقِسْطِ﴾.

١٠ - فضل الأعمال الخيرة رهن بالنوايا والأهداف الخيرة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

١١ - مواصلة الكفر والإصرار عليه، يوجبان العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ دأب القرآن الكريم على وصف الشمس بكلمات من قبيل «سراج» و«ضياء»،

والذي يقصد منه النور القوي الشديد، في حين وردت كلمة «نور» و«منير» للتعبير عن ضوء القمر وذلك للدلالة على ضعفه.

بيد أننا إذا اعتبرنا «ضياء» جمع «ضوء» فربما تكون العبارة إشارة إلى أن الشمس ذات أنوار مختلفة^(١).

□ قد يراد بـ «تفصيل الآيات» التوسع في الخلق، بمعنى أن قدرة الله مطلقة في خلق الوجود، والتوسع في الخلق واضح لذوي الأفهام^(٢).

□ كما وضع الله الحكيم نجوماً وكواكب في السماء كعلامات يستدل بها الإنسان في حساب السنين، فإنه سبحانه وضع في الأرض رسلاً وهداة يستهدي بهم البشر ويسترشدون، وبديهي، أن هؤلاء الهداة أهم للإنسان من حساب السنين^(٣).

التعاليم:

١ - لا شك في أن حركة الكواكب السماوية في مدار ثابت، تلبي متطلبات الإنسان، ﴿لِتَعْلَمُوا﴾.

٢ - النظم والترتيب الموجود في حركة القمر جعل منه تقويمياً طبيعياً عاماً ودائماً، ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾؛ (التغيرات التي تطرأ على شكل القمر، هي بمثابة تقويم للأيام).

٣ - معيار الحساب في المسائل الشرعية هو الشهر والسنة القمرية، ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ...﴾.

٤ - الأعداد، والإحصاء، والحساب...، كل ذلك يلعب أدواراً مهمة في حياة الإنسان، ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾.

٥ - لم يخلق الكون عبثاً، بل هو قائم على الحق، ﴿بِالْحَقِّ﴾.

(١) تفسير راهنما، (التفسير المرشد).

(٢) تفسير روح المعاني.

(٣) الميزان في تفسير القرآن.

- ٦ - من أساليب التربية والتعليم تفصيل الأمور لا الإجمال، ﴿يُقَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.
 ٧ - الإحاطة بأسرار الخلق، تتطلب التدبّر والتعلّم، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْتَقُونَ﴾

إشارات:

□ استعرضت الآية السابقة الآيات الإلهية وفصلتها للعالمين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وهذه الآية تفصلها للمتقين ﴿لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾، والنتيجة هي أنّ الفائزين هم الذين يعلمون وفي الوقت ذاته يتقون الله تعالى، وإلا، فالمعتقون الغافلون أو العالمون غير المتقين لا يستفيدون من آيات الله كما ينبغي.

□ كلمة «إختلاف» تأتي بمعنى مجيء كل واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما، وكذلك بمعنى التباين والمخالفة.

□ الليل والنهار يختلفان من أوجه عدّة هي:

(أ) استخلافهما وتعاقبهما^(١).

(ب) الليل سكن، والنهار لكسب المعاش^(٢).

(ج) زيادة ونقصان ساعاتهما طيلة فصول السنة.

(د) اختلاف ساعات كلّ منهما في مناطق العالم.

□ سؤال: لماذا ينكر بعض العلماء وجود الله تعالى؟

الجواب هو: لأنّ العلم وحده غير كافٍ لمعرفة الله تعالى، بل يجب أن تنطلق الرؤى ممّن لهم أهداف ودوافع محدّدة ومن أناس يسعون في طلب الحقّ والحقيقة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾.

(١) ﴿مَوْجَاتٌ لَّيْلٍ وَنَهَارٍ مُّبْتَعَرَةً﴾ سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٢) ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَجَعَلَ النَّهَارَ عَمَلًا﴾ سورة النبا: الآية ١٠.

التعاليم:

- ١ - الكون كله يشهد تغييراً، ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ...﴾.
- ٢ - لا يجدر بنا أن نمرّ بالظواهر الطبيعية غافلين، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ... لَا يَبْتَ﴾.
- ٣ - التلوث بالمعاصي يترك أثراً سيئاً على معرفة الإنسان وتحليله، ﴿لَا يَبْتَ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾؛ (التقوى سبيل المعرفة الصحيحة في الوجود).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِلَيْنَا غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إشارات:

□ روي عن النبي المصطفى ﷺ قوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١). وفي آخر آية من سورة الكهف نقراً ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

التعاليم:

- ١ - الأمل والياس لهما أبلغ الأثر في إصلاح الإنسان أو إفساده، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾.
- ٢ - كلما زادت غفلة الإنسان ويأسه من يوم القيامة، زاد تشبّهه بالدنيا. إذن، ينبغي على المؤمنين بيوم القيامة ألا يكونوا طلاب دنيا، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٣ - الطمأنينة الحقيقية تتحقق بذكر الله فقط، والدنيا مسكن كاذب للغافلين، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا... غَافِلُونَ﴾.
- ٤ - العوامل التي تدفع بالإنسان إلى جهنم هي:
(أ) التنكّر للمعاد والثواب الأخروي، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾.

- ب) الركون إلى الدنيا الفانية، ﴿وَرَوْضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
 ج) الغفلة عن آيات الله تبارك وتعالى، ﴿هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.
 د) العمل القبيح، ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
 هـ - جهنم عاقبة عمل الإنسان، ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ
 فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

إشارات:

- جاء في الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُورَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة»^(١).
 □ هداية الله هي عملية مستمرة، ففي كل لحظة يزيد سبحانه وتعالى من هداية المؤمنين، ويحفظهم من السقوط في الهاوي، كما يفتح انسدادات الدنيا أمامهم ﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٢)، وينير الدرب أمامهم ﴿ثَوْرًا يَمْشِي بِرُءُوسِهِ﴾^(٣)، ويحلّ لهم عقد المكاره، ﴿وَأَمْلَحَ بِاللَّيْلِ﴾^(٤)، ويكفيهم في كلّ المواقف ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٥)، وفي يوم القيامة يهديهم إلى جنات النعيم، ﴿يَسْعَى ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٦).

كلّ هذه الهدايا تُستلهم من المفهوم العام لكلمة ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، فنظراً إلى أنّه لم يتمّ تحديدها فقد أخذت معنى عاماً.

التعاليم:

- ١ - لا ينفكّ الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.
 (٢) سورة الطلاق: الآية ٢.
 (٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
 (٤) سورة محمد: الآية ٢.
 (٥) سورة الطلاق: الآية ٣.
 (٦) سورة الحديد: الآية ١٢.

٢ - نعم، المؤمن مهدي، لكنه مع ذلك لا يستغني عن الهداية الإلهية أبداً^(١)، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

٣ - علينا نحن أن نخلق مستلزمات الهداية، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ﴾.

٤ - إذا كانت ثمة مقارنة بين الإيمان والعمل، فالإيمان هو الأصل. يقول ﷺ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ﴾ ولم يقل: «بإيمانهم وعملهم».

٥ - هداية الله تعالى المؤمنين مطلقة وشاملة. فكلمة ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ في صيغة المطلق.

٦ - ربوبية الله تعالى هي التي تجعله دائماً يأخذ بيد المؤمنين، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

٧ - الأنهار في الجنة لا تجري فقط من تحت الأشجار، بل ومن تحت القصور أيضاً، ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَفِيعِنَهُمْ فِيهَا سَلَّمَ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْمَلَائِكِ﴾

إشارات:

□ تحية «سلام» حديث أهل الجنة، إذ يمتلئ فضاء الجنة بالسلام، فالله تعالى يحيي المؤمنين بتحية السلام ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾^(٢)، والملائكة تحيهم بالسلام ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾^(٣)، وأهل الجنة يحيي بعضهم بعضاً بإفشاء السلام^(٤)، ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَّمًا سَلَّمًا﴾^(٥).

□ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، هو كلام الأنبياء والأولياء، فالنبي نوح ﷺ بعد أن نجاه الله من القوم الظالمين قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٦)، والنبي إبراهيم ﷺ كذلك حمد الله تعالى وأثنى عليه عندما وهبه الله تعالى على الكبر إسماعيل وإسحاق^(٧)،

(١) حتى رسول الله ﷺ والأئمة المعصومون ﷺ كانوا يقولون: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨. (٣) سورة الزمر: الآية ٧٣.

(٤) تفسير المراغي. (٥) سورة الواقعة: الآية ٢٦.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٢٨. (٧) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو كلام المؤمنين^(١) وأهل الجنة.

□ ورد عن النبي الكريم ﷺ في حديث طويل عن حال أهل الجنة: «إنما دعواه إذا أراد أن يقول: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ فإذا قالها تبادرت إليه الخدام بما انتهى من غير أن يكون طلبه منهم أو أمر به، وذلك قول الله ﷻ: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَفِيَّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾»^(٢).

□ وفي الحديث أيضاً: «أُخبرت أن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطائر يشتهونه قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ وذلك دعاؤهم به فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فإذا جاء الملك به يسلم عليهم فيردون عليه وذلك قوله تعالى: ﴿وَفِيَّئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَدَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»^(٣).

التعاليم:

١ - ذكر الله تبارك وتعالى لا يقتصر على هذه الدنيا، بل هو مستمرّ حتى في الدار الآخرة، ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾.

٢ - يصل الإنسان إلى منزلة راقية حتى تصبح دعواته ورغباته حمداً وتسبيحاً لله تعالى.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ﴾، وهذا التسبيح والثناء هو فوز لهم بأصناف الكرامات.

٣ - المؤمنون ينعثون الله بنعوت الجلالة ويمجدونه بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، ويحيون بعضهم بعضاً بالقول: ﴿سَلَامٌ﴾، أما حين يفوزون بنعم الله تعالى فيحمدون الله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤ - المؤمن يعشق الله تعالى، ولا يصرفه عن ذكر معشوقه شيء بما فيها الجنة ونعيمها، فهو يرى قدرة الله ولطفه في كل شيء، ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ... الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

(٣) تفسير روح المعاني.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(١) تفسير نور الثقلين.

٥ - يستهلّ المؤمنون كلامهم بالتسبيح ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، ويختمونه بالتحميد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ (يستفاد من عبارة ﴿وَمَا يُخِرُّ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أن أول كلامهم هو التسبيح ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾).

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

إشارات:

□ نظير مفهوم هذه الآية ورد في سورة الكهف الآية ٥٨ وسورة فاطر الآية ٤٥، وهو إذا ما عجل الله تعالى العقوبة للمسيئين فسيفنون جميعاً. عدا ذلك، فإن الاختيار الذي هو شرط التكليف، سينتهي، وستصبح الطاعة إكراهاً واضطراً.

□ ربما كان معنى ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ هو أن سعة الله هي الاستعجال في إيصال الخير، والإمهال في إنزال العذاب، فيصبح مفهوم الآية أن الله تعالى يستعجل إيصال الخير.

التعاليم:

- ١ - جُبل الإنسان على العجلة، ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾^(١).
- ٢ - لو عجل الله العذاب للمسيئين في هذه الدنيا لما بقي أحد منهم على وجه الأرض ولانقرضت البشرية، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ... لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾.
- ٣ - إحدى السنن الإلهية هي «الاستدراج» في العذاب وإمهال الظالمين، ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ...﴾.
- ٤ - عدم هلاك الكفار، ليس دليلاً على حقّيتهم، ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾.
- ٥ - أولئك الذين انقطعوا عن الله تعالى وانشغلوا بأنفسهم، ليس لهم هدف، وهم حيارى، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

(١) وجاء في آية أخرى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

٦ - الإنكار وعدم الاكتراث بيوم القيامة، مدعاة لأن يطغى الإنسان، ويكلمه الله إلى نفسه ويحرمه أطفاه، ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانًا لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ في مرّات عدّة يوبّخ الله تعالى الإنسان على جحوده مبيناً أنّه كلما اضطرّته الشدائد التجأ إلى الله ودعاه أن يفرّج عنه كربته، لكنّه بعد أن تُحلّ مشكلته، ينصرف عن الله وينساه كأن لم يدعه من قبل.

التعاليم:

- ١ - الإيمان بالله تعالى يسكن في أعماق الضمير والفطرة الإنسانية، وكلّما عصفت به الحوادث أيقظته من سباته، ﴿مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾.
- ٢ - أولئك الذين يذكرون الله في المناسبات فقط هم موضع انتقاد وتوبيخ، ولا قيمة لعملهم، ﴿مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾.
- ٣ - الدعاء جائز في كلّ الأحوال، سواء أكان المرء قائماً أم قاعداً أم مستلقياً، ﴿لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.
- ٤ - الدعاء الخالص مدعاة لرفع الكرب، ﴿دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾.
- ٥ - الترف والرفاهية تمهّد للغفلة، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانًا لَمْ يَدْعُنَا﴾.
- ٦ - الإنسان جاحد، ﴿مَرَّ كَانًا لَمْ يَدْعُنَا﴾.
- ٧ - أولئك الذين نسوا الله تعالى، زُيِّنَ لهم الحياة الماديّة، ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.
- ٨ - نسيان لطف الله تعالى، هو نوع من الإسراف، ﴿مَرَّ... لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

٩ - من نسي الدعاء في السراء وتذكره في الضراء فهو مسرف، ﴿مَسَّ الْإِنْسَانَ الْفُسْرُ دَعَا... فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ... مَرَّ... زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

١٠ - المترفون مغرورون، ﴿زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ «قرون» جمع «قرن»، تقال للقوم أو الجماعة الذين يعيشون في عصر واحد.

التعاليم:

١ - الظلم مقدمة لانحدار الشعوب، ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ... لَمَّا ظَلَمُوا﴾.

٢ - العذاب الإلهي ينزل بعد إتمام الحجة، ﴿أَهْلَكْنَا... وَمَا تَنْتُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٣ - الهلاك للظالمين الذين لا أمل في إيمانهم أو إصلاحهم، ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

٤ - مضافاً إلى التاريخ، يجب شرح فلسفة التاريخ لتكون عبرة ودرساً للآخرين^(١)، ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ... كَذَلِكَ نَجْزِي﴾.

٥ - السنن الإلهية دائمة، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

التعاليم:

١ - الحكم والمُكنة، وسيلة الاختبار الإلهي، ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ... لِنَنْظُرَ﴾.

٢ - المدير الذي ينيط بالآخرين المسؤولية، ينبغي عليه مراقبتهم أيضاً، ﴿جَعَلْنَاكُمْ... لِنَنْظُرَ﴾.

(١) هلاك الأمم السالفة، هو تاريخ، وأسرار هلاكهم والذي هو الظلم والمعاصي، فهو فلسفة التاريخ.

٣ - الله تعالى ينظر إلى أعمالنا، ﴿لِنَنْظُرَ﴾.

٤ - كل الأمم سواسية عند الله تعالى، وقانون الامتحان الإلهي يسري على الجميع، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

٥ - مصائر الناس ترسمها أعمالهم، ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتِي بِشِرَاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥)

إشارات:

□ قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات نزلت في نفر عدة من عبدة الأوثان، ذلك أنهم أتوا إلى النبي الكريم ﷺ وقالوا له: إن ما ورد في هذا القرآن من الأمر بترك عبادة أصنامنا الكبيرة، وذم الآلهة مما لا يمكن أن نتحملة، فإذا أردت أن نتبعك فأت بقرآن آخر لا يوجد فيه هذا الذم والتوبيخ لآلهتنا أو غير على الأقل هذه الأمور التي وردت في هذا القرآن فنزلت هذه الآيات. طبعاً هذا هو مطلب الذين كانوا يجدون في التعاليم السماوية تعارضاً مع أهوائهم النفسية.

التعاليم:

- ١ - يجب توضيح الآيات ودلائل المعرفة الإلهية للناس، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ...﴾.
- ٢ - ليس بمقدور أحد، حتى النبي الكريم ﷺ، تغيير الشريعة الإلهية، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾.
- ٣ - لا تدعونا لتبريرات الناس وأهوائهم مطلقاً. الأصل هو ما يقوله الله تعالى لا ما يريده الناس، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾.
- ٤ - ليس لبشر، بما في ذلك النبي الكريم ﷺ، أن يبدل القرآن الكريم، ﴿مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي﴾.

٥ - لا قيمة لاكتساب الأتباع إذا كان الثمن هو تبديل أو تحريف الدين والتخلي عن المبادئ. (لاحظ سبب نزول الآية).

٦ - الأنبياء معصومون، وهم لا يتبعون سوى الوحي، ﴿إِنْ أَنِجْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾.

٧ - ذكر المعاد، عامل تقوى وتحصين ضد المعصية، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كما إن الغفلة عن المعاد مدعاة للتحجج والتبرير، ﴿لَا يَرْجِعُونَ لِقَاءَنَا﴾.

٨ - الإيمان واليقين بالمعاد هما ينبوع عصمة الأنبياء، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

إشارات:

□ خطاب الآية موجه إلى الذين يطالبون رسول الله ﷺ بأن يبدل القرآن الكريم فيقول: لقد عاش النبي أربعين سنة بين ظهرايكم، فلو كان القرآن من بنات أفكاره، لعرض صوراً مختلفة عن أفكاره خلال هذه الفترة.

التعاليم:

- ١ - رسول الله ﷺ لا يفعل شيئاً دون إذن الله وإرادته، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ﴾.
- ٢ - القرآن معجزة إلهية، لا نتاج الفكر البشري، ﴿مَا تَلَوْتُهُ... وَلَا أَدْرَيْتُكُمْ بِهِ﴾.
- ٣ - سابقة النبي الكريم ﷺ في النزاهة، والطهر، والأمية، كلها أدلة قاطعة على حقيقته، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُقْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

إشارات:

□ تستمر الآية الكريمة في الرد على من طالبوا النبي الأكرم ﷺ بتبديل القرآن،

وهو مطلب عُدّ بمثابة افتراء على الله تعالى. وقد ورد شبيه هذا المضمون في آيات أخرى من القرآن الكريم مثل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - أكبر الظلم هو الظلم الفكري والعقدي وتحريف الآيات، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾.
- ٢ - كلما كانت الشخصية أعظم، كان الافتراء عليها أشد وأخطر، ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾.
- ٣ - الذي يفترى على الدين ويكذب به، بمنزلة الكافر، ﴿افْتَرَىٰ... كَذَبَ﴾.
- ٤ - البدعة جرم، ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾.
- ٥ - إذا طرح الداعية أفكاره الخاصة باسم الدين كان جديراً بالفاظ مثل «أظلم»، «لا يفلح» و«مجرم».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبَعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١٨)

إشارات:

- اتَّخَذَ صاحب تفسير المراغي من هذه الآية دليلاً لدحض مسألة التوسل بالأولياء وزيارة القبور، في حين أنه: أولاً، استعملت الآية كلمة «يعبدون» ونحن عند الزيارة والتوسل لا نعبد أحداً إلا الله، ثانياً، إننا نؤمن بحياة البرزخ، والقرآن يقول عن الشهداء: إنهم أحياء، من هنا، فإننا نتوسل بالأولياء، الذين استشهدوا في سبيل الله، أن يدعوا لنا، ولا جرم أن مقارنة الشهداء بالحجر والخشب فيه الكثير من التجني.
- عبادة الأصنام تكون إما بدافع الخوف أو الأمل بإيصال منفعة، وهي لا تضر

لكي تُعبد دفعاً لضررها، ولا تنفع، لتُعبد أملاً في نفعها. لذا، فلا عذر منطقي في عبادة الأصنام، ﴿لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - عبدة الأصنام لا يحتكمون إلى منطق، وعبادة الأصنام عملٌ خالٍ من أي منطق، ﴿وَيَعْبُدُونَ... مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.
- ٢ - كان عبدة الأصنام يؤمنون بالله، ويتخذون الأصنام شفعاء لهم، لذلك كانوا يعبدونها، ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ حين هبط آدم وحواء إلى الأرض، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِّرْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَى جِينٍ﴾^(١)؛ لذا فإن مكوث الإنسان على الأرض، ومنذ اليوم الأول لهبوطه، كان بمثابة مهلة مؤقتة له، من هنا، ربّما كانت العبارة ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ في هذه الآية، إشارة إلى ما قَدَّر للإنسان وخطط له.

التعاليم:

- ١ - كان البشر منذ البداية أمة واحدة وموحدة منسجمة الفكر والعقيدة، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.
- ٢ - منذ البداية، عاش الإنسان حياة اجتماعية، ﴿أُمَّةً﴾.
- ٣ - الإمهال هو من شؤون الربوبية الإلهية، ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٤ - قضت السنة الإلهية إمهال الإنسان من أجل أن يختار ويعمل بما يختار، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ... لَفُتِي﴾.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - بعض الناس يغضون النظر عن القرآن الكريم وعن مئات الآيات فيه، ويطلبون بآية أخرى، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ﴾.
- ٢ - المعجزة تحدث بإرادة الله تعالى وإذنه، فأمرها ليس بيد النبي الكريم ﷺ، ولا هي تتبع أهواء الناس ونزواتهم، ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾.
- ٣ - الإمهال، سنة الله تعالى وشريعته، ﴿فَانْتَظِرُوا...﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَا كَانُوا عَلَىٰ مَكْرُوفٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى احتجاجاتهم: لماذا لا يُنزل الله تعالى على نبيه آية. وهنا تتطرق إلى لجاجهم وعنادهم، إذ إنهم لجأوا إلى الحيلة والخداع حتى بعد نزول الآية.

□ قيل: فحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون، ثم لما رحمهم الله بالمطر ببركة وجود رسول الله ﷺ بينهم إذا هم (المشركون) يقدحون في آيات الله قائلين: إن نزول المطر كان ببركة الأصنام، فنزلت هذه الآية لتفضح كيدهم ومكرهم^(١).

□ ذكرت معظم التفاسير أن من سلوكيات الكفار الإساءة إلى شخصية النبي الكريم ﷺ والاستهزاء بآيات الله تعالى.

(١) التفاسير: الصافي؛ في ظلال القرآن؛ والكبير، الفخر الرازي.

التعاليم:

- ١ - النعم التي يتمتع الإنسان بها تعدّ جانباً من الرحمة الإلهية اللامتناهية، ﴿أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾.
- ٢ - سيء بعض الناس استغلال النعم الإلهية، فتراهم يمكرون بدل أن يشكروا، ﴿أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً... إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ﴾.
- ٣ - من يمكر سيتعرّض لمكر الله وتدبيره القاهر، ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ... اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.
- ٤ - العذاب الإلهي يتناسب وطبيعة المعصية، ﴿لَهُمْ مَكْرٌ... اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِم بِرِيحٍ طَبَقَهُمْ قَبْلَهُمْ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَجْمَعِينَ مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

إشارات:

□ يقول الآلوسي والمراغي في تفسيريهما: إنّ الشيعة يتوسّلون بأنتمهم في الشدائد، بينما كان المشركون يلوذون بالله عند الكربات!! وقد تناسى هذان المفسران أنّه شتان بين التوسّل بإمام معصوم شهيد حي - بتصريح القرآن الكريم - وبين التوسّل بصنم.

التعاليم:

- ١ - نواميس الطبيعة موضوعة من قبل الله تعالى وتسير بإرادته، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ﴾.
- ٢ - أعمال الإنسان تُنسب إلى الله أيضاً، لأنها نابعة من قدرته سبحانه وإرادته. فعلى الرغم من أنّ السير هو فعل الإنسان ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، إلّا أنّه ﴿يَقُولُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ﴾.
- ٣ - مهما بلغ الإنسان من تطوّر علمي، فمع ذلك، لن يكون بئامن من الكوارث

الطبيعية، ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

٤ - لا يظن المترفون أن ترفهم هذا دائم، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا... أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

٥ - الكوارث الطبيعية تكسر غرور الإنسان وكبرياءه، وتذله أمام عظمة الله تعالى وقدرته، ﴿دَعُوا اللَّهَ﴾.

٦ - عندما يدلهم الخطر، يستغيث الإنسان بالمنجي الأصلي، ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾.

٧ - لا بد للإيمان والإخلاص أن يكونا دائمين لا مؤقتين عند الشعور بالخطر فقط، ﴿أُحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾.

٨ - عندما تقصر يد الإنسان عن كل شيء يتعهد بألف ميثاق، وما أن يزول الخطر حتى يضرب عرض الحائط كل تعهده، ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا﴾.

٩ - الجحود وكفران النعم من جملة العوامل التي تهين لنزول العذاب والشدائد، ﴿لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ «البغي» طلب تجاوز الاقتصاد في ما يتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بغيت الشيء، إذا طلبت أكثر مما يجب، وابتغيت كذلك^(١).

التعاليم:

١ - الكافر لا وفاء له ولا ذمة، وهو جاحد وناكر للجميل، ﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ... يَبْغُونَ﴾؛ (في الآية السابقة تعهد إذا أنجاه الله ليكونن من الشاكرين، وبعد أن نجاه جحد).

(١) مفردات الراغب، مادة «بغى».

٢ - ظلم الناس، هو ظلم للنفس، لأن بعضنا من بعض^(١)، ﴿بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

٣ - جزاء الظلم والبغي ينزل في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، ﴿وَعَلَى أَنْفُسِكُمْ... إِيَّانَا مَرَجِّمُكُمْ﴾.

٤ - الظالمون يتمتعون لأيام قلائل في هذه الدنيا، وهذا لا يساوي شيئاً في مقابل عذاب الآخرة، ﴿مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾.

٥ - أساس الظلم يكمن في تعلق الإنسان بالدنيا، ﴿مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾.

٦ - ذكر القيامة أحد عوامل الاحتراز من ارتكاب المعاصي، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ... إِيَّانَا مَرَجِّمُكُمْ﴾.

٧ - الله عليم بجميع أعمال الإنسان، وسيطلع الإنسان أيضاً في يوم القيامة على جميع أعماله، ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰهَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهَا امْرُءًا لِيَلْأَوْزَهَا فَجَعَلَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى أن الدنيا متاع قليل، وهنا تشرح الآية الكريمة حال الدنيا ضمن تشبيه.

□ جاء في بعض الروايات، أن هذه الآية تشير إلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام، فمتى ما امتلأت الأرض بالزخارف والزبارج وطغت الأمور المادية، جاء الله بثورة عقدية ودينية لتقلب الأوضاع رأساً على عقب^(٢).

(١) ﴿بَعْضُكُمْ يَرَىٰ بَعْضًا﴾ سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٢) تفسير نور الثقلين.

□ أحسن الأمثلة هي المأخوذة من بطن الطبيعة، لأنها لا تقدم بقدم العهد والزمان، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - التمثيل هو الأسلوب الأمثل في الدعوة والتعليم، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٢ - الإنسان والحيوان لهما حقوق في الاستفادة من المواهب المادية للطبيعة، غير أن فضل الإنسان هو في استلهاهم المعنويات، ﴿يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.
- ٣ - تناسب الخسرة مع متطلبات الإنسان والحيوان تعدّ من اللطاف الإلهية، ﴿تَبَاتُ الْأَرْضُ... يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.
- ٤ - الإيمان زينة الإنسان^(١)، والنبات زينة الأرض، ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾.
- ٥ - الدنيا خداعة، فهي تجعل الإنسان يغرق في الأحلام والخيال، ﴿وَقُلُوبُ أَهْلِهَا أَنتَهَمَ فَلَدُورُونَ﴾.
- ٦ - كما إن إنبات الأرض هو بيد الله تعالى^(٢)، فإن تدميرها أيضاً بيده، ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾.
- ٧ - الدنيا وزخارفها في مهبّ رياح الحوادث والكوارث، ﴿وَأَزَيَّنَّتْ... حَصِيدًا﴾.
- ٨ - عمر الإنسان في الدنيا كعمر الجنابذ والأزهار قصير وسريع، ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ﴾.
- ٩ - أحياناً يكون غضب الله شديداً وصاعقاً لا يبقى ولا يذر، ﴿لَمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ﴾.
- ١٠ - تمثيلات القرآن الكريم، مدعاة للتدبر والتفكر، لذا، ينبغي ألا نمرّ بها مرور الغافلين، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) ﴿حَبَّبَ إِلَيْنَكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ سورة الحجرات: الآية ٧.

(٢) ﴿مَنْ أُنْشِرَ نَزْعُوهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَعُونَهُ﴾ سورة الواقعة: الآية ٦٤.

١١ - التعلق بالدنيا والاعتزاز بها، دليل على قصر النظر، وفي المقابل، فإن عدم الاعتزاز بالدنيا هو دليل بعد نظر وتدبر، ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

إشارات:

□ «دار السلام»، أحد أسماء الجنة؛ لأنه لا وجود فيها لنزاعات، أو صراعات، أو جدال، أو استغلال، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾^(١).

□ السلام هو أحد أسماء الله الحسنی، ودار السلام تعني في جوار رحمة الله، وبيت السلام حيث تحية أهله السلام، كما إن الله يحييهم بتحية السلام، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^(٢).

□ ذكرت الروايات، أن طريق الإمام أمير المؤمنين علي والأئمة المعصومين عليهم السلام هو خير مثال للصراط المستقيم.

التعاليم:

١ - الدعوة الإلهية تجسد اللطف الإلهي الخاص بعباده، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾.

٢ - الصحة والسلامة في هذه الدنيا أمر مؤقت، فيما السلامة في الآخرة دائمة وخالدة، ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾.

٣ - الصراط المستقيم عامل استقرار فمضافاً إلى الآخرة، يصنع من هذه الدنيا دار السلام، ﴿يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

٤ - الحياة السليمة والمجتمع السليم منشؤهما الله تعالى، ﴿يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

٥ - الله تبارك وتعالى يدعو الخلق ويهديهم إلى الطريق السوي أيضاً، ﴿يَدْعُوا... وَيَهْدِي﴾.

٦ - الدعوة الإلهية موجهة إلى الجميع، بينما الهداية الخاصة هي لمن يحبه الله

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

ويرتضيه، ويعتمد هذا الرضا على توعية المرء لنفسه، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

٧ - الحركة على الصراط المستقيم هي توفيق من الله تعالى، ﴿وَيَهْدِي... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

إشارات:

□ «رَهَقَ» تعني التغطية القهرية والجبرية، و«القتر» هو الغبار، والدخان، والرماد.

□ إعطاء الثواب المضاعف تكرر في مواضع عدّة من القرآن الكريم وبعبارات مختلفة مثل «زيادة»، «ضعف» و«أضعاف». إذ يقول ﷻ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ نَسِيبَاتٍ﴾^(١)، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢)، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ مِائَةً حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

□ وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «ما من شيء إلا وله كيل ووزن إلا الدموع، فإن القطرة تظفي بحاراً من نار، فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة، فإذا فاضت حرمها الله على النار، ولو أن باكياً بكى في أمة لرحموا ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾»^(٤).

□ في بعض الروايات، يراد بـ«الزيادة» الدنيا^(٥)، وهي في بعض روايات أهل السنة لقاء الله أو ألطافه سبحانه وتعالى^(٦).

□ «أحسنوا»، دائرة الإحسان تشمل العقيدة الصالحة، والعمل الصالح، والقول الصالح.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير الدرّ المنثور.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

التعاليم:

- ١ - الانتهال من الألفاظ الإلهية خاصً بالمحسنين، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمُ﴾.
- ٢ - الله تبارك وتعالى يثيب الإنسان على عمله الصالح وكذلك يكافئه، ﴿لِّلْمُسْتَقِيمِ وَزِيَادَةٌ﴾.
- ٣ - سوف ينال المحسنون في يوم القيامة أحسن الثواب، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمُ﴾.
- ٤ - لا عذر لمن يلجأون إلى غير الله، لأنه سبحانه وتعالى يدعو ﴿يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾، ويرشد ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ويثيب ﴿لِّلْمُسْتَقِيمِ﴾، ويزيد ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وهذه الزيادة غاية في الأهمية^(١).
- ٥ - الإحسان في هذه الدنيا سريع وزائل، لكنه سوف يستتبع حياة خالدة في الجنة، ﴿أَحْسَنُوا... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَزَهَقُهُمْ ذُلٌّ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ بِعَاصِرٍ كَانُوا أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧)

إشارات:

- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَزَهَقُهُمْ ذُلٌّ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ بِعَاصِرٍ﴾: «هؤلاء أهل البدع والشهوات»^(٢).
- «ليل مُظْلِم»، هو الليل الذي ينعدم فيه ضياء القمر، ويحدث هذا مرة في كل شهر. وفي مقابل ذلك يقال: «ليل مُقْمِر» أي ساطع بنور القمر، وهو عندما يكون القمر فيه بدرًا.
- بقرينة آيات من قبيل ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّاءُ ۚ ﴿١﴾ زَهَقَهَا فَذُرَّةُ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٣﴾﴾، و﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٤)، يمكن

(١) كلمة «زيادة» جاءت في صيغة التنكير للدلالة على العظمة.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة عبس: الآيات ٤٠ - ٤١ - ٤٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

القول إن عبارة الآية ﴿أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قَطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ تشير إلى الكفار. علاوة على أن «السيئات» تحتوي على ألف ولام الاستغراق فهي تشمل جميع السيئات وعلى رأسها، بالطبع، الكفر.

التعاليم:

- ١ - الإنسان يرتكب المعصية مختاراً لا مكرهاً، ﴿كَسَبُوا﴾.
 - ٢ - معاملة الله تعالى للمسيئين بالعدل، ﴿جَزَاءً سَنُفَعِمُ بِهِنَّهَا﴾.
 - ٣ - الدنيا دار عمل، والآخرة دار ثواب، ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا... جَزَاءً﴾.
 - ٤ - الترغيب يجب أن يسبق الترهيب والعقاب. يقول ﷺ عن المحسنين: ﴿الْمُسْتَقِيمُونَ وَزِيَادَةٌ﴾، وعن المسيئين: ﴿سَنُفَعِمُ بِهِنَّهَا﴾.
 - ٥ - اسوداد الوجه والقتل هو للكفار لا للمؤمنين المسيئين، ﴿وَنَزَعْنَهُمْ ذُلَّهُ﴾.
 - ٦ - في يوم القيامة، عقوبة، وذلة، وفتن، ووجوه مسودة، ﴿سَنُفَعِمُ بِهِنَّهَا... أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ...﴾.
 - ٧ - طريق الهروب أو الشفاعة مغلق بوجه الكافرين، ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِرٍ﴾.
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾

إشارات:

□ مرّ علينا في الآية السابقة أن لا مفر أمام المجرمين والكافرين، وهذه الآية تقول إنه حتى الشفعاء الوهميون سيتبرؤون منهم بدلاً من أن يشفعوا لهم.

التعاليم:

- ١ - لا ننس يوم القيامة وأهواله، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.
- ٢ - يوم القيامة لا يخص البشر وحدهم، بل هو يوم قيامة كلّ الخلائق إذ سيحضر حتى المعبودون الوهميون، ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾.

٣ - يوم القيامة هو يوم الفصل، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ (في يوم القيامة يتم الفصل بين البشر وذلك من أجل استجوابهم).

٤ - في يوم القيامة ستكون الأصنام ذات شعور وستنطق لتتبرأ من معبوداتها أو تنكر لهم، ﴿مَا كُنتُمْ إِتَانَا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة تنكر المعبدون لعابديهم إذ قالوا لم تكونوا تعبدوننا، وهنا يقول هؤلاء لقد كنّا عن عبادتكم غافلين، ونستنقج إذن: إنّ أي عبادة يكون المعبود غافلاً عنها ليست عبادة.

□ لقد دأب القرآن الكريم في مواضع متعدّدة على ذكر مسألة نفور المعبودين وبراءتهم من المشركين وعملهم، على سبيل المثال ما ورد في الآية ١٧ من سورة الفرقان، والآية ٦٣ من سورة القصص.

التعاليم:

١ - في يوم القيامة، ستنطق الأصنام ويُبعث فيها الوعي، ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿هَٰذَاكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا

يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

التعاليم:

١ - يوم القيامة هو يوم حصول كلّ إنسان على صحيفة أعماله في اختبار الدنيا، ﴿تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢ - الحساب في يوم القيامة سوف يشمل جميع البشر، ﴿تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٣ - الله سبحانه وتعالى هو منشأ الوجود ومنتهاه، ﴿وَرُدُّوْا﴾^(١).

٤ - الله تبارك وتعالى هو المولى الحقيقي وكل شيء سواه عدم وسراب، ﴿مَوْلَهُمْ الْحَقُّ﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لَتَقُونَنَّ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ ذكروا كمثال على قدرة الله تعالى على استخراج الميت من الحي واستخراج الحي من الميت: خروج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، والنبته من الحبة، والحبة من النبتة، والولد الصالح من الوالدين الفاسدين، والولد الفاسد من الوالدين الصالحين.

□ يطرح هنا سؤال وهو: لماذا ذكرت الآية الكريمة السمع والبصر من بين جميع أعضاء جسم الإنسان؟ ربما يعود السبب في ذلك إلى أنَّ هاتين الحاستين من أهم الأعضاء فاعلية وأهمية، لأنَّ دخول البيانات والمعلومات إلى المخ يتم عن هاتين القناتين.

التعاليم:

١ - طريقة إلقاء السؤال وإثارة مكان التفكير عند الإنسان والرجوع إلى فطرته، هي من مسؤوليات المعلمين الإلهيين، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾.

٢ - لقد جعل الله تعالى للسماوات والأرض دوراً في ارتزاق الإنسان، ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣ - الرزق، والخلق، والتدبير هي من السنن الإلهية الخالدة، «يرزق، يملك، يخرج، يدبر»؛ (صيغة المضارع دليل الاستمرار).

(١) تستعمل كلمة «ردوا» في الحالات التي تكون العودة إلى نقطة البداية.

- ٤ - عالم الخلق يحتاج إلى التدبير في كل لحظة، ووحدة التدبير دليل على وحدة الربوبية، ﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأَمْرَ﴾.
- ٥ - الرزق، والسمع، والبصر، والحياة، والموت، كلها بيد الله تعالى، وليس لأحد أو شيء سوى الله القدرة أو الحاكمية، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.
- ٦ - التدبر في نعم الله تعالى وقدرته من أحلى طرق معرفة الله وأكثرها عياناً وعمومية وبساطة وعشقا، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.
- ٧ - حتى المشركون يؤمنون بأن الله هو خالق الكون، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.
- ٨ - العقيدة وحدها لا تكفي، بل يلزمها الافتران بالعمل، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.
- ٩ - المعرفة والعلم مقدّمة للتقوى، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢)

التعاليم:

- ١ - ليس بعد الله الحاكم الرازق الخالق المدبّر (الآية السابقة) من إله آخر، ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ﴾.
- ٢ - الإيمان بربوبية غير الله إنما هو اعتقاد باطل ومحض ضلال، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.
- ٣ - لا طريق ثالث بين الحق والباطل، فكل ما ليس بحق فهو باطل، والحياد وعدم الانحياز أمر مرفوض، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.
- ٤ - يمتلك الإنسان فطرة حقّة، لكنّ الشياطين، والأوهام، وعوامل أخرى هي التي تجنح به إلى الانحراف، ﴿تُصْرَفُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنِكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

التعاليم:

١ - اختيار الإنسان طريق الفسق، سوف يضمن له العذاب الإلهي، ﴿حَقَّتْ... عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾.

٢ - الفسق والمعصية تحجبان الإيمان وتمهّدان للكفر، ﴿فَسَقُوا... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُّ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ (٣٤)

التعاليم:

١ - الله تبارك وتعالى يعلم نبيه الكريم ﷺ أسلوب الحوار والجدال مع المشركين، ﴿قُلْ﴾.

٢ - لا وجود لشريك الله إلا في أوهام البشر، ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾.

٣ - الوجود حادث (ليس قديماً)، ﴿يَدْعُوا الْخَلْقَ﴾.

٤ - معيار العبادة أمران: الأول القدرة على الخلق والإحداث، والثاني القدرة على إعادة الخلق، ﴿يَدْعُوا... ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٥ - الوجود يسير نحو الموت والفناء، فمصيره هو الموت والعدم، ﴿يَدْعُوا... ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٦ - القيامة والمعاد جسمانيان مثل الدنيا، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٧ - توهم وجود شركاء لله دليل على الحمق واللاعقلانية، ﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ

يُنَبِّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكَرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٥)

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى موضوعات المبدأ والمعاد وخلق الوجود، وهنا تنطرق

الآية الكريمة إلى مسألة النبوة، والإمامة، وهداية البشرية.

□ الهداية نوعان: الأولى، إراءة الطريق، والثاني الإيصال إلى الهدف. النوع الأول هو من عمل الأنبياء، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(١)، أما الهداية بالمعنى الثاني فهي محصورة بالله تعالى ومن اختصاصه وحده جلّ شأنه، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

□ العبارتان ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ و﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ معناهما واحد^(٣).

□ جاء في روايات متواترة رواها الفريقان أنّ رسول الله ﷺ قال: «الحق مع عليّ وعليّ مع الحق»^(٤).

التعاليم:

١ - الإرشاد والهداية من شؤون الربوبية، ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾، (أساس العبادة القدرة على الهداية).

٢ - الهداية الصحيحة يلزمها العلم الواسع المنزه عن الخطأ، والقدرة، والمحبة، والهدف. لذا، لا قدرة لأحد على الهداية سوى الله والذين جعلهم هداة للناس. كيف يمكن للأصنام والطواغيت أن تهدي؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

٣ - الجدير بالاتباع هو الذي يهدي بالحق، ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾.

٤ - مبدأ النبوة والإمامة وطاعة المعصوم هو مبدأ عقلاني، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

إشارات:

□ القيمة الحقيقية هي للعلم، وكذلك للظنّ القوي والاطمئنان إذا ما بُنِيَ على

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.

(٤) إحقاق الحق، ج ٥، ص ٢٨ و ٦٣٥.

أساس صحيح ومتين، كما يحصل مع الفقيه الذي يستنبط من ظاهر الآيات والروايات لمعرفة حكم الله (في المسائل الفرعية طبعاً). بيد أن الظن في العقيدة لا قيمة له إذا كان نابعاً من تقليد الأجداد أو التعصب الجاهلي.

التعاليم:

- ١ - الأكثرية ليست دائماً دليل حق، ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.
- ٢ - أعداء النبي ﷺ لا منطق لهم، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾.
- ٣ - ليس للشرك أساس علمي، ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ... وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا؟﴾
- ٤ - في ما يتعلق بالعقائد والمعارف يجب التمسك بالعلم لا الظن، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

التعاليم:

- ١ - إن جامعية القرآن ومضمونه من الأحكام والإتقان بحيث لا تليق به كل آراء التحريف والنسبة لغير الله، ﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾.
- ٢ - الكتب السماوية يصدق بعضها بعضاً. وهي تختلف عن بعضها في الإجمال والتفصيل لا أكثر، ﴿نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ٣ - القرآن، سبيل إلى الرشd والتربية، ﴿هَذَا الْقُرْآنُ... مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨)

إشارات:

□ لقد أكد القرآن الكريم في آيات عدة على إعجازه وعجز الإنس والجن على أن

يأتوا بمثله، بل وتحذاهم أن يأتوا ولو بآية واحدة، من هذه الآيات التي ذكرت هذا الموضوع الآية ١٣ من سورة هود. من ناحية ثانية، فإنه على الرغم من ظهور ملايين الأعداء على مرّ القرون الذين بذلوا، وما زالوا، كلّ ما في وسعهم لإضعاف القرآن وهزيمة الإسلام، إلّا أنّ صوت التحدي القرآني لم يخفت حتى الآن، ولا يزال ذلك التحدي قائماً إلى يوم القيامة ولكن دون مجيب.

مزايا القرآن الكريم

□ ولما كان الحديث عن التحدي القرآني، نجد من المناسب أن نقف هنا عند بعض المزايا الخاصة بهذه المعجزة الربّانية الخالدة:

١ - ذو معارف سامية وعميقة وعباراته قصيرة: فمثلاً، يمثّل للعلاقة بين الزوج والزوجة بالقول: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾^(١)، أو ضعف ووهن القوى غير الإلهية ببيت العنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْمَنْكَبُوتِ﴾^(٢)، أو بيانه عجز الإنسان عن أن يخلق ذبابة واحدة، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾^(٣).

٢ - حلاوة الكلام وسحره: وخير دليل على ذلك أنّه لو تُلي آلاف المرّات فلن يُملّ، بل سيكتشف المرء في كلّ مرّة معنى جديداً.

٣ - إيقاع الكلام ولحنه: إنّ لكلمات القرآن لحنًا وإيقاعاً خاصاً وفريداً، ويتبيّن هذا جلياً إذا ما وضعنا آية قرآنية أو أكثر إلى جوار كلام العرب أو الروايات، حينئذٍ سنلاحظ بوضوح تميّزها عن سائر الكلام.

٤ - جامعيتها وشموليّته: فهو يتنقّل من البراهين إلى الأمثال، ومن الدنيا إلى الآخرة، وكذلك يتناول القضايا بمختلف مشاربها الأسرية، والقانونية، والسياسية، والعسكرية، والأخلاقية، والتاريخية... إلخ.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٣.

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤١.

- ٥ - نظرتة الواقعية: لا يبني القرآن الكريم مضمونه على الحدس والظن، فحتى قصصه تستند إلى الواقع.
- ٦ - عالميته: يمتح الناس من معارفه أينما كانوا وعلى مختلف مستوياتهم، إلا أنه ليس بكتاب متخصص.
- ٧ - كتاب أبدي وخالد: فكلما تقادم عمر البشرية والعلوم، برزت أسرار جديدة من ثنايا القرآن الكريم.
- ٨ - التطور المتعاضد: على الرغم من أن القرآن الكريم كان له النصيب الأكبر من الأعداء والمؤامرات، إلا أنه في المقابل حقق أكبر انتشار منذ نزوله حتى الآن.
- ٩ - المعجزة في اليد: هذه المعجزة الخالدة هي في تناول الجميع، معجزة من نمط الحديث والكلمة.
- ١٠ - إنه معجزة وكتاب تشريع وقوانين على حدّ سواء.
- ١١ - لقد صدر عن شخص لم يتعلم حرفاً وعاش في منطقة محرومة ونائية.
- ١٢ - لم ينقص منه شيء ولم يزد عليه، فهو منزّه عن أيّ تحريف.

التعاليم:

- ١ - يطرح القرآن الكريم أسهل الطرق لإثبات إعجازه وهي دعوة الناس للإتيان بسورة مثله، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾.
- ٢ - ليس القرآن كلّ، بل حتى سورة واحدة منه تعتبر معجزة، ﴿بِسُورَةٍ﴾.
- ٣ - لقد خفّض القرآن الكريم سقف التحدي من الإتيان بالقرآن كلّ إلى سورة واحدة مثله، ﴿بِسُورَةٍ﴾.
- ٤ - التحدي القرآني لا يختصّ بزمان ومكان معيّنين، بل هو تحدّ مفتوح يمتدّ أمدّه إلى يوم القيامة ويشمل جميع أرجاء الأرض، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - تحدي القرآن ليس لعوام الناس، بل هو لجميع الحقوقيين، والأدباء،

والعابرة... إلخ، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٦ - لم يحدد هذا التحدي طبيعة الإمكانات وعدد الأشخاص، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٧ - هذا التحدي ينطوي أيضاً على استشارة للمشاعر، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتَنَّهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ خَصَّ عِبَادَهُ بِآيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، أَنْ لَا يَقُولُوا حَتَّى يَعْلَمُوا، وَلَا يَرُدُّوا مَا لَمْ يَعْلَمُوا»، وقال عليه السلام: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(١)، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾^(٢).

□ ينقل عبد العظيم الحسيني عن الإمام الجواد عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام قوله: «قَالَ: قُلْتُ أَرَبِعاً أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي بِهَا فِي كِتَابِهِ»^(٣).

١ - قلت: المرء مخبوءٌ تحت لسانه فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(٤).

٢ - قلت: فمن جهل شيئاً عاداه، فأنزل الله ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾.

٣ - وقلت: قدر أو قيمة كل امرئ ما يحسن، فأنزل الله في قصة طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَعْيُنِهِمُ وَالْجِسْمَ﴾^(٥).

٤ - وقلت: القتل يقلل القتل، فأنزل الله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَنْبِيَاءُ﴾^(٦).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٩.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٦٦.

(٤) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٩؛ الكافي، ج ١، ص ١٦٦.

التعاليم:

- ١ - لقد كذب المخالفون بالقرآن دون أن يحيطوا به علماً، ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا﴾.
- ٢ - لا يجوز أن نرد شيئاً لمجرد أننا نجهله، ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا﴾.
- ٣ - العلم العام والإجمالي ليس له تأثير يذكر، ذلك أن سبب نورانية الإنسان هو الإحاطة العلمية، ﴿لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾.
- ٤ - معارضة الأنبياء على مر التاريخ كان سببها، على الأغلب، الجهل، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- ٥ - لا بد من قراءة التاريخ وتعرف مصير المناوئين للأنبياء، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠)

التعاليم:

- ١ - الإنسان مخير لا مُسَيَّر، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾.
- ٢ - لا ينبغي للقائد أن يتوقع إيمان كل الناس وعملهم بشريعته، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾.
- ٣ - عدم الإيمان والفساد متلازمان. فالمعصية تحجب الإيمان، وكذلك عدم الإيمان يكون دافعاً للفساد، ﴿لَا يُؤْمِنُ بِهِ... بِالْمُفْسِدِينَ﴾.
- ٤ - الإنسان في عين الله تعالى، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَا يَكُذِّبُكَ فَعَلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

التعاليم:

- ١ - لا يمكن إكراه الناس على الإيمان، فمسؤولية الأنبياء هي الهداية والإرشاد لا الإكراه، ﴿وَلَا يَكُذِّبُكَ فَعَلْ...﴾.

- ٢ - يجب أن يتوقع القائد تكذيب فئة من الناس له، ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ...﴾.
- ٣ - يجب أن لا نشعر بالإحباط إزاء تكذيب المكذبين، لأننا سنصيب ثواب الإرشاد والهداية، وفي المقابل، سينال المعارضون جزاء تكذيبهم ولجاجهم، وبالتالي ستكون نحن الفائزين في هذه الصفقة، ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.
- ٤ - كان النبي الكريم ﷺ يتصدى بحزم للمكذبين، ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.
- ٥ - مسائل الربح والخسارة لأي شخص تخصه هو وحده، وبالتالي تعود عليه بالضرر أو بالنفع، ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.
- ٦ - الإسلام دين منطق وأخلاق، لا دين مهادنة مع الكفار. فإذا لم ينصاعوا للحق، فلنعلن براءتنا من سلوكهم ومعتقداتهم، ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ... وَأَنَا بَرِيءٌ...﴾.
- ٧ - إبداء الرضا بأعمال الآخرين يعني مشاركتهم ثوابها أو عقابها، ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ... وَأَنَا بَرِيءٌ...﴾؛ (القول إن كل شخص مسؤول عن عمله يعني أننا غير راضين عن أعمال بعضنا البعض).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - ليس كل المستمعين يمتلكون حسن نية، أحياناً يسعى اللجوجون والمعادنون إلى تكرار الاستماع من أجل التهرب واختلاق الأعذار، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾.
- ٢ - أحياناً يصل اعتلال قلب الإنسان إلى درجة لا يفيد في علاجه حتى كلام النبي الأكرم ﷺ، ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾.
- ٣ - الاستعداد لقبول الهداية عامل مهم في هداية الإنسان، ولا تكفي البيئات وحدها ولا القائد الملهم، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.
- ٤ - الاستماع (سواء أكان بشكل مباشر أم غير مباشر) غير مهم في الهداية، المهم هو التعقل والقبول القلبي، ﴿يَسْتَمِعُونَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

إشارات:

□ فريق سوف يُحشر في يوم القيامة أعمى، وهذا العماء هو عماء القلب وفقدان البصيرة ونسيان آيات الله تعالى في الحياة الدنيا، وتجدهم كأنهم عمي، ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى... قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَابَتْنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١).
□ يقول الإمام الهادي عليه السلام: «... فمن زعم أنه مجبر على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله، وقد ظلمه في عقوبته ومن ظلم الله فقد كذب كتابه ومن كذب كتابه فقد لزمه الكفر باجتماع الأمة؛ والآية (٤٤) تكذب ذلك» (٢).

التعاليم:

- ١ - ليست كل نظرة تنطوي على بصيرة، وليس كل ناظر يجذب صوب الحقيقة، ﴿يَنْظُرُ... لَا يَبْصُرُونَ﴾.
- ٢ - حتى الأنبياء لا يمكنهم التأثير فيمن عميت بصيرته، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى﴾.
- ٣ - أولئك الذين لا تقودهم النظرة إلى الحق، عمي، ﴿يَنْظُرُ... لَا يَبْصُرُونَ﴾.
- ٤ - لقد بعث الله تبارك وتعالى بأحسن دين وأفضل كتاب وأشرف نبي لهداية الناس، فإن لم يهتدوا بعد كل ذلك فقد ظلموا أنفسهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ... أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

إشارات:

□ إن يوم القيامة عظيم إلى درجة أن الحياة الدنيا تبدو سريعة جداً بالمقارنة به.

هذه الحقيقة جاءت على ذكرها آيات أخرى منها:

- ﴿لَوْ يَلْتَمِزُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾^(١).
- ﴿وَتَقُتُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).
- ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾^(٣).
- ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾^(٤).
- ﴿مَا لَبِثُوا عَيْرَ سَاعَةٍ﴾^(٥).

□ إن قصر عمر الدنيا إما أن يكون بسبب سرعة انقضائها، أو بسبب عدم اغتنام الفرصة واستغلال الوقت المتاح، أو من خلال مقارنتها بعمر الآخرة، أو لجهة أنّ البشر في عالم البرزخ أشبه بالنيام، وإذا استيقظوا شعروا كأنّ الزمان كان قصيراً.

وعلى أيّ حال، فإنّ متاع الدنيا مقارنة بالآخرة، قليل جداً، وأمدّه قصير كأنّه لا يعدو ساعة بحساب الزمن.

التعاليم:

- ١ - الحياة الدنيا مقارنة بيوم البعث قليلة جداً، ﴿سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾.
- ٢ - في يوم القيامة يتعرّف الناس بعضهم إلى بعض، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.
- ٣ - الخاسرون الحقيقيون هم الذين كذبوا بيوم القيامة وحُرموا النعيم الأبدي الخالد، ورضوا بالملذات الدنيوية. في حين يتمتّع المؤمنون بالنعيم الإلهية في الدنيا وكذلك لهم نصيب منها في الآخرة، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٣.

(١) سورة النازعات: الآية ٤٦.

(٥) سورة الروم: الآية ٥٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٥٢.

(٣) سورة طه: الآية ١٠٣.

﴿وَلِمَا زُرْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوبُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

إشارات:

- ذاق الكافرون العذاب في معارك بدر وحنين والأحزاب وفتح مكة، وبعد رحلة النبي الأكرم ﷺ أيضاً كان العذاب الإلهي جارياً عليهم.
- تأخير عذاب المشركين ينطوي على أمرين، الأمر الأول هو، قلق الرسول الأعظم ﷺ، والأمر الثاني تحجج المشركين الذين كانوا يقولون: أين هذا العذاب الموعود الذي تقولون؟ (وسياتي ذكر ذلك بعد آيتين) وتبين هذه الآية أنّ الحكمة وراء تأخير العذاب عن الكافرين من أجل النبي الأكرم ﷺ وغيره من الناس؛ إذ تقول الآية: إنّ مردّ الناس جميعاً إلينا، ونحن الشهود على أعمالهم، لذا، لا يفرح المشركون بالحجج والأعذار التي يطلقونها.
- يقول الإمام علي عليه السلام: «اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم»^(١).

التعاليم:

- ١ - سوف يحاسب الله تعالى الكافرين ويعذبهم على أفعالهم، إن في هذا الزمان، أو في زمان آخر؛ لذا لا يغتم المسلمون لتأخر القضاء الإلهي، ولا ييأسوا أو يبتسوا، ﴿وَلِمَا زُرْنَاكَ... أَوْ نَتُوبُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾.
- ٢ - وفاة النبي الأعظم ﷺ لن يؤثر في حكم الله تعالى في ما يتعلق بعذاب الكافرين، ﴿أَوْ نَتُوبُكَ﴾.
- ٣ - مردّ الجميع إلى الله تعالى، ولا قدرة لأحد على الفرار من محكمة العدل الإلهية، ﴿فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾.
- ٤ - الله تبارك وتعالى هو الشاهد على أعمالنا، ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

إشارات:

□ اعتاد الكافرون الاستهزاء بالأنبياء سائلين متى ينزل العذاب الإلهي إن كنتم صادقين؟! وهذا السؤال الساخر كان بمثابة نوع من رفع معنويات أتباعهم ممن يخضعون لهم، ولكن، متى كان حدوث أمر ما يقتضي العلم بزمان حدوثه؟!

□ سؤال: إذا كان لكل قوم رسول، إذن لماذا انقطعت الرسالة؟

الجواب هو: المراد بالرسول ليس شخص النبي الكريم ﷺ بل دعوته ورسالته، إن مباشرة أو بالواسطة، وإلا لكان من الضروري في هذه الحالة وجود نبي في كل منطقة!

□ حضور الأنبياء في أوساط الناس والقضاء العادل أمور تتعلق بهذه الدنيا، وكذلك بالآخرة على حد سواء، إذ طرح هذا الموضوع في الآية ٩٦ من سورة الزمر.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام: «أنبياء الله يقضون بالقسط»^(١).

التعليق:

- ١ - من السنن الإلهية أن لا تخلو أمة من رسول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.
- ٢ - تاريخ الدين مرتبط بتاريخ البشرية، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، وفي آية أخرى نقرأ ﴿وَلَنْ يَكُونَ مِنَ الْأُمَّةِ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢).
- ٣ - العذاب الإلهي (المذكور في الآية السابقة) يأتي بعد إتمام الحجة وإرسال المرسلين، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.
- ٤ - نشر القسط والعدل في المجتمع يتيسر في ظل بعثة الأنبياء، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

٥ - في يوم القيامة تحضر كل أمة مع نبيها، ثم يُقضى بينهم بالعدل، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ﴾؛ (في آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾^(١)).

٦ - إنكار يوم القيامة والوعود الإلهية نهج اعتاد على اتّباعه الكافرون، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ...﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(٢)

إشارات:

□ تخبرنا الآية السابقة، عن أن لكل أمة رسول، وهنا تقول الآية: إن لكل أمة أجلاً. ربّما أمكن القول: إنّ أجل كل أمة (شفاء أم سعادة) مرتبط بتبعيتهم رسولهم أو انصرافهم عنه.

□ سؤال: إذا كان لكل أمة أجل، إذن، يجب أن ينطبق ذلك على أمة الإسلام أيضاً أليس كذلك؟

الجواب: المراد بالأمّة هنا هو الجماعة أو العصابة لا الدين، إذن، لا تعارض لمفهوم الأجل مع الخاتمية، وبالتالي لا ضرورة لتغيير الدين في كل فترة.

التعاليم:

١ - لا يملك أيّ شخص، بما فيهم الأنبياء، أيّ قوّة أو ملكيّة من تلقاء نفسه، ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾.

٢ - قدرة الأنبياء والأولياء قس من القدرة الإلهية^(٣)، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

(١) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٢) في تفسير المراغي، ورد شرح مفصّل في تفنيد موضوع التوسّل، بالاستناد إلى عبارة ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ﴾، بينما تمّ غضّ النظر عن عبارة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾!!

- ٣ - قول ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ دليل صدق النبي الكريم ﷺ.
- ٤ - تحديد موعد عذاب الكفار بيد الله وحده، ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ... قُلْ لَا أَمْلِكُ﴾
- ٥ - المجتمع، كالفرد، يمرّ بحالات مختلفة من السعادة، والشقاوة، والرشد، والغنى، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ (انتهاء الآجال أحياناً يكون بالهلاك أو الفناء وأحياناً أخرى بذهاب القوة والعزة).
- ٦ - لا نغترّ بالحكومة والسلطة الدنيوية فهي ليست خالدة، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.
- ٧ - إمهال الأمم من السنن الإلهية، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.
- ٨ - آجال الأمم تجري طبقاً للسنن الإلهية، فلا تقديم ولا تأخير؛ لذا لا حاجة لاستعجالها، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ...﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ بِكُمْ يَوْمَ آتَيْنَا بِكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾: «فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يجحدون نزول العذاب عليهم»^(١).

التعاليم:

- ١ - العذاب الإلهي ينزل بغتة، ولا يعرف ليلاً أو نهاراً، ﴿بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا﴾.
- ٢ - العاقل باحتماله وقوع العذاب، يجب عليه أن يتحوّط له لا أن يستعجله، ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾.
- ٣ - حينما ينزل عذاب الله على المجرمين بغتة، ﴿بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا﴾ يُغلق حينئذٍ باب النجاة عليهم، ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾.

- ٤ - لا أثر للإيمان بعد وقوع العذاب ﴿ءَأَلَّتْنَ﴾.
- ٥ - لا ينفك المشركون من استعجال نزول العذاب الإلهي، ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.
- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

□ المقصود بالعذاب في الآية السابقة هو العذاب الإلهي الذي ينزل في الدنيا، وفي هذه الآية يقصد به عذاب النشور، ولذلك قال ﷻ: ﴿ذُوقُوا﴾ ولم يقل: «يدوقون».

التعاليم:

- ١ - مناوئو الأنبياء ظالمون، ﴿ظَلَمُوا﴾ (في ضوء الآية السابقة).
- ٢ - العذاب الإلهي بالنسبة إلى فريق من المجرمين عذاب خالد، ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾.
- ٣ - عذاب الآخرة هو عذاب نفسي وجسماني في آن معاً، ﴿قِيلَ... ذُوقُوا﴾.
- ٤ - العذاب يكون طبقاً لميزان العدل الإلهي، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.
- ٥ - الإنسان مخير لا مكره على العمل صالحاً أم طالحاً، ﴿تَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَعِزُّوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ مضمون هذه الآية شبيه بالآية ٨ من سورة الطور ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - الوعد الإلهي قطعي وحتمي، ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾؛ (القَسَم والأداة إِنَّ واللام في «الحق» كلها دلائل على التوكيد والقطع).

- ٢ - ينبغي على القائد أن يرفع الشكوك التي تساور الأمة، ﴿قُلْ﴾.
- ٣ - يجب أن يكون الكلام قاطعاً في قبال الشك والتردد، ﴿إِى وَرَقٍ﴾.
- ٤ - أحياناً يكون القَسَم لرفع الشك، والتردد، والاضطراب عند الناس ضرورياً، ﴿إِى وَرَقٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.
- ٥ - لا تستطيع أيّ قوة في نظام الوجود الوقوف بوجه الإرادة الإلهية، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

□ طرحت مسألة الافتداء من أجل الخلاص من العذاب في آيات عدة منها ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ (١).

كما جاء في سورة المعارج ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيٍّ﴾ (١١) وَصَحْبِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى (١٥) (٢).

التعاليم:

- ١ - في يوم القيامة ليس للمجرم مفرّ من العذاب، فلا فدية بأحد أو بمال، ﴿وَلَوْ...﴾.
- ٢ - حبّ النفس من أقوى الغرائز لدى الإنسان، فهو مستعدّ أن يفتدي نفسه بجميع الوجود، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾.
- ٣ - يخفي المجرم ندمه وحسرتة في نفسه لثلا يتعرّض للشماتة (٣)، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾.

(١) سورة الرعد: الآية ١٨؛ سورة الزمر: الآية ٤٧.

(٢) سورة المعارج: الآيات ١١ - ١٥. (٣) تفسير الصافي.

- ٤ - في يوم القيامة، يعبر المجرم عن ندمه في صور مختلفة كأن يقول: يا ليتني...، أو يعرض على يديه، أو يكتنم ندمه في داخله، ﴿وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ﴾.
- ٥ - زعماء الشرك يسرون الندامة في يوم القيامة، حتى لا يفتضحوا أمام أتباعهم^(١)، ﴿وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ﴾.
- ٦ - في محكمة العدل الإلهية، لن تنفع القوة ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ ولا الثروة، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ...﴾.
- ٧ - قد يظلم الإنسان في الدنيا بسبب غلطة من القاضي، ولكن، في يوم القيامة، لا مجال للخطأ ولن يظلم أحد، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.
- ٨ - يجب ممارسة العدالة حتى في معاقبة الظالم، ﴿ظَلَمْتُ... لَا يُظْلَمُونَ﴾.
- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥٥)
- هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٥٦)

التعاليم:

- ١ - العلم وحده غير كافٍ، بل يلزم التذكير بالمعارف والمعتقدات واستحضارها، ﴿أَلَا﴾.
- ٢ - لما كان الله تعالى مالك الوجود، فالكفار لا يملكون شيئاً لكي يفتدوا أنفسهم به؛ (في ضوء الآية السابقة).
- ٣ - مالكيته على الوجود دليل على قدرته على تنجيز وعوده، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ...﴾ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.
- ٤ - مبدئ الوجود وحده القادر على أن يحيي ويميت، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ... يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.
- ٥ - الحياة والموت وعاقبة جميع الأمور إلى الله تعالى ومردّها إليه، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

إشارات:

- «مَوْعِظَةٌ» من «الوعظ» وهو زجر مقترن بتخويف^(١).
- «وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ» بمعنى تطهير الروح والقلب من الأدران الروحية ذلك أنّ أمراض الروح أشدّ من أمراض الجسم، وأنّ معجزة القرآن تتمثل في هذه النقطة وهي شفاء الأمراض الروحية.
- يقول النبي الكريم ﷺ: «إذا التبسّ عليكم الفتن كاللّيل المُظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشقّع...»^(٢).
- ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «شفاء لما في الصدور من الأمراض الخواطر ومشبهات الأمور»^(٣).
- كَأَنَّ الآية تشير إلى المراحل الأربع في التربية والتكامل وهي:
 - أ) مرحلة الوعظ والنصيحة بالنسبة للأعمال الظاهرة، «مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ».
 - ب) مرحلة تهذيب الروح وتطهيرها من الأدران والرذائل الأخلاقية، «وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ».
 - ج) مرحلة الوصول إلى الهدف، «وَهُدًى».
 - د) مرحلة الانتهال من الرحمة الإلهية، «وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

التعاليم:

- ١ - نزول الكتاب بما فيه من موعظة وشفاء وهداية ورحمة هو من شؤون الربوبية الإلهية، «مِنْ رَبِّكُمْ».

(٣) تفسير نور الثقلين.

(١) مفردات الراغب.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧.

- ٢ - القرآن شفاء كلِّ سقم، وعلينا أن نستلهم شفاء الأمراض الروحية من مدرسة القرآن الكريم، لا من المذاهب الشرقية أو الغربية، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.
- ٣ - القرآن موعظة لكلِّ الناس، بيد أن أهل الحق فقط تشملهم هداية الله ورحمته، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ... وَهَذَى وَرَحْمَةٌ﴾.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

إشارات:

□ لما كان القرآن الكريم شفاء، وموعظة، ورحمة، كما جاء في الآية السابقة، فإنَّ ظاهر هذه الآية يدلُّ على أنَّ المراد بالفضل والرحمة هو التمسك بعري القرآن، وفي هذا يُروى عن الإمام علي عليه السلام: «إِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةٍ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثَةِ الْقُرْآنِ؛ فَكُونُوا مِنْ حَرْثِيهِ وَأَتْبَاعِيهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتَّهِمُوا عَلَيْهِ أَرَءَاكُمْ، وَاسْتَغِيثُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»^(١).

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكَا الفاقة كتب الله الفاقة بين عينيه إلى يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية^(٢).

وأيضاً عنه عليه السلام: «إِنْ أردتم عيش السَّعداء، وموت الشهداء، والنَّجاة يوم الحسرة، والظِّلَّ يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنَّه كلام الرحمن، وجِرُّ من الشيطان، ورجحان في الميزان»^(٣).

□ وقد فسَّرت بعض الروايات الفضل والرحمة في الآية الكريمة بالنبوة والإمامة^(٤). وفي روايات أخرى فسَّر الفضل بالنعم الإلهية العامة، والرحمة بالنعم الإلهية الخاصة^(٥).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

(٤) تفسير نور الثقلين.

(٥) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩.

□ وعن النبي ﷺ أنه قال: «فضل الله: نبوة نبيكم، ورحمته: ولاية علي بن أبي طالب، فبذلك، قال: بالنبوة والولاية، فليفرحوا: يعني الشيعة، هو خير مما يجمعون: يعني مخالفهم من الأهل والمال والولد في دار الدنيا»^(١).

التعاليم:

- ١ - كفى بنا فخراً أن يكون لنا كتاب مثل القرآن الكريم فيه شفاء وموعظة وهدى ورحمة، وهو أرقى من كل القوانين الوضعية، ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾.
- ٢ - فلنفرح بنعمة الولاية، لا بالمال والجاه، ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾.
- ٣ - يقول صاحب التفسير الكبير: إذا حصلت اللذات الروحانية فإنه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته، فلهذا السبب قال الصديقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقول سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني: فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي، بل من حيث إنها بفضل الله وبرحمته، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل^(٢).
- ٤ - النعمة الوحيدة التي ينبغي للإنسان أن يفرح بها هي نعمة القرآن الكريم، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ... فَلْيَفْرَحُوا...﴾؛ (تَقْدُمُ ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ﴾ يدلّ على الحصر).
- ٥ - أحياناً تسبّب النعم المادية في الفتنة والفساد وهي، بعد، زائلة، بينما النعم المعنوية باقية وهي مدعاة للرشد والرقى، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.
- ٦ - النعم المعنوية أرقى من جميع النعم المادية، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ (من انتهل من فيض القرآن، لا ينبغي أن يحزنه فقره وغنى الآخرين).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

إشارات:

□ من أمثلة التحريم غير المنطقي للمشركين ما ذكر في الآية ١٠٣ من سورة المائدة:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَارٍ، إِذْ كَانَ هَؤُلَاءِ يَخْضَمُونَ سَهْمًا مِنْ مَحَاصِلِهِمُ الزَّرَاعِيَّةِ لِلْمَعَابِدِ وَالْأَوْتَانِ وَيَحْرَمُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَوْ كَانُوا يَحْرَمُونَ مَا فِي بَطُونِ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى النِّسَاءِ وَيَحْلُونَ لِهِنَّ الْمَيْتَةَ، وَقَالُوا مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَى خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَنْوَجِنَا﴾^(١)، لكن القرآن الكريم اعتبر كل ذلك افتراء على الله، ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

التعاليم:

١ - الأصل في الطعام هو الحلية، إلا ما ثبتت حرمة عن طريق الوحي، ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

٢ - الرزق ينزل من عند الله تبارك وتعالى، ﴿أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾.

٣ - ينبغي أن لا نتقدم على أحكام الشريعة، فكما إنه لا يجوز تحريم ما لم يثبت تحريمه، كذلك لا يجوز تحليل ما ثبت تحريمه في الشريعة، ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا﴾.

٤ - التشريع بيد الله وحده، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ﴾.

٥ - أولئك الذين لهم ولاية تشريعية، بإمكانهم أن يحلوا أو يحرموا بإذن الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ﴾.

٦ - ابتداء الشرائع ونسبتها إلى الله معصية وافتراء، ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا... عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

٧ - القرآن الكريم يسفه العادات والتقاليد الخاطئة التي لا تستلهم من الوحي ولا تكون بإذن الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

إشارات:

□ وعن أبي الأحوص الجشمي قال: رأني النبي ﷺ وعليّ أطمار فقال: «هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: «من أي المال؟ قلت: من كل ما أتى الله ﷻ من الإبل والشاة، قال: «فلتر نعمته وكرامته عليك فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها»^(١).

□ لا إفراط ولا تفريط في التمتع بالنعم الإلهية، فلا انغماس كامل في الشهوات والماديات، ولا تصوّف وهجر للنعم وحرمان النفس من الملذّات الحلال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

التعاليم:

١ - الافتراء على الله تعالى يستتبع عقوبة؛ لذا ينبغي أن لا نغترّ بالمهلة التي منحنا الله تعالى إياها في هذه الدنيا، ونغفل عن محكمة يوم القيامة، ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ...﴾.

٢ - تحريم النعم التي أحلّها الله تعالى، فيها حرمان دنيوي وخزي وعذاب في يوم القيامة، ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ... يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

٣ - النعم هي فضل ومنة من الله تعالى، وليس استحقاقاً لنا؛ لذا فلنشكر الله عليها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ... لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٤ - تحريم ما أحل الله تعالى ينطوي على نوع من الجحود، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١١)

إشارات:

□ قوله: ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فيه إشارة إلى علم الله الواسع بجميع الكائنات، وهو يشمل أعمال الإنسان وكذلك الأشياء الصغيرة والكبيرة في السماء والأرض.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً»^(١).

التعاليم:

١ - كل أعمال النبي الكريم ﷺ مهمة، ذلك لأنه قدوة وأسوة؛ (والتعبير بكلمة شأن، دلالة على أهمية العمل)، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾.

٢ - حتى رسول الله ﷺ عليه شهود يتابعونه، ﴿وَمَا تَكُونُ... إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٣ - الله تبارك وتعالى شاهد على أفكار البشر ﴿شَأْنٍ﴾، وعلى أقوالهم ﴿تَتْلُوا﴾، وعلى أعمالهم على حد سواء، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٤ - تلاوة القرآن الكريم ترقى إلى منزلة الرسالة وجميع أعمال الناس. (تبيين الآية أن الله تعالى شاهد على ثلاثة أمور هي: جميع أمور النبي الكريم ﷺ،

جميع أعمال الناس، وتلاوة القرآن، وتُظهر هذه العبارة أهمية تلاوة القرآن الكريم).

٥ - الكون في حضرة الله تبارك وتعالى، وهو الشاهد على أعمالنا؛ لذا فإن المهلة التي منحنا إياها لا هي عن غفلة ولا عن جهل بأمورنا، ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٦ - الله تعالى والملائكة شهود على أعمال البشر، ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

٧ - إدراك الإنسان بأن الله شاهد على أعماله، باعث له على الخجل والحياء منه سبحانه، ﴿شُهُودًا﴾.

٨ - علم الله تعالى واحد بالنسبة إلى الأمور قريبها وبعيدها، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، ﴿يَنْقَالُ ذَرَوْا فِي الْأَرْضِ... فِي السَّمَاءِ... أَصْفَرُ... أَكْبَرُ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ تشرح هاتان الآيتان حال أولياء الله، الذين يحملون شعار ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا...﴾^(١)، وثمره هذا الخوف هو التقوى، وثمره التقوى أنهم ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾^(٢).

□ عدم الخوف على أولياء الله يشمل الدنيا والآخرة على حد سواء، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

□ روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ سَكَنُوا فَكَانَ سَكُونُهُمْ ذِكْرًا، وَنَظَرُوا فَكَانَ نَظَرُهُمْ عِبْرَةً، وَنَطَقُوا فَكَانَ نَاطِقُهُمْ حِكْمَةً، وَمَشَوْا فَكَانَ مَشْيُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ بَرَكَةً، لَوْلَا الْأَجَالُ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَيْهِمْ لَمْ تَقْرَأْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ

(١) سورة الإنسان: الآية ١٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.

خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ وَشَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ»^(١).

□ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَخْفَى وَلِيَّهُ فِي عِبَادِهِ فَلَا تَسْتَصْفِرَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَلِيَّهُ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - من كان وليّ الله كان الله تعالى وليّه^(٣)، ﴿إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.
 - ٢ - من كان لديه خوف من الله، لن يخاف أحداً غيره، ﴿إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ (لا يخشى الحساب من كانت له يد بيضاء).
 - ٣ - أولياء الله أمامهم مستقبل مشرق لا يشوبه خوف أو حزن، ﴿إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
 - ٤ - الإيمان والتقوى خصلتان متأصلتان في أولياء الله تعالى، ﴿ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.
 - ٥ - الإيمان والتقوى الدائم سببان لرفع الخوف والقلق من الإنسان ويجعلانه، كذلك، من أولياء الله، ﴿إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ... ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.
- ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

إشارات:

□ بشارة أهل الإيمان والتقوى في هذه الدنيا تحصل عن طريق المنام والرؤيا الصادقة والإلهام الإلهي ونزول الطمأنينة والسكينة عليهم، وفشل المؤامرات التي تحاك ضدهم، واستجابة دعواتهم، ولقائهم بالمعصومين أثناء الاحتضار، أما في الآخرة فبشارتهم هي الحظوة بالنعم الإلهية.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(١) تفسير الصافي.

(٣) الآيات ٢٥٧ سورة البقرة: الآية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، و ٦٨ من سورة آل عمران ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ و ١٩ من سورة الجاثية ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أتى رسول الله ﷺ رجل من أهل البادية له جسم وجمال، فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقال: «أما قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشّر بها في دنياه، وأما قوله ﷻ: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فإنها بشارة المؤمن يبشّر بها عند موته أن الله ﷻ قد غفر لك ولمن يحملك إلى قبرك»^(١) وفي رواية عن أبان بن عثمان عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى»، قلت: جعلت فداك وما يرى؟ قال: «يرى رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله ﷺ: أنا رسول الله أبشر، ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول له: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبه تحب أن أنفعك اليوم؟» قال: قلت له: أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال: «إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك»^(٢).

□ آيات أخرى في القرآن الكريم تضمنت بشارات الله تبارك وتعالى لأوليائه في الدنيا، وهي تشير بوضوح إلى أنهم فائزون في هذه الدنيا أيضاً وذلك لأنهم:

١ - مطمئنون، ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

٢ - متوكلون على الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

٣ - يحظون بالمدد الإلهي، ﴿وَحُتُّوْا لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٥).

٤ - منتصرون دائماً، ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾^(٦).

٥ - يمتلكون الوعي والنور، ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^(٧).

٦ - لا تغلق كل الأبواب بوجههم، ﴿يَجْعَلُ لَهُ عَجْرًا﴾^(٨).

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٩.

(٦) سورة التوبة: الآية ٥٢.

(٧) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

(٨) سورة الطلاق: الآية ٢.

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

- ٧ - لا يجدون عملهم هباء، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١).
- ٨ - لا يخشون اللوم، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمَةً﴾^(٢).
- ٩ - لا يخشون الناس، ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾^(٣).
- ١٠ - لا يخشون الطواغيت، ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(٤).
- ١١ - لا يُبتلون بالحيرة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾^(٥).
- ١٢ - محبوبون، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٦).
- ١٣ - يخلدون أعمالهم الفانية بأن يخلعوا عليها صبغة إلهية، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾^(٧).

التعاليم:

- ١ - أولياء الله وحدهم لهم الدنيا والآخرة معاً، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.
- ٢ - وعود الله قطعية وحتمية، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ... لَا بَدِيلَ﴾.
- ٣ - الفوز الأكبر نصيب من امتلك دائماً الإيمان والتقوى، ﴿ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ... الْفَوْزَ الْعَظِيمَ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٥)

إشارات:

□ لقد نسب الكفار إلى النبي الأكرم ﷺ صفات الشاعر والكاهن والساحر والمجنون، بل كانوا يقولون تارة: لا فضل له علينا، فهو بشر مثلنا، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾^(٨)، وتارة أخرى: إن فريقاً أعانه على صياغة هذا الكلام

- (١) سورة الزلزال: الآية ٧. (٢) سورة المائدة: الآية ٥٤. (٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣. (٤) سورة طه: الآية ٧٢. (٥) سورة يونس: الآية ٩. (٦) سورة مريم: الآية ٩٦. (٧) سورة البقرة: الآية ١٣٨. (٨) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(القرآن) ولقنه إياه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّآخُورُونَ﴾^(١)، وأحياناً: نحن أيضاً قادرون على أن نأتي بمثل هذا القرآن ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٢)، وأخرى: إنما كلامه من أساطير الأولين، ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣).

وحول أتباع النبي الكريم ﷺ كان الكفار يقولون: ما هؤلاء الذين اتبعوك إلا حشالة القوم وأراذلهم، ﴿وَمَا نَرُكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُنَاقِضُوا مَا نَمْنَنُ فِيهِ﴾^(٤)؛ إلا أن إرادة الله قضت أن يعزّ النبي والمؤمنين في إزاء كل هذه الإساءات.

□ «العزة» هي المنعة. وهي صفة لله تبارك وتعالى ولنبيه الكريم ﷺ وللمؤمنين، ﴿وَلِلَّهِ الْغَنَاءُ وَالْكَرَمُ وَلِلَّهِ السُّلْطَانُ وَلِلَّهِ الْمُلْكُ وَلِلَّهِ الْغَنَاءُ وَالْكَرَمُ وَلِلَّهِ السُّلْطَانُ وَلِلَّهِ الْمُلْكُ﴾^(٥)، وكذلك للدين والعقيدة، ﴿وَاللَّهُ لَكُنُوزٌ غَيْرٌ﴾^(٦).

التعاليم:

١ - الهدف من دعاية العدو الإساءة إلى الدين الإسلامي والأمة الإسلامية، لكن الله تعالى يعزّي نبيه الكريم ﷺ بالقول إنهم لن ينالوا مرادهم، ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾.

٢ - يجب على المؤمن ألا يقع تحت تأثير الدعاية المسمومة والمغرضة للكفار وأن يشعر بالوهن والضعف، ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾.

٣ - الله تعالى ناصر أوليائه، وقد ضمن نصرته دينه وأنبيائه^(٧) ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْغِزَةَ لِلَّهِ﴾.

٤ - العزة بيد الله تعالى، وهي لا تُخَدَشُ بأقوال هذا وذاك، ﴿إِنَّ الْغِزَةَ لِلَّهِ﴾.

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٣) سورة النحل: الآية ٢٤.

(٤) سورة هود: الآية ٢٧.

(٥) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٦) سورة فصلت: الآية ٤١.

(٧) وفي آية أخرى نقرا ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة المجادلة: الآية ٢١.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

إشارات:

□ ربّما كانت العبارة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ...﴾ بمثابة سؤال، وعبارة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ...﴾ جوابها، فيكون المعنى: أولئك الذين نسوا الله ويتبعون شركاء وهميين، ماذا يتبعون؟ لا شيء سوى الظن! أو قد تكون أداة النفي «ما»، عطفاً على «مَنْ»، بمعنى: حتى الذين يتبعونهم ظناً منهم أنهم شركاء لله، إنّما هم مملوكون لله.

التعاليم:

١ - المالكية المطلقة لله تعالى، دليل على التوحيد والعزة الإلهية التامة، ﴿إِنَّ أَلَمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً... إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٢ - كلّ شيء ملك لله تعالى، فكيف تشركون مع الله المالك مملوكه؟ ﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ - توجد في السموات مخلوقات عاقلة. («مَنْ» تقال للكائن العاقل).

٤ - ليس للمشرّكين منطق أو قاعدة علمية يستندون إليها، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

٥ - يسعى المشركون وراء أوهامهم وظنونهم، لا وراء شركاء الله، فالله تعالى ليس له شركاء. إذن، هؤلاء يكذبون، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى مالكية الله تعالى، وهنا تتحدّث عن تدبيره وحكمته في نظام الكون.

□ يطرح القرآن الكريم موضوع الحصول على السكينة الروحية عبر أوجه مختلفة

مثل: تلاوة القرآن، التهجد، التسبيح، القنوت، وإحياء الليالي بالعبادات^(١)،
أما السكينة البدنية فتتم عبر النوم والراحة، ﴿مَتَامُكُمْ بِأَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - خلق الليل والنهار جاء وفقاً للتدبير الإلهي الحكيم وبهدف استفادة الإنسان وسكنه، ﴿جَعَلَ... لِيَسْكُنُوا﴾.

٢ - لقد جعل الله تعالى الليل للسكينة والراحة، سواء أكانت سكينة روحية أم جسمية، ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ
عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)

إشارات:

□ «اتَّخَذَ الولد»، يعني تبني المرء الولد، وهو غير الولادة الحقيقية، فالمشركون كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات الله، والمسيحيون قالوا: إنّ المسيح هو ابن الله، وكذلك قال اليهود بشأن عزيز.

□ جاء في القرآن الكريم أنّ عزيز مصر قال لزوجته زليخا بشأن النبي يوسف عليه السلام: ﴿نَخِذْهُ وَلَدًا﴾^(٣)، وقالت آسيه لزوجها فرعون بشأن النبي موسى عليه السلام: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخِذْهُ وَلَدًا﴾^(٤).

التعاليم:

١ - هل يشعر الله بالوحدة حتى يتخذ ولداً يؤنس وحدته؟ أم يحتاج إلى وريث

(١) السور: آل عمران: الآية ١١٣؛ الإسراء: الآية ٧٩؛ طه: الآية ١٣٠؛ الزمر: الآية ٩؛ والمزمل: الآية ٢.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٤) سورة القصص: الآية ٩.

لكي يرثه؟ أم تراه ضعيفاً يحتاج إلى من يعينه، أم إنه يحتاج إلى بقاء نوعه فيضطر إلى اتخاذ الولد؟ تعالى الله عن ذلك كله، فهو الغني عن كل شيء، ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

٢ - لا بدّ للمعتقدات الدينية من أن تقترب بالاستدلال، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ﴾.

٣ - لا قيمة للكلام إذا لم يقترب بالأدلة والعلم، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ... مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ «متاع» و«مُتعة»، يقال للمتّع لمدة قصيرة، تنبيهاً أنّ تمتّع الإنسان بنعم الدنيا قصير، من هنا فإنّ القرآن الكريم يعبر عن ذلك بـ«المتاع».

□ سؤال: نحن نقول: إنّ المفترين لا يفلحون، إذن كيف نفسّر تمتّعهم برفاهية ورخاء أكبر في الحياة الدنيا؟

الجواب: هذه الرفاهية مؤقتة ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾، بينما سينالون جزاءهم في الآخرة عندما يرجعون إلى الله تعالى.

التعاليم:

١ - أولئك الذين يستشفعون بمن يعتقدون أنّهم أبناء الله لن يحققوا مرادهم، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا... لَا يُفْلِحُونَ﴾.

٢ - لا قيمة للمتاع المؤقت إذا استتبع عذاباً خالداً، ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا... نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾.

٣ - لذاث الدنيا ومتاعها سريعة وزائلة، ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا﴾.

- ٤ - ذكر المعاد من العوامل الرادعة للانحراف والمعصية، ﴿إِنَّا مَرْجُمُهُمْ﴾.
 ٥ - الكذب والافتراء على الله تعالى عبر مختلف البدع، والتحريفات، والتفسير بالرأي، ونسبة الأبناء إلى الله، كله كفر، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا نَبَأْتُ اللَّهَ فَعَلَى اللَّهِ فَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١)

إشارات:

- تبين الآية ثبات النبي نوح عليه السلام واتكائه على المدد الإلهي وعدم خشيته من التهديدات ومؤامرات العدو.
 □ روي أن الإمام الحسين قد تلا هذه الآية على جند الكوفة في ظهيرة عاشوراء في كربلاء^(١).

التعاليم:

- ١ - إطلاع الناس على الأخبار والملاحم المهمة والمفيدة في التاريخ وبيان الحكمة منها، هي من مسؤوليات القادة الإلهيين، ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ﴾.
 ٢ - الأنبياء من الناس ومعهم؛ ولذلك يظلّ تعاملهم مع الأعداء عاطفياً حتى آخر لحظة، ﴿يَنْقُورُ﴾.
 ٣ - ما لم يكن الفؤاد مهتياً، لن تنفع معه حتى تذكرة الأنبياء، إذ سيكون نصحهم نقيلاً، ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي﴾.
 ٤ - الإيمان بالهدف هو من أعظم أركان الصمود والمقاومة عند الأنبياء، ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي... فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾.

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

- ٥ - كان الأنبياء يدعون مخالفيهم إلى المبارزة، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾.
- ٦ - كان الأنبياء، بعد التوكل على الله، يوتخون القوى المعادية ويعتبرونها قوى خاوية، وفي المقابل، ينفخون روح الشجاعة في المؤمنين^(١)، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ...﴾.
- ٧ - التقييم الصحيح وتجميع القوات واتخاذ القرار الحاسم هي من الأصول الرئيسة في المبارزة، ﴿أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَنَةً﴾.
- ٨ - الأنبياء لا يخشون الشهادة، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْكَ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾.

﴿فَإِنْ قَوْلَيْتُمْ مَّا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

□ نسبة كبيرة من القلق تنشأ بسبب المحافظة على النفس أو المال. الآية السابقة تحدثت عن عدم خشية الأنبياء من مؤامرات الأعداء التي تستهدف حياتهم الشخصية، وهنا تبين الآية عدم اهتمام الأنبياء بما يسبغه عليهم الناس من مال وتكريم.

التعاليم:

- ١ - قبول الناس أو رفضهم دعوات الأنبياء لا يترتب عليه أي أثر مادي، ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾.
- ٢ - الداعية الناجح والمؤثر هو الذي لا يطمع في أموال الناس ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾.
- ٣ - لا ينتظر الأنبياء أي جائزة من الناس، لا أموالاً ولا خدمات ولا أي شيء من هذا القبيل، ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾.

(١) تلاوة هذه الآيات في مكة في فترة كانوا يشكّلون فيها أقلية مستضعفة تدلّ على الروح العالية والشجاعة الفائقة التي كان النبي الكريم ﷺ يتحلّى بها.

٤ - لو أعرض جميع الناس عن الدين، فلن يؤثر ذلك على القائد الإلهي، لأنه أسلم لدين الله تعالى، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ... أَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٥ - من يؤمن بالثواب الآخروي، سيتزع من قلبه بسهولة جوائز الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

٦ - مهمة جميع الأنبياء كانت التسليم أمام الحق، ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٧ - من يريد أن يدفع إلى التسليم لله تعالى، يجب عليه أولاً أن يسلم لله، ﴿وَأُيِّرْتُ... مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٨ - صحيح أن الناس اليوم معرضون، لكن التاريخ لا يخلو من عباد مؤمنين ومسلمين لله، فعليك الالتحاق بهم، ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ﴾ (٧٣)

إشارات:

□ أصحاب النبي نوح عليه السلام كانوا ثمانين نفرًا، وكان عدد الكفار كبيرًا، ولكن بفضل المدد الإلهي، أبيد الكفار عن بكرة أبيهم، وورث المؤمنون الأرض من بعدهم^(١).

□ تسلط الآية الضوء على حسن عاقبة المؤمنين وهلاك المخالفين دعوة الأنبياء.

التعاليم:

١ - الإيمان وحده غير كافٍ، بل لا بد من ملازمة القادة الإلهيين واتباعهم لكي نصل إلى شاطئ الأمان. تقول الآية: ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ بدلاً من «آمنوا به».

٢ - ثمرة الإيمان والثبات هي النجاة والحكومة، ﴿فَجَعَلْنَاهُ... وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾.

٣ - في نهاية المطاف، النصر لأهل الإيمان، والعار لأهل الكفر والشرك، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ... وَأَغْرَقْنَا﴾.

٤ - من السنن الإلهية الإمهال ثم نزول العذاب والغضب على العصاة، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾.

٥ - نتيجة الإصرار على الكفر والسير في طريق الضلال، هي الهلاك، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾.

٦ - في البدء، إتمام الحجة، والإنذار، والتذكير، ومن ثم نزول العذاب والغضب، ﴿وَأَغْرَقْنَا... عَقِيبَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

٧ - التاريخ المفيد والبناء هو الذي يمنح أنصار الحق الأمان والاطمئنان، ويسلبهما من أهل الباطل، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

٨ - معرفة التاريخ وأسباب تطوّر الأمم أو اندثارها، ضرورية لتعيين وجهة الحركات، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤)

التعاليم:

١ - إرسال الرسل والأنبياء ترى كانت سنة إلهية، ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾. (لقد أرسل الله تبارك وتعالى أنبياء في الفترة الممتدة بين عصر النبي نوح والنبي موسى ﷺ).

٢ - كلّ الأنبياء جاؤوا بالمعجزات، ﴿لِحَاجَتِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٣ - كلّ الأنبياء كان لهم مناوئون، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

٤ - الإنسان مخير، وليس أدلّ على ذلك من أنّه يرى المعجزة ويسمع بالعذاب الإلهي، ومع ذلك يعصي، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

٥ - الاستكبار والاعتداء، تمهيد لأن يطبع الله تعالى على القلوب، ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

٦ - أولئك الذين لا يؤمنون على الرغم من مشاهدتهم المعجزات، ظالمون، ﴿كَذَّبُوا... الْمَعْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

إشارات:

□ «المَلَأ» هم أشرف الناس، أو جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً، ومن أمثلة المَلَأ: أهل القصور والبلاط الملتقون حول فرعون. لقد قَسَمَ فرعون المجتمع المصري إلى طائفتين: الأقباط وهم السكَّان المترفون، والأسباط، وهم الفقراء المحرومون، فجعل الطائفة الأولى سكَّان القصور، والثانية عبيداً رقيقاً، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَفْهِمُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾^(١).

□ المعصية الكبرى لفرعون هي ادّعاء الألوهية ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢)، وقتل الأطفال الأبرياء، واستحياء النساء لاسترقاقهن، ﴿سَنَقُولُ أَنْهَاءُ فَمٌ وَلَسْتَحْيَ نِسَاءَهُمْ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - مواجهة الطاغوت المسؤولية الأولى للأنبياء، ذلك أن محاربة أصل الفساد أهم من محاربة مسبباته وإفرازاته، ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.
- ٢ - لما كان نسيج المجتمع في ذلك العصر قومياً وقبلياً، كان الأنبياء يذهبون إلى الأقوام لدعوتهم، ولكن عندما كانوا يواجهون نظاماً وتشكيلات كانوا يتوجهون بدعوتهم إلى القواعد والجدور^(٤)، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

(١) سورة القصص: الآية ٤.

(٢) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

(٤) استعمل القرآن الكريم عبارة «إلى قومهم» حول مجموعة من الأنبياء، ولكن بالنسبة إلى النبي موسى ﷺ استعمل عبارة «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ».

- ٣ - قوّة الطواغيت مستمّدة من أنصارهم والمقرّبين منهم، فهم في داخلهم خاؤون، ﴿وَمَلَأْنِيهِ﴾.
- ٤ - كانت للأنبياء آيات ومعاجز، ﴿بَعَثْنَا... يَتَايَنُنَا﴾.
- ٥ - لطالما وقف الفراعنة والطواغيت بوجه الأنبياء، ﴿بَعَثْنَا... فَاسْتَكَبَرُوا﴾.
- ٦ - أولئك الذين جُبلوا على المعصية، لا يستجيبون لدعوات الأنبياء بسهولة، ﴿وَكَاثُوا قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى﴾ (٧٦)

التعاليم:

- ١ - لا يفتش الناس عن الحقّ، بل على أصحاب الحقّ أن يفتشوا عن الناس، ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾.
- ٢ - الحقّ هو الذات الإلهيّة المقدّسة، وكلّ الأنبياء، والشرائع الإلهيّة، والمعاجز، وكلّ ما نُسب إلى الله تعالى، ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾.
- ٣ - الأنبياء لهم ارتباط مباشر بالله تعالى؛ إذ يفيض سبحانه عليهم بالمعاجز والسرائع، ﴿عِنْدِنَا﴾.
- ٤ - لا بدّ للداعية والقائد من أن يعلموا بأنّه توجد في المجتمع، دائماً، فئة مخالفة لدعوتهم الإصلاحية، ﴿قَالُوا﴾.
- ٥ - رمي الأنبياء بتهمة السحر في تلك العصور كان من أمضى الأسلحة، وأسهلها، وأكثرها شيوعاً، ﴿لِسِحْرٍ﴾.
- ٦ - روح التمرد والطغيان عند الإنسان هو منبع الافتراءات والتهم، ﴿وَكَاثُوا... تُجْرِمُونَ... إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ...﴾.
- ٧ - معارضو الأنبياء كانوا الأكثر إصراراً واعتراضاً^(١)، ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى﴾.

(١) الجملة الاسمية والحرف إنّ وحرف اللام كلّها تفيد التوكيد.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧)

إشارات:

□ إن السحرة، في العادة، هم أناس أشرار، يسعون وراء الشهرة والمال، من هنا نجد وصم الأنبياء من قبل أعدائهم بهذه الصفة من أجل الإساءة إليهم وتشويه صورتهم أمام أقوامهم. والجدير بالإشارة هو أن الفقه قد حرّم السحر، إذ يقول الإمام الخميني (رحمه الله) في فتواه بتحريم السحر، وتعليمه، وتعلّمه، والمال الذي يأتي عن طريقه، وكذلك حرّم في فتواه أعمال الشعوذة التي يقوم بها الإنسان من خلال إجراء بعض الحركات الخارقة في عيون الناس والتي تعتمد على المهارة وخفة اليد^(١).

التعاليم:

- ١ - لقد أخبر النبي موسى ﷺ عن انتصاره وهزيمة المفترين، ﴿قَالَ مُوسَى...﴾.
- ٢ - كان الأعداء يصفون الحقّ بالسحر والأنبياء بالسحرة، ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ... أَسِحَرُ هَذَا﴾.
- ٣ - لا يفلح الساحر بسبب استغفاله الناس وممارسته أساليب غير مشروعة بهدف كسب الشهرة، ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ

فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

إشارات:

□ احترام الأجداد والإحسان بالوالدين شيء، والتبعية والتقليد الأعمى لهم شيء آخر. لا ينبغي القبول بعادات الأسلاف ومعتقداتهم دونما برهان أو استدلال، والإصرار عليها من باب التعصّب.

التعاليم:

- ١ - لطالما كان للثورات الثقافية والتحوّلات الفكرية آثار وانعكاسات على المجتمع، ﴿لَتَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا﴾.
- ٢ - عمل الأسلاف يترك تأثيره على الأجيال اللاحقة، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
- ٣ - حكم الفراعنة كان يقوم على المعتقدات الخرافية للأسلاف، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
- ٤ - احترام تراث الأسلاف والمحافظة عليه يشكّل، أحياناً، أداة لرفض دعوة الأنبياء وعقبة في طريق حركتهم، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
- ٥ - تقليد الأسلاف تقليداً أعمى لا يستند إلى دليل أو منطق، إنّما هو تقليد باطل، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
- ٦ - لا يجوز التشبّث بأيّ عمل باطل بذريعة المحافظة على التراث الفكري والدفاع عن الأسلاف، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
- ٧ - الطواغيت طلاب مناصب، من هذا الباب يصمون الجهود الإصلاحية للمصلحين أيضاً بهذا الوصف، ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ﴾.
- ٨ - لا بدّ للمصلحين من أن يكونوا مستعدين لسماع افتراءات الظالمين وأتاهماتهم، ﴿قَالُوا... وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْتَوِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ﴾ (٧٦)

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْقَلُونَ ﴿٨٠﴾

إشارات:

□ لقد سعى فرعون إلى التصديّ لدعوة النبي موسى ﷺ عبر الاستعانة بالسحرة الماهرين.

□ كان للسحرة وسائل وأدوات من قبيل الحبال والعصي.. إلخ، وكانوا يغمسونها في مواد كيميائية خاصّة فتبدو وكأنّها تتحرّك أو تتراقص حينما يعرضونها لأشعة الشمس.

التعاليم:

- ١ - يحاول الطواغيت من خلال الدعاية والجلبة أن يقفوا بوجه حركة الأنبياء، ﴿أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾.
- ٢ - يستخر الطواغيت كل إمكاناتهم وقدراتهم من أجل قمع المناوئين، ﴿أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.
- ٣ - يلجأ الطواغيت أحياناً إلى شراء ذمم المفكرين والعلماء وتسخيرهم من أجل تحقيق مآربهم، ﴿جَاءَ السَّحَرَةُ﴾.
- ٤ - من خصال الأنبياء التصدي والكفاح، ﴿الْقَوَا﴾.
- ٥ - كلام الأنبياء حازم وقاطع لأنهم مؤمنون بهدفهم وواثقون من نزول المدد الإلهي، ﴿الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا الْقَوَا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

التعاليم:

- ١ - إنَّ للباطل جولة، وإنَّ للحق دولة، ﴿سَيُبْطِلُهُ﴾.
- ٢ - الله تعالى يصلح عمل المؤمنين، ﴿وَأَصْلَحَ بِكَلَمِ اللَّهِ﴾^(١)، ولا يصلح عمل المفسدين، ﴿لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ٣ - الساحر مفسد والسحر فساد، إذن، يجب التصدي له، ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

إشارات:

□ درج القرآن الكريم على إطلاق لفظة «كلمة» على الشرائع والسنن وكل ما يتسبب في تحقق الإرادة الإلهية.

التعاليم:

- ١ - نصرة الحق وإحقاقه، هي من الوعود والسنن الإلهية، ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ﴾.
- ٢ - إحقاق الحق يتطلب وسائل وأدوات، ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾.
- ٣ - لا تأثير لإرادة المستكبرين والمجرمين في الحيلولة دون تحقق نصرة الحق، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

إشارات:

□ نقرأ في آيات القرآن الكريم، عبارة «آمن به»، وأحياناً «آمن معه» أو «آمن له»، والحقيقة أن لكل منها خصوصية معينة، ف«آمن به» تعني الإيمان، و«آمن له» تعني التسليم.

التعاليم:

- ١ - يجب أن يقترن الإيمان بالتسليم والطاعة، ﴿ءَامَنَ لِمُوسَىٰ﴾.
- ٢ - الاستعداد للتحوّل الفكري والجنوح نحو الحق، أكبر عند الشباب، لأنّ لهم قلباً طاهرة، وتعلّقهم بالمال والجاه أقل، ﴿ءَامَنَ... ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾.
- ٣ - لم يكن النبي الكريم ﷺ وحده الذي عانى الصعاب في سبيل دعوته، وعدم إيمان قومه بدعوته، ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ﴾.

- ٤ - أحياناً يضلّ الكبار، ويهتدي الشباب إلى الحق، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمٍ﴾.
- ٥ - يبدو أنّ الشباب المؤمن كان يخاف من فرعون وكذلك من الملأ من قومه الذين كانوا خاضعين ومتحفظين وجبناء، الآية تقول: ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ لا «ملكه».
- ٦ - النظام الفرعوني لا يستطيع أن يحول دون الإيمان الباطني، ﴿ءَاَمَنَ... عَلَى خَوْفٍ﴾.
- ٧ - الإيمان الراسخ لا يهتزّ أبداً في البيئة الملوثة، والمرعبة، والنظام الفاسد، والاقتصاد العفن، والدعاية المسمومة، ﴿ءَاَمَنَ... عَلَى خَوْفٍ﴾.
- ٨ - يزخر النظام الفرعوني بالاستبداد والتعسف، ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾.
- ٩ - نظام التعذيب والاستبداد هو نظام فرعوني، ﴿يَفْنِيهِمْ﴾.
- ١٠ - جذور الفساد عند الإنسان تكمن في نظرتة الاستعلائية، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ١١ - النظام المسرف هو نظام فرعوني، ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَاَمَنُتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - ينبغي على القائد أن يشحن الأمة بالروح المعنوية العالية، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ﴾.
- ٢ - لا ينقسم الإيمان عن التوكل، ﴿إِن كُنتُمْ ءَاَمَنُتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾.
- ٣ - التسليم لرضا الله وقضائه، أسمى مرتبة من الإيمان^(١)، ﴿إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ جاءت بعد ﴿إِن كُنتُمْ ءَاَمَنُتُمْ﴾؛ فتأمل.
- ٤ - يجب التغلب على المشاكل والصعاب بالتوكل على الله تعالى والتسليم له، ﴿تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾.

(١) ربّما يكون المراد بالإيمان هو الإيمان بالله تعالى، والمراد من التسليم طاعة موسى.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْرِ الْظَّالِمِينَ﴾^(٨٥)
 وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْرِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

إشارات:

- ربما يكون المقصود بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾، زعماء بني إسرائيل الذين أطاعوا فرعون من أجل الحفاظ على مصالحهم وترفعهم، أما ﴿الْكَافِرِينَ﴾ فهم أتباع فرعون. إذن، فإن طلب الذرية المؤمنة تعني اتقاء شر أعداء الداخل والخارج.
- من يتوكل على الله، فإن الله يحبه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١)، وهو يكفيه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - التوكل أولاً ثم الدعاء، ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾.
- ٢ - بالإيمان والتوكل على الله والدعاء نتقي شر الظالمين، ﴿تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ و﴿وَنَجِّنَا﴾.
- ٣ - آل فرعون مسرفون، وظالمون، وكافرون^(٣). الإسراف مدعاة للظلم، والظلم مدعاة للكفر، «المُسْرِفِينَ، فَالظَّالِمِينَ، فَالْكَافِرِينَ».
- ٤ - يجب أولاً الدعاء لكي يحفظ الله لنا هويتنا الدينية، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ ثم الدعاء للصحة والسلامة الشخصية، ﴿وَنَجِّنَا﴾، لأنه لو تمكن الأعداء من الغلبة علينا، فإن نهج الظلم والكفر سوف يسود، وسيذل المؤمنون ويبتلون.

(٣) في ضوء الآية ٨٣.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ «القبلة»، تعني في الأصل حالة التقابل، مضافاً إلى معناها المعروف وهو جهة الكعبة المشرفة، أي، بناء البيوت لجهة القبلة. وربما كان معنى الآية هو: ما دام حكم فرعون قائماً، وأنه مصمّم على إبادتكم، فعليكم أن تقيموا طقوس العبادة في بيوتكم. ونظير ذلك كان في السنوات الثلاث الأولى من بعثة النبي الأكرم ﷺ.

□ البشارة الأعظم للمؤمنين الرازحين تحت حكم فرعون هي استجابة دعائهم، وخلاصهم من ظلم فرعون وفتنته.

التعاليم:

- ١ - المسكن هو أحد النعم الإلهية، ﴿وَأَوْحَيْنَا... أَنْ تَبَوَّءَا﴾.
- ٢ - من الضروري للزعماء الدينيين أن يهتموا بالقضايا المادية والرفاهية لأمتهم، ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾.
- ٣ - يجب فصل الأحياء السكنية للمؤمنين عن أحياء الكفار، ليكون ذلك تمهيداً لعزة المؤمنين، وقدرتهم، واستقلالهم، ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا﴾.
- ٤ - تاريخ بناء المدن حتى عصر النبي موسى ﷺ أمر قطعي، ﴿تَبَوَّءَا... يُثُوتًا﴾.
- ٥ - يجب أن تنسجم العمارة الإسلامية مع الأهداف الدينية، وأن تأخذ بالحسبان جهة القبلة، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.
- ٦ - بناء البيت ينبغي أن يأخذ شكلاً يتيح معه إقامة الطقوس الدينية والصلاة بصورة عملية، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.
- ٧ - بيت الإنسان المتدين يجب أن يكون مصلى، ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

٨ - البيوت المتقابلة مناسبة أكثر من حيث التمرکز والمحافظة والإشراف والأنس،
﴿وَجْعَلُوا يُؤْتِكُمْ قِتْلَةً﴾.

٩ - فلنمنع الغرباء من النفوذ في محلّتنا ومجتمعنا، ﴿وَجْعَلُوا يُؤْتِكُمْ قِتْلَةً﴾.

١٠ - الصلاة على رأس الأولويات في شرائع جميع الأنبياء، فقد كانت حبل النجاة، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

إشارات:

□ قطع جريان النفط، وإغلاق الطرق التجارية والعسكرية، وإحراق مخازن العتاد للعدو، من أمثلة ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾.

التعاليم:

١ - لكلمة ﴿رَبَّنَا﴾ دور مهم وكبير في الدعاء. لقد تكرّرت ﴿رَبَّنَا﴾ ثلاث مرات في الآية.

٢ - كلّ ما يملكه البشر، أيّاً كانوا، فهو من الله تعالى، ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾.

٣ - المال والثروة ليسا دليلاً على المحبة والقرب عند الله، ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً...﴾.

٤ - الكفر عائق دون السعادة، ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ... زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٥ - المظاهر المادّية للمستكبرين لن تدوم سوى أياماً معدودة في هذه الدنيا، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٦ - الطواغيت مضلون لأنفسهم ولغيرهم على حدّ سواء، ﴿لِيُضِلُّوا﴾.

٧ - دعاء الأنبياء على الآخرين ليس من باب الأحقاد الشخصية، بل من أجل صون الدين والأمة، ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾.

- ٨ - وجود الثروة والمال عند غير الصالحين يسبب الانحراف والغفلة، والفقر أيضاً يفتح باب الكفر، ﴿وَأَمْوَالًا... لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾.
- ٩ - إذا دعونا، فلا ننس الدعاء السياسي على الأعداء، ﴿رَبَّنَا أَطِمْسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدِّدْ...﴾.
- ١٠ - عندما لا يفعل الاستدلال والمعجزة الأثر المطلوب، يأتي دور الدعاء على العدو ولعنه، ﴿رَبَّنَا أَطِمْسْ...﴾.
- ١١ - لن يؤمن العتاة وقساة القلوب بالحق ما لم يسלט عليهم القهر والغضب الإلهي، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

إشارات:

- ذكرت الآية السابقة مسألة دعاء موسى وهارون عليهما السلام على آل فرعون، وقد استجيب دعوتهما في هذه الآية. جاء في الروايات عن النبي ﷺ قوله: «دعا موسى وأمن هارون عليهما السلام وأمنت الملائكة فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾، ومن غزا في سبيل الله استجبت له كما استجبت لكما يوم القيامة، والدليل على ذلك كلمة ﴿رَبَّنَا﴾^(١).
- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «بين قول الله ﻋَﻠَﻴْهِ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ وبين أخذ فرعون، أربعون عاماً»^(٢).

التعاليم:

- ١ - دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾.
- ٢ - استجابة دعاء موسى دليل على صحة طلبه المتمثل بهلاك آل فرعون، ﴿أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾.

- ٣ - حتى بعد استجابة الدعاء يلزم الصبر والاستقامة، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾.
- ٤ - على القادة الإلهيين أن يواجهوا الأفكار الجاهلية بصلابة وحزم، لأن التهاون في هذه الحالة دليل جهل، ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- ٥ - اتباع أهل العلم أمر جائز، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَنُوزَنَا بِسَبِيلِ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ
الْفَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١)

إشارات:

- المراد بـ «البحر» هنا نهر النيل وقد سمي بالبحر لعظمته. والعبور من هذا النهر كان بإرادة الله تعالى عندما أمر موسى ﷺ بأن يضرب بعصاه النهر فانفلق وانشق وظهرت اليابسة فعبّر موسى ومن معه إلى الضفة الأخرى.
- لا قيمة للتوبة والإيمان عندما تحضر الإنسان الوفاة، إذ يقول ﷺ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ﴾ (١)، إذن، توبة المجرمين عند الاحتضار وندمهم غير مقبول.

التعاليم:

- ١ - ونحن نحارب الطواغيت فلنتوكل على الله فهو سبحانه لا يتركنا وحدنا، ﴿وَجَنُوزَنَا...﴾.
- ٢ - كل الأمور في نظام الكون تجري بإرادة الله تعالى، ﴿وَجَنُوزَنَا... أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ﴾.
- ٣ - في نهاية المطاف، سوف يُستجاب دعاء الأنبياء، ﴿أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ﴾.
- ٤ - لقد أراد فرعون أن يقضي على موسى (٢)، فقُضي عليه، ﴿أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ﴾؛

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

(٢) ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهِزَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ سورة الإسراء: الآية ١٠٣.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُشِيرَ نُورُهُ﴾.

٥ - سوف يأتي يوم على المستكبرين يصبحون لا حول لهم فيه ولا قوة، ﴿قَالَ ءَامَنْتُ﴾

٦ - المستكبرون، كفرعون، في لحظة الموت يؤمنون، ولكن، سبق السيف العذل، ﴿ءَامَنْتُ﴾.

٧ - الصدمات ومصائب التاريخ تزيح حجب الغفلة، ﴿قَالَ ءَامَنْتُ﴾.

٨ - القوى غير الإلهية، بيوت عنكبوت ليس إلا، سوف تستسلم يوماً ما، ﴿قَالَ... وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا وَقد عَصَيْنَا قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْكَمْ نُنَجِّكَ بِيدِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ عن: إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام لأي علة أغرق الله ﷻ فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده قال «.... وقد كان فرعون من قريته إلى قديمه في الحديد وقد لبسه على بدنه فلما أغرق ألقاه الله على نجوة من الأرض بيده لتكون لمن بعده علامة فيروثه مع ثقليه بالحديد على مرتفع من الأرض وسيل الثقل أن يرُسب ولا يرتفع وكان ذلك آية وعلامة»^(١).

التعاليم:

١ - القرآن الكريم يخبر عن الغيب وحوادث المستقبل. (بعد عشرات القرون لا تزال مومياة الفرعون تعرض في متاحف القاهرة)، ﴿نُنَجِّكَ بِيدِكَ﴾.

٢ - لا بد من استلهام الدروس والعبر من هلاك الطواغيت وسقوطهم، ﴿ءَايَةُ﴾.

٣ - علينا أن نحافظ على الآثار ودلائل القدرة الإلهية والمدد الغيبي، ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةُ﴾.

٤ - أكثر الناس لا يتعظون بدروس التاريخ وحوادثه، ﴿كثيراً من الناس...
لَنَفِلُوا﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦)

إشارات:

□ في الأدب القرآني، وردت كلمة «صدق» أحياناً بعد بعض الكلمات لتعطي معنى الجيد والجدير والمناسب مثل ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾^(١)، ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾^(٢)، ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾^(٣)، ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾^(٤)، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾^(٥) و﴿مَبُوءاً صِدْقٍ﴾؛ بمعنى أنّ الصدق المطابق للواقع يشكل قيمة لكل شيء يضاف إليه. يقصد هنا بالمبوء، المنزل الصالح لسكنى بني إسرائيل من حيث المناخ المعتدل ووفور النعم، أعني، بلاد الشام وفلسطين. و«مبوءاً صدق» يعني المنزل الصالح حقاً كما يجب أن يكون. فالمنطقة التي نزل فيها بنو إسرائيل كانت تتوافر فيها كلّ الشروط المناسبة للحياة، وأرضهم كانت في أعلى درجات الخصوبة والنماء وهو ما تبينه الآية ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

التعاليم:

- ١ - توافر السكن المناسب، هو أحد النعم الإلهية، وموضع رضا الأديان السماوية، ﴿مَبُوءاً صِدْقٍ﴾.
- ٢ - نهضات الأنبياء تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الروحية إلى جانب الأبعاد المادية لحياة الناس ومعيشتهم، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَاهُمْ﴾.
- ٣ - عادة ما تشهد المجتمعات التي تحدث فيها ثورات وتحولات موجة من الغلاء والقحط، فيختلّ التوازن الاقتصادي لتلك المجتمعات، بيد أنّ الله سبحانه

(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٦.

(٥) سورة القمر: الآية ٥٥.

(١) سورة يونس: الآية ٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٠.

(٣) سورة مريم: الآية ٥٠.

وتعالى نَجَّى بني إسرائيل من هذه الأزمات بعد القضاء على حكم آل فرعون،
﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾.

٤ - التفرقة تذهب بجميع النعم الإلهية، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَاهُمْ... اٰخْتَلَفُوا﴾.

٥ - أسباب الخلافات ليست دائماً مادية، أحياناً تكون نابعة من الأهواء والنزوات، ﴿بَوَّأْنَا... وَرَزَقْنَاهُمْ... اٰخْتَلَفُوا﴾.

٦ - العلم وحده لا ينجي، ﴿اٰخْتَلَفُوا... جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

٧ - معظم انتقادات القرآن الكريم تنصب على الاختلافات التي تحدث بعد العلم والوعي، ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾ (٩٤)

إشارات:

□ نُقِلَ عن الإمام علي الهادي عليه السلام أنه قال: «أما قوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فَإِنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ولم يكن في شكٍّ مما أنزل الله ﷻ، ولكن قالت الجهلة: كيف لا يبعث إلينا نبياً من الملائكة إنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء عن المأكَل، والمشرب، والمشى في الأسواق، فأوحى الله ﷻ إلى نبيه ﷺ: ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بم حضر من الجهلة هل بعث الله رسولاً قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولك بهم أسوة» (١).

□ يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: فإن قيل: إذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير، فكيف يمكن التعويل عليها. قلنا: إنهم إنما حَرَفُوا بسبب إخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فإن بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة

محمد عليه الصلاة والسلام، لأنها لما بقيت مع توقّر دواعيهم على إزالتها دلّ ذلك على أنها كانت في غاية الظهور^(١).

القرآن بين السؤال والجواب

□ سؤال: كيف تنسب الآية الكريمة الشكّ إلى النبي الكريم ﷺ ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ... فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ﴾؟ هذا في الوقت الذي لم يخطر ببال النبي الكريم ﷺ شكّ؟ بل إنّ العقل لا يقبل أن يعتريه شكّ في الوحي؟

الجواب:

١ - كلمة «إنّ» افتراضية، ولا تدلّ على الوقوع الحتمي، على سبيل المثال مثل ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾^(٢)، والحال أنّ هذا محال على الله تبارك وتعالى، والآية الكريمة ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تنفي هذا نفياً قاطعاً.

٢ - الآية ١٠٤ من هذه السورة تنقل خطاب النبي الكريم ﷺ إلى قومه ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾، إذن، لم يكن الشك يتعلّق بالرسول الكريم ﷺ، وإلا لما تحدّاهم. كما إنّ القرآن الكريم يقول: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾^(٣).

٣ - أحياناً يكون ظاهر الخطاب القرآني موجّهاً إلى النبي الكريم ﷺ لكنّه، في الحقيقة، يعني به الآخرين، كما في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا...﴾^(٤)، هذا في الوقت الذي نعلم أنّ الرسول الأعظم ﷺ يتيم الأبوين منذ الصغر، وحين نزول هذه الآية لم يكن له والدان أصلاً لكي يتحدّث القرآن الكريم عن شيخوختهما. إذن، فالآية هي من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، كذلك الحال في القضايا الإصلاحية والتربوية، فإنّ الخطاب أحياناً يكون موجّهاً إلى كبار الشخصيات، لكنّ المعني به هم الآخرون.

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٩١.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

التعاليم:

- ١ - من الضرورة بمكان إزالة الشك والريبة من المعتقدات، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ﴾.
- ٢ - حين يعرض الشك، يجب مراجعة العلماء من أجل رفعه، ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾؛ إذن، فكلام العالم حجة.
- ٣ - الكتب السماوية يصدق بعضها بعضاً، ﴿يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾.
- ٤ - من أهل الكتاب من ينطق بالحق، ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾.
- ٥ - لا بدّ للقائد من أن يتّصف بالحزم وألا يسمح لأيّ شك وريبة أن تعتريه، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾.
- ٦ - الفضل ما شهدت به الأعداء، فهل مع اعتراف الأعداء بالحق لديكم أيّ شك؟! ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥)

إشارات:

□ نهت الآية السابقة عن الشك والريبة في القرآن، أما النهي في هذه الآية فهو عن التكذيب بالآيات. ومعلوم أنّه إذا لم يُرفع الشك، فمآل ذلك هو التكذيب لا محالة.

□ النقاش والأسئلة المطروحة بشأن الآية السابقة تصدق بشأن هذه الآية أيضاً، ذلك أنّ التكذيب، بطبيعة الحال، أسوأ من الشك. توجد آيات وأحاديث عدّة تتحدّث عن يقين النبي الكريم ﷺ. إذن، فالناس هم المعنيون، في حقيقة الأمر، بالنهي، وليس النبي، إذ كيف يمكن لمن انتهل البشر من يقينه حتى وصلوا إلى مرتبة اليقين، أن ينفذ الشك والريبة في نفسه؟!

□ على الرغم من عصمة النبي الأكرم ﷺ، إلّا أنّ خطاب العديد من الآيات يتّسم بالتحذير والتنبيه، ليصل هذا التحذير إلى الناس عن طريق النبي، فيتّعظوا

ويعوا الدرس، ومن تلك الآيات ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) ﴿وَلَا تَكُونُوا ظُهْرًا لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢)، و﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مِلَّةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - الله تعالى يوجه التحذير والنذر إلى نبيه أيضاً، ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾.
- ٢ - التفريط بكنز الإيمان وبالتبعية للأنبياء خسران كبير، ﴿الْخَسِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٦)
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(١٧)﴾

إشارات:

□ إذا ما تأملنا العبارة ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ﴾ في الآية ٩٧ والعبارة ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ في الآية التالية (٩٨) فستبين أن المقصود بـ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو العذاب الإلهي.

التعاليم:

- ١ - العذاب الإلهي هو استحقاق الكافرين^(٤)، ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - حرمان الكفار من الإيمان بسبب تكذيبهم ولجاجهم هو من مقتضيات الربوبية ومن السنن الإلهية، ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
- ٣ - لا نتوقع أن يؤمن جميع الناس، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾.
- ٤ - حين يرى الطغاة العذاب الإلهي بآم أعينهم، يؤمنون، ولكن بعد فوات الأوان، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ... حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ﴾.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٦.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٧.

(٤) وفي آية أخرى نقرا ﴿يُتَذَكَّرُ مَنْ كَانَ حَيًّا رَحِمَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة يس: الآية ٧٠).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسْ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

إشارات:

□ يستوقفنا هنا أن هذه السورة المباركة سردت قصة النبي نوح والنبي موسى عليهما السلام بالتفصيل، في حين أنها وعبر نصف آية مرّت مرور الكرام على قصة توبة قوم النبي يونس عليه السلام، هذا في الوقت الذي تحمل السورة اسم النبي يونس عليه السلام، ولعلّ تفسير ذلك هو الحساسية والأهمية الشديدة التي تنطوي عليها توبة قوم النبي يونس عليه السلام الذين بادروا في آخر لحظة إلى التوبة والإنابة، وقد قبل الله تعالى توبتهم.

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتره الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمدارة لهم، عاجزاً عما حُمِلَ من ثقل حمل أوقار النبوة وأعلامها، وأنه تفسّخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله، وأنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان أحدهما حكيم والآخر عابد، فلما رأى يونس أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر فشكا ذلك إلى ربه، وكان في ما شكّا أن قال: يا رب إنك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة، فلبث فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك، والتصديق برسالتي، وأخوّفهم عذابك ونقمّتك ثلاثاً وثلاثين سنة فكذبوني، ولم يؤمنوا بي، وجحدوا نبوتي، واستخفوا برسالتي، وقد تواعدوني وخفت أن يقتلوني؛ فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون، فلما رأى الرجل الحكيم ذلك ذهب إلى قوم يونس فصرخ بأعلى صوته في رأس الجبل: أن يا قوم قد أنكرتم عذاب الله وقد أوحى الله إلى نبيّه أن العذاب ينزل عليكم في شوال وسط الشهر، وأن الله لن يخلف وعده رسله، فانظروا ماذا أنتم صانعون؟ فأفزعهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول

العذاب فأجفلوا نحو الرجل الحكيم وقالوا له: ماذا أنت مشيرٌ به علينا؟ فقال لهم: فإنّي أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر أن تعزلوا الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية، وتقفوا النساء في سفح الجبل ويكون هذا كلّ قبل طلوع الشمس، فعبّجوا عجيج الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء والتضرّع إلى الله والتوبة إليه والاستغفار له، فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم، ولما أن زالت الشمس، وفتحت أبواب السماء، وسكن غضب الرب تعالى رحمهم الرحمن فاستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وأقالهم عثرتهم. عندما عاد النبي يونس عليه السلام إلى قومه لا يشكّ أنّ العذاب قد نزل بهم جميعاً فأقبل ناحية القرية ينظر خبرهم، فوجدهم مطمئنين لم يمسه سوء، فسأل عن الخبر فشرحوا له القصة^(١).

التعاليم:

- ١ - بإمكان الإنسان أن يصون نفسه حتى لو كان على حافة الهاوية، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.
- ٢ - الإيمان والتوبة في الوقت المناسب، كفيلاً برفع العذاب الإلهي، ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا﴾.
- (من بين جميع الأقوام التي كذبت رسلها، وحدهم قوم يونس الذين حظوا بتوفيق التوبة في الوقت المناسب وآمنوا قبل فوات الأوان).
- ٣ - مصير الإنسان بيده هو، ﴿ءَامَنُوا كَشَفْنَا﴾.
- ٤ - سرّ سعادة الإنسان في الدنيا هو الإيمان، ﴿ءَامَنُوا... وَمَتَّقْنَا﴾.
- ٥ - الدعاء والتضرّع إلى الله، يرفع البلاء ويستجلب السعادة معاً. (في ضوء سبب نزول الآية)، ﴿كَشَفْنَا... وَمَتَّقْنَا﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

□ الله تعالى قادر وحكيم، يستخدم قدرته بما لا يتعارض مع حكمته، ولما اقتضت حكمته أن يكون الناس مخيرين، لذلك، فهو لا يستخدم قدرته لإجبارهم على الإيمان أبداً.

كان المشركون يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾^(١)، لذا، فإن إرادته قضت أن نشرك به، ونحن مكرهون على شركه! هذه الآية يمكن أن تقدم جواباً لكلامهم وهو، إذا كانت إرادة الله تقضي على الإكراه، فلماذا لا يكون هذا الإكراه باتجاه الإيمان والهداية وليس باتجاه الانحراف والشرك؟

التعاليم:

- ١ - الإيمان يقوم على الاختيار لا الإكراه والإجبار، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ﴾.
- ٢ - كان النبي الكريم ﷺ ومن منطلق الحرص والحنو على المشركين بصرّ على إيمانهم، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - الناس ليسوا مكرهين على الإيمان (طبقاً لقول الآية السابقة)، وليسوا مكرهين على الإيمان بدون الهداية والتوفيق الإلهي^(٢)، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - الكفر رجس ونجس، ﴿الرَّجَسَ﴾.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

(٢) «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين»، بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٩٧.

٣ - اللطف الإلهي وتوفيق الإيمان يشمل أهل العقل والتعقل، ومن لا يتعقل بملء إرادته واختياره، فسيناله غضب إلهي، ﴿وَيَجْعَلُ الْيَقِيْنَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَمَقُولُونَ﴾.

٤ - العقل السليم يفتح طريق الإيمان، وعدم الإيمان دليل على عدم التعقل، ﴿لَا يَمَقُولُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١)

إشارات:

□ جاء في الآية السابقة أن عدم التعقل هو دليل كفر، وهنا تقول الآية إن التفكير والتدبر هو طريق الإيمان.

□ «نُذِر» هو جمع «نَذِير» بمعنى النبي، أو جمع «إنذار»، وهو التحذير والتنبيه.

التعاليم:

١ - التفكير والتدبر في الخلق، أفضل وأبسط وأعمّ طريق للوصول إلى معرفة الله تعالى، ﴿أَنْظُرُوا﴾.

٢ - المطلوب هو المشاهدة القيّمة والمؤثّرة في اتخاذ القرار الحرّ، لا محض المشاهدة وانعكاس الصور الفيزيائية للأشياء في مرآة العقل البشري، ﴿أَنْظُرُوا...﴾.

٣ - الآيات الإلهية والنُذُر إنما تؤثر في الإنسان نقيّ الفطرة غير اللجوج، ﴿وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ...﴾.

٤ - الإنسان مخيّر في اختيار الدين، لذلك تراه، أحياناً، يقف بوجه الأنبياء والكتب السماوية ويتنكّر لآيات الله في الكون ويعرض عن الإيمان، ﴿قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - سنة الله تعالى وشريعته إزاء جميع الناس واحدة، ﴿مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٢ - تاريخ الأسلاف عبرة للآتين، ﴿خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٣ - لا نغتر بالمهلة الإلهية، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾.
- ٤ - عاقبة اللادينية، الضلال، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾.
- ٥ - أحياناً، دفع لجاج الناس الأنبياء إلى اليأس، لدرجة أنهم كانوا يعلنون جهاراً عن يأسهم، ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

□ سؤال: لقد ثبت بالتجربة الملموسة أنه عند بروز الفتنة، يحترق الأخضر واليابس معاً، وقد ورد التحذير من ذلك في الآية ٢٥ من سورة الأنفال ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، فكيف، إذن، نوفق بينها وبين الآية التي نحن بصدها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؟

الجواب هو: إنَّ عذاب الله يشمل المؤمنين أيضاً عندما يكون هؤلاء بين ظهرائي الكفار والمجرمين ويتخذون موقفاً متخاذلاً، لكنهم إذا عملوا طبقاً لمسؤوليتهم الإلهية، أعني، العمل بفريضة النهي عن المنكر، فإنَّ الله ينجيهم عندما يدلهم الخطر.

التعاليم:

- ١ - الله تعالى لا يشمل الأنبياء والمؤمنين بعذابه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا... نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

- ٢ - من السنن الإلهية وكذلك من جملة الحقوق التي للمؤمن على الله أن ينجيه من العذاب والخطر عند وقوعه، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٣ - وعد النجاة والخلاص أفضل ظهير للحركات الإلهية، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٤ - العاقبة للمؤمنين، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

التعاليم:

- ١ - لا تجعلوا شكوك الآخرين تثير فيكم الريبة. الحزم هو شرط القائد، ﴿إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ...﴾.
- ٢ - أي استسلام، أو تنازل، أو مداهنة، أو مرونة مع الكفار ممنوع، يجب علينا أن نؤيس معسكر الكفر، ﴿فَلَا أَعْبُدُ...﴾.
- ٣ - لا يتورع العدو عن استمالة الجميع بما فيهم قادة الإسلام، لذا، علينا أن نعلن صراحة براءتنا وعدم استسلامنا، ﴿فَلَا أَعْبُدُ...﴾.
- ٤ - إنما يستحق العبادة من يملك الموت والحياة، ﴿أَعْبُدُ... الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾.
- ٥ - من المعلوم أن الموت والحياة بيد الله تعالى، لكن الآية هنا تذكر الموت فقط، وذلك لأنه كفى بالموت عبرة وموعظة، ﴿الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾.
- ٦ - اعتقد المشركون أن معبوديهم عقلاء. (الاسم الموصول «الذين» يستعمل في حالة الجمع للعاقل).

﴿وَأَنْ أَتَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦)

إشارات:

□ «حَنِيفًا»، تعني المستقيم الذي لا عوج فيه، لا يميناً ولا يساراً.

التعاليم:

- ١ - التدين يتطلب الإرادة والهمة والحب، ﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾.
- ٢ - الدين الإسلامي شريعة منزّهة عن أي تحريف، ﴿حَيْفًا﴾.
- ٣ - المسلم الحق، هو الذي لا يدنس شرك بعد أن تطهر بالإسلام، ولا يميل إلى الطواغيت، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٤ - العاقل يعمل إما لربح أو لرفع خطر أو دفع ضرر. والأصنام لا نفع من ورائها ولا قدرة لها على دفع ضرر. إذن، الشرك هو نوع من الحماقة، ﴿وَلَا تَدْعُ... مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.
- ٥ - الشرك ظلم، والمشرِك ظالم، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مَنِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

إشارات:

□ نلاحظ أنه في كشف الضرر ورد تعبير ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لكنه لم يرد في حالة ردّ الخير، وفي تفسير ذلك يقول صاحب روح المعاني: ولعل ذكره الإرادة مع الخير والمسّ مع الضرر مع تلازم الأمرين، لأنّ ما يريده سبحانه يصيب، وما يصيب لا يكون إلّا بإرادته تعالى للإيذان بأنّ الخير مقصود لله تعالى بالذات والضرر إنّما يقع جزاء على الأعمال وليس مقصوداً بالذات^(١).

ولنا في القرآن الكريم خير دليل إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢)، بمعنى أنّ تغيير النعم متعلّق بعمل الإنسان نفسه^(٣).

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

(١) تفسير روح المعاني.

(٣) في دعاء كميل تقرأ «اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم».

التعاليم:

- ١ - الخير والشر كلاهما بيد الله تعالى، ﴿وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبَ... وَإِن يُرِدْكَ يَخْرِبْ﴾.
- ٢ - ليس بالضرورة كلّ مكروه شرّ، أحياناً يكون الغرض من الحوادث الأليمة إيقاظ الفطرة أو اختبار الإنسان. تقول الآية الكريمة: ﴿يَضْرِبْ﴾ لا: «بشر».
- ٣ - هدف الله تعالى هو إيصال الخير. من هنا فإنّه بالنسبة إلى الخير يقول: ﴿يُرِدْكَ﴾؛ أي استعمل مفهوم الإرادة، فيما استعمل تعبير ﴿يَمَسَّكَ﴾ في حال الضرر^(١).
- ٤ - ما يصيب الإنسان من خير فهو من فضل الله تعالى، وليس استحقاق الإنسان، ﴿لِفَضْلِهِ﴾.
- ٥ - إرادة الله تقوم على الحكمة، ومشيتته تجد معناها باقترانها بالحكمة، ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

﴿قُلْ يَتَّيْنِهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْنَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

التعاليم:

- ١ - ما ينزل من عند الله (مثل القرآن الكريم وتعاليم الأنبياء) هو حقّ ومن شؤون الربوبية، ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٢ - الهدف من بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية، إصلاح جميع البشر وتربيتهم، ﴿يَتَّيْنِهَا النَّاسُ... مِن رَّبِّكُمْ﴾.
- ٣ - لقد أتمّ الله تعالى الحجة على خلقه، ولا عذر لنا في عدم الإيمان بالحقّ، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾.

- ٤ - هدايتنا لا تنفع الله في شيء، إنما النفع والضرر من الهداية والضلال يعود علينا وحدنا، ﴿لِنَفْسِنَا﴾.
- ٥ - الإنسان مخير، وهو الذي يصنع عاقبته، حتى الأنبياء لا يملكون إكراه الناس على الإيمان، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.
- ٦ - مسؤولية الأنبياء الدعوة والإرشاد، لا الإكراه والإجبار، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ خَيْرَ الْخَيْرِينَ﴾ (١٠٩)

التعاليم:

- ١ - سواء آمن الناس أم كفروا، يجب علينا ألا نترك الوحي والأحكام الإلهية، ﴿وَاتَّبِعْ...﴾.
- ٢ - الأنبياء يتبعون أوامر الوحي، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ﴾.
- ٣ - اتباع الوحي يلزمه الصبر، ﴿وَاتَّبِعْ... وَأَصْبِرْ﴾.
- ٤ - على القائد أن يتحلّى بالصبر والجلد، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾.
- ٥ - العلم شرط العمل، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ﴾، والاستقامة شرط النصر، ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ﴾.
- ٦ - الله تبارك وتعالى هو خير الحاكمين، فلا نغتم للمستقبل، ﴿خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

الفهرس

سورة الأعراف	٢٤٣ - ٥
سورة الأنفال	٣٤٨ - ٢٤٥
سورة التوبة	٥٠٤ - ٣٤٩
سورة يونس	٥٩٩ - ٥٠٥